

العدد (٥٧١) المجلد (٦١) العام [٦٦] شوال / ذو القعدة ١٤٢١ هـ - يناير / فبراير ٢٠٠١ م

الإصدار السنوي الخاص

التراث المعماري في الحضارة الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

المنهل
مجلة شهرية للآداب والعلوم والثقافة

تصدر في المملكة العربية السعودية - جدة
عن دارة المنهل للصحافة والنشر المحدودة

أولى أمهات الصحافة السعودية أسسها المغفور له
عبدالقدوس القاسم الأنصاري عام ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٧م

الاصدار السنوي الخاص

المركز الرئيسي:
جدة الشرفية ص.ب ٢٩٢٥ رمز ٢١٤٦١
بريدي ٢١٤٦١ برقيا: المنهل
فاكس: ٦٤٢٨٨٥٣ ت: ٦٤٢٧٨٣١ - ٦٤٣٩٧٦٥ - ٦٤٣٢١٢٤ - ٦٤٢٥٦٨٧
الرياض: ص.ب ٢٩٠ ت: ٤٥٤٢٤٣٢

سعر النسخة:
السعودية ١٠ ريالات - قطر ٨ ريال - المغرب ٩ دراهم - مصر جنيهان
تونس ٨٠٠ مليم - الكويت ٦٠٠ فلس - عمان ٦٠٠ بيسه - الامارات ٨ دراهم
البحرين ٧٠٠ فلس - موريتانيا ١٠٠ أوقيه - الأردن ٥٠٠ فلس.

الاشتراكات:
جدة ت: ٦٤٣٢١٢٤
قيمة الاشتراك السنوي
للمؤسسات الحكومية ٢٥٠ ريال.
قيمة الاشتراك للأفراد ١٥٠ ريال

اشارة

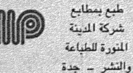
● تحتفظ هيئة التحرير بالحق في تحديد أولويات النشر ويخضع ترتيب مواد المجلة لاعتبارات فنية لا علاقة لها بالموضوع أو مكانة الكاتب ويشترط في الاسهامات عناصر الجدة، العمق والرصانة العلمية، للمجلة الحق في عدم نشر المواضيع التي تراها غير مناسبة للنشر دون الالتزام بإعادة الموضوع لمصدره، كما يرجى الاشارة لمصادر المادة بصورة واضحة.

عزيزي القارىء / عزيزتي القارئة

هذه المجلة تحمل في العديد من صفحاتها آيات قرآنية كريمة وأسماء الله الحسنى فضلا عن أحاديث نبوية شريفة الرجاء المحافظة عليها.



غلاف العدد



طبع بمطابع شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر - جدة
تليفون: ٦٣٩٦٠٦٠
فاكس: ٦٣٩٤٠٩٥

فهرس العدد ٥٧١ ـ المجلد : ٦١ ـ العام : ٦٦

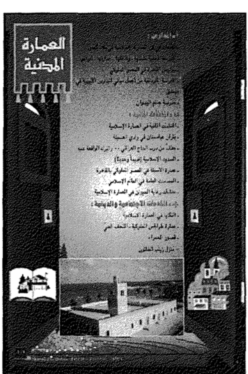
العمارة الحربية :

العمارة المدنية :

أ/ المدارس :

وكلاء التوزيع

الشركة السعودية للتوزيع/ جدة ٨٠٠٢٤٤٠٠٧٦ – وكالة الأهرام للتوزيع/ القاهرة ٥٧٤٧٠٤٤ –
الشركة التونسية للصحافة/ تونس ٣٣٢٤٩٩ – الشريفية للتوزيع/ الدار البيضاء ٤٠٠٢٢٣ –
شركة الامارات للطباعة والنشر والتوزيع/ أبوظبي ٤٥٦٥٠٠ – دار الثقافة للطباعة/ الدوحة



ب/ المنشآت المائية:

ج/ الخدمات الاجتماعية والدينية:

٤١٤١٨٢ - وكالة التوزيع الأردنية/ عمان ٦٣٠١٩١ - دار اقرأ للنشر/ الخرطوم ٤١٨٠٩ - الشركة المتحدة لتوزيع الصحف والمطبوعات د.م.م/ الكويت/ ٢٤٢١٤٦٨ - مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف/ البحرين/ المنامة ٥٣٤٥٥٩.

الذين كتبوا عن حضارة الأمة الإسلامية ـ قديماً وحديثاً ـ وحللوا نهضتها وازدهارها في سالف ازمانها، وقد سادت العالم، وكانت ملء السمع والبصر، آنئذ، ركزوا في كتاباتهم ودراساتهم على منهجية العقل الجمعي الذي امتازت به هذه الأمة، المسلمون منذ العصر العباسي الأول كانوا نسيجاً من الامم والشعوب اختارت الاسلام منهجاً لحياتها، وبه صيغت عقولهم، وصفت نفوسهم، وتداخلت معطيات حضارتهم جميعها، وانصهرت في بوتقة واحدة، لتعطينا هذا النتاج الجمعي المتميز، وأنا هنا انظر في ايجابيات هذا التداخل الفريد، الذي انتج حضارة فريدة، لا تمايز فيها بين خصوصيات عقلياتهم، شرقية أم غربية، عربية أم اعجمية.. فقد ضمهم بين جناحيه منهج دين واحد. وكلّ عطائهم جاء متوحداً تحت مظلته المنداحة في كل المدى.

هذا العقل الجمعي أعطى الأمة المسلمة كل أسباب نهضتها وازدهارها في كل ميادين العطاء. في علوم الدين واللغة، في التاريخ والمجتمع، في علوم الأرض والفلك، في الطب والصيدلة، في البناء والعمران.

كل ميدان من هذه الميادين كان له رجاله وعلماؤه وفقهاؤه، الذين كان لهم السبق فيه، بل والابداع فيه.

وهذا الاصدار الذي بين أيدينا (التراث المعماري في الحضارة الاسلامية) هو نتاج تلك الحضارة الزاهرة التي ابتنت للمسلمين مجداً زاهراً، لا تخطئه العين، وهذا الذي بين أيدينا هو نتاج هذا العقل المسلم الذي جمع المواهب من أطرافها ليصوغ منها هذه الشواهد المعمارية الحضارية الباقية أبداً على جبين الزمان.

المسلمون في معمارهم أفادوا من الآخر المعاصر لهم والسابق، صهروا ما عند الآخر في جوف معطياتهم القيمية والاخلاقية والسلوكية، وخرجوا بأنموذج معدل مثّل الروعة والبراعة في الافادة من الآخر من غير افراط



أو تفـــريط لما بين أيديهم من ثوابت لا يصح تجاوزها.

الخلفية الحضارية للأمة الاسلامية والظروف المناخية والبيئية شكلت الى حد كبير ملامح الفن المعماري لهذه الأمة، ذلك في ضوء معطيات التوجه الاسلامي الذي يحدد القيم الدينية والسلوكية لهذا المعمار.

إذ عمارة المسجد لها شروطها ومقوماتها الدينية، لتؤدي الغرض الروحي منها بعيداً عما قد يشغل العابد عن عبادته.

وعمارة المنازل والقصور لها ايضاً مقوماتها الاخلاقية المنظورة فيها، حتى في تفاصيل محتوياتها الداخلية ومنافعها.

وقس على هذا كل أنواع المعمار المنشأ في اغراضه المتعددة.. وكلها تؤسس على ارتباط كامل بين (الانسان - والمعتقد - والوظيفة) ذلك، إذ الانسان هو القيم، والعقيدة هي الطاقة المحركة في التسامي بالأشياء، والوظيفة هى الأداء المحكم الدقيق للمعمار، والوظيفة المرتجاة منه.

هذا الاصدار، (التراث المعماري في الحضارة الاسلامية) يتناول محورين أساسيين: المحور الأول: الأبنية الحربية، وتشمل (القلاع - الحصون - الاسوار - الابراج - البوابات والخنادق).

والمحور الثاني: الأبنية الخدمية، وتشمل (السدود - البرك - القنوات - العيون - الآبار - الأسبلة - الصهاريج - الجسور - الكباري - الاربطة - التكايا - المدارس - البرد - والقصور).

وهذان المحوران يمثلان في مجملهما مجموعة من العطاء الحضاري والقيمي خلده المسلمون عبر تاريخهم الطويل.. وكل شريحة من هذا المجموع تمثل في ذاتها قيمة موضوعية فيما خصصت له، هذا اضافة الى قيمتها الهندسية الفنية من حيث المعمار، وقيمتها الاجتماعية أو العسكرية أو الاقتصادية أو البيئية أو التعليمية من العطاء.. ومجموع هذه القيم يمثل التوجه الحضاري لكل هذه المنشآت، وللأمة التي قامت بها وعليها تحرسها وتصونها وتحافظ عليها بغرض ديمومة أدائها حسب وظائفها المناطة بها.. ويبقى هذا الاصدار اضافة الى مضمونه العلمي، يبقى تجديداً لذاكرة الاجيال الحاضرة والآتية بما قدمه السابقون من نوابغ هذه الأمة.

ولأجل تغطية موضوعات هذا الاصدار، استكتبت المنهل جمهرة وكوكبة من علماء المعمار والآثار، والمؤرخين، والدارسين في هذا المجال، واستجاب الكثير منهم، وهذا عهدنا بهم أبداً، ولهم منا الشكر والتقدير والوفاء.



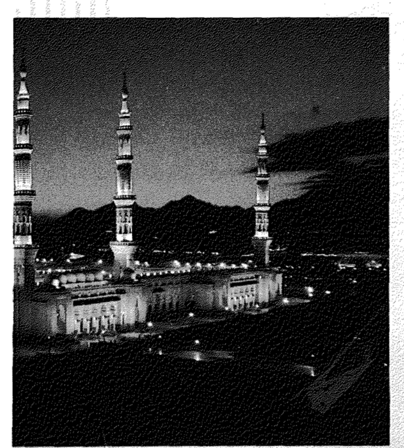
دور المسلمين في بناء الحضارة الاسلامية « في العمارة وفن البناء »

بقلم :

د. محمد بن عبدالرحمن الحصين

- السعودية -

شملت العمارة الإسلامية مساحة واسعة من الكرة الأرضية امتدت من آسيا الوسطى والجزيرة العربية شرقاً إلى المحيط الأطلسي وجنوب أوربا غرباً، واستمرت حقبة من الزمان تصل إلى أربعة عشر قرناً سجلت طرزها المعمارية تاريخ الشعوب الإسلامية في كل مكان. ليس هناك طراز معماري ثابت وموحد يمكن وصفه بأنه يمثل العمارة الاسلامية، بل اختلفت الطرز من بلد لآخر. كما أن الطراز في كل موقع لم يتوقف عند شكل معين بل تجاوب مع سنة تطور الحضارات فاستمر خاضعاً للتطور بمعايشته لحياة المجتمعات حتى أصبح من السهل تحديد التاريخ الزمني لحضاراتها.



- المسجد النبوي الشريف.

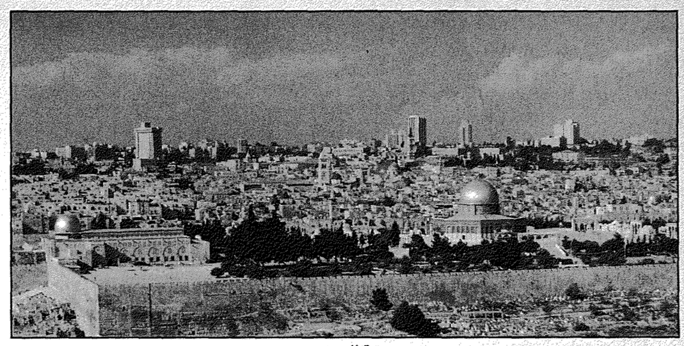
يجب أن لا تقيد العمارة عند ربطها بالإسلام بنصوص أو قواعد أو أشكال أو زخارف معينة، بل يكون ارتباطها حضارياً اكثر منه شكليا. وتختلف صبغة هذا الارتباط بناءاً على الخلفية الحضارية، والظروف المناخية، وطبيعة الأرض. لكن الشكلية تصور للعامة والخاصة المظهر الخارجي الذي يعبر عن العمارة الإسلامية.

ساعد الرخاء المستفيض على الدولة الإسلامية في مختلف أحقابها الخلفاء والأمراء والأعيان على الإنفاق على المؤسسات الخيرية من مساجد ومدارس ومشاف وربط وتكايا مع حبس العقار للإنفاق عليها. وكان للمجتمع الإسلامي بمختلف طبقاته دور مهم في بناء الحضارة الإسلامية وذلك بتأسيس وبناء المؤسسات التعليمية والصحية، والنشاطات التجارية والصناعية.

وكان للثقافة وعلومها الفضل الكبير في ازدهار الحضارة الإسلامية التي زحفت الي الغرب واستقرت في الأندلس وأقامت أول جامعة في أوربا هي جامعة قرطبة التي تخرج منها علماء الغرب، وكانت غرناطة مركز الثقل للنشاطات السياسية والاقتصادية والفكرية حيث أسس المسلمون فيها معالم حضارية لا يزال بعضها قائماً حتى الآن.

البعد التاريخي :
عهد النبوة والخلفاء الراشدين :

نشأت العمارة الإسلامية في البداية بسيطة حيث كانت الجدران من اللَّبن والسقوف من جريد النخيل والأعمدة من جذوع النخل وكانت خالية من النوافذ، ومن أشهر المساجد في تلك الحقبة المسجد النبوي،



ـ قبة الصخرة.

ومسجد قباء، ومسجد الكوفة الذي بناه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عام ١٧هـ على هيئة صحن مكشوف تحيط به أروقة من جميع جهاته، أقام عمرو بن العاص عام ٢١هـ أول مسجد في مصر بلغت أبعاده ٥٠ × ٣٠ ذراعاً وكانت أعمدته من جذوع النخل.

الطراز الأموي :

تعد العمارة في هذا العصر من أهم المظاهر الفنية التي حملت معها تطوراً شمل الكثير من العناصر المعمارية بالإضافة إلى الفنون والزخرفة. وبذلك اعتمدت العمارة آنذاك على فئة من الصناع والفنانين السوريين نشأ على أيديهم الطراز الأموي، اتصفت المباني بأنها ضخمة مبنية من الحجر، وبها عقود محمولة عل أعمدة رخامية، وكانت أغلب المساجد مغطاة بأسقف مائلة، ومآذنها على شكل أبراج، من أهم مساجد تلك الفترة المسجد الأموي الذي شيده الوليد بن عبد الملك في الفترة من ٨٨ ـ ٩٦هـ، كانت التأثيرات الأجنبية واضحة في زخارف قبة الصخرة والصور الجدارية في القصور، وذلك لاستخدام صناع وبنائين من مختلف البلدان الإسلامية وكانت أكثر البلاد تأثراً بالطراز الأموي شمال أفريقيا والأندلس.

الطراز العباسي في العراق ومصر :

يتكون الطراز العباسي في مصر من خليط من التأثيرات التي نقلها أحمد بن طولون من العراق حيث كان متأثراً بحضارة مدينة سامراء عندما قدم الى مصر عام ٢٥٤هـ في عهد المعتمد، ويعد مسجد أحمد بن طولون من أهم المساجد التي أقيمت في العصر العباسي، أما مسجد سامراء الذي بناه المتوكل عام ٢٣٤هـ يعد من أكبر المساجد آنذاك حيث كان يتسع لـ ٨٠ ألف مصل، وتعد مئذنته الملوية من أهم الابتكارات في عمارة المآذن.

الطراز الأموي في الأندلس :

من أهم المساجد التي بنيت في الأندلس جامع

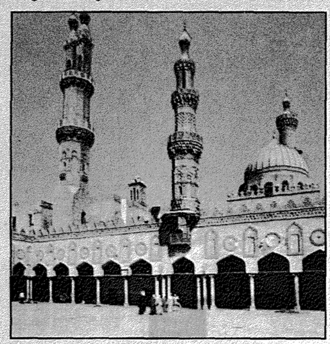
قرطبة الذي أنشأه عبد الرحمن الأول عام ١٦٩هـ، وتبدو ساحة الصلاة كغابة من الأعمدة والأقواس المتداخلة، ويأتي قصر الحمراء في قمة العمارة الأندلسية روعة وجمالا، ينسب القصر إلى أبي الحجاج يوسف الأول حيث أنشأ البرج والقصر والحمام وباب الشريعة والمصلى، ثم أكمل بناءه ابنه محمد الخامس حيث أضاف إليه بهوي الريحان والسباع، يحتوي القصر على قاعة السفراء وقاعة الأسرّة وقاعة المجلس، يتوسط بهو السباع نافورة تقوم على حوض يحيط به اثنا عشر أسداً، ويحيط البهو أربع بوائك تقوم على أعمدة رشيقة وعقود نصف دائرية.

الطراز الفاطمي :

يعد عصر الفاطميين من أهم العصور التي اهتمت بالعمارة والفنون، وينسب الطراز الفاطمي إلى الفاطميين الذين كانوا يقيمون في تونس ثم استولوا على مصر بقيادة جوهر الصقلي عام ٩٦٩م وأسسوا مدينة القاهرة، أقام جوهر الصقلي جامع الأزهر في ٩٧٢م وقصرين هما الشرقي والغربي، واهتم الحكام الفاطميون بالجامع الأزهر وفي مقدمتهم الخليفة الحاكم بأمر الله حيث جدده وأوقف عليه الأوقاف.

الطراز السلجوقي :

استخدم مقوماته من الطراز الغزنوي في أفغانستان، وقد زادت المباني ضخامة في هذا العصر، واستخدمت الزخارف البارزة، وكثر بناء المدارس، ومن خصائص العمارة السلجوقية الجمع بين الجامع والمدرسة، ومن أشهر المباني الجامع النوري الذي بناه نور الدين محمود الأتابكي ما بين ٥٤٣ - ٥٦٨هـ،



- الجامع الازهر.

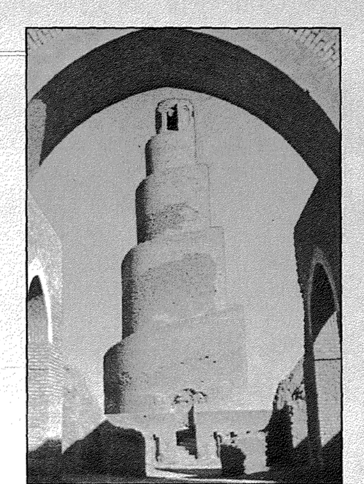
والمدرسة المستنصرية التي بنيت في عهد المستنصر بالله عام ١٢٣٢م.

الطراز الفارسي المغولي :

تمكن المغول من القضاء على ما تبقى من الآثار السلجوقية في القرن السادس الهجري، واستطاعوا أن يكوِّنوا امبراطورية بزعامة جنكيز خان امتدت حتى أوربا، يعد مسجد الجمعة في أصفهان خير مثال على الطراز المغولي الذي أعقب طراز السلجوقيين، كما أن المسجد الأزرق في تبريز الذي أقيم في القرن الخامس عشر الميلادي يُعدّ من أهم النماذج التي تمثل هذا الطراز.

الطراز الأيوبي في مصر :

يعد الطراز الأيوبي مرحلة انتقال بين الطراز الفاطمي بأسلوبه المميز المحاكي للطبيعة، وبين الطراز المملوكي بزخارفه النباتية الهندسية وذلك لقصر مدته



ـ مئذنة ملوية سامراء.

التي لم تتجاوز ثمانين عاماً، ومع ذلك فقد ازدهرت فنون العمارة التشكيلية والفنون التطبيقية التي تنتمي إلى ذلك العصر، شملت هذه النهضة ظهور طراز للمدارس الإسلامية والعمارة الحربية خاصة القلاع والأسوار، كما تطور شكل المئذنة وظهر النوع المعروف بالمبخرة.

الطراز المملوكي :

بدأت حركة العمارة تنشط في مصر في عهد الظاهر بيبرس وتأخذ المباني الدينية في الارتفاع، ويظهر ذلك على جامع الظاهر بيبرس الذي شيد عام ٦٦٥هـ. ومن أهم ما يمتاز به هذا العهد استخدام القباب الخشبية الكبيرة التي تغطي ثلاث بوائك أمام المحراب. انتشرت زخرفة الجدران بأشرطة الجص المنقوشة بكتابات فوق أرضية من الزخارف النباتية، ومن أهم مباني هذه الحقبة مدرسة السلطان حسن ووكالة الغوري وبيمارستان قلاوون وقلعة قايتباي بالإسكندرية.

الطراز الصفوي في إيران :

استمر هذا الطراز الى القرن السادس عشر الميلادي، ومن الأبنية المدنية التي اشتهرت في هذا العصر القصور الصغيرة المقامة على قاعدة مرتفعة تحف بها حجرات من طابقين للسكنى. ومن أمثلة هذه القصور قصرا (جلهستون) و(هشت بشت).

الطراز المغولي في الهند :

يتشابه مع الطراز الصفوي لكنه استمد مقوماته من جذور الفن الهندي القديم، ومن أهمها القبة ذات الشكل البصلي، امتازت المساجد في هذه الحقبة بمداخلها الكبيرة وامتداد مساحتها، وانفصال أجزائها حتى تكاد أن تفقد الوحدة في التكوين ومن أشهر المساجد مسجد الجامع الكبير في بيجابور ومسجد الجمعة في دلهي، وقلعة أجرا.

ومن أشهر مباني هذه الفترة تاج محل الذي شيده شاه جهان في أجرا لزوجته ممتاز محل في الفترة ١٠٣٩ ـ ١٠٥٨هـ (١٨ سنة)، ويقع في حديقة كبيرة تقع على نهر جمنة، يغطي المبنى كسوة من الرخام الأبيض وتبدو التأثيرات الإيرانية على واجهته، أما شكل القبة والأركان والأبراج الأربعة والتفاصيل المعمارية والزخرفية في الداخل فتصطبغ بالطابع الهندي، ويتصف المبنى بدقة النسب المعمارية وجمال العناصر والفخامة في المظهر.

الطراز العثماني :

تتميز العمارة العثمانية بأسلوب خاص حيث

تأثرت بالمفردات والعناصر المعمارية البيزنطية مع بعض التطوير لكي يتمشى مع الطراز الإسلامي، ومن أهم الأمثلة لهذا الطراز مسجد السليمانية باسطنبول الذي شيد عام ١٥٥٠م وتميز بتعدد قبابه مع استخدام انصاف القباب التي تعد استمراراً للتقاليد البيزنطية في كنيسة أيا صوفيا، أما التأثر بالطرز الإسلامية السابقة فقد ظهر في شكل المآذن والمقرنصات والكتابات، ومن أهم المساجد التي لازالت باقية حتى الآن الحرمان الشريفان والعديد من المساجد في اسطنبول ومسجد محمد علي في القاهرة.

البعد الجغرافي :

تقسم العمارة الإسلامية بناءاً على الموقع الجغرافي إلى خمس مدارس:

المدرسة المصرية السورية:

وتعد تاريخاً مشتركاً يجمع الأعمال المعمارية في هذين البلدين، ظهرت السمات المشتركة لهذا الطراز منذ العهد الأموي تحت تأثيرات محلية متشابهة استمر تاريخها متصلا في العهد الطولوني.

المدرسة العراقية الفارسية:

بلغت أوجها في القرن الثالث الهجري وبالتحديد في مدينة سامراء ، ومن أهم مظاهر هذه المدرسة القوس الفارسي المدبب.

المدرسة الهندية :

ظهرت في شمال الهند حيث اقتبس سلاطين المغول القوس والقبة البصلية عن المدرسة الفارسية، ومن أهم مظاهرها مباني مدن أجرا وفاتح بور.

مدرسة المغرب والأندلس :

ظل الطراز الأموي سائدا في الأندلس حتى القرن



ـ المسجد الازرق باستانبول.

الخامس الهجري حيث برزت مظاهره في جامع قرطبة، غير أن هذا الطراز بدأ بالظهور بعد ذلك في عهد المرابطين والموحدين وبلغ أوجه في القرن التاسع في قصر الحمراء.

المدرسة العثمانية :

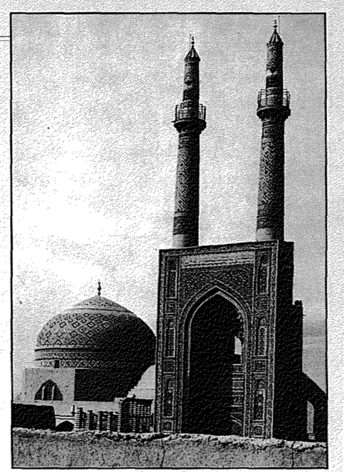
تأثر العثمانيون بالطراز العراقي الفارسي، ثم الطراز البيزنطي حيث أخذوا من الأول الزخارف واستخدام القيشاني ومن الثاني طريقة البناء.

البعد التشريعي :

أجمع أئمة المسلمين على الرجوع الى الأخذ بـ : (الكتاب ـ السنة ـ الإجماع ـ القياس).

وقد أخذ بعضهم بالاستحسان، والعرف، والمصالح المرسلة، والذرائع، والاستصحاب.

ـ ويرجع فقهاء المسلمين الى قاعدة أساسية في



ـ أحد المسجد في أصفهان.

استنباط الأحكام الشرعية لتنظيم شؤون البناء هي: لا ضرر ولا ضرار، ومن ذلك تنظيم ارتفاعات المباني وفتحات النوافذ والمداخل المطلة على الجيران.

ـ هناك حجة شرعية متبعة في هذا المجال هي تغليب المصلحة العامة على منفعة الفرد وذلك اعتماداً على المصالح المرسلة ويسمح بتحقيق المصلحة الخاصة عندما لا تتعارض مع المصلحة العامة كجواز الخروج بالبروزات والرواشين والساباطات إلى فضاء الشارع.

ـ الأخذ بالعرف وهو ما استقر في النفوس من جهة العقول وتلقته الطباع السليمة بالقبول بشرط أن لا يخالف نصاً شرعياً.

ـ اتبع نظام الحسبة في إدارة وتنظيم وتطوير المدن الإسلامية والمحافظة عليها، تطور هذا النظام في مختلف مراحل الدولة الإسلامية، وصار له شأن كمنصب متعارف عليه يعينه الوالي، وكان للمحتسب دور مهم يتجلى في تحديد الأسعار، ومراقبة الأسواق وأصحاب الحرف، ومنع الغش والغبن والتدليس، والازدحام في الطرقات.

وفي مجال البناء، يشرف المحتسب على صناع البناء وبائعي مواده، ويوجه بتعريض الحيطان وتقريب الخشب وتوفير الآجر الملائم لعروض الحوائط، ولابد أن يكون لدى المحتسب قالب خشبي متين الصنع لا يستاس يعلق في حائط الجامع للرجوع إليه لمعايرة القوالب التي يستخدمها البناؤون.

البعد المعماري :

تتكون العمارة الإسلامية من مجموعة من العناصر تشكل المساجد والمساكن والحصون والقلاع ومختلف المباني التي تضمها المدينة الإسلامية، ونجد أن بعض هذه العناصر قد يكون خاصاً بمبنى معين لا يتكرر في غيره، والبعض الآخر يكون شائعاً في أكثر من مبنى، ومن أهم هذه العناصر:

ـ المآذن، والقباب، والأقبية، والإيوانات، والمحاريب، والمنابر، والأعمدة، والتيجان، والصحن وهذه تكون عادة في المساجد والمدارس.

ـ الأفنية، والحدائق، والشرفات، والمشربيات والرواشين والسلسبيل ويشيع استخدامها في المساكن والقصور.

ـ البوابات، والأسوار، والأبراج، والشرف، والمزاغل وتكون في مباني الاستحكامات.

وهناك العديد من التفاصيل التي يشيع استخدامها في مختلف المباني ومنها:

ـ الرفارف : سقف خشبي مائل محمول على عواميد.

- الحليات : تصنع من النحاس وتغطى بها الأبواب الخشبية.

- المزررات : تستخدم في العقود والأعتاب لمنع انزلاق مكونات العقد وتزيينه.

- الكرادي : نوع من الكوابيل.

- الشرف : نوع من النتوءات الزخرفية التي تعلو الحوائط وهي على نوعين المورقة والمسننة.

العوامل المؤثرة على العمارة الإسلامية :

تتلخص أهم العوامل المؤثرة على العمارة الاسلامية في التالي:

- الفتوحات الإسلامية للبلاد المتحضرة ما بين شبه القارة الهندية والأندلس.

- البواعث الدينية، والنظم السياسية والاجتماعية والتشريعية التي أوجدها الإسلام.

- تأثير فنون الأمم والحضارات السابقة في الأقاليم والبلدان المختلفة على الفن والعمارة الإسلامية وعلى الأخص الفن البيزنطي والفارسي.

- تعدد مواد البناء نتيجة لاختلاف طبغرافية الأرض والمهارات الحرفية في الأقاليم المختلفة.

الخاتمة :

أنتج المسلمون على مدى أربعة عشر قرناً من الزمان ثروة عمرانية ومعمارية هائلة من المساجد والمدارس والمساكن والأسواق والقلاع والحصون وغيرها من المباني التي تميزت بالمهارة والإتقان، ومن هذه المباني ما هو قائم حتى الآن، ومنها ما هو مدون بين صفحات الكتب يشهد على روعة الفن المعماري الإسلامي وأصالته، ان هذه العمارة لم تكن تستخدم في يوم من الأيام في إفساد البشر وغوايتهم بل كانت تهدف إلى هدايتهم وإسعادهم في الدارين وحمايتهم من هجمات الأعداء.

عندما نتحدث عن الحضارة الإسلامية فإننا نبرز ما تميزت به من خصائص جمة تتصف بالرقي والإنسانية، ولابد لهذه الحضارة من وسائل تنقلها من موطنها إلى بلدان العالم، ومن عصرها الذي ازدهرت فيه إلى العصور التي تلتها. وكانت العمارة إحدى الوسائل التي عملت على نشر الحضارة الإسلامية وبيان أبعادها وسماتها وخصائصها.

إن الدعوة الى إحياء القيم الإسلامية في تشييد العمارة المعاصرة جزء لا يتجزأ من الدعوة الحضارية الشاملة للمجتمع الإسلامي، وأي جهد يبذل في هذا الاتجاه لابد أن توازيه جهود أكثر في الجوانب الأخرى المكملة للبناء الحضاري الشامل في التوعية الثقافية والاجتماعية والتربية والتعليم.

إن تعدد أشكال العمارة الإسلامية وتباين طرزها ترك للمعماري المسلم ثروة هائلة من الأشكال والمفردات المعمارية التي تمكنه من الانتقاء والاقتباس لوضعه في تصاميمه، وما عليه سوى أن يمعن النظر ويدقق في تفاصيل هذه العمارة لكي يختار المناسب، وبذلك يتحف المجتمع بروائع الفن المعماري.

يحتاج تاريخ العمارة الإسلامية الى تمحيص وتنقية وإعادة كتابته لأن المؤلفات الأجنبية لم توفه حقه، وأغلب المراجع العربية لا ترقى الى إعطاء الصور الواضحة وشرح تفاصيل هذه العمارة إضافة الى ضعف الإخراج وعدم وضوح الرسومات والصور التي تحويها، لذلك يتعين على المختصين في هذا المجال التعاون في إصدار ما يليق بهذه العمارة العريقة من بحوث، ومؤلفات، وموسوعات ومعاجم.

التراث العمراني العربي والإسلامي وبرنامجه بوزارة الشئون البلدية والقروية في المملكة

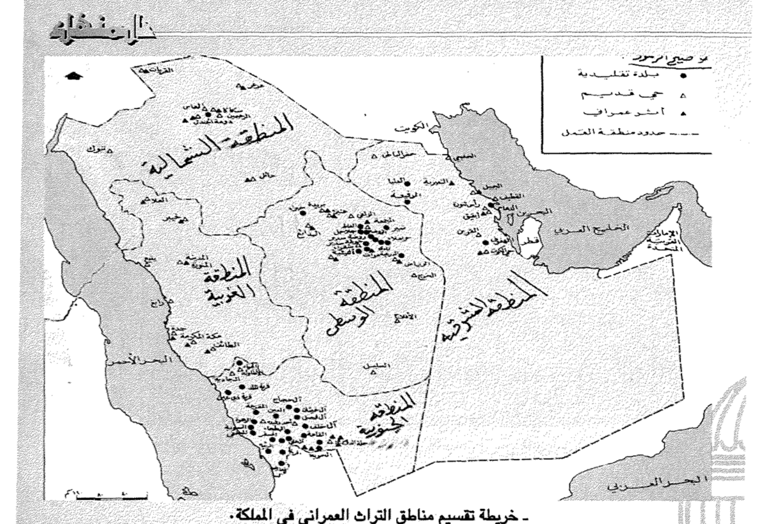
بقلم :

د. محمد بن عبدالله الحماد

- السعودية -

لقد حرصت (المنهل) الغراء منذ عهد مؤسسها العلامة الأستاذ عبد القدوس الأنصاري - يرحمه الله ويسكنه فسيح جناته - على إبراز أصالة التراث الحضاري العربي الإسلامي وقد أصدر أول موسوعة لمدينة عربية إسلامية وكانت عن مدينة جده [١] . وتأكد هذا النهج الحميد في المنهل وجاء تطورها ترسيخاً لهذا المفهوم في كل الإصدارات، ثم جاءت فكرة الإصدارات السنوية الخاصة الممتازة ذات المرجعية الفريدة . وقد أحسنت (المنهل) في اختيارها الإصدار السنوي الجديد عن التراث المعماري والحضارة الإسلامية واختيار محورين لذلك أحدهما عن الأبنية الحربية (بما فيها القلاع، والحصون، والاسوار، والأبراج، والبوابات،، والخنادق) وثانيهما عن : الأبنية الخدمية (بما فيها السدود والقنوات، والعيون والآبار، والأسبلة، والصهاريج، والجسور، والأربطة، والتكايا، والمدارس، والبرد، والقصور) .

ويظهر أن المحورين متلازمان في كثير من أنواع الأبنية والمرافق العامة مثل الأربطة والأسوار والبوابات ونحوها .



ـ خريطة تقسيم مناطق التراث العمراني في المملكة.

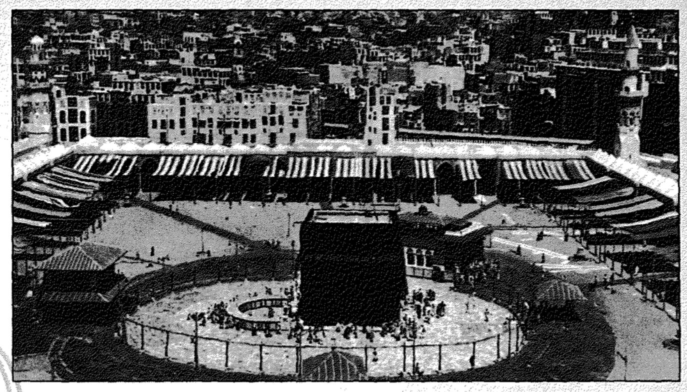
التراث العمراني العربي والإسلامي ودور وزارة الشئون البلدية والقروية في الحفاظ عليه:

لا يعزب عن البال أن وزارة الشئون البلدية والقروية في المملكة دعمت ـ منذ عام ١٩٦٧م ولا تزال تدعم ـ منظمة المدن العربية ومؤسساتها ومشاركات الأمانات والبلديات السعودية بها وهي التي تعنى بالحفاظ على التراث الحضاري المعماري العربي والإسلامي، وكذلك تبنت واحتضنت منذ عام ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م إنشاء المعهد العربي لإنماء المدن وهو الجهاز العلمي المتخصص لهذه الأغراض ونحوها وكذلك تبنت عقد ندوة المدينة العربية خصائصها وتراثها الحضاري الإسلامي المنعقدة بالمدينة المنورة بالتعاون مع أمانة المدينة المنورة والمعهد والمنظمة ـ خلال الفترة من ٢٤ الى ٢٩ ربيع الثاني ١٤٠١هـ [٢]. والتي تعتبر من أهم الندوات المتخصصة في التراث الحضاري المعماري الإسلامي؛ كما تبنت الوزارة مع المنظمة والمعهد ومدينة اسطنبول، واتحاد مدن وبلديات اقليم مرمرة والمضائق عقد المؤتمر الدولي عن الحفاظ على التراث الحضاري المعماري الإسلامي في المدن، الذى عقد في مدينة اسطنبول بتركيا خلال الفترة من ٢٢ إلى ٢٦ ابريل ١٩٨٥م[٣].

كما أسست المنظمة مؤسسة جوائز المدينة العربية في الدوحة/ قطر ومن ضمن جوائزها جوائز التراث المعماري[٤].

وكذلك تعطى مجلة (المدينة العربية) التي تصدرها المنظمة كل شهرين عناية خاصة للتراث المعماري الإسلامي.

كما تبنت المملكة (ممثلة بوزارة الشئون البلدية والقروية) واستضافت منظمة العواصم والمدن الإسلامية منذ ١٢ ربيع الأول عام ١٤٠٠هـ وهيأت



- الكعبة المشرفة والبيت الحرام، ومكة المكرمة في القرن التاسع عشر من التراث العمراني في المنطقة الغربية.

المقر الملائم لأمانتها العامة ومكاتبها في جدة ودعمت ميزانيتها وخصصت لها مهندسين متخصصين ومن أهم أهدافها الحفاظ على هوية وتراث العواصم والمدن الاسلامية.

وقد أبرزت المنظمة موضوعات التراث المعماري الإسلامي في مؤتمراتها ومجلتها (التي تصدر فصلية باللغات الثلاث العربية والانجليزية والفرنسية) وكل مطبوعاتها. كما خصصت المنظمة حلقتها الدراسية الرابعة التي عقدت في العاصمة المغربية (الرباط) خلال الفترة من ٥ - ٧ شوال ١٤١١هـ الموافق ٢٠ - ٢٢ ابريل ١٩٩١م لموضوع المنهج الإسلامي في التصميم المعماري والحضري[٥]، والتي جاءت في الاصدار الرابع من بين إصداراتها.

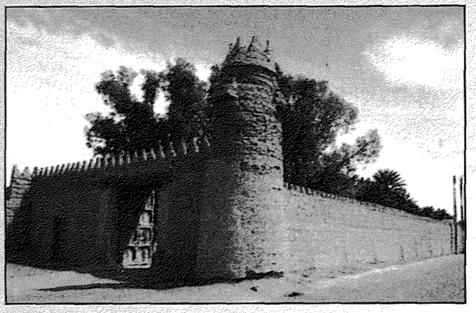
كما أصدرت المنظمة عدداً من الإصدارات المرتبطة بالتراث الحضاري والمعماري الإسلامي من بينها: كتاب أسس التصميم المعماري والحضري في العصور الإسلامية[٦]؛ وكتاب (خوارزم): الحضارة المنسية لمنطقة ما بين بحري قزوين وأرال[٧]، وكتاب (بخارى)[٨].

وقد تبنت المملكة - ممثلة بصاحب السمو الرئيس العام لرعاية الشباب - جائزة الملك فهد للعمارة الإسلامية والحفاظ على التراث الحضاري المعماري الإسلامي في اسطنبول بتركيا. ودعمت المملكة برامج التراث في كل من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ومنظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم (اليونسكو) وكذلك جائزة مجلس وزراء العرب للإسكان والأشغال والتعمير[٩]، الذي يرأسه صاحب السمو وزير الأشغال والإسكان بالمملكة والتي تعني بإبراز الحفاظ على التراث المعماري العربي الإسلامي.

وكانت وزارة الشئون البلدية والقروية قد أصدرت دورية (البلديات) وهي مجلة ربع سنوية، تعنى بكل الموضوعات المتصلة بالبلديات، والمرافق العامة والتخطيط، والعمران، والبيئة، بما في ذلك الموضوعات المتصلة بالتراث المعماري، وذلك إلى جانب عدد من

الإصدارات الخاصة، وسلسلتي الخدمات البلدية، والأنظمة والتعليمات البلدية.

كما عقدت الوزارة عدداً من المؤتمرات المتخصصة ذات العلاقة وطبعت أبحاثها لاستمرارية الاستفادة منها[١٠].



ـ من التراث المعماري في المنطقة الوسطى/ المملكة العربية السعودية.

برنامج التراث العمراني بوزارة الشئون البلدية والقروية ـ وكالة الوزارة لتخطيط المدن:

كانت بداية هذا البرنامج في عام ١٤٠٧هـ في برامج التصميم العمراني التي سبق أن تبنتها ـ وتشرف عليها ـ الوكالة وتشمل ـ الى جانب هذا البرنامج : تطوير الأحياء السكنية، وتطوير الهجر والقرى، وتنسيق وتجميل العمران، وتطوير مراكز المدينة.. وفي بدايات وضع البرنامج وجه خادم الحرمين الشريفين ـ الملك فهد بن عبد العزيز يحفظه الله ـ لمعالي وزير الشئون البلدية والقروية ـ آنذاك ـ الأستاذ ابراهيم العنقري: «بضرورة أن يبقى في كل مدينة جزء أو أحد أحيائها على طبيعته الأولى يجسد التراث القديم لتلك المدينة ويبرز لأبنائها أبعاد التطور الذي عاشته المدن والقرى السعودية[١١]، وقد أكد خادم الحرمين ذلك التوجيه أثناء جولته التفقدية لمواقع العمل في توسعة الحرم النبوي الشريف والمشاريع الأخرى التابعة لها والمنطقة المركزية للمدينة المنورة في ليلة الأول من شهر ربيع الثاني عام ١٤٠٨هـ [١٢].

ولقد جاء برنامج التراث العمراني بوزارة الشئون البلدية بعد دراسات مكثفة واجتماعات متتالية بين المختصين والمعنيين[١٣]، وتناولت تلك الدراسات جوانب وأبعاد التراث العمراني بما فيها:

١ ـ الجانب أو البعد الحضاري العمراني النابع من الهوية والشخصية المكانية والزمنية ومعطياتها واستمراريتها بما فيها الحضارة الإسلامية.

٢ ـ الجانب العلمي المستند على المعرفة والقياس والاستقراء والنماذج التاريخية ونحوها.

٣ ـ الجانب السياحي والإعلامي من حيث الاطلاع والترويح.

وقد صدق أبو العلاء المعري في إبراز أهمية التراث حينما قال:

مررت برسم في شيات فراعني
به زجل الأحجار تحت المعاول
أتتلفها شلت يمينك خلها
لمعتبر أو زائر أو مسائل
منازل قوم حدثتنا حديثهم
ولم أر أحلى من حديث المنازل

وقد جاءت دعوة الحفاظ على التراث العمراني في المملكة متبنية وجهة نظر تجمع بين الحفاظ على التراث دون تغيير، وبين توثيقه وإزالته مع الاحتفاظ الوثائقي به.

وظهر العديد من التجارب العلمية النموذجية الرائدة كأمثلة حية للعناية بالتراث ومن بينها مشروع الجنادرية والقرية الشعبية الذي هو من أهم فعاليات المهرجان الوطني للتراث والثقافة في المملكة. وكذلك تجارب الحفاظ على التراث العمراني بوسط جده، ومناطق مراكز المدن في المدينة المنورة حول المسجد النبوي، وفي مكة المكرمة حول المسجد الحرام وفي الرياض في مركز المدينة: منطقة قصر الحكم، وفي الحي الدبلوماسي - السفارات ، وفي الدرعية ، أحياء: الطريف والبجيري، وفي أبها قرية «مفتاحة» التشكيلية. وقد وضع هذا البرنامج المتكامل لدراسة التراث العمراني وتوثيقه وتصنيفه والعناية به والاستفادة منه، مع إشراك الأمانات والبلديات والمناطق في المملكة، وذلك على أساس المسوحات الميدانية من تخطيطية وعمرانية وبصرية؛ كما وضع للبرنامج أهداف من بينها: التوصل إلى القرار العلمي لمعرفة ما يجب الحفاظ عليه من التراث المعماري وتطويره. ووضع برامج تنفيذية تشارك بها كل القطاعات المعنية بالحفاظ على التراث العمراني وإحيائه والوصول الى تقويم شامل للأنماط العمرانية وإعداد الخطوط الإرشادية للتصميم العمراني لكل منطقة للاستفادة منها في تخطيط المناطق الحديثة وتصميمها، والتأكيد على أهمية التراث العمراني والحفاظ عليه بمشاركة كل الجهات ذات العلاقة من جهات رسمية، وقطاع خاص، ووسائل إعلام.

وقد جاء تصميم البرنامج بتقسيم المملكة الى خمس مناطق عمل رئيسية (طبقاً للخريطة) وذلك حسب التشابه في الخصائص العمرانية والجغرافية وأنماط البناء التقليدية.

وقد جعلت هذه المناطق الخمس للتراث العمراني في المملكة - كما هو موضح على الخريطة - لتسهيل الدراسة والمسح التراثي وتفعيل مشاركة المناطق والأمانات والبلديات والمديريات وذلك على النحو التالي:

أولا: منطقة التراث العمراني بوسط المملكة (بما فيها الرياض والقصيم) حيث تشارك مع وكالة الوزارة لتخطيط المدن كل من أمانة الرياض، والمديرية العامة للشئون البلدية والقروية بمنطقة الرياض (منسق المنطقة الوسطى).

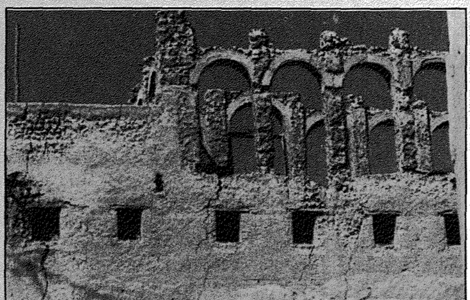
ثانيا: المنطقة الغربية (وتشمل منطقة المدينة المنورة لغرض الدراسة) ويشارك فيها مع الوكالة كل من: أمانة العاصمة المقدسة، وأمانة المدينة المنورة، وأمانة جدة، والمديرية العامة للشئون البلدية والقروية بالمنطقة الغربية، وبلدية الطائف، وبلدية محافظة ينبع (منسق المنطقة الغربية).

ثالثا: منطقة التراث العمراني بالمنطقة الشرقية: ويشارك فيها - إلى جانب وكالة الوزارة لتخطيط المدن - كل من أمانة مدينة الدمام (المنسق لفريق المسح والدراسة للمنطقة) والمديرية العامة للشئون البلدية والقروية بالمنطقة الشرقية، وبلدية محافظة الأحساء.

رابعا: منطقة التراث العمراني بشمال المملكة: ويشارك فيها - إلى جانب وكالة الوزارة لتخطيط المدن - كل من: بلدية منطقة حائل (المنسق) وبلدية منطقة الجوف، وبلدية منطقة الحدود الشمالية (عرعر)، وبلدية محافظة القريات، وبلدية منطقة تبوك.

خامسا: منطقة التراث العمراني بالمنطقة الجنوبية: ويشارك فيها - إلى جانب وكالة الوزارة لتخطيط المدن - كل من: المديرية العامة للشئون البلدية والقروية بالمنطقة الجنوبية (منسق المنطقة الجنوبية) وبلدية منطقة نجران، وبلدية منطقة جازان، وبلدية منطقة الباحة.

وقد شملت الدراسة أعمال مسح التراث العمراني لكل منطقة وجوانب وأمور رئيسة من بينها الأمور التالية:



- من التراث العمراني في المنطقة الشرقية/ واجهة أحد المنازل بالقلعة في القطيف.. السعودية.

١ ـ أهم الخصائص البيئية والبشرية.

٢ ـ خصائص العمران التقليدي في المنطقة. وتشمل: (النسيج العمراني، تصميم المباني التقليدية في المنطقة ، أسلوب البناء في المنطقة ، العناصر الجمالية المميزة في المنطقة).

٣ ـ المسح الشامل لعناصر التراث العمراني في المنطقة. ويشمل: (المسح الشامل للبلدان والقرى التقليدية ـ المسح الشامل للأحياء التقليدية ـ المسح الشامل للآثار العمرانية).

٤ ـ نماذج من عناصر التراث العمراني في المنطقة. وتشمل: (نماذج من عناصر التراث العمراني في المنطقة والقرى التقليدية ـ نماذج من الأحياء التقليدية ـ نماذج الآثار العمرانية.

وقد تم تصنيف عناصر التراث العمراني إلى ثلاثة عناصر أساسية هي:

١ ـ **البلدة القديمة**: وهي البلد (أو المنطقة أو القرية) القديمة التي تحتفظ بعناصرها الرئيسة بصورة متكاملة ولا تتداخل مع العمران الحديث (ومن أمثلتها: بلدة الخبراء، بالقصيم) وتتم أعمال المسح الميداني للبلدان القديمة طبقاً لاستمارات تشمل تحديد وتشخيص النمط والنسيج العمراني، وأسلوب تكوينه، وتطوره والعوامل المؤثرة فيه وعوامل تميزه عن غيره ورصد مقومات العمران في البلدة وعلاقتها ببعض بما فيها:

(أ) مركز البلدة بما فيها الأمارة والجامع الكبير، ومساحة وسط البلد والأسواق ونحوها.

(ب) المنطقة السكنية.

(ج) البوابات والمداخل والأسوار.

(د) المزارع والبيئة المحيطة.

(هـ) أية مقومات أخرى ذات علاقة.

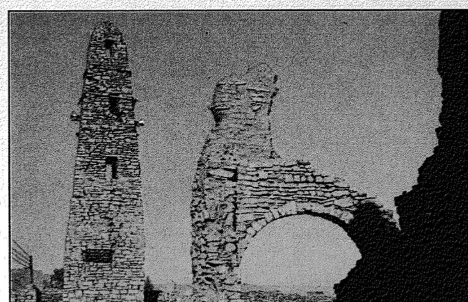
ويتم رصد نماذج من عناصر العمران وتوثيقها ومتابعة تطورها وخصائصها وميزاتها وكذلك استنباط الخصائص العامة للبلدة التي يمكن الاستفادة منها للعمران المعاصر.

٢ ـ **الحي القديم**: ويعني أحد الأحياء القديمة التي تشكل جزءاً من المدن المعاصرة والتي انتشر بها العمران الحديث وقد تمت دراسة ومسح الأحياء القديمة وتوثيقها مع التركيز على: النمط والنسيج العمراني، وعناصر الحي بما فيها المركز، والجوامع والمساجد والمساكن، ونماذج من عناصر الحي، والعلاقة بين الحي والبيئة.

٣ ـ **الأثر العمراني** ويقصد به أي أثر عمراني في المنطقة بما فيها الآثار التي تقع خارج حدود العمران وتعكس أهمية دينية أو حضارية أو تاريخية أو معمارية.

والجدير بالذكر أن موضوع (التراث العمراني في

بيئتها التقليدية والعناية الخاصة بها.

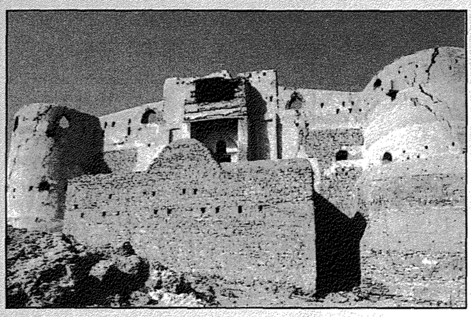


- من التراث العمراني في المنطقة الشمالية - الجوف - سكاكا/ السعودية.

إن الحفاظ على التراث المعماري لا يصح أن يقتصر على مجرد الإبقاء على المباني القديمة، أو التباكي على الأطلال التاريخية، وإنفاق المبالغ الطائلة عليها وتجديدها أو الذي اندثر منها ثم الحفاظ عليها «كطلاسم» فارغة لا يستفاد منها؛ وإنما يجب أن ينطلق الحفاظ على التراث العمراني من إحياء العناصر والسمات البارزه المميزة لذلك التراث، وإظهار كنوزه الدفينة، مع إعادة توظيفها بحيث يستفاد منها في هذا العصر الحديث كنماذج حية مشرفة للقديم التاريخي مع تكييفها بحسب متطلبات القرن العشرين وما بعده؛ ولا مانع في ذلك من أن تستغل أحسن استغلال لتلائم متطلبات أو احتياجات وظائف الحياة اليومية المعاصرة الحاضرة كمرافق، أو مراكز أو مكاتب خدمات عامة، أو مدارس ، أو مكتبات أو مطاعم، أو منتزهات، أو متاحف أو حتى منازل أو نحو ذلك، وذلك بما لا يغير من عناصرها ومكوناتها وسماتها الجوهرية الأصلية المميزة، ويوجد العديد من التجارب والنماذج المفيدة في هذا الصدد ومن بينها تجارب المدن (أو الدول) الألمانية والفرنسية والإنجليزية والهولندية ونحوها مما يوضح نجاح إعادة توظيف وإحياء وتجديد تأهيل التراث العمراني التاريخي، من ذلك مثلا تجديد وإعادة توظيف المباني القديمة في مدينة «توبيجين» في منطقة «الغابة السوداء» قرب مدينة «شتوتجارت» في ألمانيا، حيث تم تجديد بناء المدينة بتشجيع من الحكومة الفيدرالية الألمانية - بواسطة البلدية وساكني المدينة مع إعادة

المملكة) كان من بين الإصدارات والمساهمات الفاعلة لوزارة الشئون البلدية والقروية (ممثلة في وكالة الوزارة لتخطيط المدن) والتي شملت - إلى جانب هذا الإصدار - كتاب: عرائس الصحراء، وكتاب: التطور المؤسسي للبلديات، وكتاب: أطلس المدن السعودية، والفيلم الوثائقي، يضاف إلى ذلك كتاب: الخدمات والمرافق البلدية في مائة عام (المعد من قبل وكالة الوزارة للشئون الفنية)، كما يجيء ذلك مع الأنشطة والفعاليات والإصدارات الأخرى من قبل الأمانات، والبلديات، ومصالح المياه، والصرف الصحي، والمديريات العامة في المناطق، والأجهزة الأخرى ذات العلاقة المتصلة بذلك، وقد أعطى كتاب (التراث العمراني) توضيحاً للبرنامج المتكامل للتراث العمراني في المملكة، ولا شك أن تراثنا العمراني العربي الإسلامي يضم بين جنباته كنوزاً من المباني والآثار والطرز المعمارية المتنوعة ذات الأهمية الإسلامية والتاريخية كالمساجد والمدارس والحصون والأسوار والأبراج، وكذلك أوقاف المرافق بما فيها العيون والآبار والصهاريج والأربطة والطرق والتي هي معالم حضارية لابد من الحفاظ عليها مع

توظيفها وتأهيلها والحفاظ على سماتها القديمة المميزة التي مضى عليها أكثر من سبعة قرون، بل إنه يوجد في المدن العربية الإسلامية الآن نماذج رائدة حية من الحفاظ على التراث المعماري التاريخي وإعادة تأهيل وتجديد المدن ممثلة في مراكش، وفاس، وتونس، وحلب، ودمشق وطرابلس ونحوها.



ـ من معالم التراث العمراني في جازان المنطقة الجنوبية/ السعودية.

وقد استعرضت المقالة نماذج من التراث العمراني التاريخي في مناطق المملكة المختلفة وبعضها أمثلة رائدة حية مثل أواسط ومراكز المدن: في مكة المكرمة (منطقة الحرم) والمدينة المنورة «قلب المدينة» منطقة الحرم النبوي وما جاورها، والمنطقة التراثية لجدة القديمة، ومنطقة قصر الحكم في الرياض، وكذلك الحي الدبلوماسي، والسفارات، وإسكان الخارجية، والجنادرية والقرية الشعبية، وبعض أحياء الدرعية، والقرية «التشكيلية» في أبها وما الى ذلك.

ويمكن ـ في الختام ـ استخلاص بعض النتائج والمقترحات والتوصيات التي من بينها ما يلي:

١ ـ الاستفادة من التجارب العملية والنماذج التطبيقية الناجحة لمشاريع إحياء وتجديد وإعادة توظيف وتأهيل التراث العمراني سواء في العالمين العربي والإسلامي (في المدن العربية والإسلامية ونحوها) أو في أنحاء العالم والمدن المختلفة وغيرها.

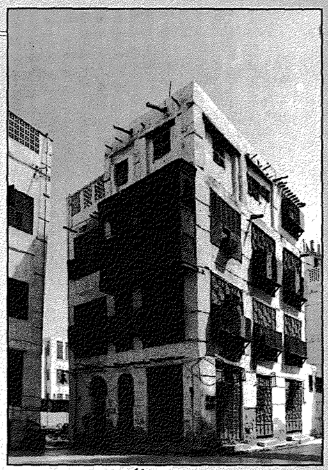
٢ ـ استخلاص نتائج الدراسات المفيدة عن مجالات وآفاق وأساليب تطوير الاستعمالات والاستفادة من المباني التراثية والمرافق والخدمات العامة بها بما فيها طرق المشاه والحركة والمرور والمواقف، والميادين والفراغات والمتنزهات والحدائق وما إلى ذلك.

٣ ـ اعطاء عناية خاصة للتراث الحضاري المعماري الإسلامي المتمثل في كنوز الأوقاف الإسلامية المعرضة للإندثار ودراسة إحيائها وتجديدها وإعادة تأهيلها وتوظيفها مع الحفاظ على سماتها الخاصة وابرازها ومن بينها المساجد والأسبال أو الأحباس القديمة ونحوها.

٤ ـ تنمية الإحساس لدى الطلاب والطالبات في كل المراحل التعليمية ـ بقيم التراث الحضاري المعماري العربي والإسلامي سواء عن طريق المناهج، أو المواد ذات العلاقة (كالتاريخ والجغرافيا) أو عن طريق وسائل الإعلام.

٥ ـ إحياء الحرف المهنية المرتبطة بعناصر تجديد وإعادة توظيف التراث العمراني والتدريب على المهارات المتنوعة المرتبطة بذلك.

٦ ـ إيجاد قاعدة «معلوماتية» لتوثيق وتسجيل كل المعالم التراثية والمواقع المعمارية الحضارية والأثرية العربية الإسلامية بهدف الحفاظ عليها وإعادة إحيائها



ـ نموذج من العمران التراثي في جُدَّة القديمة / السعودية.

وتأهيلها وصيانتها وترميمها مع توجيه بعض الدراسات العليا والرسائل العلمية والأبحاث لتطويرها، وإعادة توظيفها وإبرازها مع عقد الندوات والمؤتمرات والحلقات العلمية للعناية بها.

٧ ـ وأخيرا وليس آخراً، فقد سبق أن اقترح صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن سلمان بن عبد العزيز آل سعود في بحثه عن المحافظة على التراث والطابع المعماري الإقليمي بالملكة الذي ألقاه في المؤتمر الثالث لرؤساء البلديات والمجمعات القروية، الذي عقد في شهر شوال ١٤٠٨هـ (الموافق مايو ١٩٨٨م) في مدينة أبها اقترح أن يقوم البرنامج الوطني للمحافظة على التراث المعماري والطابع الهندسي الإقليمي بالملكة على تأسيس «اللجنة الوطنية للمحافظة على التراث المعماري والطابع الهندسي الإقليمي» بحيث يخدمها مكتب يجرى تأسيسه في وزارة الشئون البلدية والقروية لمتابعة أعمالها وتوصياتها، وأن تكون هذه اللجنة الوطنية برئاسة وزير الشئون البلدية والقروية وعضوية كل من مسئولين من وزارة الشئون البلدية والقروية من ذوى العلاقة بعضوية دائمة، ومن ممثلين عن كليات العمارة والتخطيط بالملكة بعضوية دائمة أيضا، ونخبة من المهندسين المعماريين السعوديين المعنيين بأهدافها (لمدة ثلاث سنوات) وكذلك نخبة من المواطنين من ذوي الاهتمام ممن لهم دور مميز في أعمال اللجنة وأهدافها بعضوية لمدة ثلاث سنوات، وكذلك أعضاء من القطاعات ذات العلاقة بالعمارة والبناء بعضوية لمدة ثلاث سنوات. وأن يكون من مهام اللجنة الوطنية: تكليف كليات العمارة والتخطيط بالقيام بدراسة وضع الأسس الرئيسة للبرنامج الوطني للمحافظة على التراث المعماري (بما في ذلك تجديد المفهوم وحصر المواقع وطرق ترميمها والمحافظة عليها واقتراح التشريعات والأنظمة لمنع التعديات والهدم؛ وكذلك إعداد دراسة عن وضع الأسس للبرنامج الوطني للمحافظة على الطابع المعماري الإقليمي بما في ذلك الأبحاث التي تمت من قبل الجهات المختصة به داخل المملكة وخارجها والقيام بوضع القواعد الرئيسة، وكذلك يكون من مهام اللجنة الوطنية تحديد الأهداف الرئيسة للبرنامج على ضوء الدراسات ونشر الوعي العام حوله وكذلك الندوات والمؤتمرات ومراجعة المناهج الدراسية في ذلك ، وكذلك إعادة إحياء الحرف المعمارية القديمة، ووضع تصاميم معمارية ملائمة في ضوء ذلك تسهل حصول المواطنين ـ من ذوي الدخول المحدودة ـ على مخططات مساكنهم ويحصلون عليها دون مقابل، أن يتم إيجاد ذلك البرنامج وتشكيل اللجنة في غضون عام واحد[١٤].

فلعل من المناسب وقد مضى على اطلاق ذلك الإقتراح اثنا عشر عاما ـ أن نذكر بذلك وتأكيد اعادة

طرحه. ولا شك أن الحفاظ على التراث العمراني وطابعه المحلي والاقليمي المميز هو ابراز لهذا التراث على المستوى العالمي والإسلامي والعربي ولا يعنى ذلك بالضرورة وجود خطوط فاصلة أو عازلة له بين الأقاليم والمحليات المختلفة في تراثها الحضاري المعماري المنوع.

الهوامش :

(١) عبد القدوس الأنصاري / موسوعة تاريخ جدة / الطبعة الثانية / مطابع الروضة / جدة ١٤٠٠هـ.

(٢) المعهد العربي لإنماء المدن - منظمة المدن العربية، أبحاث من ندوة المدينة العربية خصائصها وتراثها الحضاري والإسلامي في مجلدين: للأبحاث العربية ومجلد للأبحاث الإنجليزية. تحرير اسماعيل سراج الدين وسمير الصادق، واشنطن، الولايات المتحدة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

(٣) المعهد العربي لإنماء المدن - منظمة المدن العربية واتحاد مدن وبلديات مرمرة والمضائق، وبلدية اسطنبول الحفاظ على التراث المعماري الإسلامي، أعمال وتوصيات وبحوث مؤتمر الحفاظ على التراث الحضاري المعماري الإسلامي في المدن؛ ثلاثة مجلدات باللغات العربية والإنجليزية والتركية، مجلدا الأبحاث العربية والإنجليزية طبعا في مطابع جامعة الملك سعود ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

(٤) جائزة منظمة المدن العربية، جوائز الدورة الخامسة وثائق ومنجزات، الكتاب الثالث الدوحة قطر ١٩٩٦م.

(٥) منظمة العواصم والمدن الإسلامية والمنهج الإسلامي: في التصميم المعماري والحضري، مطابع البلاد، جدة ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

(٦) منظمة العواصم والمدن الإسلامية: أسس التصميم المعماري والحضري في العصور الإسلامية المختلفة، دراسة خاصة عن مدينة القاهرة، باللغتين العربية والإنجليزية بالتعاون، مع مركز الدراسات التخطيطية بالقاهرة وتعمل المنظمة على استكمال السلسلة عن العواصم الإسلامية: دمشق، بغداد ... الخ.

(٧) منظمة العواصم والمدن الإسلامية خوارزم: الحضارة المنسية لمنطقة ما بين بحري قزوين وأرال- باللغتين العربية والإنجليزية بالإشتراك مع مارب- منهاج البحوث للفن المعماري الإسلامي.

(٨) بخارى: الكتاب الثاني من السلسلة التي تقوم بها المنظمة بالإشتراك مع مارب منهاج البحوث للفن المعماري الإسلامي.

(٩) صدر العدد الأول من مجلة البلديات في رجب ١٤٠٥هـ ابريل ١٩٨٥م وكان رئيس التحرير هو الدكتور خالد العنقري، ولها هيئة تحرير من المسئولين في الوزارة ولكنها توقفت بعد حوالي تسع سنوات وتدرس الوزارة الآن فكرة إعادة الاستمرار في إصدارها.

(١٠) وكان المؤتمر الأول لرؤساء البلديات في مدينة الدمام في عام ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م وكان موضوعه: مسئوليات البلدية وواجبات المواطن.

وكان المؤتمر الثاني بالمدينة المنورة في شهر جمادي الأولى ١٤٠٦هـ/ فبراير ١٩٨٦م وموضوعه: توثيق العلاقة بين البلديات والأجهزة الأخرى.

وكان المؤتمر الثالث في أبها في شوال ١٤٠٨هـ/ مايو ١٩٨٨م وموضوعه: الخدمات البلدية الحفاظ عليها وتطويرها.

(١١) البلديات/ وزارة الشئون البلدية والقروية/ العدد الثاني عشر ١٤٠٨/٤هـ/ ديسمبر ١٩٨٧م، ص ١، ٢.

(١٢) البلديات/ نفس المصدر والعدد ص ٤ - ١٣.

(١٣) البلديات/ وزارة الشئون البلدية والقروية/ العدد الثامن عشر ١٤٠٩/١٠هـ/ مايو ١٩٨٩م، ص ٥٩ - ٦٥.

(١٤) البلديات - وزارة الشئون البلدية والقروية، العدد السادس عشر، السنة الرابعة، ربيع الآخر ١٤٠٩هـ/ نوفمبر ١٩٨٨م، ص ٧ - ١٢.

العمارة الحربية

- العمران في إقليم عسير خلال القرون المتأخرة الماضية
- الاستحكامات الحربية الاسلامية في اليمن
- العمارة الحربية في العصور الاسلامية في (بلاد الشام وتركيا وايران وآسيا الوسطى والهند)
- المرابطات .. دورها وأهميتها التاريخية
- أسوار وقلاع الأندلس



العمران في إقليم عسير خلال الق

تختلف وتتنوع طبيعة العمران في جنوبي البلاد السعودية (مناطق جازان، ونجران، وعسير، والباحة، والطائف) من مكان إلى آخر ويرجع هذا التنوع الى احتياجات وإمكانات أهل البلاد، والى طبيعة هذه الأجزاء ذات التباين الواضح في التضاريس والنواحي الجغرافية الأخرى.

وهذه الدراسة أطلقنا عليها (العمران في إقليم عسير خلال القرون المتأخرة الماضية) برغم أن حديثنا في مواطن عديدة قد شمل مناطق نجران، وجازان، والباحة، ولكن ليس بشكل جوهري، لهذا اقتصرنا في العنوان على «إقليم عسير» وذلك لعدة أسباب أهمها ما يلي:

١ - يلحظ الدارس لتاريخ جنوبي البلاد السعودية منذ ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ثم قيام الدولة السعودية الأولى - أن إقليم عسير كان بين مد وجزر في حدوده، ولكن غالبا ما كانت مناطق جازان ونجران والباحة تراجع مدينة أبها (حاضرة منطقة عسير)، وخصوصا في الأمور الإدارية والمالية[١].

٢ - إن الأجزاء التي تشملها منطقة عسير اليوم جبالها، وسهولها، ووهادها تكاد تكون متشابهة في نواحيها العمرانية مع بقية المناطق الأخرى في جنوبي المملكة العربية السعودية، ولهذا ارتأينا تسمية البحث بـ «العمران في إقليم عسير» مع أننا لو أطلقنا عليه اسم «العمران في جنوبي البلاد السعودية» فلن نجانب الصواب، ولكن العنوان المستخدم ربما يكون أكثر توافقا مع المادة العلمية المدونة بداخل الدراسة، ومن ثم قد يكون الأنسب علميا وأكاديميا.

أما العناصر التي سوف نتعرض لها فإنها تشكل الحديث عن القرى وطريقة عمرانها وتخطيطها قديما في البلاد العسيرية، ثم نفصل الحديث عن أنواع البيوت، والقصور، والحصون ومرافقها وطريقة تشييدها، ولأن القلاع والمنشآت العسكرية منتشرة في طول وعرض البلاد الممتدة من مكة المكرمة والطائف شمالا إلى جازان ونجران جنوبا، فإن مثل هذا الموضوع يحتاج إلى دراسات تاريخية وحضارية



بقلم :

أ.د. غيثان بن علي بن جريس

كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية - جامعة الملك خالد - السعودية

مستفيضة قد تدون في عشرات المجلدات، ولهذا اكتفينا في هذا البحث بالإشارة إلى أربع قلاع عسكرية مشهورة توجد بداخل حاضرة أبها وما حولها،، واختصارنا في هذا الجانب يعود إلى عدة أسباب منها:

أولا:

أن كتابة هذا البحث كانت بطلب من الاستاذ نبيه بن عبد القدوس الأنصاري، صاحب مجلة المنهل ورئيس تحريرها، حيث أبلغني خطيا في شهر ذي القعدة عام ١٤٢٠هـ بالرغبة في إصدار عدد سنوي عن تاريخ العمارة، ذاكرا في خطابه ما يلي:

«وأمل الأخذ في الاعتبار أن هذا الإصدار يركز على فرعين هما: العمارة العسكرية ، والعمارة الخدمية»[٢] وعندما عزمت على المشاركة وتجاويت مع سعادته فضلت الكتابة عن إقليم عسير خلال القرون المتأخرة الماضية، وأن يكون حديثنا متشعبا فيشمل العديد من الجوانب، ولا يقتصر على عنصر دون الآخر، وذلك بهدف إعطاء فكرة عن منطقة عسير التي لازالت بحاجة شديدة الى الدراسات العلمية الأكاديمية في جوانب عديدة، والعمارة وتاريخها وأهميتها الحضارية والعلمية من تلك الجوانب الهامة.

ثانيا:

إن دراسة العمران في إقليم عسير، وأخص بذلك العمارة العسكرية والخدمية، التي ذكرها الأستاذ الأنصاري في خطابه تحتاج إلى تضافر جهود المهندسين المعماريين، والمؤرخين، والجغرافيين وغيرهم من المتخصصين، حتى تخرج لنا دراسات علمية أكاديمية جادة، ولهذا فإني من خلال صفحات هذه

إضاءة

- أستاذ ورئيس قسم التاريخ بكلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية والادارية - جامعة الملك خالد، أبها.
- دكتوراه في قسم الدراسات الشرقية/ جامعة مانشستر بانجلترا بتقدير ممتاز مع درجة الشرف الاولى.
- عضو عامل في بعض لجان التحكيم العلمية.
- شارك في اصدار الاطلس التاريخي للمملكة العربية السعودية.
- عمل في عدد من اللجان العلمية.
- عضو مجموعة من الجمعيات التاريخية والاجتماعية والتعليمية في داخل المملكة وخارجها.
- شارك في العديد من الندوات والمحاضرات واللقاءات.

من مؤلفاته:

(له ستة عشر مؤلفا) واكثر من ستين بحثا ودراسة منشورة في العديد من المجلات والدوريات.

- افتراءات المستشرق كارل بروكلمان على السيرة النبوية.
- بلاد بني شهر وبني عمرو خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين.
- صفحات من تاريخ عسير.
- بحوث في التاريخ والحضارة الاسلامية.
- الهجرات العربية الى ساحل شرقي افريقية.
- الاقليات الاسلامية في العالم.



دراسة تاريخية حضارية

الدراسة أهيب بكل ذوي الاختصاص الاهتمام بتاريخ العمارة في المملكة العربية السعودية بوجه عام وجنوبي المملكة العربية السعودية بوجه خاص، وأنا على يقين أن الدارس والباحث لمثل هذه الجوانب سوف يجد جديدا في دراسته، ويحفظ حضارة وتراثا يمثلان تاريخ وفكر الأوائل ممن سكنوا وعاشوا في هذه البلاد.

كما أنه الى جانب العناصر السابقة، فإننا سوف نشير ضمن محتويات هذه الدراسة إلى مبان أخرى عرفتها بلاد عسير، بل معظم شبه الجزيرة العربية مثل: حفر الآبار وبنائها، والمقابر المشيدة فوق سطح الأرض وتحتها، والكهوف، والمدرجات الزراعية، والأحمية وأسوارها، الى غيرها من الأبنية المختلفة، التي لازلنا نشاهد آثارها وبقاياها في أنحاء متفرقة من الأجزاء الجنوبية في المملكة العربية السعودية.

القرية:

وقبل الحديث بالتفصيل عن بناء البيوت خلال القرون المتأخرة الماضية، نتعرض بالإشارة الى القرية أو القرى المكونة في الأساس من المنازل المتعددة، ومن يلق نظرة سريعة على القرية القديمة في طول بلاد عسير وعرضها، سواء في الأجزاء السروية أو التهامية، يلاحظ عدة أمور منها:

(١) تراكم منازل القرية الواحدة بعضها إلى جوار بعض مع وجود ممرات ضيقة جدا توصل بعضها ببعض، وهذا التخطيط في اندماج وتقارب بيوت سكان القرية، ربما كان ناتجا من الخوف الذي كان يسود الناس في الماضي، لما كان هناك من سلب ونهب وفوضى وحروب قبلية، ولهذا فأفراد القبيلة أو القرية الواحدة، لابد أن يكونوا متقاربين في مساكنهم حتى يتكاتفوا في صد أي عدو خارجي يهاجم مضاربهم[٣].

(٢) يظهر على العديد من القرى القديمة أنها توجد حول المناطق الزراعية، أو بعض الأماكن الرعوية المتوفر فيها الماء والكلأ، أو أنها توجد حول أسواق تجارية أسبوعية مرتبطة بالعديد من الطرق التجارية البرية، أو على مقربة من سواحل البحر الأحمر، وبخاصة في الأماكن الصالحة لمرسى السفن التجارية[٤].

وبهذا فموقع قرى عسير كان متأثرا بالحياة المعيشية،، وبما يعود على أفراد القرية أو العشيرة الواحدة من دخل وتحسين لمستوى معيشتهم،، وممارسة لمهنهم التي يقتاتون منها[٥].

ومحاولة لمعرفة مقدار حجم القرية في عسير، خلال القرون الماضية، فلم نجد مصادر توضح لنا ذلك من حيث مساحتها، وعدد المنازل في القرية الواحدة. وقد استطعنا العثور على بعض الروايات المتناثرة في بعض المصادر، فالرحالة تاميزيه (M. Tamizia) الذي قدم الي بلاد عسير،، مع قوات محمد علي باشا في العقد الخامس من القرن الثالث عشر الهجري أشار الي بعض المواقع العسيرية، وعدد قراها، فقال عن بيشة «وفيها نحو ستين قرية أكبرها نمران، والروشن الكبير، والروشن الصغير، وهذه القرية مبنية بالطين، ويستعمل أهلها للبناء جذوع النخل،، ويدخل الناس إليها من بابين أو ثلاثة أبواب، تقفل في أيام الحرب وحيطان بيوتها متلاحمة، فهي مثل السور في وجه العدو، وليس لها سوى طابق واحد»[٦]، ثم يواصل هذا الرحالة حديثه بايجاز عن قرى خميس مشيط، وحجلا، وأبها[٧]، لكنه لم يفدنا كثيرا في توضيح بعض التفصيلات عن هيئة القرى وطرق تخطيطها، بقدر ما ذكر عن عدد الأدوار في كل قرية، ونوعية المواد المستخدمة في البناء. ويأتي رحالة انجليزي آخر إلى بلاد عسير، قبل الحرب العالمية الأولى، فيشير إلى مواقع عديدة، مثل صبيا، و(أبو عريش)، والنماص، وقرية الشعبين في بلدة رجال ألمع، وسراة عبيدة، والظفير في بلاد غامد، ثم يصف طبيعة المنازل في تلك الأماكن،، والطرق والمواد المستخدمة في عملية البناء[٨]. والجيد في ملاحظات هذا الرحالة أنه ذكر عدد المنازل في بعض تلك المواقع، فقال عن قرية الظفير: «هي قرية كبيرة وفيها حوالي (٤٠٠) بيت من الحجر.. وهي بلدة السوق الرئيسي»[٩] ثم أشار إلى

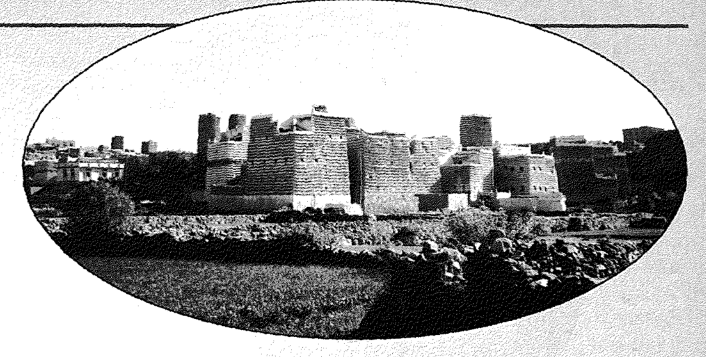
ـ مبنى تظهر فيه السواري المستخدمة في البناء.

قرى أخرى»، كالنماص التي تتألف من أربعمائة بيت مبنية من الحجر[١٠]، والشعبين من ثلاثمائة بيت[١١]، وقرية رجال ألمع من حوالي ألف بيت[١٢]، وسراة عبيدة من مائتي بيت مبنية من الحجر الأجر[١٣]، وعند ذكره لسراة عبيدة، قال عن أهليها: «وقراهم عديدة، ومبنية جيدا، وهم متخصصون في البناء ـ أي كبنائين ـ يروجون تجارتهم في عسير»[١٤].

ويشير سليمان باشا الكمالي[١٥]، إلى طبيعة المنازل والقرى في أبها، فيذكر أنها كانت تتألف من ثلاث قرى منفصلة، وفي كل قرية سبعون أو ثمانون منزلا[١٦]، ويتعرض أيضاً إلى وصف بعض القرى الواقعة في أجزاء من بلاد شهران، كتمنية، والقرعاء، والمسقى وما حولها، فيقول: «.. وقرى هذه الجهات مبنية بالحجارة، وفيها أزقة ضيقة، ومنازل متصلة، بحيث تشبه القرية بمجموعها قلعة قائمة بذاتها، ومنازل القرى ذات طابقين أو ثلاثة طوابق، وهي مطلية من داخلها بالجير وذات منظر جميل»[١٧]. كما أشار إلى أماكن أخرى في الأجزاء السروية، مثل: خميس مشيط، وتنومة والنماص ببلاد بني شهر، فلم تكن تختلف تلك القرى في تخطيطها وطرق بنائها، عما سبق الإشارة إليه عن أبها أو قرى تمنية والقرعاء[١٨].

ويعاصر الشريف البركاتي كلا من الرحالة الإنجليزي كورنواليس، وسليمان شفيق باشا في أوائل القرن الرابع عشر الهجري، فيصف بعض القرى العسيرية في كل من الأجزاء التهامية والسروية، ويتحدث عن بلاد بارق فيقول: «وقرى وادي بارق تبلغ خمسين قرية كلها مبنية بالحجر المنحوت الجميل، والدور فيها من طابقين الى ثلاثة»[١٩]، وينتقل الى الحديث عن بلدة القنفذة: «وهذه المدينة ثلثها مبني بالأحجار، والثلثان الباقيان أكواخ مصنوعة من جريد النخل، وخشب أشجار السمر والطرفاء، ولهم فيها صناعات جميلة واعتناء تام حتى إنها تمكث ثلاثين سنة تقريبا، وأغلب البيوت المبنية بالأحجار طبقة واحدة، عدا محلات الحكومة والأغنياء من التجار فبيوتهم طبقتان»[٢٠]، ويصف بعض القرى في الأجزاء السروية مثل أبها، وخميس مشيط، وبيشة وما حولها، فيتفق مع السيركيناهان كورنواليس وسليمان باشا من حيث ضيق وتراكم منازل القرية بعضها على بعض، ومن حيث ارتفاع المنازل وعدد أدوارها[٢١].

وفي أواخر القرن الهجري الماضي يصف أحد أبناء البلاد العسيرية القرى والمنازل في إقليم عسير، فلا يذهب بعيداً عما ذكر المؤلفون السابقون، لكنه أضاف تفصيلات أكثر عن بعض القرى[٢٢]، مثل بلدة النماص وما حولها من القرى فقال: «ويحيط بالنماص حوالي ثلاثين قرية، أبعدها لا تزيد مسافتها عن ساعة واحدة.. ويلاحظ وجود قلاع وحصون منيعة في معظم



- جانب من الطراز العمراني القديم.

القرى الواقعة في منطقة النماص. وطريقة البناء في كل المنطقة بالحجارة، فلا ترى بيتا باللبن أو بالطوب، بل جميع هذه بالحجارة ما عدا بعض البيوت الواقعة في بلاد بني الأحمر (بللحمر) فإن أسفلها بالحجارة،، وأعلاها باللبن. كما أن متانة البناء وقوته في بيوت النماص وما جاورها من القرى مدهشة وعجيبة في نفس الوقت. إذ أنهم يستعملون في بنيانها صخوراً كبيرة قل أن يحمل الصخرة الواحدة خمسة من الرجال، بل ربما كانت أكثر قوة وصلابة وحجماً، وتبدو قوة البناء ومتانته في القصور الخاصة بآل العسبلي، فهي آية في القوة والمتانة وسمك البناء، ولقد ذرعت بعض الصخور التي وضعت في إحدى هذه القصور، فوجدت عرضها لا يقل عن متر وطولها حوالي مترين، كما أنني لاحظت أن سمك البناء في بعض تلك القصور يزيد عن المترين. وإن قل فمتر ونصف وتتألف هذه القصور من عدة حجرات وغرف واسعة، ويبلغ ارتفاع بعض هذه القصور حوالي عشرة أمتار، تتألف من أربعة وخمسة أدوار»[٢٣].

ومن يتجول في أنحاء بلاد عسير (تهامة وسراة) يجد أن الكثير من القرى التي أشار إليها الكتّاب السابقون وغيرها،، لازال ماثلا للعيان، وأغلب المنازل القديمة بها لم يعد يستخدم، وإنما هجرها أهلها وبنوا لهم دوراً جديدة، جل موادها من الخرسانة المسلحة. وبالتالي ظهر هناك العديد من القرى الحديثة في نمط عمارتها، وصارت تقام جنباً إلى جنب مع القرى القديمة[٢٤].

البيوت ومرافقها :

جميع القبائل والعشائر في عسير تمتلك قرى ومضارب للاستيطان، ولكن بناء منازلهم اختلف من مكان لآخر، والاختلاف ناتج من التباين التضاريسي الموجود في البلاد وكذلك عن اختلاف الأحوال الجوية، وامكانات الحصول على المواد المستخدمة في البناء تختلف أيضاً من جزء لآخر. ولكي نطلع القارىء الكريم على طبيعة البيوت ومرافقها رأينا أن ندرس المنطقة على ثلاثة محاور:

المحور الأول: ويشمل الجزء الأوسط، أو ما يسمى بالأجزاء السروية.

والمحوران الآخران هما: الأجزاء التهامية الغربية من المحور الأول، والأجزاء النجدية البدوية الواقعة الى الشرق من الأجزاء السروية.

فأما الأجزاء السروية الممتدة من نجران جنوباً الى زهران شمالا، فيوجد بها العدد الأكبر من القرى

والمنازل والسكان، إلى جانب أن معظم البيوت ومرافقها بهذا الجزء مبنية من الحجارة[٢٥].

ولازلنا نشاهد مئات القرى وآلاف البيوت ماثلة للعيان حتى يومنا الحاضر[٢٦]، وبهذا الجزء بعض البيوت مبنية من الطين، أو جزء يبني من الطين والجزء الآخر من الحجر فبلاد قحطان وشهران وأجزاء من رجال الحجر، تجد أن بعض الأسر كانت تبنى منازلها من الطين،، أو أنها تؤسس للبيت بجدار من الحجارة يرتفع عن الأرض متراً إلى مترين، ثم يواصل بناء البيت كاملا بالطين، وربما كانوا يلجأون الى استخدام الطين لسهولة جمعه وتجهيزه،، وبخاصة إذا ما قورنت مع عملية إحضار وتجهيز الحجارة. ولعل استخدام الطين بالمناطق التي يستخدم فيها الطين بالأجزاء الجبلية السروية، يعود الى ندرة الحجارة الجيدة الصالحة للبناء والملاحظ أن الأطراف الجنوبية السروية من الإقليم العسيري أقل احتواء على الحجارة، خصوصاً إذا ما قورنت تلك الأجزاء بالنواحي الشمالية في المنطقة نفسها. وكثيراً ما نجد الحجارة مستخدمة في البناء ببلاد زهران وغامد، وبلقرن وشمران وخثعم، وبني عمرو وبني شهر وبللسمر وما حولهم. وعندما نتجه نحو الجنوب إلى بلاد بللحمر، وقبائل عسير الرئيسية، وبلاد شهران وقحطان نجد كثيراً من المنازل ومرافقها مبنية من الطين، أو الحجر، أو منهما معاً[٢٧].

أما الأجزاء الشرقية أو الغربية من عسير، فالتباين بها أيضا ملموس، حيث يوجد بعض المباني الحجرية في القرى الكبيرة، أمثال: جازان، وصبيا، وأبو عريش، ومحائل، وحلي، ورجال ألمع، وبارق، والقنفذة، وفي أسفل المنحدرات الغربية للأجزاء السروية أو ما يسميه أهل البلاد بـ (الأصدار، ومفرده صدر)، وكذلك في تثليث، وبيشة، وبعض البوادي من الأجزاء الشرقية ولكن استخدام الحجارة في البناء بتلك الأجزاء لا يرقى الى مستوى استخدامها في الأجزاء السروية. وفي الأجزاء التهامية السهلية كـ (جازان، وصبيا، وأبو عريش، والبرك، والقنفذة، وغيرها) يكثر استخدام الأخشاب والأشجار في بناء بيوتهم التي يطلقون عليها بعض المصطلحات العامية في لهجتهم، مثل: (العشش ومفردها عشة، والصبول ومفردها صبل، والأعرشة ومفردها عريش). أما منازل الطين فقليلة جدا، ولا توجد في بعض المناطق التهامية، وأما الأطراف الشرقية من الإقليم، فأغلب المنازل بها مبنية من الطين، وأحياناً تبنى فيها بعض المنازل من الأخشاب والأشجار كجريد النخل، وهناك من كان يبني منزله من الحجارة، ولكن بشكل أقل مستوى من أهل السراة، والى جانب استخدام الطين والحجر والجريد، كان بعض من أهل الأجزاء الشرقية بدواً رحلا يذهبون وراء رعي مواشيهم، فيصنعون بيوتهم من الشعر الذي يحصلون عليه من أصواف بهائمهم التي يملكون، وبهذا يسهل عليهم نقلها أثناء نزولهم وترحالهم من مكان لآخر بحثاً عن الماء والكلأ.

والبيوت، سواء كانت في الأجزاء السروية أو التهامية، أو الشرقية، كان لها مرافق كالأسوار التي تحيط بها، أو بعض الملاحق التي هي: عبارة عن بيوت أو غرف أصغر من المنازل الأساسية، وغالباً ما تستخدم لمبيت البهائم، أو مستودعات لما



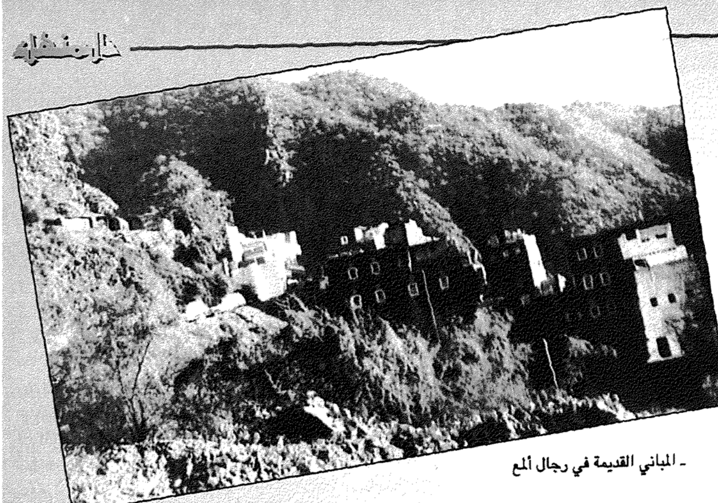
- سقف منزل قديم تظهر فيه جذوع الشجر المستعملة في البناء.

يحتاجه أفراد الأسرة. وتختلف المنازل في حجمها من مكان لآخر، ومن أسرة لأخرى، فتجدها في القرى الكبيرة[٢٨]. أمثال: خميس مشيط ،، وأبها ، وسراة عبيدة والنماص، وبيشة ، والقنفذة، وبارق ، والبرك ، وحلي، وصبيا، وجازان ، تتراوح بين الطابق الواحد وبين عدة طوابق، وهذا الاختلاف يعود إلى القدرة المالية للأفراد والاسر، فشيوخ القبائل، والتجار، والمقتدرون مادياً يُشيّدون بيوتاً متعددة الأدوار، وجيدة البناء والنقش، أما الفقراء أو عامة الناس فيكتفون بدور واحد، أو في أغلب الأحيان يكون دوراً ناقصاً فلا يتكون إلا من غرفة أو غرفتين على الأكثر، وكلما ابتعدنا عن المراكز الحضارية الى الأرياف والبوادي أو القرى الصغيرة، وجدنا مستوى البناء يتدنى، وعدد الطوابق يقل، ومواد البناء المستخدمة تصبح أقل جودة مما هي عليه في القرى والمراكز الحضارية الكبرى[٢٩].

والمراحل التي يمر بها بناء المنزل تختلف في البناء بالأحجار،، الى اللبن (الطين) الى القش وغصون الأشجار. وهذا ما سنناقشه في الصفحات القادمة وجميع سكان إقليم عسير يتشابهون في طريقة اختيار المكان الذي يراد استخدامه لتشييد المنزل عليه، لم تكن هناك مخططات منظمة ومدروسة طبقاً لشروط ومعايير محددة، وإنما أغلب السكان يمتلكون أراضي زراعية أو سكنية ورثوها عن آبائهم وأجدادهم، وغالباً ما تكون معروفة بحدود ومعالم معينة[٣٠] وعندما يريد الفرد أن يقيم له سكناً، يختار مكاناً معيناً بدون سابق تخطيط، ويبدأ في عملية البناء ولكن عند اختيار المكان يراعي قربه من موارد المياه، ومن أفراد القرية أو العشيرة التي ينتمي إليها، حتى يكون في مأمن، فينال الحماية والتعاون من أفراد قريته وعشيرته في أوقات السراء والضراء[٣١].

وطريقة البناء بالأحجار متشابهة في جميع أنحاء البلاد، حيث يبدأ بتسوية الموقع المراد إقامة المنزل عليه، ثم يحفر قرابة نصف متر للجدار الأساسي للمنزل، وتجلب الأحجار الكبيرة من الجبال والأودية فتوضع بشكل منظم في تلك الحفرة التي يطلق عليها عند بعض أهل البلاد اسم (الربض)، ثم يواصل البناؤون ومن يعمل معهم[٣٢] تشييد الجدر الرئيسية. ويختلف سمك جدار البناء من مكان لآخر، لكنها تتراوح من ثمانين سنتيمتراً إلى متر ومترين، وذلك حسب حجم السكن الذي يراد تشييده، وهل يتكون من دور أو دورين، أو أكثر من ذلك؟ وكلما زاد عدد الأدوار المراد تشييدها، زاد سمك جدار البناء والجدار في الدور الواحد يرتفع حوالي ثلاثة أمتار، وبخاصة في الأجزاء السروية، وأقل من ذلك بقليل في الأجزاء التهامية والشرقية من المنطقة نفسها. كما يصمم الجدار الواحد من شقين، الشق الخارجي أو ما يسمى بـ (الوجه)، وهو الجزء الخارجي من الجدار ويراعي في هذا الوجه اختيار الحجارة ذات الأوجه المتساوية حتى يكون منظرها جميلا، أما الشق الآخر فهو الجزء الداخلي، ويطلق على هذا الشق اسم (القفا أو الخلف). وفي كلا الشقين يضع البناؤون بين الحجارة الكبيرة في الجدار، حجارة رقيقة صغيرة يسمونها ببعض اللهجات المحلية (صَلْباً أو كحْلا) بفتح الصاد والكاف وتسكين اللام والحاء، وذلك ليظهر الجدار بشكل جميل خال من الفجوات. كما يوضع بين الوجه والقفا في الجدار حجارة صغيرة مع الطين، لكي يتماسك الجدار بعضه مع بعض، وفي الغالب يطلق على الجدار بشقيه، وما بداخله اسم (مدماك وجمعه مداميك) وبهذه الطريقة يتم تشييد جميع جدر المنزل مهما كانت أدواره، ومهما كان حجمه، وعندما تشيد الجدر الخاصة بالدور الأول يسقف السطح بالأخشاب والتراب.

وطريقة التسقيف تمر ببعض الخطوات، فتجلب الأخشاب الكبيرة من الجبال والأودية الخاصة بأهل القرية، وفي الغالب تكون تلك الأخشاب من شجرة العرعر أو الطلح، أو العتم (الزيتون البري) أو السمر، ويطلق على الخشبة الواحدة اسم (بطنة وجمعها بطن)، ويجلب معها أيضاً أغصان صغيرة الحجم ومستقيمة تسمى (مراكب ومفردها مركاب، أو جريد ومفردها جريدة). ثم تشذب وتنظف الأخشاب (البطن) الكبيرة، وتوضع على كل غرفة على أن تكون متصلة من جدار



ـ المباني القديمة في رجال ألمع

إلى آخر، وحين تكون الغرفة واسعة المساحة، ولا تصل الأخشاب المجلوبة من جدار لآخر، يؤتي بأربع أو خمس خشبات أكبر وأطول وأقوى، تسمى في بعض اللهجات المحلية من عسير (سواري ومفردها سارية) أو اسم (جيز للخشبة الواحدة منها)[٣٣]، وتمد على عرض الغرفة، وبعدها يرتب بقية الخشب (البطن ومفرده بطنه) بشكل طولي ومتقابل على الغرفة التي وضعت عليها (السواري) على أن يكون أطراف الخشب (البطن) على جدار الغرفة، والطرف الثاني على السواري، ثم تفرش (المراكب) على (البطن)، وتغطى ببعض النباتات والشجيرات كنبات العرفج وغيره، وأحياناً توضع فرش الطفى أو سعف النخيل على (المركب) ثم يغطى السطح كاملا بالطين، وبسمك فوق (المراكب) يبلغ الخمسة عشر إلى الثلاثين سنتمتراً، بعدها يغطى بالتراب، وعند ذلك يكون الدور الواحد قد اكتمل تعميره، ثم تتبع الطريقة الآنفة الذكر في تشييد الأدوار الأخرى، إذا كان المنزل من دورين أو أكثر.

ويراعي في مساحات الأبواب والنوافذ صغر الحجم، فلا يستطيع الرجل المتوسط الحجم الدخول من أغلب النوافذ المصممة في المنازل القديمة، كما أن مداخل الأبواب تكون صغيرة، حتى الرجل القصير القامة ربما ينحني عندما يدخل من بعض الأبواب، وإذا كان المنزل الواحد مكوناً من عدة أدوار، ففي الغالب أن نوافذ وأبواب الأدوار السفلى تكون أصغر بكثير من الأبواب والنوافذ التي في الأدوار العليا. والسبب في ذلك ربما يعود الى الخوف من السارق أو من قد يداهم البيت ليلا، أو أثناء غياب أرباب البيوت. أيضاً للحصول على الدفء، والتخفيف من دخول الهواء البارد ربما يكون سبباً آخر في جعل فتحات الأبواب والنوافذ صغيرة.

أما طريقة بناء البيوت الطينية فغالباً ما تكون على شقين:

الشق الأول:

أن يكون المنزل مبنياً في الأساس بالحجارة، وبارتفاع يتراوح من المتر إلى المترين ثم يستكمل بناء الجدر بالطين. والتأسيس لهذا النوع من البيوت مثل

طريقة بناء المنازل الحجرية السابقة الذكر.

الشق الثاني:

أن يشيد البيت من الأساس بالطين، وطريقة استخدام الطين في البناء هي: البحث عن التربة الجيدة التماسك، فيؤتي بها، ثم يخلط عليها التبن المنقى من درس القمح والشعير، وتمزج بالماء وتدرس بأرجل الحيوانات (كالبقر والحمير وغيرها) لعدة ساعات، وأحياناً ليوم أو يومين، ثم يجمع الطين المدروس وينقل إلى مكان البناء، فيوضع على هيئة جدار أو (مدماك)، ويترك بعض الوقت حتى يجف، ثم يواصل العمل على هذا النهج حتى يتم بناء جدر الدور الأول أو الأدوار المراد تشييدها، والتسقيف وعمل الأبواب والنوافذ، يسلك فيها الطريقة المتبعة في تعمير البيوت الحجرية ولازلنا نلاحظ هذا النوع من المنازل في أماكن متفرقة من بلاد قحطان، وشهران، ومدينة أبها وما حولها، ومحائل، وبارق، وبعض الأجزاء التهامية الأخرى ومنها ما هو على هيئة أشكال هرمية، أو اسطوانية، أو مربعة، أو مستطيلة، ويشاهد على جدر بعضها من الأعلى حجارة مبسوطة رقيقة مرصوصة بعضها فوق بعض، يطلق عليها في بعض اللهجات المحلية اسم (رقف). وفائدة هذه الحجارة أنها تساعد على تماسك الجدار الطيني، كما تقيه من تأثير الأمطار.

ومنازل القش، والأشجار توجد بكثرة في الأجزاء التهامية، الممتدة من جازان الى القنفذة، وفي بعض الأجزاء الشرقية، كبيشة وما حولها، ومنها ذات الأشكال المخروطية ، أو المربعة، أو الدائرية، أو المستطيلة. ومن أهم هذه البيوت، العشة، والعريش، والصبل، وجميعها تبني من أخشاب الأشجار المحلية، كالدوم، والسلم، والسمر، والنخل، والأثل وغيرها. ولبناء العشة يتم اختيار مكان البناء، ثم يحفر الأساس، وبعدها يؤتي بالأخشاب الثقيلة فتغرس رأسيا في حفر الأساس وبشكل مرتب، وبارتفاع يتراوح من المترين إلى ثلاثة أمتار تقريباً، ويتم الربط بين تلك الأخشاب الكبيرة بحلقة تسمى (الجرائح). وهذه الجرائح مكونة من الأعواد الصغيرة التي يسهل استخدامها ولفها حول محيط العشة. وتواصل عملية البناء الى أعلى وبشكل تدريجي حتى تنتهي الى رأس العشة، ويطلق على الرأس عند بعض السكان في تهامة اسم (القرعينة) وتأتي مرحلة الكساء الذي تغطى به العشة، وغالبه من القش وأغصان الأشجار، وتربط من الأسفل بحبال المرخ، ويسمى ذلك الربط بـ (الوزرة)، وينتقل إلى الجزء الأعلى الذي يسميه بعض الأهالي بـ (البديم)، فيربط أيضاً بحبال المرخ أو الطفى.

وغالباً يضاف من الأعلى أغصان وأوراق الشجيرات أمثال: الشمام والحلف، ثم تلف العشة مرة ثانية من الأعلى إلى الأسفل بحبال أخرى حتى تصير قوية ومتماسكة بشكل جيد.

أما العريش والصبل فمواد بنائها أيضاً من الأخشاب والقش، وأغصان الشجر، إلا أن الصبل يكون في بعض الأحيان بمثابة ملحق للعشة، يستخدم مطبخا

ـ نوع من المباني القديمة.

لطهي الطعام، أو مجلسا لاستقبال الضيوف، وخاصة عند الأغنياء وميسوري الحال. أما عند بعض الفقراء فيعد منزلهم الأساسي.

وبعض المنازل التي على هيئة صبول تترك جوانبها مفتوحة، أو يترك لها باب واسع لتكون جيدة التهوية، أما العشة ففي الغالب تكون أبوابها صغيرة، وبعض العشش لها بابان، أما العريش فغالباً يكون مفتوح الجانبين،، ويستخدم لمبيت الحيوانات، أو لأغراض أخرى متعددة.

وجميع البيوت الحجرية أو الطينية أو الشجرية تتشابه في إحاطتها بأسوار أو أحواش. فالذين يستخدمون الحجر أو الطين في بناء منازلهم، يحيط بعض منهم داره بسور من الحجر أو الطين، ثم يوضع على أعلى السور أغصان الشوك أو بعض الشجر ذات الأشواك لتحمي البيت ممن قد يدخله من اللصوص أو بعض البهائم، أو الوحوش المفترسة، والمنازل المبنية من الأشجار يوضع حولها أسوار من الأخشاب والأشجار نفسها المستخدمة في بناء العشة أو العريش أو الصبل.

وبعد اكتمال الهياكل الأساسية للمنازل، تأتي مرحلة أخرى، هي تزيين المنزل من الداخل، ومن خلال رحلاتي في بعض الأجزاء من إقليم عسير وكذلك في منطقة نجران وجازان والباحة، شاهدت العديد من المنازل القديمة، التي يعود تاريخ بناء بعضها الى ثلاثمائة وأربعمائة سنة، وأعظم ما لفت نظري ما يوجد من الألوان والنقوش المختلفة بداخل بعض من تلك المنازل. فالجدر الداخلية والأسقف والأرضيات مكسوة بالطين الأصفر أو البني، وأرضيات بعض منها مخططة بالطين تخطيطاً نصف دائري، أو ذات أشكال مستطيلة أو مثلثة، أو مربعة وأحيانا يكون في بعض الحجرات خط أفقي عريض، يطوق الغرفة ويبلغ ارتفاعه من مستوى الأرضية حوالي نصف متر تقريباً مطلي باللون الأخضر، يليه من الأعلى عدة أشكال صغيرة متناغمة الألوان بين الأحمر، والأسود، والأخضر، والأصفر. وبهذه الأشكال والألوان العجيبة توجد مربعات، ومثلثات وأهرامات، وأزهار ونحوها في مظهر متناسق فني بديع أما الأسقف في بعض المنازل فتلون ببعض الألوان المختلفة، وكذلك بعض الأبواب والنوافذ، وأحياناً الداخل الرئيسة للمنزل يرسم عليها بعض النقوش الجميلة المتناسقة، وأحياناً تطلى النوافذ والأبواب بمادة القطران المستخرجة من بعض الأشجار المحلية، وربما رسم على بعضها رسوم طبيعية جميلة.

والبيوت المشيدة من الأشجار، تقوم النساء مثلهن مثل ربات البيوت في المنازل الحجرية أو الطينية بتزيين بيوتهن من الداخل، فيغطين جدرها بالطين المخلوط مع التبن، وأحياناً روث بعض البهائم (كالأبقار) وبعد الانتهاء من عملية تغطية الجدار وجفافه، يطلى بمسحوق أبيض، ثم يرسم عليه بعض النقوش والزخارف الجميلة.

وهناك خدمات أخرى تتبع المنازل، كالتدفئة، والتبريد والإضاءة وجلب الماء، والأثاث، وهذه الخدمات جميعها كانت موجودة في الماضي، ولكن بشكل بدائي ويسير جداً لا يقارن مع الخدمات التي يتمتع بها الناس اليوم، سواء في إقليم عسير أو غيره، ومع كونها كانت بسيطة في الماضي، فإنها كانت أيضا تتفاوت مع القرى الكبيرة الى الأرياف والبوادي، ومن دور الأغنياء والأعيان والشيوخ إلى منازل الفقراء أو المعوزين ومن هو على شاكلتهم[٣٤].

والتدفئة والتبريد تختلف من مكان لآخر، لأن التضاريس والمناخ لهما دور في إيجاد الدفء والبرد (ولم يكن هناك أجهزة تبريد أو تدفئة كما نشاهد في عصرنا الحاضر). فعندما يأتي البرد لا يتقى إلا بارتداء الملابس لمن يملكها أو يستطيع الحصول عليها، إلى جانب جلب الأخشاب والحطب من الأودية والجبال، ثم إشعال النيران التي يحصل على بعض الدفء منها، وكانت أكثر المناطق برودة الأجزاء الجبلية، وأحياناً الأطراف الشرقية البدوية من الإقليم نفسه، التي يشتد البرد بها في فصل الشتاء، وبقية الفصول الأخرى تكون أخف وطأة. والحصول على البرودة وبخاصة في المناطق السهلية التهامية، فلم يكن هناك أي وسيلة إلا التظلل تحت الأشجار، أو الغسيل بالماء، أو وضع

بعض الأقمشة أو الخيش في الماء، ثم وضعه على أعلى العشش، أو سطوح المنازل، لكي تكسر حدة الحر وتلطف الجو ببعض البرودة.

وجلب مياه الشرب والغسيل إلى المنازل كان يتم عن طريق العيون والآبار والجالبون له هم النساء والأطفال وأحياناً الرجال الذين يرفعونه من الآبار عن طريق الدلاء، ويحملونه على ظهورهم، أو على ظهور الحمير والإبل، ثم يخزنونه في قدور وأوان مصنوعة من الفخار.

ومن النادر أن نجد أحداً يمتلك خزاناً للماء، وإن وجد بعض الخزانات، فلم تظهر إلا في العقود الأخيرة من القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي)، وبخاصة عند الأغنياء والمقتدرين مادياً. أما بيت الخلاء والحمامات، فوجدت في بعض الدور وأماكن مخصصة للغسيل والنظافة، أما أماكن قضاء الحاجة، فلم تكن موجودة بكثرة، ولم تستخدم بشكل واسع إلا منذ العهود المتأخرة في القرن الماضي.

والأثاث تزين به المنازل، فالأغنياء، والأمراء، والشيوخ يمتلكون في أغلب الأحيان دوراً ذات أثاث جيد. أما الفقراء في القرى والبوادي والأرياف، فلم يكن عندهم إلا أشياء بسيطة، وفي كثير من الحالات تكون بعض المنازل خالية من الأثاث لندرتها، أو عدم القدرة على شرائها، وأغلب أنواع الأثاث الموجودة قديماً كانت تصنع من جلود وأصواف الحيوانات المحلية، أو تستورد بعض الملاحف والسجاد من المدن الكبرى في شبه الجزيرة العربية، كالمدينة المنورة ومكة المكرمة، وصنعاء، واليمامة، والبحرين، وغيرها.

وبعض الرجال كانوا يحبذون تزيين البيوت من الداخل، فيعملون على شراء بعض الأسلحة، كالسيوف، والخناجر، والبنادق، والأحزمة وغيرها، ثم يعلقونها على جدر بعض الحجرات في المنزل، وغالباً ما تكون تلك الحجرات أماكن استقبال الضيوف، أما النساء فيجمعن بعض الصحون، والقدور أو الأواني الجميلة فيعلقنها في الحجرات المخصصة للطبخ، أو بعض الحجرات الأخرى في المنزل، بهدف حفظها، وإضفاء شكل جمالي على جدر المنزل من الداخل.

الحصون والقصور:

من الأبنية في عسير، الحصن والقصر، والأول بناء مستقل بذاته، يتكون من عدة طوابق، وله أهداف عدة منها: استخدامه للدفاع والحرب ضد أي عدو يهاجم المنطقة التي يوجد بها هذا الحصن. أو يستخدم لتخزين الحبوب والعلف وما أشبهها. أو يستخدم لمراقبة وحراسة المزارع، وأحياناً قد يستخدم للسكن، أما القصر ففي الغالب يستخدم للسكن، ومن يمتلك القصور يكون في أكثر الأحيان من طبقة الأمراء، والمشايخ، والأعيان، والتجار.

وتكثر الحصون والقصور في إقليم عسير، وبخاصة في الأجزاء السروية الواقعة بين نجران جنوبا،، وزهران شمالا، ولازال ماثلا للعيان العديد من الحصون والقصور التي نشاهدها في هذا الجزء، وقد أصابها الخراب والدمار، حتى إن بعضها لم يبق منه إلا جزء بسيط، وبعضها الآخر أوشك على الانهيار، وستسقط قريباً إذا لم تجد من يصونها ويحافظ عليها. وتاريخ بعض هذه الحصون والقصور ربما يعود مئات السنوات إلى الوراء.

ومما يؤكد ذلك ما ذكر ابن المجاور عندما وصف بعض الحصون والقصور في بلاد السراة، فقال: «وقد بني في كل قرية قصر من حجر وجص، وكل من هؤلاء - يقصد أهل السراة - ساكن في القرية له مخزن في القصر، ويخزن في المخزن جميع ما يكون له من حوزه وملكه، وما يؤخذ منه إلا قوت يوم بيوم، ويكون أهل القرية محتاطين بالقصر من أربع ترابيعه»[٣٥]. وهذا الوصف الذي حفظ لنا ابن المجاور من القرن السابع الهجري، لازال ينطبق على طبيعة وهيئة بعض الحصون المهجورة في بعض قرى عسير السروية[٣٦].

وتختلف مواد بناء الحصون والقصور، وبخاصة في البلاد السروية، فبعض منها مبني بالحجارة والطين

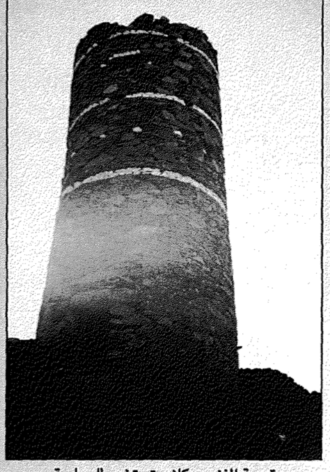
معا، وبعض آخر يؤسس لها بمترين أو ثلاثة أمتار من الحجر ثم تستكمل من الطين، ومنها ما هو مبني من الطين فقط.

والحصون المشيدة من الحجر مع الطين تكثر في بلاد غامد وزهران، وبلقرن وشمران، وخثعم، وبلاد الحجر. أما الحصون والقصور المبنية من الطين فتوجد بكثرة في بلاد قحطان وشهران، وديار عسير الرئيسة. والأسباب في هذا الاختلاف تعود إلى ما ذكرنا سابقا، من حيث تواجد المواد الأساسية للبناء سواء كانت من الأحجار أو الطين.

أما الحصون أو القلاع التي شيدت من أجل هدف حربي دفاعي فقد وضعت على رؤوس الجبال، أو في الأودية، أو بعض المناطق الاستراتيجية التي يستطيع المحارب أو المدافع استخدامها على أحسن وجه ضد العدو. وغالبا يتم بناء هذه الحصون بطريقة جماعية يشترك فيها أهل الفخذ أو القرية أو العشيرة الواحدة، أو من له مصلحة حتى ولو كان من قرية أو عشيرة أخرى. وهذه الحصون تتفاوت في عدد طوابقها، وفي سعتها وضيقها[٣٧]، ولازال العديد من الحصون المختلفة على قمم الجبال، وفي بعض الأودية والوهاد والهضاب، وبداخل بعض القرى في أنحاء الإقليم. كما أن بعضاً من تلك الحصون الواقعة في القرى، أو بالقرب من المزارع تكون ملكاً لأسرة أو لعدة أسر يرتبطون بجد واحد، شيدوها لأجل استخدامها في الدفاع، أو حراسة مزارعهم وتخزين حبوبهم وأعلاف بهائمهم بها.

أما القصور فتوجد غالباً في المراكز الحضارية الكبرى، كبيشة، والنماص، وتنومة، وأبها، وخميس مشيط، وجازان، وأبو عريش، والقنفذة، وفي بعض القرى المجاورة للمراكز المذكورة آنفا[٣٨].

وتختلف أحجام ونوعيات القصور من مكان لآخر، ومن أسرة لأخرى حسب الإمكانيات والقدرات المادية، ونشاهد في يومنا الحاضر العديد من القصور المهجورة في طول وعرض الإقليم العسيري، وبعضها مبني بالحجارة ومطلي من الخارج بالجص، وأحيانا منقوشة بحجر المرو، والبعض الآخر مبني بالطين أو بالطين والحجر معاً.

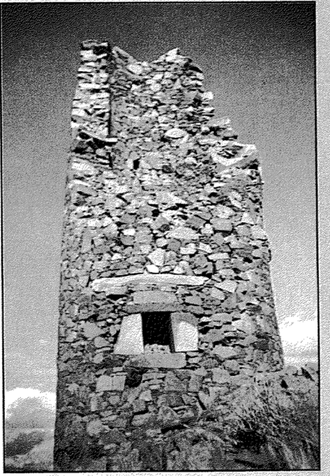


- قصبة الذنوب، كانت تستخدم للحراسة.

وتزيين القصور من الداخل يعود إلى القدرة المالية عند أصحابها، فكلما كانت أحوال صاحب القصر جيدة، انعكس ذلك على نقش وزخرفة القصر من الداخل، وعلى الأثاث والأدوات المستخدمة داخلياً. وبالمقارنة مع أصحاب البيوت الفقيرة ومتوسطي الحال في المجتمع، فمستوى نقش وزخرفة وتأثيث قصور الأغنياء أفضل حالا من غيرها.

القلاع والمنشآت العسكرية:

عرفت أبها عاصمة منطقة عسير بالكثير من المنشآت العسكرية، وخاصة خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين (التاسع عشر والعشرين الميلاديين)، ومن تلك المعالم ما سوف نورده في النقاط التالية:



ـ قصبة تسمى مغلقة لانها تغلق على ثلاثة طرق هامة في المنطقة.

١ ـ قلعة المفتاحة اختطها الأمير علي بن مجثل العسيري[٣٩].

٢ ـ الثكنة العسكرية المعروفة بطاش قشلة (أي المبنية بالحجر) اختطها الوالي التركي فيضي باشا (١٢٩٤هـ/ ١٨٧٧م ـ ١٢٩٧هـ/١٨٧٩م) أثناء حكمه بأبها سنة ١٢٩٤هـ وكانت تقع على القسم الجنوبي من رأس أملح وقد بني على أنقاضها قصر شدا الجديد[٤٠].

٣ ـ اختط قصر شدا القديم في عهد الأمير/ عائض بن مرعي (١٢٤٩هـ/ ١٨٣٣م ـ ١٢٧٣هـ/ ١٨٥٦م)، وكان من أمنع معاقل الجنوب على الإطلاق، ثم أدخل عليه الأمير/ محمد بن عائض (١٢٧٣هـ/ ١٨٥٦م ـ ١٢٨٩هـ/ ١٨٧٢م) تحسينات قيمة وأحاطه بسور رفيع، كما أحدث بجواره مزرعة وبساتين أنيقة سميت فيما بعد بـ (الطبجية)[٤١].

ويذكر أحد الرواة بعض التفصيلات عن قصر شدا فيقول: كان مقاماً على ربوة شرقي ساحة البحار، وشمالي بستان (الطبجية)، ويتكون من أربعة طوابق، استمر استخدامه منذ القرن الثالث عشر حتى النصف الثاني من القرن الرابع عشر الهجري، ثم أصابه الخراب والدمار، وأخيراً تم هدمه وأقيم مكانه مبنى الهاتف القديم، الموجود حاليا في الطرف الجنوبي من أسواق أبها التجارية[٤٢].

٤ ـ لقد اهتمت الدولة العثمانية بالمنشآت العسكرية في منطقة عسير، وخاصة في مدينة أبها وما حولها، ومن يتجول في مواقع كثيرة من الجبال والوهاد التي تحيط بحاضرة أبها يجد آثار الحصون والقلاع التي بناها الأتراك من أجل السيطرة على منطقة عسير، والتصدي لحروب القبائل التي كانت تثور بين حين وآخر.

والوالي التركي محيي الدين باشا في منطقة عسير (١٣٣١ ـ ١٣٣٧هـ/ ١٩١٣ ـ ١٩١٨م) كان من أكثر ولاة الأتراك الذين قاموا ببناء التحصينات في بلاد عسير[٤٣]، فقد مد الخطوط الرئيسة للمواصلات بين أبها وملحقاتها، وأنشأ المعاقل في المراكز والمضايق الهامة والمنعرجات ورؤوس الجبال والوهاد المختلفة في منطقة عسير[٤٤]. كما قام ببناء العديد من الحصون والثكنات والقلاع العسكرية في أماكن متفرقة من حاضرة أبها، ومن أهم تلك القلاع: قلعة الدقل، وقلعة شمسان، وقلعة ذرة، وقلعة شعار[٤٥]، ولأهمية تلك القلاع الأربع في عهد الأتراك بمنطقة عسير، وكذلك بقائها حتى الآن ماثلة للعيان، وهي تمثل جزءاً من الآثار المندثرة في عسير،، لذا رأينا أن نفرد في الصفحات التالية دراسة مختصرة لكل قلعة من تلك القلاع العسكرية.

١ ـ قلعة الدَّقل :[٤٦]

تقع قلعة الدَّقل، بالدال المشددة مع الفتح، في الشمال الغربي من مدينة أبها، وقد شيدت فوق جبل

يبلغ ارتفاعه في حدود (٢٣٤٣) مترا فوق مستوى سطح البحر، ويبلغ ارتفاع هذا الجبل فوق مستوى وادي أبها في حدود (١٤٣) مترا[٤٧].

ويعد هذا الموقع ذا أهمية استراتيجية من الناحية العسكرية، إذ يمكن بواسطة القلعة المشيدة عليه التي تتمركز فيها الحامية العسكرية إغلاق جميع المنافذ والطرق التي تتخلل الشعاب والأودية عبر السلسلة الجبلية الواقعة في الجهتين الشمالية والغربية من القلعة، والتي من السهل على المهاجمين التسلل عن طريقها إلى داخل مدينة أبها، الى جانب ذلك فإنه بالإمكان عن طريق هذا الموقع التصدي لأي هجوم محتمل من الجهة الشمالية ودحره قبل دخوله المدينة[٤٨].

ويعد الوالي التركي في عسير، محيي الدين باشا (١٣٣١ - ١٣٣٧هـ/ ١٩١٣ - ١٩١٨م) المؤسس الحقيقي لقلعة الدَّقل، وذلك عندما تنبه الى ضعف الجبهة الشمالية الغربية من حاضرة أبها، والتي تتمثل في المنافذ والطرق التي تتخلل السلسلة الجبلية الغربية التي تعد مصدر خطر على المدينة في حال قيام ثورات على القوات العثمانية التي كان أغلبها متمركزاً في مدينة أبها وخاصة أن الحرب العالمية أصبحت وشيكة الوقوع آنذاك[٤٩]. ولذا نجد الوالي محيي الدين باشا يصدر أوامره بتشييد قلعة الدَّقل في الفترة الواقعة بين (١٣٣٢ - ١٣٣٤)[٥٠]، على أن تكون قلعة تتوافر فيها كل وسائل الدفاع الممكنة، وما تتطلبه هذه الوسائل من معدات وذخائر ومؤن تكفي لفترة زمنية طويلة في حال نشوب ثورات في حاضرة أبها من جهة أو وقوع المدينة تحت الحصار الطويل من جهة ثانية[٥١].

وبقيت قلعة الدَّقل تؤدي مهمتها العسكرية، كأحد التحصينات البارزة في حاضرة أبها، أثناء ولاية محيي الدين باشا في منطقة عسير، وبعد مغادرة القوات العثمانية من المنطقة، في العقد الرابع من القرن الهجري الماضي، استمرت هذه القلعة تستخدم ببعض الجنود في عهد الدولة السعودية الحالية، ثم هجرت منذ بداية النصف الثاني في القرن الرابع عشر الهجري، فأصابها الخراب والدمار، ولم يبق منها الآن إلا أطلالها المتهدمة[٥٢].

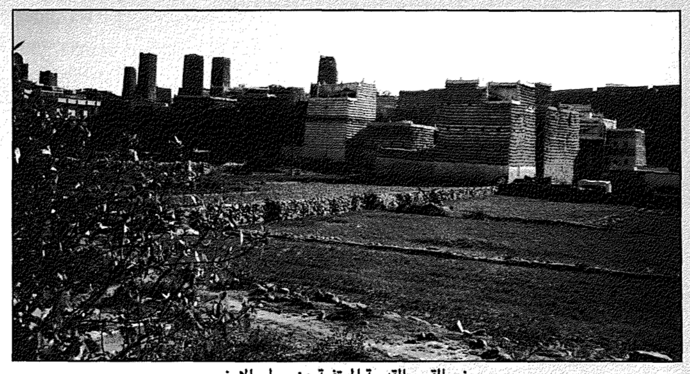
٢ ـ قلعة شمسان :

تقع شمسان الى الشمال الشرقي من مدينة أبها، وقد شيدت على قمة جبل شمسان[٥٣] الذي يبلغ ارتفاعه حوالي (٢٣٠٠) متراً فوق سطح البحر، وهي تسيطر على الطريق القادم من عقبة شعار شمالا، حيث يعد الطريق الرئيس الذي يربط مدينة أبها بالمناطق الشمالية. ومن هنا، فإن تشييد القلعة في هذا الموقع له أهميته العسكرية في إغلاق الطريق أمام أي هجوم يداهم المدينة من ناحية الشمال. ولهذا فقد تنبه الوالي التركي محيي الدين باشا الى أهمية تحصين شمال مدينة أبها، فأصدر أمره ببناء هذه القلعة الحصينة على رأس جبل شمسان، واستمرت تؤدي مهمتها العسكرية حتى غادر الأتراك بلاد عسير عام (١٣٣٧هـ/ ١٩١٨م) ثم هجرت فأصابها الخراب وتهدمت بعض أجزائها، وفي عام (١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م) احتاجت القوات السعودية الى استخدامها، فوضعت فيها حامية عسكرية بعد أن قامت بترميم الأجزاء التي هدمت منها قبل ذلك، وإضافة بعض الوحدات البنائية اللازمة بها[٥٤]. وبقيت مستخدمة لمدة قصيرة تراوحت بين ست وسبع سنوات، ثم هجرت فأصابها الخراب حتى تجدها اليوم على هيئة أبنية مهدمة خربة لا يستفاد منها[٥٥].

٣ ـ قلعة ذرة :

أشار بعض الكتاب، الذين تعرضوا لتاريخ منطقة عسير، الى قلعة ذرة، فمنهم من ذكرها باسم «ذِرَة» أي بكسر الذال وفتح الراء، ثم التاء المربوطة في آخر الكلمة[٥٦]. وفريق آخر ذكرها «ذَرا» فاستبدلوا بالتاء المربوطة ألف المد[٥٧].

وفي الواقع فإن التسمية على الحالين صحيحة، وخاصة عند أهل البادية، لأن حرف الهاء أقرب



ـ بعض القبور القديمة المرتفعة عن سطح الارض.

المخارج إلى الألف، ولهذا فإن الهاء تشبه الألف في حال الوقف، وبالتالي فلا غرابة في ذلك[٥٨].

وعند رجوعنا الى المعاجم اللغوية الأساسية لنعرف صحة ضبط الكلمة ونطقها لم نستطع العثور على كلمة «ذِرَه» بكسر الذال وفتح الراء ثم هاء ساكنة، وإنما الذي عثرنا عليه هو كلمة «ذرا» وهذا يؤيد قول الفريق الثاني في الفقرة السابقة، ثم إن ذكر الكلمة بوضع الألف في آخرها مع فتح الذال، يعنى به كون شيء في كنف آخر أو في حمايته، فيقال مثلا: أنا في ذرا فلان، أي في ظله، أو كنفه، أو حمايته، أو ستره، وربما هذا المعنى مع ضبط آخر الكلمة بحرف المد يتناسب مع مهمة قلعة «ذرَة» التي أطلقت عليها هذه التسمية[٥٩].

وتقع قلعة ذرة إلى الجنوب من مدينة أبها، حيث شيدت في عهد الوالي التركي محيي الدين باشا على قمة جبل ذرة الذي يبلغ ارتفاعه حوالي (٢٤٠٠) متر فوق مستوى سطح البحر، ويبلغ ارتفاع هذا الجبل فوق مستوى وادي أبها حوالي (١٦٠) مترا. وهذا الارتفاع الشاهق والموقع الاستراتيجي الذي شيدت عليه القلعة ساعد في السيطرة والإشراف على جميع الطرق الواصلة إلى أبها من الجهة الجنوبية الغربية، وخاصة تلك الطرق القادمة من تهامة عبر وادي عتود ثم عقبة ضلع حتى مدينة أبها. كما سيطرت القلعة أيضاً على الطريق القادم من الجهة الجنوبية الشرقية، الذي يربط بين حاضرة أبها وبلاد شهران وقحطان في الشرق وفي الجنوب الشرقي من مدينة أبها. ثم إن حصانة القلعة وصعوبة ارتقاء جبل ذرة يحول دون سقوطها في أيدي القوات المهاجمة، إلا إذا وقعت تحت الحصار الطويل وانقطعت عنها الإمدادات[٦٠].

وبقيت قلعة ذرة تؤدي مهمتها العسكرية خلال الحكم العثماني، ومنذ بداية عهد الدولة السعودية الحالية هجرت فأصابها الخراب، ولم يجر عليها أي إصلاح إلا في عام ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م عندما قامت بلدية أبها ببعض الترميمات البسيطة، وخاصة في الجهة الشمالية من القلعة، حيث تم إعادة بناء مدخلها الذي يتكون من كتفين بارزين بعد أن سقط مع مرور الزمن، بالإضافة إلى إعادة بناء النهايات العليا لحوائط الكتلة البنائية التي تقع في أقصى الجهة الشمالية الشرقية من القلعة[٦١].

٤ ـ قلعة شعار :

تقع قلعة شعار قرب تقاطع خط عرض (٢٦َ / ١٨ْ) شمالا وخط طول (٢٧َ / ٤٢ْ) شرقا، وبالتحديد في منطقة يطلق عليها «باحة شعار» وهي المنطقة التي نسبت فيما بعد إلى القلعة، ويبعد موقع هذه القلعة عن مدينة أبها حوالي ٣٣ كم تجاه الشمال[٦٢].

وقد شيدت القلعة على مساحة من الأرض شبه مستوية ترتفع عن مستوى البحر حوالي (٢٤٠٠ إلى ٢٨٠٠) متر، وتطل من الجهة الغربية على وادي تيه مباشرة[٦٣]، أما من الجهات الشرقية والشمالية الشرقية والجنوبية الشرقية فتحيط بالقلعة مساحة شاسعة من الأرض تخترقها بعض الأودية المنحدرة من التلال الجبلية المحيطة بهذه المساحة من الجهتين الجنوبية والجنوبية الشرقية، التي تتجه نحو الشمال الشرقي حيث تتفرع بعد ذلك إلى أودية صغيرة لا تلبث أن تختفي في هذه المساحة من الأرض.

وتكمن أهمية هذا الموقع الحربي في أنه يشرف إشرافاً مباشراً على الطريق المنحدر من عقبة شعار (عقبة تيه) باتجاه وادي تيه في تهامة، حيث يمكن عن طريق القلعة السيطرة على العقبة، وفي الوقت نفسه حماية طريق المواصلات الذي كانت تسلكه القوات العثمانية فيما بين مدينة محائل وعقبة شعار من ناحية، وتهديد القبائل التي تسكن على ضفاف الوادي في حال حدوث ثورات ضد قوافل التموين العثماني، وذلك عن طريق إرسال قوات من هذه القلعة لإخمادها من ناحية أخرى[٦٤].

كما أنه يمكن عن طريق القلعة إرسال قوات لتهديد قبائل رجال الحجر في تهامة والسراة[٦٥]، وذلك عند قيامهم بثورات ضد القوات العثمانية،، حيث إن موقع القلعة يساعد على سرعة تحرك القوات لقطع الطريق أمام الثائرين قبل وصولهم إلى مدينة أبها[٦٦].

أما تشييد قلعة شعار فقد تم على ثلاث مراحل رئيسة، وتعود أقدم منشاتها إلى عام ١٢٨٩هـ/ ١٨٧٢م، حيث تشير بعض المصادر التاريخية إلى أن القوات العثمانية تمكنت من ضم منطقة عسير في شهر رمضان عام ١٢٨٨هـ/ ١٨٧١م، ثم اتخذت من رأس تيه (شعار) موقعاً شيدت فيه قلعة حصينة حتى يتم عن طريقها حماية خط الاتصال بين مدينة أبها في السراة وبين بلدة محائل في تهامة، وفي الوقت نفسه يمكن عن طريقها تهديد قبائل رجال الحجر في الجهة الشمالية الشرقية من القلعة عند قيامهم بثورات ضد القوات العثمانية[٦٧].

وظلت هذه القلعة قائمة حتى عام ١٢٩٤هـ/ ١٨٧٦م، حيث استمرت تؤدي المهمة نفسها التي شيدت من أجلها، وبعد ذلك التاريخ لم تصلنا معلومات تشير بأنها مازالت قائمة، عدا بعض الإشارات التي توحي لنا بأنها تعرضت لأعمال تخريب قام بها أهالي عسير السراة لقطع خط التموين عن القوات العثمانية في السراة أثناء قيام الأمير/ علي بن محمد آل عائض عام ١٣٢١هـ/ ١٩٠٣م، ومساعدته من قبل قبائل رجال الحجر ضد العثمانيين وحصار عاصمتهم آنذاك مدينة أبها[٦٨].

أما المرحلة الثانية لبناء قلعة شعار فتعود إلى عام ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م عندما تنبه القائد سليمان باشا الى أهمية موقع شعار العسكري، وأنه لابد من الاستفادة منه في تشييد قلعة حربية يمكن عن طريقها السيطرة على الطرق المارة من عقبة تيه وحماية الطرق الواصلة إلى مدينتي أبها والقنفذة، وقد تم الاستفادة من مباني القلعة[٦٩].

وعندما تولى القائد التركي محيي الدين باشا متصرفية لواء عسير عام ١٣٢٢هـ/ ١٩٠٣م، لاحظ أن الجهة الشمالية الغربية لقلعة شعار ضعيفة وتحتاج إلى تحصينات حربية قوية تستطيع حامية القلعة عن طريقها كشف مساحات شاسعة من عقبة تيه لصد أية قوة مهاجمة قبل صعودها العقبة، وواضعاً في اعتباره الخلل الفني في هذه الجهة، الذي أتاح الفرصة للقوات الإدريسية في عام ١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م أن تصعد من عقبة تيه وتحاصر القلعة دون أن تتمكن القوات العثمانية الموجودة داخلها من اكتشافها[٧٠]، ولذلك

أصدر محيي الدين باشا أوامره إلى ذوي الاختصاص بإضافة بعض الاستحكامات الحربية في تلك الجهة، وتشييد ساحة للتدريب في الجهة الجنوبية الشرقية من القلعة[٧١].

واستمرت قلعة شعار تؤدي مهمتها كأحد المعاقل الحصينة في عهد النفوذ التركي في منطقة عسير، وبعد خروجهم ومجيء الحكومة السعودية الحالية استمر أيضاً استخدامها من قبل الجيوش السعودية، ولكن لفترة قصيرة، ثم هجرت فأصابها الخراب وتهدمت أغلب أجزائها حتى لا تجد فيها اليوم إلا أطلالا دارسة[٧٢].

وإذا ما اطلعنا على المنشآت العسكرية في عهد الدولة السعودية الحالية بمنطقة عسير وحاولنا تفصيل الحديث عنها، فلن يكفينا عشرات الصفحات كي نستوفي الشرح عن كل إنجاز عسكري، ولكن نكتفي هنا بالإشارة إلى أهم الإنجازات والمنشآت العسكرية في منطقة عسير، وخاصة حاضرة أبها.

١ - لقد أنشئ في مدينة أبها خلال السبعينيات من القرن الماضي مدرسة حربية يدرس فيها أبناء منطقة عسير بل أبناء جنوب المملكة العربية السعودية، ويدربون فيها التدريبات العسكرية الهامة التي فيها نفع للدين والوطن، وبقيت تلك المدرسة تؤدي مهمتها في منطقة عسير حوالي عشر سنوات، ثم نقل مقرها إلى مدينة الطائف. وقد تخرج في تلك المدرسة أعداد من الطلاب الذين تدرجوا في السلك العسكري حتى وصلوا مراتب عسكرية عالية[٧٣].

٢ - منذ الثمانينيات في القرن الهجري الماضي، صارت الدولة السعودية تعمل جاهدة على إنشاء بعض المشاريع العسكرية الكبيرة في منطقة عسير. والمطار العسكري، شرق مدينة خميس مشيط كان من أعظم تلك الإنجازات تلا ذلك المدينة العسكرية في منطقة تقع بين مدينة خميس مشيط وأحد رفيدة، وهذه المدينة تقع على الطريق الرئيسي الذي يربط بين حاضرة أبها ومدينة نجران، وتعد المدينة العسكرية في منطقة عسير من أكبر المدن العسكرية في المملكة، وذلك بما تحتوي عليه من طاقات بشرية ومعدات وآلات عسكرية، وكذلك منشآت عمرانية.

٣ - وتتبع كلا من المدينة العسكرية والمطار العسكري العدد الكثير من الوحدات العسكرية، وكذلك المنشآت والإنجازات العمرانية. وهذا التقدم والتطور الذي يسود هذه القطاعات ليس إلا جزءاً بسيطاً من اهتمامات الدولة بالفرد السعودي في جميع المجالات الحضارية والعمرانية والفكرية وغيرها.

مبان أخرى:

ومن الأبنية الأخرى في إقليم عسير، تلك المدرجات الزراعية التي نشاهدها في طول وعرض البلاد، وبخاصة في الأجزاء السروية. فلا نكاد نرى مواطن زراعية إلا ويحيط بها من معظم الجهات أسوار مبنية بطريقة جميلة وجيدة. وقد يرجع تاريخ بعض تلك الأسوار إلى مئات السنين، وتتفاوت في الارتفاعات ما بين نصف المتر والمترين، وربما بلغ ارتفاع بعضها ثمانية أمتار أو عشرة أمتار. والفوائد التي يمكن استخلاصها من تعمير مثل هذه المدرجات، هي: أن المنطقة تحكي عن وجود حضارة قديمة، وعن وجود أقوام أقوياء استطاعوا التكيف والتغلب على ما كان يقابلهم من مشاكل طبيعية أو بشرية أو غيرها. كما أن بناء مثل هذه المدرجات يساعد على حفظ تربة المزارع من الضياع والاندثار، الى جانب الحفاظ على قطعة زراعية بمعالم وحدود معينة تفصلها عن المزارع الأخرى المجاورة لها[٧٤].

وأسوار أخرى نشاهد بقاياها على بعض الأحمية[٧٥] في رؤوس الجبال وقيعان الأودية وأصحاب الحمى الواحد كانوا يحيطون حماهم بأسوار يبلغ ارتفاعها ما بين المتر والمترين.

وهناك أسوار أخرى كانت تبنى لبعض الأسر، أو القرى، أو العشائر، لتكون معالم حدود بين منطقتين[٧٦] والمميز في طبيعة هذه الأسوار، أنها (بسيطة) في بنائها وتشكيلها، وغالباً تبنى بالحجارة فقط دون أن يخلط معها التراب أو الطين، على خلاف



ـ جانب من المباني القديمة.

ما يحدث في بناء المنازل، والحصون، والمدرجات الزراعية.

ومن المعالم الحضارية الأخرى، حفر الآبار التي يصل عمق بعضها إلى خمسين متراً أو أكثر، علماً أنه لم يكن لدى الأوائل أجهزة وآلات تساعدهم في الحفر كما نشاهد في وقتنا الحاضر، وإنما أدوات حفرهم كانت بسيطة وبدائية في قدرتها وفي طريقة تصنيعها. وعند الأنتهاء من حفر أي بئر، يطوي جزؤها العلوي ببناء يكسبها شكلا جمالياً جيداً، ويحفظها من الأوساخ والأتربة والحجارة التي قد تتساقط من أطرافها العلوية.

ومن خلال جولاتي الميدانية في أجزاء عديدة من بلاد عسير، شاهدت بعض القبور المبنية فوق سطح الأرض، والتي يصل ارتفاع بعضها إلى ثلاثة وأربعة أمتار تقريباً. واكثر ما رأيت هذا النوع من القبور في بعض الأجزاء الشرقية من بلاد قحطان وشهران، وفي وادي عياء. ووادي ترج، ومنطقة الحدب من بلاد بللحمر وبني شهر وبني عمرو. والملاحظ على تلك القبور جمال بنائها، وأحياناً نقشها بالجص أو حجر المرو، وإلى جانب هذه القبور السطحية هناك قبور أخرى مدفونة تحت الأرض. والكثير منها (المدفونة والسطحية) على غير اتجاه القبلة، كما شاهدنا على القبور الواقعة في وادي عياء ببلاد بللحمر، ووادي ترج ببلاد بني شهر العدد الكثير من تلك القبور، والشيء الغريب أني لم أجد في المصادر التاريخية المبكرة أي إشارة لمثل هذا النوع من القبور في بلاد السراة.

كما حاولت أن أعرف تاريخا لها من بعض المسنين في تلك المناطق، فلم أجد إجابة شافية أستطيع الاعتماد عليها، علما بأن البعض منهم، يعتقد وبدون دليل، أنه حدثت هناك حروب دامية اقتتل فيها أعداد كثيرة من الناس، ثم تم دفن من مات منهم في تلك الأماكن. ولكن لو سلمنا جدلا بهذا القول، فما هي الأسباب التي جعلتهم يتقاتلون، وفي أي زمن كان قتالهم، ومن أولئك المتقاتلون؟ ولو وجدنا إجابة لهذه الأسئلة لربما صدقنا هذه الرواية، ولو اعتقدنا بصحة هذا القول مثلا، حتى ولو لم نجد إجابة للأسئلة السابقة، فمتى حصل الوقت الكافي لمن بقي حياً فيشيد مثل تلك القبور السطحية، ثم يطلي بعضها بالجص، أو ينقشها بالمرو الأبيض حتى تصبح في شكل معماري جميل[٧٧].

والشيء الذي لا أستطيع الجزم به، هل من الممكن أن مثل هذا النوع من القبور بُني قبل ظهور الإسلام؟ بدليل أن بعضها لم يكن على اتجاه القبلة. وهذا أمر محتمل الخطأ والصواب، علما بأن أقسام الآثار في المملكة العربية السعودية تستطيع تحديد تاريخ مثل هذه المقابر، وخاصة أنه لازال في بعض القبور السطحية الكثير من رفات الموتى، والتي عن طريقها يمكن تحديد تاريخها. وإن قلنا إن تاريخها ربما كان في العهود الإسلامية فهذا قول يحتمل الخطأ والصواب أيضا، فلربما من بناها ودفن الموتى كان جاهلا بدفن المسلم، فلم يكن يفكر في وضعه على اتجاه القبلة، ولم يفكر أيضاً في عدم شرعية بناء القبور فوق سطح الأرض، أو في حرمة نقشها وتزيينها، ومن المحتمل أن بناء وتشييد مثل هذه القبور حدث في القرون الإسلامية المتأخرة الماضية، وخاصة إذا علمنا ما ساد أجزاء عديدة في العالم الإسلامي، من الفوضى والتخلف والجهل بأمور الدين الإسلامي.

الهوامش :

(١) وللمزيد من التفصيلات انظر مؤلفاتنا الآتية: عسير دراسة تاريخية في الحياة الاجتماعية والاقتصادية (١١٠٠ - ١٤٠٠هـ/ ١٦٨٨ - ١٩٨٠م) جدة: مطابع البلاد، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م)، وكتاب أبها حاضرة عسير: دراسة وثائقية. (الرياض: مطابع الفرزدق ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م) وكتاب عسير في عصر الملك عبد العزيز (جدة: دار البلاد ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م).

(٢) أصل وصورة هذا الخطاب ضمن الرسائل والخطابات المرسلة إلينا، وتاريخ ١٣/١١/١٤٢٠هـ، وتوجد في مكتبتنا الخاصة.

(٣) مع التطور الحضاري الذي تعيشه البلاد العسيرية في الوقت الحاضر، زاد تفرق وسفر الكثير من أفراد الأسرة الواحدة، وتوسع الناس في مساكنهم. وبالتالي ضعفت الروابط بين أفراد الأسرة، ولم يبق لكبير العائلة إلا الاسم، أما النفوذ الذي كان يمارسه الأوائل على أفراد أسرهم، فلم يعد كما كان.

(٤) وهناك العديد من المراكز الحضارية في إقليم عسير، وبعضها يقع على ساحل البحر، وبعض آخر يقع إلى الداخل في الأجزاء التهامية أو السروية، ومن تلك المراكز القنفذة، حلي، القحمة، البرك،، صبيا، جازان، محائل، رجال ألمع، أبها، خميس مشيط، سراة عبيدة،، بيشة، الباحة، باشوت، النماص، سبت العلاية، ظهران الجنوب.

(٥) مشاهدات وانطباعات الباحث في بلاد عسير خلال عامي ١٤١٢/ ١٤١٣هـ.

(٦) انظر: رحلة تاميزيه إلي الجزيرة العربية، ترجمة يوسف شلحد. مجلة العرب، جـ ٩ - ١٠ (س ٢٤، الربيعان ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م) ص ٦٦٢.

(٧) المصدر نفسه، ص ٦٦٢ - ٦٧١.

(٨) Sir Kinahan cornwalls. Asir Before World War. 1. Ahandbook (New York, 1976) PP. 32ff.

(٩) المصدر نفسه ص ٤٥.

(١٠) المصدر نفسه ص ٤٩.

(١١) المصدر نفسه ص ٦٠.

(١٢) المصدر نفسه ص ١ ، ٦٠.

(١٣) المصدر نفسه ص ٦ ، ٧٥.

(١٤) المصدر نفسه ص ٦ ، ٧٥ وللمزيد من التفصيلات والمعلومات عن بعض القرى في عسير، وعدد سكان بعض الأجزاء، انظر كتاب هذا الرحالة الانجليزي S.K.Cornwalls PP.32-78.

(١٥) سليمان شفيق باشا كان متصرف عسير من عام (١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨ - ١٣٣١هـ/ ١٩١٢م) وقائد حامية أبها. وقد حاصر الإدريسي أبها، وكاد يستولي عليها أثناء متصرفيته، وبعد أن انتهى من عسير انتقل إلى سوريا، ثم أصبح والي البصرة. وقائد الفيلق العثماني فيها عام (١٣٣٢هـ/ ١٩١٣م). وأخيرا تسلم وزارة الحربية. انظر: منكرات سليمان شفيق باشا، جمع وتحقيق، محمد بن أحمد العقيلي (أبها: النادي الأدبي ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م)، عبد الله سالم القحطاني، موجز تاريخ وأحوال منطقة عسير، ١٢١٥ - ١٣٤١هـ

(الرياض، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م).
(١٦) القحطاني، موجز، ص ١١٤.
(١٧) المرجع نفسه، ص ١٤٦،، انظر أيضا، العارف، أضواء ٦١ ـ ٦٢.
(١٨) القحطاني، موجز، ص ٢٦٣ (نقلا عن مذكرات سليمان شفيق باشا).
(١٩) شرف عبد المحسن البركاتي، الرحلة اليمانية (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٣٨٤هـ)، ص ٧٨ ومن خلال حديثه عن القرى في بلاد بارق نلاحظ إعجابه بالبيوت وحسن شكلها.
(٢٠) البركاتي، الرحلة، ص ٤٦.
(٢١) المرجع نفسه، ص ١٣٢.
(٢٢) انظر: الألمعي، رحلات في عسير، ص ٦٦، ٧٧ ـ ٨٣.
(٢٣) المرجع نفسه، ص ١٠٦ ـ ١٠٧، انظر: ابن جريس. بلاد بني شهر وبني عمرو، ص ٧٥ ـ ٧٧. وقد شاهد الباحث خلال عامي (١٤١٩ ـ ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م) العديد من القصور والبيوت القديمة والخاصة ببعض مشائخ منطقة عسير الممتدة من ظهران الجنوب إلى بلاد غامد فوجدها لا تقل في قوتها واحجامها عن ما ذكر الألمعي في كتابه «رحلات في عسير».
(٢٤) ويلاحظ أن القرى في إقليم عسير كثيرة جداً، وخاصة إذا ما قورنت بأجزاء أخرى من المملكة العربية السعودية. وقد أجريت دراسات حديثة على عدد قرى وهجر عسير في عام (١٠٤٣هـ/ ١٩٨٢م) فوجد أنها تبلغ حوالي (٢٩٦٣). وهي موزعة على الشكل التالي (٢٤٢٨) قرية وهجرة، أي (٨٢٪) و (٤٨١) قرية وهجرة متوسطة الحجم، أي (١٦٪). و(٥٤) قرية كبيرة الحجم، أي (٢٪). وبعض تلك الدراسات رأت أن كثرة عدد قرى منطقة عسير أدى إلى انخفاض متوسط عدد سكانها وبخاصة إذا ما قورنت مع متوسط عدد سكان قرى المملكة. للمزيد من التفصيلات، انظر: وزارة الشؤون البلدية والقروية عام ١٩٨٤م المسح الاقتصادي والاجتماعي الشامل لقرى وهجر المملكة، التقرير الثاني، منطقة عسير مكتب العسيلان الاستشاري.

Othman Al. Rawaf. Policies and Programs of Rural Development in Saudi Arabia: A: Presentation and Evaluation, Research Center, College of Administration Sciences, King Saud Univ. Ryadh. (1987)/

(٢٥) قد أشار إلى ذلك عدد من الباحثين، أمثال: تاميزيه، ص ٦٦٢ ـ ٦٧١، البركاتي، الرحلة ٤٦، ١٣٢، الألمعي، رحلات، ص ٥٢ ـ ٥٣، ٦٦، ١٠٦ ـ ١٠٧، القحطاني نقلا من مذكرات سليمان شفيق باشا، ص ١٠٠، ١١٢ ـ ١١٤، ١١٥، ١٤٦، ١٥٣ **Conrn-walls, Asir, PP.32-78.**
(٢٦) مشاهدات الباحث وانطباعاته خلال عامي (١٤١٢هـ/ ١٤١٣هـ).
(٢٧) مشاهدات وانطباعات الباحث في بلاد عسير خلال عامي (١٤١٢هـ/ ١٤١٣هـ)، أيضا تاميزيه ذكر ذلك أثناء مجيئه إلى ديار عسير في أوائل القرن الثالث عشر الهجري. وأشار إلى أن المباني في أبها، وحجلا، وخميس مشيط تتكون من طابق، وبعضها من طابقين. الأول للحيوانات والثاني للسكن، ثم يقول: «وهي مبنية بالحجر في أسفلها ثم الطين» انظر مقالة تاميزيه بمجلة العرب ص ٦٦٢ ـ ٦٧١.
(٢٨) استخدمنا كلمة قرية بدلا من المدينة، وبخاصة على المراكز العمرانية الكبيرة، لأنها لم تكن ترتقي إلى مستوى المدن خصوصاً في القرون السابقة.
(٢٩) يلاحظ في وقتنا الحاضر، الاختلاف في البناء، فنجد تكاثر المباني الشاهقة الجميلة في المدينة وما حولها، وكلما ابتعدنا عن المدن إلى الأرياف والبوادي لاحظنا التقهقر في طول المنازل، وفي جمال وجود مواد البناء المستخدمة.
(٣٠) استطعنا الاطلاع على وثائق عديدة في أجزاء مختلفة من بلاد عسير، وكذلك في منطقة نجران وجازان والباحة والطائف وأغلبها تبين أسماء ومعالم بعض العقارات والأملاك الزراعية والسكنية لعديد من

الأسر التي ورثتها عن طريق الآباء والأجداد الأوائل أو حصلوا عليها عن طريق الشراء أو الهدية وما شابهها.

(٣١) تقارب السكان في مساكنهم من الأمور الأساسية، ليتآزروا ويتعاونوا فيما بينهم، وليقفوا في وجه ما يداهمهم من أخطار بشرية أو طبيعية. وتزاحم منازل القرية القديمة في جنوبي البلاد السعودية، والتي لازلنا نشاهد الكثير منها، دليل واضح على حرص أفراد القرية في التقارب والتآزر والتعاون في جميع شؤون حياتهم.

(٣٢) كان هناك فئة من المختصين في مهنة البناء يعملون بالأجر اليومي، وقد يعمل معهم بعض المساعدين بالأجرة أيضاً، وكان هناك من يقوم بمهنة البناء عن طريق التعاون بدون مقابل، وبخاصة بين أفراد الأسرة أو القرية أو العشيرة الواحدة، أو بين الأصدقاء بعضهم مع بعض.

(٣٣) وغالبا تقلب الجيم إلى ياء فيقال: (بيز بدلا من جيز) وهذا التحريف يوجد بكثرة عند بعض العشائر العسيرية، ولا زال إلى يومنا هذا. ودراسة التاريخ اللغوي لسكان المنطقة موضوع جيد وجدير بالدراسة،، وحبذا لو تصدى لهذا الموضوع أحد طلاب العلم سواء كان من أبناء المنطقة أو من غيرهم من فئة الدارسين والباحثين.

(٣٤) في الوقت الحاضر توفر ـ بحمد الله ـ المال في أيدي الناس، وتحسنت أحوالهم فبنوا مساكن حديثة راعوا فيها توفير وسائل الراحة لمن يسكنها، وأصبح هناك العديد من الأجهزة الحديثة المستخدمة في توفير الدفء أو التبريد، أو رفع المياه من الآبار والصهاريج، أو الغسيل والتنظيف، أو الإضاءة أو غيرها من الخدمات المتعددة الجوانب.

(٣٥) ابن المجاور. تاريخ المستبصر، ص ٢١، ٣٧.

(٣٦) وجود الحصون في الأجزاء التهامية والنجدية الشرقية من إقليم عسير قليل جداً، بل يكاد يكون معدوماً في كثير من المواقع. أما القصور فيوجد بعضها في المراكز الحضارية الكبرى، كالقنفذة، وأبو عريش، وصبيا وبيشة، وسراة عبيدة، والنماص، وأبها، وخميس مشيط، وغيرها.

(٣٧) انظر: عبد المنعم عبد العزيز رسلان «بعض استحكامات منطقة عسير الحربية في العهد العثماني» مجلة البحث العلمي والتراث الإسلامي بجامعة أم القرى (س (٥) عدد (٥)، ١٤٢٠هـ/ ١٩٨٢م) ص ٣٧٩ ـ ٤٢٨.

(٣٨) هناك العديد من الرحالة الذين أشاروا إلى وجود بعض القصور في المراكز الكبرى بإقليم عسير، أمثال: تاميزيه، والبركاتي، وكورنواليس، وسليمان شفيق باشا، وابراهيم الألمعي، وسبق الإشارة الى كتبهم التي وصلت إلينا.

(٣٩) الأمير/ علي بن مجثل العسيري، تولى إمارة عسير بعد الأمير/ سعيد بن مسلط المغيدي عام (١٢٤٢هـ/ ١٨١٦م) وقد عرف بنصرته للإسلام وخدمته له، وتوفي عام (١٢٤٩هـ ـ ١٨٣٣م)، وخلفه في الإمارة عائض بن مرعي. للمزيد من المعلومات، انظر: علي أحمد عسيري. عسير من (١٢٤٩هـ/ ١٨٣٣م ـ ١٢٨٩هـ/ ١٨٧٢م)، (منشورات نادي أبها الأدبي، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م)، ص ١٨٨ وما بعدها، غيثان بن علي بن جريس، بلاد بني شهر وبني عمرو. ص ٥١ وما بعدها.

(٤٠) هاشم النعمي. تاريخ عسير، ص ٩ ـ ١٠.

(٤١) كلمة (الطبجية) من مخلفات الأتراك في منطقة عسير، فكلمة طبجي: تعني مدفعي، ويذكر أن منسوبي المدفعية، في عهد النفوذ التركي في عسير (١٢٨٩ ـ ١٣٣٧هـ) كانوا يتخذون حي العزيزية المعروف في وقتنا الحالي مكاناً لهم، وبالتالي صار يطلق على ذلك المكان (الطبجية)، ويعنى بذلك مكان المدفعية التركية آنذاك، وربما نسبة إلى طابية والطابية: هي المكان المرتفع المشرف على عدة اتجاهات تنصب عليه المدافع لتتحكم في مدى الرؤية للتصويب الجيد، والطبجي هو اسم الشخص الذي يقيم في الطابية. وهي كلمة تركية. مذكرة وصلتنا من الأستاذ/ يحيي بن حسن بن مستور وتوجد ضمن أوراق الباحث تحت رقم (٢٠٦٩/٢٠).

(٤٢) المصدر نفسه.

(٤٣) إن اهتمام الوالي التركي/ محيي الدين باشا بالتحصينات في منطقة عسير، وخاصة مدينة أبها، يعود لسببين رئيسيين هما:

أ ـ كان يعلم أن الحرب العالمية قد اندلعت، ولابد أن تتعرض الدولة التركية للانهيار بعد أن أعلن أمير مكة الشريف الحسين بن علي الثورة ضدها باسم العرب.

ب ـ كان الإدريسي في تهامة له أهداف سياسية توسعية في ضم عسير السراة الى حكمه، ولهذا جعل محيي الدين باشا يكرس جهوده في بناء القلاع والحصون المحيطة بأبها، إلى جانب خوفه أيضاً من القبائل الموجودة في منطقة عسير التي كان أغلبها غير راغب في حكم الأتراك بالمنطقة.

(٤٤) للمزيد من التفصيلات انظر: عبد المنعم عبد العزيز رسلان «بعض استحكامات منطقة عسير الحربية في العهد العثماني «مجلة البحث العلمي والتراث الإسلامي (مكة المكرمة، جامعة أم القرى ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م) سنة (٥) عدد (٥) ص ٣٨٩ - ٤٢٨.

(٤٥) للمزيد من المعلومات انظر: دراسة علمية جيدة تحت عنوان: (تحصينات أبها خلال القرن الثالث عشر والرابع عشر الهجريين ـ دراسة حضارية). رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ والحضارة،، إعداد/ محفوظ بن سعيد بن مسفر الزهراني ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ كلية العلوم الاجتماعية ـ قسم التاريخ والحضارة (١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م). هذه الدراسة جيدة في تحليلها ومحتوياتها، حيث ناقش صاحبها العوامل التي أثرت في نشأة التحصينات الحربية لمدينة أبها، كما تعرض للحديث عن كثير من المنشآت العسكرية في المنطقة، وخاصة القلاع المشهورة في حاضرة أبها. (ويوجد نسخة مصورة من هذه الرسالة ضمن مكتبة الباحث في أبها).

(٤٦) بعد الرجوع إلى بعض المعاجم اللغوية وجدنا أن كلمة (الدقل) تعني الارتفاع أو الانتصاب أو القوة والمنعة، وربما أطلق هذا الاسم على هذه القلعة لارتفاعها ومنعة مكانها. انظر: ابن منظور، لسان العرب كلمة (الدقل)، (طبعة بيروت)، مج ١١ ص ٢٤٦، وانظر الكلمة نفسها في معجم القاموس المحيط (طبعة بيروت)، ص ١٣٧.

(٤٧) ينبع وادي أبها من الجبال الغربية المطلة على مدينة أبها، وتمتد بشكل متعرج باتجاه الشرق حتى يصب في وادي ابن هشبل، ومنه يتجه إلى وادي بيشة، ويقع الوادي على ارتفاع (٢٢٠٠) متر فوق مستوى سطح البحر، ويعد وادي أبها النقطة التي يمكن منها قياس ارتفاع الجبال المحيطة بالمدينة. انظر: رسالة محفوظ بن سعيد الزهراني: تحصينات أبها، ص ٧٥ ملاحظة (٢). وانظر: كتاب هاشم النعمي. تاريخ عسير، ص ٩، وللباحث جولات عديدة قام بها في مدينة أبها وما حولها من الجبال والأودية، وخاصة وادي أبها الرئيسي، المذكور في السطور الآنفة الذكر. أيضا انظر كتابنا: «أبها حاضرة عسير (دراسة وثائقية)، ص ١٤ وما بعدها.

(٤٨) للمزيد من التفصيلات عن التحصينات في أبها، انظر: رسالة محفوظ الزهراني، ص ٧٥، ٦٠، مذكرات سليمان شفيق باشا (جمع محمد العقيلي، ص ١٢، عبد الفتاح أبو عليه. دراسة حول المخطوط التركي (حجاز سيحتنامة سي). (الرياض: دار المريخ للنشر، د.ت) ص ١٤ - ١٧.

(٤٩) عبد الله بن علي بن مسفر. أخبار عسير (بيروت: المكتب الإسلامي ١٣٩٨هـ)، ص ١٥٣ ، ١٦٤، هاشم النعمي. تاريخ عسير، ص ٩ ، ٣٨.

(٥٠) للمزيد من التفصيلات انظر: الرسالة غير المنشورة تحصينات أبها، محفوظ بن سعيد الزهراني، ص ٧٨ وما بعدها، والسبب الذي جعلنا نحدد هذا التاريخ هو أن تلك الفترة من أحرج الفترات التي مرت على القوات العثمانية في منطقة عسير، والتي أصبح أكثرها متمركزاً بين القنفذة وبلدة محائل لتأمين طريق الاتصال بين أبها والقنفذة عن طريق عقبة شعار، وذلك بعد انسحاب تلك القوات من تهامة عسير إلي السراة،

نتيجة لسيطرة قوات السيد محمد الإدريسي على تهامة عسير ابتداء من بلدة البرك شمالا حتى مدينة جازان جنوبياً،، والتي تمت بمساعدة الأسطول الإيطالي أولا في سنة (١٣٣٠هـ/ ١٩١٢م)، ثم بمساعدة الأسطول البريطاني بعد ذلك في سنة (١٣٣٣هـ/ ١٩١٥م)، وللمزيد من التفصيلات انظر: جون بالدري. العمليات البحرية البريطانية ضد اليمن إبان الحكم التركي (١٩١٤ ـ ١٩١٨م) ترجمة السيد مصطفى سالم (القاهرة: المطبعة الفنية، د.ت) ص ١٠٧،، جاد طه. سياسة بريطانيا في جنوب الجزيرة العربية (القاهرة، دار الفكر العربي، د.ت)، ص ٣٣٥، مجلة المنار، صاحب الإمضاء، السيد الإدريسي والحكومة العثمانية مج ١٦، جـ ٦ (٣٠ جمادي الآخرة ١٣٣١هـ/ ٥ يونيو ١٩١٣م) ص ٤٦٧.

(٥١) المصادر نفسها.

(٥٢) وقد ذكر محفوظ الزهراني تفصيلات جيدة في رسالته تحصينات أبها،، وضح فيها وصف المكان ومواد البناء لقلعة الدقل، وللمزيد انظر هذه الرسالة، ص ٨٣ وما بعدها.

(٥٣) جاءت كلمة شمسان في معجم البلدان على أنها تثنية الشمس المشرقة، ووردت أيضاً على أنها حصن من حصون صداء، من أعمال صنعاء باليمن. ولعل هذه التسمية وصلت الى مدينة أبها مع القوات العثمانية عندما جاءت إلى شبه الجزيرة العربية، ومن ثم اشتهرت بها القلعة والجبل والحي المعروف في حاضرة أبها حالياً. انظر: ياقوت الحموي. معجم البلدان (بيروت: دار صادر، ١٣٩٧هـ)، ص ٣٦٢.

(٥٤) للمزيد من التفصيلات عن القلعة وعن طريقة تخطيطها ومواد البناء، انظر: الدراسة التي قام بها محفوظ الزهراني تحصينات أبها، ص ١١١ وما بعدها، وانظر: دائرة المعارف الإسلامية «مادة أبها» هـ.ج. مويلر. مج ١ (القاهرة: الهيئة العامة للكتاب ١٩٦٩م) ص ٤١٨.

(٥٥) زيارة الباحث لمكان قلعة شمسان في ١٤١٦/٧/١٢هـ، ومشاهدته لأجزاء مبانيها، والمواد المستخدمة في البناء، وطريقة تخطيطها.

(٥٦) الكُتاب الذين قالوا بالرأي الأول هم: هاشم النعمي، تاريخ عسير، ص ٩، فؤاد حمزة. في بلاد عسير، ص ١١٠، محمد عمر رفيع. في ربوع عسير. ص ٤٩، مويلر «أبها» دائرة المعارف الإسلامية، مج ١ ، ص ٤١٨ ـ ٤١٩.

(٥٧) أما الذين قالوا بالرأي الثاني فهم: عبد الله بن علي بن مسفر. أخبار عسير، ص ١٥٣، محمود شاكر. عسير ص ٢٦٢.

(٥٨) للمزيد من التفصيلات عن اللهجات ومخارج الحروف، انظر: صالحة راشد آل غنيم. اللهجات في الكتاب لسيبويه أصواتا وبنية. (مكة المكرمة: جامعة أم القرى، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي ١٤٠٥هـ)، ص ٣٥٠ ـ ٣٥١.

(٥٩) السبب في استخدامنا كلمة «ذِرَة» بدلا من «ذَرا» لأن غالبية السكان في منطقة عسير لا يعرفونها، ولا يعرفون الجبل الذي تقع عليه القلعة إلا بوضع الهاء الساكنة في آخر الكلمة «ذِرَة» وللمزيد من الاطلاع في بعض المعاجم اللغوية انظر: ابن منظور، لسان العرب (طبعة بيروت ١٤٠٨/١٩٨٨م) جدة ص ٤٠ ـ ٤١، اسماعيل بن حماد الجوهري. تاج اللغة وصحاح العربية (بيروت: دار الملايين ١٩٧٩م) ص ٢٣٤٥.

(٦٠) انظر: رسالة محفوظ الزهراني، تحصينات أبها، ص ١٣٨ وما بعدها.

(٦١) وللمزيد من التفصيلات عن مخطط القلعة، وطريقة مواد بنائها انظر. الزهراني تحصينات أبها. ص ١٣٩ وما بعدها. وفي يومنا الحاضر هدمت قلعة ذرة وأسس مكانها بعض المطاعم الجيدة ومركز للعربات المعلقة التي يستخدمها الزوار والسواح الذين يزورون منطقة عسير طوال العام.

(٦٢) المصدر نفسه، ص ١٦٥ وما بعدها.

(٦٣) ينسب الوادي إلى عقبة تيه، التي يبدأ منها انحدار الوادي إلى تهامة، حيث يتجه مجراه عبر تهامة نحو الشمال الغربي حتى يصب في وادي حلي في

الشمال الغربي من مدينة محائل. ترفد هذا الوادي عدة روافد من أهمها: واديا طبب والرجم من الجهة الجنوبية، وأودية بعرور ونخلين وهبهبة من الجهة الشمالية، وتقع مدينة محائل على الضفة الشمالية للوادي. للمزيد من التفصيلات، انظر: فؤاد حمزة. في بلاد عسير، ص ٩٣. هاشم النعمي. تاريخ عسير في الماضي والحاضر، ص ١١ وما بعدها، غيثان بن علي بن جريس: «بلاد السراة من خلال كتاب صفة جزيرة العرب للهمداني، مجلة الدارة ١٤١٤هـ، العدد ٣ سنة ١٩، ص ٧٦ وما بعدها.

(٦٤) انظر: محفوظ الزهراني تحصينات أبها، ص ١٦٦، وقد حصل على هذه المعلومات من أرشيف رئاسة الوزراء باستنبول، وثيقة رقم (٦٠٨٣٦) لفة ٢.

(٦٥) تقع بلاد رجال الحجر بين قبائل بلقرن وشمران وخثعم من الشمال وقبائل عسير الرئيسة (مفيد، وبني مالك، وعلكم، وربيعة ورفيدة) من الجنوب وتتكون بلاد رجال الحجر من أربع قبائل رئيسة هي: (بني شهر، وبني عمرو، وبللسمر، وبللحمر) للمزيد من التفصيلات. انظر: غيثان بن علي بن جريس، بلاد بني شهر وبني عمرو خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين، ص ١٠ وما بعدها.

(٦٦) وللمزيد من التفصيلات عن أهمية عقبة شعار، انظر: شرف بن عبد المحسن البركاتي، الرحلة اليمانية، ص ٧١ - ٧٣. مذكرات سليمان شفيق باشا (جمع محمد العقيلي)، ص ٦٩، ١٢٩، هاشم النعمي، تاريخ عسير، ص ٢٧، ١٦١.

(٦٧) انظر دراسة محفوظ الزهراني. تحصينات أبها، ص ١٦٨، وقد حصل على هذه المعلومات من أرشيف رئاسة مجلس الوزراء باستنبول، وثيقة رقم ١٢٢.

(٦٨) أرشيف رئاسة مجلس الوزراء باستنبول، قلم أوراق الباب العالي، دفتر الصادر والوارد رقم (٢٦٨)، ص ١٣ - ١٤، وللمزيد انظر: مذكرات سليمان شفيق باشا (جمع العقيلي)، ص ١٢، ٢٨، ١٢٩.

(٦٩) المصدر نفسه، ص ١٢٨ - ١٢٩.

(٧٠) المصدر نفسه، ص ٦٩ وما بعدها، وللمزيد من التفصيلات عن الإدريسي ومحاربته لأهل عسير انظر: عبد المنعم الجميعي. الأدارسة في المخلاف السليماني وعسير (١٣٢٦ - ١٣٤٩هـ/ ١٩٠٨ - ١٩٣٠م) (خميس مشيط: دار جرش للنشر ١٩٨٧م)، ص ٥ وما بعدها.

(٧١) المصادر نفسها.

(٧٢) زيارة الباحث لموقع القلعة في شهر محرم من عام ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

(٧٣) للمزيد من التفصيلات عن تلك المدرسة الحربية، انظر: غيثان بن علي بن جريس. تاريخ/ التعليم في منطقة عسير (١٣٥٤ - ١٣٨٦هـ) الجزء الأول. ص ١٨٦ - ١٨٧.

(٧٤) نلاحظ الفارق الكبير في عصرنا الحاضر، وما تشهده البلاد من تطور عمراني حديث والوضع المادي، وأحيانا المركز الاجتماعي لازال لهما الدور الأكبر في فخامة وجمال بيوت من يمتلك الأموال الكثيرة، أو يشغل مركزاً اجتماعياً كبيراً في المجتمع.

(٧٥) أحمية ومفردها (حمى). وهي المواقع التي تحميها بعض الأسر، أو الأفخاذ أو العشائر من أجل استخدامها للرعي وقت الجدب وعدم نزول الغيث. وفي المصادر الإسلامية المبكرة نجد الرسول [صلى الله عليه وسلم] والخلفاء الراشدين حموا بعض المواقع القريبة من المدينة المنورة. لكي ترعى فيها خيول ومواشي المسلمين. وإلى وقت قريب كان العديد من العشائر والبطون العسيرية تسعى الى حماية بعض مواطنها، أما في الوقت الحاضر فصارت هذه الظاهرة قليلة. وربما أصبحت معدومة عند الكثير من سكان الإقليم.

(٧٦) لدى الباحث العديد من الوثائق والاتفاقات المحلية التي تؤكد أسماء وأماكن معالم وحدود بين أسرتين أو عشيرتين، أو مجموعة من الأسر أو العشائر في أنحاء إقليم عسير.

(٧٧) مشاهدات وانطباعات الباحث في صيف عام (١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م) أيضا انظر: ابن جريس، بلاد بني شهر وبني عمرو، ص ١٤٨ - ١٥٢.

الاستحكامات الحربية الإس

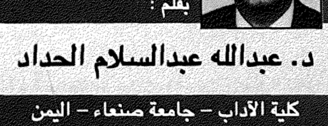
بقلم :

د. عبدالله عبدالسلام الحداد

كلية الآداب - جامعة صنعاء - اليمن

لا تزال الآثار اليمنية عامة القديمة منها والإسلامية في المراحل الأولى من الاكتشاف والدراسة، نظراً لحداثة الدراسات الأثرية فيها، بالرغم من أن اليمن بلد حضارة يشهد لها كتاب الله الذي وصف عرش ملكة سبأ بأنه عرش عظيم {إني وجدتُ امرأة تملكُهُم وأوتيتْ من كل شيء ولهـا عـرشٌ عظيم} [١]، ويشهد عليها وصف الرومان لها بأنها بلاد العربية السعيدة، ويشهد لها ما خلفته ممالكها سبأ ومعين وحمير وقتبان وأوسان وحضرموت من مآثر عديدة ومنها مدن مأرب بسدها المشهور، وصرواح بنقشها المعروف بنقش النصر، وبراقش بأسوارها الشامخة، وقرناو وكمنا وظفار وميفعة .. الخ، وحصون وقلاع تناطح هاماتها سحاب السماء متحدية قوى الأعداء وفاردة جناح حمايتها بمشيئة الله على أهلها من غوائل الزمن وتجبر الدول، فضلاً عن أبراج المراقبة المنتشرة في طول اليمن وعرضها شاخصة أبصارها في الآفاق ترقب كل متسلل لتنبئ أهلها بالخبر اليقين وتنذرهم للاستعداد من أجل درء المخاطر، كل ذلك يشهد سواء ما ظهر منها أو ذاك الذي ما زال مخبوءاً في باطن الأرض منتظراً معاول الآثاريين كي يرى النور من جديد ويدلي بشهادته للعالم.

وما زالت معظم هذه الآثار وخاصة العمارة الحربية من أسوار وحصون وقلاع وأبراج مراقبة قائمة حتى اليوم تشهد أيضاً على حنكة أهل اليمن الحربية ومهارتهم المعمارية التي لم تقتصر على اليمن فحسب بل حيث ما حلوا نشروا مهارتهم وخبرتهم فهاهم يشاركون فتوحات الإسلام بسيوفهم وأنفسهم وخبرتهم



الحربية والمعمارية فما من بلد حلوه إلا ولهم فيه نبأ حتى اليوم وخير مثال على ذلك فسطاط مصر التي خططها أربعة من أهل اليمن بأمر من عمرو بن العاص وكان معظم سكانها من أهل اليمن فكانت عدد قبائل اليمن فيها ستة وثمانون قبيلة من مجموعة مائة وستة عشر قبيلة تكون منها الجيش الفاتح لمصر، وهذا المغرب العربي والأندلس يشهد بقادته الفاتحين من أهل اليمن موسى بن نصير، وعبد الرحمن الغافقي، وعمرو بن قحزم الخولاني، والسمح بن مالك الخولاني، ومعاوية بن حديج التجيبي، وغيرهم كثير، ولا تزال آثار أهل اليمن من مدن ومساجد وقلاع كقلعة يحصب وقلعة خولان بالأندلس وغيرها تشهد على ما كان لأهل اليمن من دور كبير في الفتح والبناء والحضارة في بلدهم وفي غير بلدهم.

وفيما يلي دراسة لأهم الاستحكامات الحربية في اليمن والتي تتكون من خمسة أنواع: (الأسوار والأبراج، والقلاع، والحصون، والخنادق، وأبراج المراقبة).

١ ـ الأسوار:

شكلت أسوار المدن أهم الاستحكامات

إضاءة

ـ أستاذ مساعد الآثار الاسلامية/ كلية الآداب ـ جامعة صنعاء.

ـ دكتوراه في الآثار الاسلامية من جامعة القاهرة.

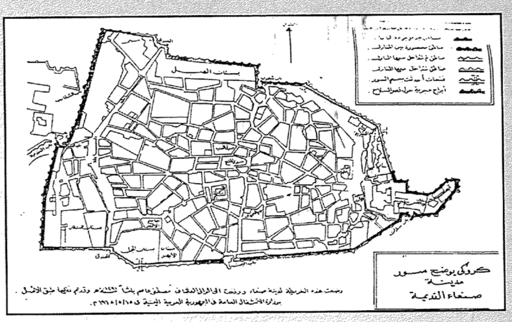
له من المؤلفات:

* مدينة حيس اليمنية تاريخها وآثارها الدينية.
* مدينة صنعاء تاريخها ومنازلها الاثرية.
* جامع شبان كوكبان/ دراسة اثرية معمارية ـ تحت النشر.

سور صنعاء

...لامية في اليمن

دراسة تاريخية أثرية معمارية



- كروكي يوضح سور مدينة صنعاء القديمة.

الحربية في اليمن، كونها تعد من أهم المنشآت المعمارية الحربية التي يهتم الحكام بتشييدها حماية لمدنهم ودفاعاً عن أملاكهم، والسور مفرد كلمة أسوار وهو بناء يرتفع عن سطح الأرض يحيط بالمدينة كلياً في المدن التي تبنى في السهول والوديان، أو يحيط بها جزئيا كما في المدن التي تبنى في المناطق الجبلية وغالباً ما تستند على جبل عال أو تل مرتفع يحميها من أحد جوانبها.

وتبنى الأسوار في الغالب بإحدى مواد ثلاث: الأحجار وخاصة في المدن الجبلية، الآجر أو الطين النيء في مدن السهول والسواحل، ويكون سمك السور وارتفاعه مناسباً لموقع المدينة لذلك يختلف من مدينة إلى أخرى، ويدعم كل سور على مسافات محددة تتراوح بين ١٥ - ٤٠م أبراج متنوعة منها المربع والمستطيل والنصف دائرة وثلاثة أرباع الدائرة، وتتميز هذه الأبراج بارتفاعها عن مستوى ارتفاع السور، وكذلك باحتوائها على عدد من العناصر الدفاعية كالمزاغل بأنواعها والسقاطات والممشى بجدرانه الساترة وغيرها من العناصر التي يتم الدفاع بواسطتها عن المدينة.

وتحتوي كثير من مدن اليمن على أسوار ما زال معظمها باقياً حتى الآن ومنها صنعاء، وتعز، وصعدة، وزبيد والمخا، وذمار، وإب، والحديدة، وعدن، والمكلا، وشبوة، وشبام، وسيئون، وغيرها مما لا نستطيع معها وصف جميع أسوار المدن لذلك سوف نكتفي بوصف أسوار ثلاث مدن كنماذج لأسوار مدن اليمن وهي: صنعاء، وزبيد، وتعز.

سور صنعاء:

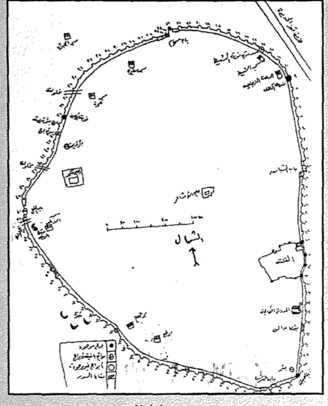
تعود نشأة سور صنعاء إلى عصر ما قبل الإسلام، وظل باقيا حتى عهد الرسول {صلى الله عليه وسلم} حيث يذكر الرازي أن وبر بن يحنس الأنصاري الذي بعثه الرسول {صلى الله عليه وسلم} إلى صنعاء نزل عند بابها، وكان أول من جدد سور صنعاء محمد بن يعفر سنة ٢٥٩هـ/٨٧١م، ثم جدده بنو حاتم ملوك صنعاء[٢] وهدمه الأئمة الزيديون سنة ٥٥٠هـ/ ١١٥٥م بعد استيلائهم عليها من يد بني حاتم، وفي سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م هدمه بنو حاتم قبيل استيلاء توران شاه الأيوبي على صنعاء خشية أن يتحصن بها، ثم أعادوا بناءه بعد خروجه منها، وهدموه مرة أخرى سنة ٥٨٤هـ/ ١١٨٧م قبيل استيلاء طغتكين الأيوبي عليها والذي قام بإعادة بنائه وإضافة حي جديد غرب صنعاء القديمة يعرف باسم بستان السلطان نسبة إليه وأحاطه بسور يتصل بسور المدينة، وقد جدد هذا السور في فترة الحكم العثماني الأولى في اليمن ٩٤٥

ـ ١٠٤٥هـ/ ١٥٣٨ ـ ١٦٣٥م، وكذلك في فترة حكمهم الثانية الممتدة بين ١٢٨٩ ـ ١٣٣٧هـ/ ١٨٧٢ ـ ١٩١٨م، وفي فترة حكم الأئمة الأخيرة ١٩١٩ ـ ١٩٦٢م دمرت أجزاء كثيرة من السور بسبب ثورات القبائل، ثم هدمت معظم أجزائه المتبقية بعد ثورة ١٩٦٢[٣].

وصف السور :

كان السور يحيط بالمدينة من جميع جهاتها، وكان مبنيا بالطين اللبن من الداخل بارتفاع يتراوح بين ٧ ـ ١٠ متر، وسمك بين ٣ ـ ٥ م، ومدعم من الخارج بجدار من الحجر في الأجزاء السفلية وتبرز من السور أبراج نصف دائرية عددها ١٢٤ برجاً، بين كل برج وأخر حوالي أربعين متراً ويحتوي كل برج على مزاغل وسقاطات دفاعية، كما كان يعلوه ممشي يسمح لمرور فارسين جنباً إلى جنب، ويحمي الممشى جدار ساتر يشغله مع الأبراج مزاغل وسقاطات وفتحات للمراقبة، ولا نعرف عدد أبواب السور الأول فما ذكر منها إلى ما قبل القرن ٥هـ/ ١١م حوالي ثلاثة أبواب هي باب صنعاء الذي يقع في الطرف الشمالي الشرقي من السوق، وباب المصرع الذي يرجع إلى عهد سام بن نوح وموقعه قرب مسجد الشهيدين على الحافة الشمالية من السوق، وباب الكشوري الذي يصعب تحديد موقعه[٤].

وفي القرن الخامس الهجري فتح علي بن محمد الصليحي أربعة أبواب أخرى فصار عددها سبعة أبواب هي باب غمدان وهو خاص بقصر غمدان ويعرف حاليا باسم باب ستران، وباب دمشق في الجهة الشمالية ويحتمل أنه الباب المعروف باسم باب صنعاء أو باب شعوب، وباب السبحة في الجهة الغربية المعروف حالياً بباب السبح يطل على ميدان التحرير، وقد هدم سنة ١٩٦٦م، وباب الخندق الأعلى ويدخل منه السيل يعرف باسم باب خزيمه لأنه يؤدي إلى مقبرة خزيمة جنوب غرب صنعاء القديمة، وباب الخندق الأسفل ويخرج منه السيل وكان يعرف باسم باب الشقاديف، وباب النصر وكان يؤدي إلى جبل نقم، وباب الشرعة وكان يؤدي إلى بستان السر، وقد



ـ زبيد : مخطط السور.

أضيف للمدينة باب ثامن هو باب اليمن الذي يقع في الجهة الجنوبية منها[٥].

ولم يتبق من هذه الأبواب سوى باب اليمن وباب ستران وجزء من باب الخندق الأسفل، وكذلك باب النصر الذي من المحتمل أنه يقع في الركن الشمالي الشرقي من قصر السلاح حيث يوجد برجان متجاوران وبينهما مساحة ـ مسدودة حالياً ـ لا يزيد طولها عن ثلاثة أمتار، كما لم يتبق من السور سوى أجزاء بسيطة سوف نتناولها حسب الاتجاهات الأصلية على النحو التالي:

السور الجنوبي :

يسير موازياً لشارع الزبيري، مبني مع أبراجه بالطين اللبن ومكسو بالحجارة من الخارج حتى منتصفه تقريباً فيما عدا سور قصر السلاح الذي بني وأبراجه بأحجار البازلت والطف، ويتكون السور من ثلاثة أجزاء:

الأول: يقع شرق السائلة ويمتد حتى باب اليمن،

من الأبراج منها اثنا عشر برجاً في السور الشرقي من قصر السلاح مبنية بأحجار البازلت، يليها برجان لا تزيد المسافة بينهما عن ثلاثة أمتار ومن المحتمل أنهما يمثلان برجي باب النصر المؤديين إلى جبل نقم، يلي ذلك خمسة أبراج تقع جنوب شارع البكيرية وتسعة أبراج شماله وبذلك يكون عدد أبراج السور الشرقي المتبقية ٢٧ برجاً[٧].

السور الشمالي :

يبدأ من الفتحة التي أحدثت بجسم السور عند طرفه الشرقي والتي تفتح على ميدان باب شعوب ويمتد حتى الركن الشمالي الغربي من السور، حيث يسير السور من الفتحة المذكورة حتى باب شعوب ويحتوي هذا الجزء على ثلاثة أبراج يليه جزء من السور يمتد حتى بستان الهبل وقد اندثر سور هذا الجزء وأبراجه، يليه جزء من السور يمتد باتجاه الغرب بشكل مستقيم إلى ما قبل السائلة ثم ينحرف شمالا حتى يتصل ببرج مطل على السائلة، ويحتوي هذا الجزء على ثمانية أبراج يتراوح ارتفاعها ما بين ٧ ـ ٨ متر والمسافة بين كل برج وآخر ٣٢ ـ ٣٥ متراً ويلي السائلة امتداد للسور حتى ركنه الشمالي الغربي ولم يتبق من أبراجه سوى ثلاثة[٨].

أما السور الغربي فقد اندثر تماماً وحل محله عدد من المنشآت العامة والمنازل والمتاجر.

سور زبيد :

في سنة ٢٠٣هـ/ ٨١٨م أرسل الخليفة العباسي المأمون بن هارون الرشيد، محمد بن عبد الله بن زياد لإخضاع قبائل تهامة وأهمها قبيلة الأشاعر وأمره أن يحدث له مدينة بوادي زبيد، وقد تمكن ابن زياد من اخضاع تهامة وبدأ ببناء مدينة زبيد في ربيع الأول من سنة ٢٠٤هـ/ ٨١٩م، واتخذها عاصمة لولايته ثم عاصمة لدولته التي عرفت باسم دولة بني زياد نسبة إليه وحكمت أجزاء كثيرة من اليمن فيما بين ٢٠٤ ـ



- زبيد : برج نوبة الكتف من السور.

مبنى بشكل غير منتظم بارتفاع يتراوح ما بين ٣ ـ ٥ ويحتوي على عشرة أبراج، يليه باب اليمن الذي يعد أشهر أبواب صنعاء القديمة ويفتح على الطريق المؤدي إلى تعز وهو من بناء الفريق أحمد فيضي باشا سنة (١٣١٦هـ) وقد بني من الحجر الأسود والأحمر والرمادي ويتوسطه باب معقود متسع يكتنفه برجان نصف دائريين.

الثاني: يقع غرب السائلة ولم يتبق منه سوى أربعة أبراج ويبلغ ارتفاع السور المتبقي ما بين ٦ ـ ٧ أمتار.

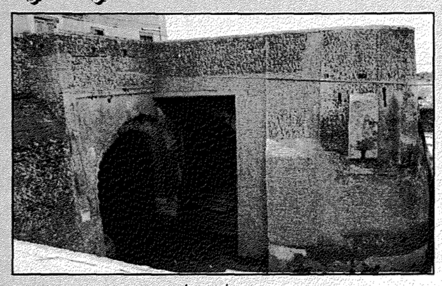
الثالث: يقع شرق باب اليمن ويمتد حتى بداية السور الجنوبي لقصر السلاح (قصر غمدان) ويحتوي على ثلاثة أبراج يليه السور الجنوبي للقصر ويحتوي على خمسة أبراج بما فيها برجا باب ستران الذي يتكون من فتحة باب معقودة، يعلوه مع الأبراج غرفتان صغيرتان يليه امتداد للسور يحتوي على أربعة أبراج[٦].

السور الشرقي:

مازالت بقاياه تشاهد على طول امتداده بدءاً من قصر السلاح جنوباً وحتى باب شعوب شمالا بارتفاع يتراوح بين ١ ـ ٥ متر، ويعد من أكثر الأجزاء تعرضاً للتلف والانهيار والإهمال، يحتوي هذا الجزء على عدد

٤٢٦هـ/ ٨١٩ ـ ١٠٣٥م، ومن الطبيعي أن يكون ابن زياد عندما مَصَّر زبيداً قد أحاطها بسور يحميها من هجمات الأعداء، وقد ذكر كل من المقدسي، ويحي بن الحسين أن زبيد كان عليها حصن من الطين بأربعة أبواب[٩]، ثم أضاف وزير بني زياد الحسين بن سلامة سوراً جديداً للمدينة في فترة حكمه ٣٩٣ ـ ٤٢٦هـ/ ١٠٠٣ ـ ١٠٣٥م ضم بداخله التجمعات السكانية التي نشأت خارج السور القديم، وأضيف لها سور ثالث في عهد دولة بني نجاح: ٤٣١ ـ ٥٥٤هـ/ ١٠٤٠ ـ ١١٥٩م على يد الوزير أبي منصور منّ الله الفاتكي فيما بين ٥١٧ ـ ٥٢٤هـ/ ١١٢٣ ـ ١١٣٠م، وأضيف لها سور رابع في عهد بني مهدي ٥٥٤ ـ ٥٦٩هـ/ ١١٥٩ ـ ١١٧٤م على يد عبد النبي بن على بن مهدي فيما بين ٥٥٨ ـ ٥٦٩هـ/ ١١٦٣ ـ ١١٧٣م قبيل استيلاء الأيوبيين على زبيد مباشرة وبالتحديد بعد شهر ربيع الأول من سنة ٥٦٩هـ أكتوبر ١١٧٣م أي بعد هزيمته في تعز على يد بني حاتم ملوك صنعاء وقبل شهر شوال من السنة نفسها الذي استولى فيه الأيوبيون على زبيد، وجدد هذا السور في عهد الدولة الأيوبية ٥٦٩ ـ ٦٢٦هـ/ ١١٧٣ ـ ١٢٢٩م، بأمر من سيف الإسلام طغتكين بن أيوب سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م، وأضاف لها سوراً آخر يحيط بالسور الأول وركب عليه أربع بوابات، وأمر الجند بالسكن بين السورين[١٠] وبذلك أصبح لزبيد سوران معاً.

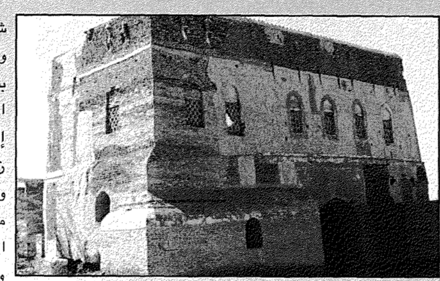
وقد ذكر ابن المجاور وابن الديبع وصفاً مفصلا للسور الذي بناه طغتكين وكان دائري الشكل مبنياً باللبن والطين والأبواب والشراريف بالآجر، وعرضه عشرة أذرع وارتفاعه كذلك، وعدد أبراجه ١٠٩ أبراج، وبين كل برج وآخر ثمانون ذراعاً، ويدخل في كل برج عشرون ذراعاً إلا برج واحد فإنه مائة ذراع، ويعد ما



ـ زبيد : باب سهام.

ذكره ابن المجاور أول إشارة لعدد أبراج السور، وأول إشارة أيضاً لمقدار بروز كل برج من السور، وكذلك المسافة بين كل برج وآخر، كما ذكر ابن المجاور أن مساحة زبيد كانت سنة ٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م (١٠٩٠٠ ذراع)، إلا أن الخزرجي (ت ٨١٢هـ/ ١٤٠٩م) ينقض ما ذكره ابن المجاور عن مساحة المدينة فقال «وهذا غير صحيح فإن مساحتها تكون على ما ذكر ٩٤٥ معاداً وثلث معاد، وقد مسحت أيام الملك المجاهد [علي بن المؤيد داود الرسولي] سنة ٧٣٣هـ/ ١٣٣٣م فجاءت ٦٣٦ معاداً، ونصف معاد وثمن معاد، ثم مسحت في الدولة الأفضلية [أيام السلطان الأفضل عباس بن المجاهد] سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٦م، على يد الفقيه محمد بن عبد الرحمن بن السراج، والفقيه جمال الدين محمد بن أبي بكر الغراس وكانا يومئذ أبرع أهل زبيد في هذا الفن، فجاءت مساحتها يومئذ ٦٢٤ معاداً ونصف معاد من غير اختبار، وبالاختبار ٦٨٠ معاداً[١١].

كان السور الذي بناه طغتكين آخر سور بُني للمدينة، حيث ظلت تعتمد عليه في الحماية والدفاع، مع قيام سلاطين بني رسول وبني طاهر بتجديده كلما تعرض للخراب، وكان أهم تجديد له على يد السلطان الأفضل عباس بن المجاهد ٧٦٤ ـ ٧٧٨هـ/ ١٣٦٣ ـ ١٣٧٦م حيث كساه من الداخل والخارج بالآجر، وظل



- زبيد : باب القرتب.

قائماً حتى منتصف القرن ١٠هـ/ ١٦م حيث يذكر ابن الديبع (ت ٩٤٤هـ/ ١٥٣٧م) أن السلطان الأفضل «درب مدينة زبيد بالآجر بعد أن كانت قبله مدربة باللبن، فدربه الذي يظهر الآن للناظرين واللبن داخله، ولم يزل على بنائه إلى تاريخنا هذا إلا أنه قد تخرب منه مواضع وتصلح»، وجدده الأئمة بعد خروج العثمانيين من اليمن للمرة الأولى على يد والي زبيد حمود بن محمد الخيراتي سنة ١١٢٢هـ/ ١٧١٠م، وجدده العثمانيون بعد استيلائهم على اليمن مرة أخرى في الفترة من ١٢٨٩ - ١٣٣٦هـ/ ١٨٧٢ - ١٩١٨م على يد والي الحديدة الباشا محمد سري وساعده الأهالي في ذلك كل حسب استطاعته[١٢] وكان هذا آخر تجديد للسور حيث تدهور بعده وسقطت معظم جدرانه وأبراجه، وأصبح عرضة للنهب من الأهالي.

وصف السور[١٣] :

كان السور يدور حول زبيد بمحيط قدره (١٠٩٠٠ ذراع) كما ذكر ابن المجاور سنة ٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م، أي ما يعادل ١٧٢٦٫٨٦ متر وكان مدعماً بحوالي ١٠٩ أبراج، وله أربعة أبواب تتجه نحو الجهات الأصلية هي:

باب الشبارق :

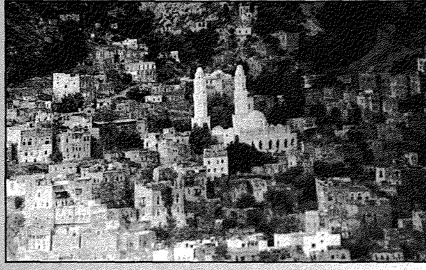
يمثل الباب الشرقي للمدينة وقد ذكرته معظم المراجع بهذا الاسم نسبة الى قرية الشبارق الواقعة شرق زبيد حيث يذكر كل من المقدسي وابن المجاور والخزرجي هذه الأبواب بقولهم[١٤]: ولها أربعة أبواب: باب المشرق وهو المسمى باب الشبارق، ينفذ إلى الشبارق وهي قرية من قرى وادي زبيد، ثم الى حصن قوارير، وباب المغرب وهو الذي يسمى الآن باب النخل، وكان من قبل يسمى باب غلافقة، وينفذ إلى الأهواب وغلافقة على ساحل البحر.. وباب إلى الجهة الشمالية وهو المسمى باب سهام - ذكره المقدسي باسم باب هشام - وينفذ إلى وادي رمع ثم إلى وادي سهام، وهو وجه المدينة وغرتها، وباب إلى الجهة الجنوبية وهو المسمى باب القرتب - ذكره المقدسي باسم باب عدن - وينفذ إلى وادي زبيد ثم إلى قرية القرتب.

يتكون الباب من كتلة بنائية تمتد من الشمال إلى الجنوب بطول (٥٥م) وارتفاع (٦٫٥٠م) مبنية بقوالب الآجر المحروق وهي المادة التي بنيت منها جميع منشآت المدينة على اختلاف أنواعها، ويضم الباب مدخلا ذا برجين، مبنياً على نمط الأبواب الموروبة بحيث يبرز البرج الشمالي عن البرج الجنوبي ويميل نحوه بحيث يظهران وكأنهما قبضتي ملاكم تدافعان عن وجهه، وهذا النوع ظهر لأول مرة في أسوار زبيد، وصنعاء، وانتشر في معظم أبواب المدن ومنها ثلا وصعدة، ويكتنف الباب ثكنتين عسكريتين مستطيلتين تعرف كل منهما باسم قاووش[١٥]، قسمت من الداخل إلى رواقين بواسطة بائكة معقودة، وقد زود المدخل ببرجيه وثكنتيه بالمزاغل والسقاطات والجدران الساترة.

السور الشمالي الشرقي :

بعد باب الشبارق يمتد السور شمالا ويشكل مقوس حتى باب سهام وقد اندثرت جميع أبراج هذا الجزء فيما عدا برجي نوبة الكتف، والبرج الواقع شرق

باب سـهـام، يتكون الأول من مـبنى مستطيل يمتد من الشرق إلى الغرب بطول (١٥م) وعرض (١٠م) وارتفاع (٢٥ر٩م) بنيت جدرانه بسمك (٧٥سم) تضم النوبة برجاً مستديراً ذا ثلاثة طوابق، يتصل به من الجهة الغربية ثكنة للجنود ذات طابقين، ويتكون البرج الثاني من مبنى دائري ذي طابقين محيطه ٣٠م ، ومزود بمزاغل وسقاطات بارزة.



ـ تعز : منظر عام ، جزء من السور اقصى اليمين من أعلاه

باب سهام :

يقع في الجهة الشمالية من المدينة ويعد بابها الرئيسي وغرتها كما ذكر المؤرخون، ويعرف بهذا الاسم نسبة إلى وادي سهام الواقع شمال زبيد، وقد ذكره المقدسي باسم باب هشام ـ ربما تصحيفاً عن سهام ـ وهو مكون من كتلة بنائية تمتد من الشرق إلى الغرب بطول (٦٥م) تضم مدخلا معقوداً ذا برجين لم يبق منهما سوى جزء بسيط من البرج الغربي، وتخطيط الباب من النوع الموروب أيضاً، ويكتنفه ثكنتان عسكريتان مستطيلتان مماثلتان لثكنتي باب الشبارق.

السور الشمالي الغربي :

بعد باب سهام يمتد السور حتى الباب الغربي لزبيد المعروف بباب النخل وقد اندثر هذا السور ولم يبق منه سوى برج واحد يعرف ببرج نوبة أبو حسين الذي يتكون من مبنى دائري الشكل محيطه (٢٢م) مبني بالآجر بسمك (٨٠سم) الجزء الأعلى منها متهدم ولذلك لم يبق من ارتفاعه سوى (٥ر٤م) الجزء الأسفل من النوبة مصمت ومدعم من الجهة الجنوبية الغربية بجدار ساند ينتهي بشكل مشطوف سمكه (٥٠سم) وارتفاعه (٢م) ويشغل منتصف جدار النوبة ثلاثة شبابيك مماثلة لشبابيك البرج الواقع شرق من باب سهام.

باب النخل :

يقع في الجهة الغربية من المدينة، وكان في الأصل يعرف باسم باب غلافقة نسبة إلى الميناء الرئيسي لمدينة زبيد على البحر الأحمر، ثم تغيرت التسمية بعد ذلك إلى الاسم الحالي وهو باب النخل، لأن معظم مزارع النخيل تقع غرب زبيد فيما بينها وبين البحر.

يتكون الباب من كتلة بنائية تمتد من الشمال إلى الجنوب بطول (٦٣م)، تضم مدخلا منكسراً ذا برج واحد وهو من النوع المعروف بالباشورة أو المدخل ذي العطف، أو المدخل ذي المرفق، وهو بذلك يختلف عن بابي الشبارق وسهام، ويكتنف المدخل من الشمال والجنوب ثكنتان عسكريتان مماثلتان لثكنات بابي الشبارق وسهام.

السور الجنوبي الغربي :

بعد باب النخل يمتد السور حتى الباب الجنوبي للمدينة المعروف بباب القرتب، ولم يبق من هذا السور سوى أجزاء بسيطة مدفونة تحت أكوام التراب، وتحتاج إلى حفريات لكشفها.

باب القرتب :

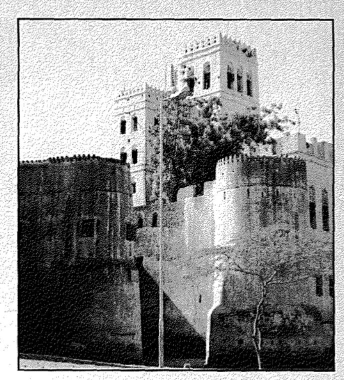
يقع في الجهة الجنوبية من المدينة، ويعرف بهذا الاسم نسبة إلى قرية القرتب من وادي زبيد، وقد ذكره المقدسي باسم باب عدن، حيث من المعتاد عند أهل

مستطيلة تحمل عقدين يحملان سقف الطابق الأرضي، الأجزاء العليا من الجدران متهدمة لذلك لم يبق من ارتفاعها سوى (٦م) تقريبا، وقد بنيت النوبة على هيئة جدارين ملىء الفراغ بينهما بطبقة من المونة، ويشغل جدرانها عدد من فتحات المراقبة والمزاغل.

سور تعز :

بني أول سور حول مدينة تعز في عهد ملوك الدولة الأيوبية ٥٦٩ ـ ٦٢٦هـ/ ١١٧٣ ـ ١٢٢٩م الذين اتخذوا من تعز عاصمة لهم بدلا من زبيد بدءاً من سنة ٥٨٩هـ / ١١٩٣م، وكان أول من مدّنها سيف الإسلام طغتكين الأيوبي، بينما كانت قبل ذلك عبارة عن قرية صغيرة لا تكاد تذكر، حيث طغت شهرة قلعتها عليها، وكذلك شهرة مدينة الجند التي اتخذها الصحابي الجليل معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ مركزاً للدعوة الإسلامية في اليمن، وقد جدد السور الأيوبي أكثر من مرة وزاد فيه ملوك الدولة الرسولية ٦٢٦ ـ ٨٥٨هـ/ ١٢٢٩ ـ ١٤٥٤هـ، الذين اتخذوا منها عاصمة لدولتهم، أما السور الحالي فهو من بناء الإمام المطهر بن الإمام شرف الدين سنة ٩٤١هـ/ ١٥٣٥م بعد استيلائه عليها من المماليك، وكان المشرف على البناء والي تعز الفقيه يحي بن ابراهيم النصيري، وبدأ البناء في شهر رجب سنة ٩٤٣هـ / ١٥٣٦م واستمر لمدة سبع سنوات وثلاثة أشهر انتهت في شهر شوال سنة ٩٥٠هـ/ ١٥٤٣م[١٧].

بُني السور بالطين اللبن والزابور من الداخل بسمك ٥ ـ ٧م وكسي من الجانبين بالحجارة، ودعم بعدد من الأبراج[١٨]، ولم يتبق منه سوى أجزاء بسيطة تتمثل في الباب الكبير والباب الصغير المجاور له من جهة الغرب وباب موسى وبعض أجزاء السور المتصلة بقلعة القاهرة، وكان في الأصل يحيط بالمدينة على هيئة مساحة ذات استطالة متعددة الأضلاع من الجهات الشمالية والشرقية والغربية ومعظم الجنوبية



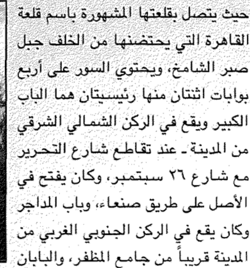
ـ زبيد : القلعة: الباب الرئيسي (مورووب).

اليمن ـ حتى يومنا هذا ـ إذا أرادوا تحديد شيء من الجهة الجنوبية تم تحديدها بالجهة العدنية نسبة إلى مدينة عدن الواقعة في أقصى جنوب البلاد[١٦].

يتكون الباب من كتلة بنائية تمتد من الشرق إلى الغرب بطول (٥٢م) تضم مدخلا على هيئة مبنى مستطيل يكتنفه من الجهة الشرقية برج واحد مربع، وهذا الباب من النوع المباشر الذي يختلف عن الشكل الموروب لبابي الشبارق وسهام، والشكل المنكسر لباب النخل، ويكتنف المدخل تكنتان عسكريتان إحداهما تقع غرب المدخل والأخرى إلى الشرق منه، وهما مماثلتان لتكنات بقية الأبواب.

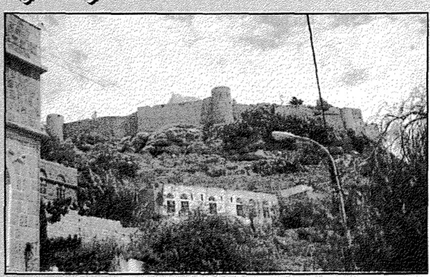
السور الجنوبي الشرقي :

يمتد السور بعد باب القرتب حتى باب الشبارق، ويحتوي هذا الجزء على خمسة أبراج أربعة منها خاصة بالقلعة وسوف نصفها أثناء وصف القلعة في موضوع القلاع، والخامس وهو برج نوبة الصديقية مكون من مبنى دائري الشكل محيطه (٥٠ر٣٦م) ، مقسم من الداخل إلى نصفي دائرة بواسطة دعامة



حيث يتصل بقلعتها المشهورة باسم قلعة القاهرة التي يحتضنها من الخلف جبل صبر الشامخ، ويحتوي السور على أربع بوابات اثنتان منها رئيسيتان هما الباب الكبير ويقع في الركن الشمالي الشرقي من المدينة ـ عند تقاطع شارع التحرير مع شارع ٢٦ سبتمبر، وكان يفتح في الأصل على طريق صنعاء، وباب المداجر وكان يقع في الركن الجنوبي الغربي من المدينة قريباً من جامع المظفر، والبابان الآخران صغيران وهما باب حدبة (باب الوحدة حالياً)، وباب موسى الذي يقع في الركن الشمالي الغربي عند بداية الطريق الموصل إلى مدينة الحديدة ـ امتداد شارع ٢٦ سبتمبر ـ وهذا الباب كان يحتوي على زلاقة مرتفعة في ارضيته فضلا عن تخطيطه المنكسر المعروف بتخطيط الباشورة أو الباب ذي العطف أو الباب ذي المرفق، فكانت كثير من الدواب تنزلق عليه وكذلك عدم استطاعة العربات الدخول عبر الباب فأمر الوالي العثماني محمود باشا سنة ٩٦٨ ـ ٩٧٢هـ/ ١٥١٦ ـ ١٥٦٥م بإزالة انكسار الباب والزلاقة وتوسعته[١٩]، كما كان السور يحتوي على فتحات معقودة تسمح بمرور السيول المتدفقة من قلعة القاهرة وجبل صبر وذلك في الأجزاء الجنوبية من السور وفتحات أخرى مماثلة في السور الشمالي لخروج تلك السيول، وتعرف هذه الفتحات باسم المخاليل جمع خلة ويقصد بها الثقبة أو الفتحة الصغيرة المعقودة[٢٠]، ومازالت فتحتان منها باقية إحداهما ما يعرف حالياً باسم الباب الصغير ويقع غرب الباب الكبير، والأخرى بجانب باب النصر[٢١].

السور الممتد من الباب الكبير حتى باب موسى كان يحتوي على برجين، والسور الغربي والجنوبي الممتد من باب موسى حتى قلعة القاهرة وكان على هيئة ثلاثة أربع الدائرة يحتوي على خمسة عشر برجاً، أما السور الشرقي فيحتوي على ثلاثة أبراج، والسور



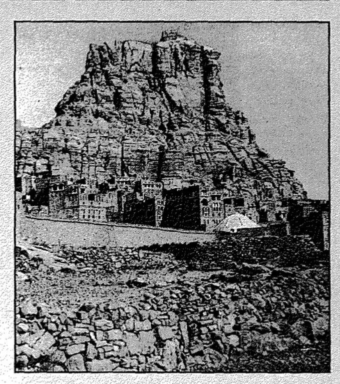
ـ حجة : قلعة القاهرة.

الجنوبي الغربي الممتد حتى قلعة القاهرة يحتوي على ثمانية أبراج، وكانت أبراج السور مبنية علي هيئة مربع في الأجزاء المستقيمة من السور، أما أبراج الزوايا فكانت على هيئة ثلاثة أرباع الدائرة.

٢ ـ القلاع :

القلعة في اللغة الحصن على الجبل[٢٢]، وكانت نشأة القلاع الأولى كقصر للملك أو الحاكم يشغل ركناً من اركان المدينة وغالباً ما يكون على تلة مرتفعة أو جبل عال، ومحاط بسور خاص يتصل بالسور الأصلي للمدينة، ويدعمه عناصر دفاعية متنوعة كالبوابات المنكسرة والسرية والأبراج ذات المزاغل والسقاطات، مع إحاطة سور القصر من الخارج بخندق يملأ بالمياه عند الضرورة، وكان اختيار موقع القلعة يتطلب عدداً من المواصفات الخاصة يجب توافرها باعتبارها عنصراً مهماً من عناصر الاستحكامات الحربية الإسلامية، ومن أهمها: حسن اختيار الموقع، ومتانة الأسوار وتدعيمها بالأبراج والوسائل الدفاعية والهجومية، وتوفر المياه والغذاء اللازم لوقت الحصار.

ولا تزال مدن اليمن الإسلامية وتلك التي تعود لعصور ما قبل الإسلام تحتوي على القلعة كعنصر



- مدينة ثلا : جانب من سور المدينة والحصن.

حربي مهم وأشهرها قلعة صنعاء المعروفة قديماً بقصر غمدان وحالياً بقصر السلاح، وقصر شبعان في مدينة السوا، وقصر هران في مدينة وعلان، والدار الناصري بمدينة زبيد، وقلعة القاهرة بمدينتي تعز وحجة، وقلعة ثلا بمدينة ثلا، وقلعتا المخا، وقلعة اللحية، وقلعة صعدة، وقلعة صيرة بعدن... الخ.

وكانت القلاع تحتوي على ثكنات لإقامة الجند، ومخازن للسلاح والغذاء، وآبار أو صهاريج لتخزين المياه، ومسجد لأداء الصلاة، وسجن لمن يخرج عن الطاعة، واسطبلات للخيل والدواب، وعدد من المنشآت العامة كالحمامات ودواوين الوظائف الإدارية والقضائية والحربية ومنها دار الأدب ودار العدل، ودار الإمارة.. الخ. ونظراً لكثرة القلاع في اليمن فسوف نكتفي بوصف قلعة زبيد كنموذج للقلاع اليمنية:

قلعة زبيد :

ترجع نشأة القلعة إلى عهد محمد بن زياد مؤسس مدينة زبيد سنة ٢٠٤هـ/ ٨١٩م، وكان القائم على بنائها مولاه شخار بن جعفر، وكانت ذات طول وعرض مبنية بالآجر والجص بناء وثيقاً على مقاطع الطريق، وحفر حوله خندق عظيم عريض وكل من تولى زبيد سكنها[٢٣]، وبعد استقلال بني زياد ٢٠٤ - ٤٢٦هـ/ ٨١٩ - ١٠٣٥م عن الخلافة العباسية عرفت باسم دار الملك أو دار السلطان، واستمر كذلك في عصر الدولة النجاحية ٤٣١ - ٥٥٤هـ/ ١٠٤٠ - ١١٥٩م، ودولة بني مهدي ٥٥٤ - ٥٦٩هـ/ ١١٥٩ - ١١٧٤م، مع التجديد المستمر وإضافة العديد من القصور والأبنية له، وبعد انتقال العاصمة إلى تعز في عهد الدولة الأيوبية ٥٦٩ - ٦٢٦هـ/ ١١٧٤ - ١٢٢٩م، جدد أكثر من مرة وكذلك في عصر الدولة الرسولية ٦٢٦ - ٨٥٨هـ/ ١٢٢٩ - ١٤٥٤م، التي قامت بأهم تجديدات قلعة زبيد أهمها تجديد السلطان الناصر أحمد بن الأشرف إسماعيل الثاني ٨٠٣ - ٨٢٧هـ/ ١٤٠١ - ١٤٢٤م الذي أمر بهدم القصر السلطاني وما حوله من قصور بني زياد وبني نجاح وقصور الأمراء الصليحيين وغيرها سنة ٨٢٢هـ/ ١٤١٩م وبنى مكانها داراً كبيرة عرفت باسم الدار الناصري الكبير نسبة إليه[٢٤]، كما قام بتجديده سلاطين الدولة الطاهرية ٨٥٨ - ٩٢٣هـ/ ١٤٥٤ - ١٥١٧م أكثر من مرة، وأضاف له السلطان الظافر عامر الثاني بناء كبيراً ومناظر ودرجاً ومتنزهات في الجانب الشمالي الشرقي من القصر وذلك سنة ٩١٨هـ/ ١٥١٢م[٢٥]، وبعد سقوط الدولة الطاهرية سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م تحول القصر إلى مقر للولاة المماليك، ثم للولاة العثمانيين على زبيد الذين جددوا القصر أكثر من مرة، وفي عصر حكم الأئمة ١٠٤٥ - ١٢٨٩هـ/ ١٦٣٥ - ١٨٧٢م، ١٣٣٨ - ١٣٨٢هـ/ ١٩١٩ - ١٩٦٢م تحولت بعض القصور إلى إدارات حكومية ومنها السجن ودار الحكومة ودار الضيافة الذي استغل كمبنى للمواصلات ثم مستوصف صحي، ودار المالية.

تقع القلعة في الطرف الجنوبي الشرقي لمدينة زبيد، وتضم عدداً من المنشآت العامة: كالمدرسة،

والبئر، ومخازن الحبوب، والحمام، وعدداً من الوحدات الإدارية: كدار الحكومة، ودار الضيافة (المحكمة حالياً)، ودار المالية، وكذلك عدداً من المباني العسكرية: كالسجن، والثكنات العسكرية، ومخازن الأسلحة، كما تضم عدداً من المقرات لإدارات حديثة منها إدارة مديرية زبيد، ومقر البعثة الكندية للآثار، والمتحف.

ويتقدم القلعة من الجهة الشمالية ميدان واسع تتفرع منه عدد من الشوارع إلى مختلف أجزاء المدينة وخاصة الأبواب وجامعا الأشاعر والكبير، والسوق، وربما كان هذا الميدان مخصصاً لإجراء حفلات الأعياد وما يجري أثناء ذلك من سباق للخيل وغيره.

وصف القلعة :

بنيت جميع مباني القلعة بواسطة قوالب الآجر بحجم (٥×٧×١٠سم) وكسيت في بعض الوحدات المعمارية بطبقة من النورة البيضاء، أما الأسقف فمعظمها من الأخشاب المغطاة من أعلى بطبقة من التراب أو بملاط النورة.

وتتكون القلعة من مساحة ذات استطالة متعددة الأضلاع، أقصى اتساع لها (١٢٦م) من الشمال الى الجنوب وأقصى عرض لها (١٥٨م) من الشرق إلى الغرب، ومحيطها (٦٢٤م) محاطة بالأسوار المدعمة بالأبراج، ولها مدخل رئيسي في الجهة الشمالية وهو من النوع المورور مثله مثل بابي الشبارق وسهام من سور زبيد، ومدخل فرعي في الركن الجنوبي الشرقي يعرف باسم باب النصر وهو من النوع المنكسر والمباشر في الوقت نفسه، وللقلعة أربع واجهات:

الواجهة الشمالية: طولها ١٦٦م، وهي ليست على استقامة واحدة، وتحتوي على ستة أبراج بما فيها برجا البوابة الرئيسة للقلعة.

الواجهة الغربية: طولها ٨٢م ولا تحتوي على أبراج.

الواجهة الجنوبية: طولها ١٠٩م، وتحتوي على برجين والثالث مشترك مع الواجهة الشرقية وهو برج باب النصر.

الواجهة الشرقية: طولها ١٢٠,٥م وتحتوي على ثلاثة أبراج أحدها برج باب النصر، وجميع الأبراج ذات طابقين أو ثلاثة بنيت على هيئة نصف دائرة أو ثلاثة أرباع الدائرة أو مثمنة، وترتفع حتى قمتها بشكل أسطواني يتدرج ويقل محيطه كلما ارتفع إلى أعلى، وقد زود سور القلعة وأبراجها بمزاغل وسقاطات بارزة ومخفية، وجدار ساتر يحمي المشى الذي يعلو المنشآت الملاصقة للسور.

أما من الداخل فإن القلعة تحتوي على رحبة في الوسط تعرف باسم رحبة الدار الناصري[٢٦]، وتتكون من مساحة مستطيلة الشكل تمتد من الشرق إلى الغرب بطول (١٣٧م) وعرض (٩٠م) كانت مشغولة بأشجار متنوعة وعيون ماء مجلوبة من شرق زبيد وأحواض مياه ونوافير وشاذروانات ومازال احدها موجوداً بجوار الواجهة الشرقية لدار المالية عبارة عن حوض مستطيل (٢×٣م)، عمقه (٥٠سم) تتوسطه قطعة صغيرة من الحجر تشبه قاعدة عمود والتي ربما كانت قاعدة لنافورة، وفي الطرف الجنوبي من النافورة مجرى مائي يمتد إلى البئر القريبة من الحوض من الجهة الجنوبية.

كما تحتوي القلعة على عدد من المنشآت منها دار الحكومة التي تتكون من مبنى مستطيل الشكل يمتد من الشمال إلى الجنوب بطول ٢٠,٥٠م وعرض ١٤,٥٠م مكون من ثلاثة طوابق في كل من الطابقين الأرضي والأول ممر مستطيل محاط بست قاعات وحمام وحجرة سلم صاعد إلى الطوابق العليا، أما الطابق الثاني فيتكون من حجرة واحدة مستطيلة، تعلو حجرة الطابق الأول الجنوبية الشرقية، ويعلو حجرة السلم طابق رابع مكون من حجرة مربعة تعرف باسم المنظرة مغطاة بقبو مقوس ارتفاعه (٥م)، أما دار المالية فتتكون من مبني مستطيل الشكل طوله (١٧م) وعرضه (١٤م) وارتفاعه (٨,٢٥م) وسمك جدرانه

(٨٥سم) وله مدخلان احدهما رئيسي يقع في الركن الشمالي الغربي للمبني مكون من كتلة بارزة مربعة والآخر فرعي صغير، تتكون الدار من طابقين في كل طابق حجرتان مستطيلتان ودركاة تتقدمهما وسلم وحمام، وأما دار الضيافة فتتكون من مساحة مستطيلة طولها (٢٦٫٥٠م) وعرضها (١٦م) تضم طابقين في كل طابق خمس حجرات وسلم، وعدد من الملحقات تلتصق بالواجهة الجنوبية للدار تضم مطبخاً وحماماً وصالة طعام ومخزن.

كما تحتوي القلعة على بئرين إحداهما تقع بالقرب من الواجهة الجنوبية لمبني المالية، والأخرى جنوب مبنى السجن، تتكون كل منهما من حفرة دائرية عمقها ـ حاليا ـ (٢٦م) مبنية من أسفلها حتى اعلاها بجدار مستدير من الآجر ومحاطة من أعلى ببناء مربع يحمل دعامتين تستند عليه عارضة خشبية، وبجانب كل بئر ثلاثة أحواض مخصصة لسقي الخيل والبغال والدواب، كما تحتوي القلعة على خمس ثكنات لإقامة الجند، ومخزن للحبوب مكون من مبنى مستطيل ذي طابق واحد مقسم بواسطة أربع بوائك الى خمس بلاطات، فضلا عن مخزنين للسلاح يعرفان باسم الدبابة، ويقعان بجوار مخزن الحبوب احدهما مغطى بقبو مدبب والآخر بقبو مماثل وقبة، وفي الجهة الشرقية من الرحبة منظرة ملاصقة للسور الشرقي مخصصة لاستراحة السلطان مكونة من طابق واحد ذي واجهة معقودة باربعة عقود منكسرة تطل على الرحبة.

كما تحتوي القلعة على مدرسة تعرف باسم مدرسة السكندرية وهي أيوبية النشأة وكانت تعرف باسم مدرسة الميلين، تتكون من صحن ذي أربعة أروقة، ومصلى مغطى بقبة مركزية وأربع قباب جانبية، ومئذنة وميضأة، والى الغرب من المدرسة يقع مبنى السجن وكان في الأصل قصراً أنشأه السلطان الأشرف الرسولي سنة ٨٠٠هـ/ ١٣٩٨م، مكون من مساحة مستطيلة طولها (٤٠م) وعرضها (٢٥م) يتوسطه فناء مكشوف تحيط به عشر حجرات على طابقين، ونظرا لأن واجهته الشمالية تطل على ميدان القلعة الخارجي فقد دعمت ببرجين دائريين في الزوايا وبرج أوسط مثمن، ويكتنف السجن من الجهة الجنوبية حمام مستطيل مغطى بخمس قباب مدببة.

٣ ـ الحصون :

تشبه القلاع من حيث الشكل ومن حيث احتوائها على ثكنات للجند وغير ذلك، لكن الحصون تتميز بوقوعها على قمة جبل عال قد يكون قريباً من مدينة ما لكنه لا يتصل بها وإن كان الغالب أن الحصون تقع على قمم الجبال العالية ذات الطبيعة الاستراتيجية المتحكمة بالمنطقة التي يقع فيها، وغالباً ما يقوم الحكام ببنائها وشحنها بالجند والعتاد بصفة مستمرة استعداداً للحرب مع العدو أو لإرهابه وصده ومن ذلك قيام مؤسس الدولة الرسولية ٦٢٦ ـ ٨٥٨هـ/ ١٢٢٩ ـ ١٤٥٤م المنصور نور الدين عمر ببناء عدد من الحصون وشحنها بالجند والعتاد خوفاً من قيام الأيوبيين بمحاولة استرداد اليمن منه، ومن ذلك حصن القاهر على جبل حضور وسلسلة الحصون الممتدة من اليمن حتى مكة،، وكذلك فعل ابنه المظفر يوسف الذي شيد عدداً من الحصون منها حصن بيت أنعم في همدان، وحصن في جبل أبي قبيس بمكة، وحصن العطشان في نخلة، وحصن ظفار ذيبين، وحصن الكولة[٢٧].

ولا يخلو جبل عال أو استراتيجي إلا وتوجت قمته بحصن من الحصون يتجاوز عددها في اليمن المئات، ومن أهم حصون اليمن: حصن قوارير الذي جدده السلطان الرسولي الناصر أحمد وجصص جدرانه وبنى فيه عدداً من القصور والدور وسقفها بأخشاب الصندل، وحصن خدد في لواء إب المحاط بالأسوار العالية ذات الأبراج المبنية من الحجر، ويحتوي على عدد من صهاريج الماء بعمق ٢٥م وطول ١٠ ×

٢٥م[٢٨]، وحصن السوا، وحصن ظفار ذيبين، وحصن الفص، وحصن هران، وحصن المنصورة بالصلو، وحصني نقم وبراش في صنعاء، وغير ذلك مما لا يتسع المجال لذكرها هنا.

ويعد حصنا الدملوة بالحجرية والتعكر بإب أشهر حصنين باليمن فالأول كان كرسي ملك الدولة الصليحية، والثاني كرسي ملك بلاد اليمن عامة، والدولة الرسولية خاصة حيث اتخذت منه مخزنا لثرواتها وملجأ حصيناً وقت الخطر.



- زبيد : جزء من الخندق المحيط بسور المدينة من الخارج.

٤ ـ الخنادق :

الخندق في اللغة الوادي والحفير حول أسوار المدن، وخندق حوله حفر خندقا[٢٩]، وقد استخدم الخندق كعنصر دفاعي منذ عصر ما قبل الإسلام، في العراق وفارس ومصر وغيرها، وكان أول استخدام للخندق في العصر الإسلامي في عهد الرسول [صلى الله عليه وسلم] سنة ٥هـ/ ٦٢٦م عندما أحاط جزء من المدينة بخندق عمقه ٢٠ ذراعاً وعرضه ٢٠ ذراعاً أيضاً، وذلك قبيل غزوة الأحزاب بإشارة من سلمان الفارسي[٣٠]، ثم انتشر حفر الخنادق بعد ذلك في مختلف مدن العالم الإسلامي وقلاعه، ففي اليمن على سبيل المثال كانت صنعاء محاطة بخندق من الجهات الجنوبية والغربية والشمالية، وتعد مدينة زبيد المثل الأروع والأكمل لخنادق اليمن:

وصف خندق زبيد:

وقد استخدم الخندق في زبيد على نوعين:

النوع الأول:

كان يحيط بالمدينة كلها ولا نعرف متى تم حفره أول مرة، لكنه كان موجوداً في عصر الدولة النجاحية ٤٣١ ـ ٥٥٤هـ/ ١٠٤٠ ـ ١١٥٩م حيث قام سرور الفاتكي ٥٣١ ـ ٥٥٣هـ/ ١١٣٧ ـ ١١٥٨م بحفر خنادق زبيد، وجدده السلطان الأيوبي سيف الإسلام طغتكين أخو صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م، وأضاف لها سوراً آخر أحاطه بخندق ثان وبذلك صار لزبيد خندقين يحيطان بسوريها، وقد دفن الخندق الخارجي على يد الطواشي أهيف فأمر السلطان الأشرف إسماعيل بن الأفضل سنة ٧٩١هـ/١٣٨٩م بحفره من جديد[٣١].

ولم يتبق من هذين الخندقين غير الخندق الخارجي الذي مازالت أجزاء كثيرة منه باقية في مناطق متفرقة من المدينة باتساع يتراوح بين ٣ ـ ٢٠م، وعمق ما بين ٢ ـ ٥م، وخاصة في الجهتين الشمالية والجنوبية من المدينة والذي يستخدم حالياً كمصرف للسيول الآتية من الجبال الواقعة شرق زبيد مما ساعد على بقاء هذه الأجزاء من الخندق.

يبدأ الخندق من أمام باب الشبارق ويمتد باتجاه الشمال حتى باب سهام وبقي منه أجزاء يتراوح اتساعها بين ٣ ـ ٦ متر وعمق ١ ـ ٣ متر، ثم يمتد من باب سهام حتى باب النخل ومازال موجوداً بكامله، باتساع يتراوح بين (١٠ : ٢٠م) وعمق (١٫٥٠ ـ ٢٫٥٠م) ثم يمتد من باب النخل حتى باب القرتب ومازال موجوداً كاملا وإن ضاقت بعض أجزائه، ثم يمتد من باب القرتب حتى باب الشبارق مرة أخرى

باتساع يتراوح بين (١٠ : ٣٠م) وعمق (٤م).

النوع الثاني:

كان يحيط بأهم مبنى في المدينة، وكان هناك مبنيان مهمان فيها: الأول: دار الملك محمد بن زياد مؤسس دولة بني زياد ٢٠٤ ـ ٢٤٥هـ/ ٨١٩ ـ ٨٥٩م، وهي الدار التي بناها له مولاه شخار بن جعفر بعد استيلائه على زبيد سنة ٢٠٤هـ/ ٨١٩م، ويحتل موقعها الآن قلعة زبيد. والثاني: دار السلاح قرب باب الشبارق الذي أمر بإنشائه السلطان الرسولي الظاهر يحي بن الأشرف الثاني سنة ٨٣٢هـ/ ١٤٢٩م، وأمر بعد ذلك السلطان الظاهري المنصور عبد الوهاب بن داود بن طاهر بإحاطته بخندق سنة ٨٨٣هـ/ ١٤٧٨م[٣٢].

٥ـ أبراج المراقبة :

عبارة عن مبان تقام في رؤوس الجبال وعلى السواحل بطول مناطق التماس مع العدو وتمتد حتى العاصمة، وتعرف باسم أبراج المراقبة، كما تعرف باسم المناظر، والمراقب ومفردها مرقب، وأيضاً الطلائع، وكان يقيم بكل برج عدد من الجند بشكل دائم مهمتهم مراقبة تحركات العدو وإبلاغ الحاكم بذلك عن طريق إشعال النيران في قمة البرج الذي شاهد تحرك العدو فيراه أقرب برج مقابل له فيشعل النار في قمة برجه وهكذا يتواصل إشعال النيران من برج إلى آخر حتى يصل إلى العاصمة[٣٣].

وقد وجدت هذه الأبراج في اليمن في خطوط التماس بين الدولة الزيدية والدول الأخرى المعاصرة لها كالدولة الرسولية والدولة الطاهرية وكذلك مع المناطق التي خضعت للعثمانيين، وأشهرها الأبراج الممتدة من صنعاء حتى ذمار ومن صنعاء حتى صعدة، وقد اندثر معظم هذه الأبراج حالياً ولم يبق منها سوى بعضها وفي مناطق متفرقة، وتتكون في الغالب من أبراج دائرية أو مربعة أو مستطيلة ذات طابقين الأعلى منهما مكشوف حتى يسمح بالمراقبة في جميع الاتجاهات، في حين يستخدم الأرضي للمراقبة أثناء المطر، وتبنى أبراج المراقبة بنفس المواد المتوفرة في الموقع ومنها الطين اللبن والآجر والحجر بأنواعه.

الهوامش :

(١) سورة النمل آية/ ٢٣.

(٢) الرازي، أحمد بن عبد الله الصنعاني (ت ٤٦٠هـ)، تاريخ مدينة صنعاء، تحقيق د: حسين العمري، دار الفكر العربي بيروت، ط٣، ١٩٨٩م، ص ١٨٠.

(٣) السيد محمود البنا، دراسة ترميم وصيانة مدينة صنعاء القديمة، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآثار، جامعة القاهرة، ١٩٩٣م، ص ١٣٣ ـ ١٣٥.

(٤) Lewcock,r & Others, the urban Development of Sanaa, Sanaa An-Arabian Islamic City, Edited by R.B. Sergeant And Lewcock. London, 1983. P131, سيد البنا، دراسة ترميم، ص ١٣٦.

(٥) عبد الله عبد السلام الحداد، صنعاء، تاريخها ومنازلها الأثرية، سلسلة مدن تراثية رقم ٢، دار الآفاق العربية القاهرة، ط ١ ، ١٩٩٩م، ص ٣٢.

(٦) سيد البنا، دراسة ترميم، ص ١٣٩ ـ ١٤٠.

(٧) سيد البنا ، دراسة ترميم، ص ١٤٢ ـ ١٤٣.

(٨) سيد البنا ، دراسة ترميم، ص ١٤٣ ـ ١٤٧.

(٩) المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، طبعة ليدن، مطبعة بريل، ط ٢ ، ١٩٠٩م، ص ٨٤، يحي بن الحسين بن القاسم، غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، ت: د/سعيد عبد الفتاح عاشور، دار الكاتب العربي، القاهرة ١٩٦٨م، ج ١، ص ١٥١.

(١٠) عمارة اليمني ، نجم الدين عمارة بن علي الحكمي (ت ٥٦٩هـ) ، تاريخ اليمن المسمى المفيد في أخبار صنعاء وزبيد وشعراء ملوكها وأعيانها وأدبائها، تحقيق محمد بن علي الأكوع، المكتبة اليمنية للنشر والتوزيع، صنعاء الطبعة الثالثة، ١٩٨٥م، ص ٢١٠، ابن المجاور، جمال الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب بن محمد الشيباني الدمشقي (ت ٦٩٠هـ)، صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز، المسماة تاريخ المستبصر، تحقيق ممدوح حسن محمد، دار الثقافة

الدينية، القاهرة، ١٩٩٦م، ص ٨٩ ، ٩٠ ، الخزرجي، علي بن الحسن (ت ٨١٢هـ) العسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك، مخطوط مصور، وزارة الإعلام والثقافة صنعاء، الطبعة الثانية ١٩٨١م، ص ١٠١ ، ١٠٢، ابن الديبع، عبد الرحمن بن علي بن محمد بن عمر (ت ٩٤٤هـ)، بغية المستفيد في تاريخ مدينة زبيد، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء ١٩٧٩م، ص ٣٥، ٧٥، ابن عبد المجيد، تاج الدين عبد الباقي (ت ٧٤٤هـ)، تاريخ اليمن المسمى بهجة الزمن في تاريخ اليمن، تحقيق: مصطفى حجازي، دار الكلمة صنعاء، الطبعة الثانية ١٩٨٥م ص ٢٨، ٧٨.

(١١) ابن المجاور، صفة بلاد اليمن، ص ٨٩، ٩٠، الخزرجي، العسجد المسبوك، ص ١٠٢، ١٠٣، ابن الديبع، بغية المستفيد، ص ٣٦، ٣٧.

(١٢) الخزرجي، العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، جزآن، تحقيق محمد بن علي الأكوع، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، دار الآداب بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٣م، ج٢، ص ١٣٥، ١٧٠، ١٧٤، ١٧٥، ابن الديبع، بغية المستفيد، ص ٩٧، ١٠٠، ١٠٨، المقحفي، ابراهيم أحمد، معجم المدن والقبائل اليمنية، دار الكلمة صنعاء ١٩٨٥م، ص ١٩٠.

(١٣) عبد الله عبد السلام الحداد، المنشآت العسكرية بمدينة زبيد، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآثار جامعة القاهرة ٢٠٠٠م، ص ١١٠ - ١٨٠.

(١٤) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٨٤، ابن المجاور، صفة بلاد اليمن، ص ٨٩، الخزرجي، العسجد المسبوك، ص ١٠١، ١٠٢.

(١٥) قاووش: كلمة تركية الأصل تعني المحل أو الملتقى، واصطلاحاً بيت العسكر، وتجمع على قواويش. (انظر)، شوقي شعث (دكتور)، قلعة حلب وتاريخها ومعالمها الأثرية، دار القلم العربي، حلب، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ص ٧٩.

(١٦) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٨٤، ابن المجاور، صفة بلاد اليمن، ص ٨٩، ابن الديبع، بغية المستفيد، ص ٣٦.

(١٧) المجاهد، محمد محمد، مدينة تعز غصن نظير في دوحة التاريخ العربي، الطبعة الأولى ١٩٩٧م، ص ٨٧، ٨٩.

(١٨) الصايدي، أحمد قائد (د)، المادة التاريخية في كتابات نيبور عن اليمن، دار الفكر المعاصر بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٠م ص ٢٢٧.

(١٩) المجاهد، مدينة تعز، ص ١٢٨.

(٢٠) مجمع اللغة العربية، المعجم الوجيز، ١٩٩٥م ص ٢١٠.

(٢١) المجاهد، مدينة تعز ص ٨٨.

(٢٢) الرازي، مختار الصحاح، دار القلم لبنان، مادة قلع، ص ٥٤٨.

(٢٣) ابن المجاور، صفة بلاد اليمن، ص ٩٤.

(٢٤) ابن الديبع، بغية المستفيد، ص ١٠٥، عبد الرحمن عبد الله الحضرمي، مدينة زبيد في التاريخ، مجلة الإكليل، وزارة الإعلام والثقافة، عدد ١، السنة الأولى ١٩٨٠م، ص ١٠٤.

(٢٥) ابن الديبع، الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار زبيد، تحقيق محمد عيسى صالحية (د)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت، الطبعة الأولى ١٩٨٢م، ص ٣٤٣.

(٢٦) ابن الديبع، بغية المستفيد، ص ٧٦.

(٢٧) ابن حاتم، بدر الدين محمد بن حاتم (ت بعد ٧٠٢هـ) السمط الغالي الثمن في أخبار الملوك من الغز باليمن، تحقيق ركس سميث ١٩٧٣م، ص ٢٥٥، ٣٣٥، ٣٦٨، ٤٣١.

(٢٨) ابن الديبع، بغية المستفيد، ص ١٠٥، المقحفي، معجم المدن، ص ١٤٢.

(٢٩) ابن منظور ، لسان العرب، ج ١٠، ص ٩٣، الفيروز ابادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، ٤ أجزاء، المكتبة التجارية بالقاهرة ١٩٢٣م، باب القاف فصل الخاء، ج٣، ص ٢٢٩.

(٣٠) عبد الرحمن زكي (د)، بين قلاع العرب، الحرب عند العرب، سلسلة كتابك رقم ٨٨، دار المعارف القاهرة ١٩٧٧، ص ٣١.

(٣١) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج٢، ص ١٧٠، ابن الديبع، بغية المستفيد، ص ١٠٠، المقحفي، معجم المدن، ص ١٩٠.

(٣٢) ابن الديبع، بغية المستفيد، ص ١٠٨، ١٦٢.

(٣٣) محمد عبد الهادي شعيرة (د)، من تاريخ التحصينات العربية في القرنين الأول والثاني للهجرة، المؤتمر الرابع للآثار في البلاد العربية، تونس ١٨ - ٢٩ مايو ١٩٦٣، جامعة الدول العربية، ١٩٦٥م، ص ٤٢٣.

العمارة الحربية في العص

بقلم :

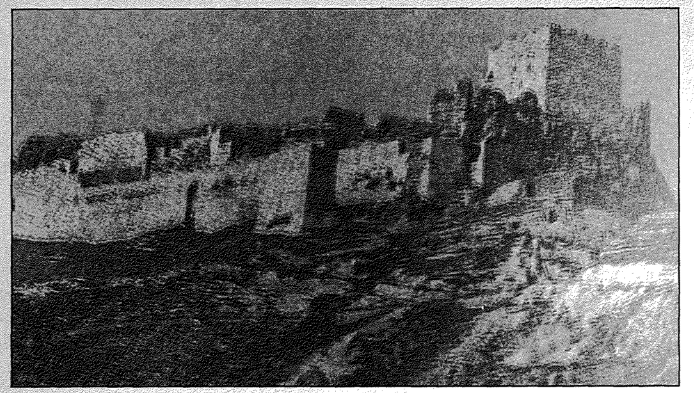
د. محمد محمود على الجهني

قسم الآثار الإسلامية - كلية الآداب بقنا - جامعة جنوب الوادي - مصر



عندما انطلقت جيوش المسلمين خارج الجزيرة العربية كان اثنان منهما بقيادة أبي عبيده عامر بن الجراح، ويزيد بن أبي سفيان قد توجها الى الأردن، ومنه واصلا فتوحاتهما في فلسطين وسوريا، وبدأت الحصون البيزنطية والفارسية تتهاوى أمام ضربات تلك الجيوش .. وقد أفاد خلفاء بني أمية من تلك الحصون حيث شيدوا القصور الحصينة التي أخذت طراز هندسة القلاع من حيث الأسوار والأبراج والمشطرفات؛ وقد وجد بالأردن عدد من تلك القصور المحصنة نذكر منها قصر الحرانة الذي يعود الى عهد الوليد بن عبد الملك ٩٤-٩٧هـ/٧١٢-٧١٥م وهو القصر الوحيد الذي يبدو أنه أنشيء بغرض حربي وهو لمن يراه قلعة مربعة الجوانب يشتمل كل ركن من أركانه على برج مستدير، بالإضافة الى برج نصف دائري في وسط كل جدار فضلا عن فتحات المزاغل المخصصة لرمي السهام، والمدخل على جانبيه برجان على هيئة ربع دائرة يؤدي الى ممر على جانبيه حجرات يؤدي الى صحن كشف سماوي[١]، كذلك نجد تلك العناصر الحربية في قصر الحير الشرقي وقصر الحير الغربي[٢]، وهذه القصور يتضح بها استعمال العناصر الحربية من أسوار مدعمة بالابراج ذات المزاغل المحصنة لرمي السهام على الأعداء، وكذلك المشطرفات أعلى المداخل لصب المواد الحارقة على من يقف أسفل تلك المداخل من الأعداء.

ولم تقتصر العمارة الحربية في الاردن على تلك القصور الصحراوية وإنما وجد عدد غير قليل من القلاع التي تعود للعصور الوسطى إبان الحروب



ـ قلعة حصن الكرك ويتضح سورها الممتد تتخلله الابراج الدفاعية.

الصليبية حيث شيدت في عجلون، والكرك، والشوبك، والعقبة، والسلط، والطفيلة. ومن خلال دراسة نماذج منها سوف نتعرف على ما يميزها من عناصر معمارية لها الصفة الدفاعية.

١ـ قلعة عجلون :

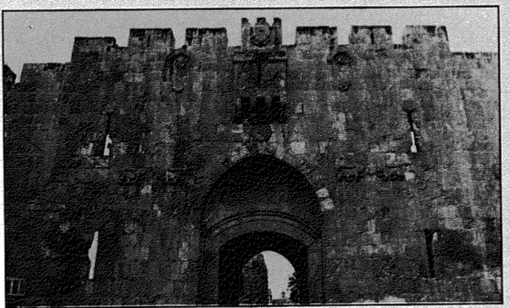
شيدت هذه القلعة في مدينة عجلون التي تبعد عن عمان ٧٣كم في الجهة الشمالية الغربية وعن جرش ٢٤كم. أعلى قمة جبل بني عوف بأمر من عز الدين أسامه سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م [٣] والقلعة بهذه الهيئة احتلت موقعا استراتيجيا يصعب تسلقه وأحيطت بخندق مائي مما أضفى على القلعة مزيدا من القوة والمنعة.

والمخطط العام للقلعة عبارة عن مستطيلين متجاورين مدعمين بالأبراج، التي تتخلل الأسوار المدعمة بجدران ساندة لحمايتها من الزلازل. والمدخل الرئيسي للقلعة في الجهة الشمالية الشرقية يجاوره برج مكون من ثلاثة طوابق يشتمل على فتحات للمزاغل، وقد نفذت الأسوار والأبراج من الحجر المسنم Rusticate.

والقلعة من الداخل مساحتها ٧٠ × ٨٠م تشتمل على فناءين وستة أبراج،، تشتمل على ثلاثة طوابق



مـزاغل لرمى السـهام، وفي الابراج المربعـة توجـد مـشطرفـات أو سـقـاطات Machicoulis اسـتـخـدمت لصب المواد الحـارقـة على الأعـداء.. والتكوين العـام لقـاعـات البرج عبارة عن قاعة كبيرة مـسـاحـتـهـا ٣٠ر١٥ × ٤٠ر١٣م تتـألف من أربعـة عقود مـدببة تحمل مـثلثات كـروية تحـمل قبـة ضـحلة يتوزع في جدرانها عشرة مزاغل لرمى السهام يجاورها حجرة صغيرة وسلم يؤدى الى سطح البرج[٥].



- با ب الاسباط بسور مدينة القدس في العصر العثماني.

وقد بنيت أبراج القلعة من الحجر المسنم، والقلعة تشتمل من الداخل على ثلاث برك لخزن مياه الامطار لاستعمالها عند الحاجة لمواجهة أي حصار، كما تشتمل على عدد من العمائر الخدمية مثل الافران والمعاصر والمسجد والكنيسة والحمام والسجن والمدرسة.

وقد شيدت هذه القلعة قبل قدوم الصليبيين، وقاموا بتجديدها عندما احتلوا بيت المقدس سنة ١٠٩٦م/٤٩٣هـ، ولما استولوا على الكرك عام ٥٣٧هـ/ ١١٤٢م استولوا عليها واعادوا تحصينها[٦] واستمرت الى أن فتح صلاح الدين الكرك وأقطعها الى أخيه الملك العادل وشرع العادل باعادة بناء ما تهدم من أسوارها وبدأت القلعة تشهد مرحلة جديدة من الاعمار تضفي عليها طابعا اسلاميا بما حوته من مسجد وأبراج مربعة ومستطيلة تعود لعهد العادل الايوبي، وتعاقب عليها الزمن حتى آلت الى العثمانيين وعين ناصيف باشا حاكما لها فلمس مدى حصانتها وحاول الاستقلال فيها ولكن الدولة العثمانية أرسلت اليه حملة وتم إعدامه، وأصبحت القلعة مقرا للحامية التركية ونقطة من نقاط الحج الشامي.

يضم كل طابق عددا من الطرق والقاعات أرضياتها ليست على مستوى واحد.

وهذان الفناءان نصل إليهما من خلال بوابة رئيسية ترتبط بجسر على الخندق المائى[٤] تؤدى الى مدخل آخر يمينا يؤدى الى الصحن وهذا المدخل عليه باب حديدي ينزلق طرفاه الجانبيان في ممرين ليسدا المدخل في وجه الأعداء وبذلك يمثل مدخل قلعة عجلون نموذجا متقدما للمدخل المنكسر المحصن وحول الصحن توجد الابراج والقاعات، والبرج عبارة عن بناء مربع الشكل توجد في جدره مزاغل لرمي السهام يجاور الأبراج عدد من المستودعات والقاعات لخدمة من بالقلعة.

٢ـ قلعة الكرك.

شيدت بمدينة الكرك التي تبعد بمسافة ١٣٠كم جنوب عمان وذلك على جبل ارتفاعه ٩٦٠كم عن سطح البحر، وقد فصلت القلعة عن المدينة من خلال خندق تم حفره في الصخر.

والقلعة ذات تخطيط متميز اذ أنها تشتمل على سورين فضلا عن سور المدينة. وقد دعمت هذه الاسوار بأبراج نصف اسطوانية، ومستطيلة، ومربعة، وهي تتكون من طابقين أرضى وأول وتشتمل على

٣ـ قلعة الشوبك :

منسوبة الى مدينة الشوبك الواقعة بين الكرك والبتراء وهى مشيدة فوق قمة منفردة من قمم جبال الشراه التى ترتفع إلى ١٣٣٠م عن سطح البحر وتحيط بها أودية من جهاتها الأربع. وقد شيدها الملك بلدوين سنة ١١٠٠ ـ ١١١٥م/ ٤٩٤ ـ ٥١٠هـ حتى يقطع الطريق الذى يسلكه المسلمون لمراقبة الطرق التجارية وطرق الحج الإسلامي.

وقد تنبه المسلمون لخطورة إعادة بناء الصليبيين لقلعة الشوبك نظرا لاستراتيجية موقعها على الطريق ما بين مصر والشام فعمدوا الى إرسال حملات الى الشوبك لتأكيد وجودهم. وقد تعرضت القلعة ومعها سائر قلاع الشام الى الكثير من الهزات الأرضية سنة ٥٥١ ـ ٥٦٥هـ/ ١١٥٦ ـ ١١٦٩م نتج عنها تهدم الكثير من المباني وأسوار وأبراج تلك القلاع مما دفع بالمسلمين والصليبيين للانشغال في إعادة بناء ما تهدم من قلاعهم[٧].

والقلعة كانت تشتمل على ثلاثة أسوار متتالية حطم واحد منها وتهدم جزء كبير من الاثنين الباقيين، وتبقى السور الداخلى وهو الرئيسي للقلعة ويعتبر من أكثر معالم القلعة وضوحا. والقلعة تشتمل على الكثير من الابراج ذات الأشكال الدائرية والمستطيلة التي دعمت بجدران استنادية ومجموعة من المزاغل في الطوابق التي تتكون منها والمشيدة بالأحجار المسنمة الجرانيتية والطباشيرية (الجيرية). كما اشتملت القلعة على كنيستين وجامع والعديد من الآبار كما وجد النفق الذى حفره الصليبيون من الجبل الى نبع الماء بطول ٢٠٥م في بطن الجبل وبارتفاع ٢٢٠ سم وعرض مترين طلبا للحياة وقد اهتم بهذه القلعة الأيوبيون ومن بعدهم المماليك، حيث قام الظاهر بيبرس بتجديد البناء فيها، وبعد هدمها من قبل الاشرف خليل أعاد السلطان حسام الدين لاجين بناءها سنة ٦٩٧هـ/ ١٢٩٧م فشكلت أعماله معظم أجزاء القلعة القائمة حتى اليوم، وبعد أن دخلت القلعة تحت حكم العثمانيين أصبح فيها سنة ٩٧١هـ/١٥٦٣م حامية عثمانية ودب فيها الاهمال[٨] ومعظم العناصر الحربية التي وجدت في القلاع السابقة وجدت في الاجزاء الباقية من قلعة العقبة[٩] وقلعة السلط[١٠] وقلعة الازرق[١١] وقلعة الطفيلة[١٢] والتي درست معظم معالمها المعمارية.

وفي فلسطين فإن ما تبقى من عمارة حربية يشير الى ما تمتعت به هذه المدينة المقدسة من اهتمام من قبل المسلمين في كافة مراحل التاريخ ولعل الباقي من هذه العمائر يشير الى الفترة الخاصة بالوجود الصليبي حيث كانت عكا ميناء بحرياً شمالي فلسطين يقع فوق بقعة من الأرض بارزة قليلا في البحر الى جوار خليج حيفا والمدينة كانت من المدن المحصنة التى تشتمل على اسوار تتخللها الابراج التي تشكل جزءا من دفاعات المدينة[١٣]،، وقد مرت المدينة بتاريخ حافل صمدت فيه ضد أول هجوم صليبي على أسوارها سنة ١٠٩٩م وقد حاصر جيش الفرنجة المدينة بقيادة بلدوين الاول سنة ١١٠٢ ـ ١١٠٤م واستولى عليها بعد عشرين يوما، واستطاع صلاح الدين سنة ١١٨٧ تحريرها دون مقاومة بعد انتصاره في حطين.

بعدها وقعت مرة أخرى في أيدى الصليبيين وأصبحت مقرا للبطريركية اللاتينية ومملكة الفرنجة بدلا من القدس؛ واستمرت كذلك الى أن استطاع السلطان الاشرف خليل بن قلاوون مهاجمتها وسقطت بعد ستة أسابيع وظلت في طي النسيان حتى نهاية القرن السادس عشر حيث أعاد بناءها الأمير فخر الدين واستكمل تحصينها في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي أحمد باشا الجزار[١٤] مما يشير الى أن المدينة كانت محصنة بسور وأبراج دفاعية، كذلك وجد بالمدينة قلعة قيسارية، حيث كانت قيسارية من الموانيء الهامة في العصور القديمة والوسطى وهى تقع في خليج طبيعي،، وقد ظل موقعها مهملا حتى أواخر القرن التاسع عشر وقد كشفت الحفائر التى أجريت بالموقع عن أجزاء من تحصينات العصور الوسطى حيث تحيط التحصينات بمنطقة ذات شكل شبه منحرف تقريبا من جانب الخليج وكانت متصلة بجهة

الجنوب بقلعة قديمة وكانت تشغل حيزا من الأرض عند الطرف الجنوبي للميناء ويحميها من جهة البر سور قوي وهي مدينة فتحها العرب وحصنوها تحصينا قويا واستولى عليها الصليبيون وحررها صلاح الدين ١١٨٧م وخرب تحصيناتها القديمة،، ثم احتلها الصليبيون سنة ١١٩١م وأعيد بناؤها ورممت تحصيناتها، وسقطت في يد الملك المعظم عيسى سنة ١٢٢٠م/ ٦٢٠هـ وفي سنة ١٢٥٢م/ ٦٥٠هـ جرى تحسين دفاعات المدينة وتضمنت هذه التحسينات إضافات على حصن البوابة وحفر الخندق وفي سنة ١٢٦٥م/ ٦٦٥هـ استسلمت المدينة الى جيش السلطان بيبرس الذى أعاد البناء داخل القلعة[١٥] وقد وجد داخل اقضية المدينة بعض القلاع الاخرى مثل قلعة ترشيحا وهى بلدة جبلية تقع في الشمال الشرقي من عكا، وهي قلعة صليبية تخربت وأعاد بناءها الشيخ طاهر العمر في القرن ١٨م وزاد في تحصينها وأن هذه القلعة كانت تحتوى على خندق.

وفي مدينة القدس لازال يوجد سورها القديم الذى رمم وجدد مرات عديدة، وتعود معظم أجزائه بشكل عام الى العصر الايوبي ثم قام المماليك بتدعيمه وتقويته وكان آخر تجديد له قد تم في عهد السلطان سليمان القانوني بين سنة ٩٤٣ ـ ٩٤٧هـ/ ١٥٣٦ ـ ١٥٤١م وبقى السور على حاله في أيام الاحتلال البريطاني، وللسور أبواب بنيت في أوقات متقاربة وهي سبعة مفتوحة وأربعة مغلقة ويظهر منها فن العمارة الحربية من حيث طريقة الحراسة والمراقبة والدفاع.

**** وسوف أشير الى بعض هذه الأبواب لنتعرف على سماتها الحربية:**

أ ـ باب العامود:

يسمى باب النصر وباب دمشق وهو باب رئيسي مشهور من أبواب القدس وهو المنفذ الرئيسي لها وقد أعيد بناؤه في سنة ٩٤٤هـ/ ١٥٣٧ ـ ١٥٣٨م في العصر العثماني في عهد السلطان سليمان القانوني، ويتكون هذا الباب من مدخل وعقد مدبب يقوم فوقه برج حجري صغير (مشطرفة) محمول على كابولين من الحجر ويغلق على المدخل مصراعان من الخشب المصفح بالنحاس يؤدى هذا المدخل الى دركاة يغطيها قبو مروحي وهي تؤدى الى ممر ينعطف الى اليسار ثم الى اليمين يؤدي الى داخل المدينة وهو يشير الى أثر العمارة التركية في تصميمه[١٦].

ب ـ باب الاسباط :

باب قديم يعرف باسم ستى مريم وباب القديس استيفانوس ويقع في الشمال الشرقي من الحرم، وقد رمم وأصلح مرات عديدة كان آخرها في عهد السلطان سليمان القانوني سنة ٩٤٥هـ/ ١٥٣٨ ـ ١٥٣٩م. والباب يتكون من مدخل ركب عليه مصراعان من الخشب المصفح بالبرونز يتوج المدخل عقد حجري مدبب شيد فوقه برج حجري صغير محمول على أربعة كوابيل حجرية وله سقاطة لصب الزيت المغلي على الاعداء ومزغل لرمي السهام[١٧].

ج ـ باب الخليل :

وهو ايضا من الابواب التي جددها سليمان القانوني سنة ٩٤٥هـ/ ١٥٣٨ ـ ١٥٣٩م ويتكون من مدخل معقود بعقد حجري كبير من النوع المدبب ركب على المدخل مصراعان كبيران من الخشب المصفح بالنحاس يؤدى المدخل الى دركاة يغطيها قبو مروحي ثم يؤدى الى ممر ينعطف جهة اليسار ثم الى اليمين حيث مدينة القدس يعلو المدخل مشطرفة حجرية ومزاغل لرمى السهام مما يزيد من منعة المدخل وحصانته[١٨] وهكذا فإن هذه الابواب السابقة التي هى جزء من أبواب سور القدس توضح مدى الحصانة التى كانت عليها تلك الابواب من حيث التشييد، والحصانة باستعمال المشطرفات والمزاغل والأبواب ذات المداخل المنكسرة.

واذا ما انتقلنا الى سوريا لوجدنا أن العمارة الحربية التى تبقت داخل مدنها عبر عصورها المتعاقبة كانت عبارة عن مجموعة من القلاع الحربية، التي

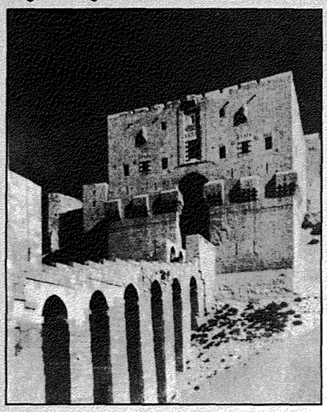
تتمثل فيها مميزات العمارة الحربية في العصور الوسطى؛ وهذه القلاع كانت من الكثرة بحيث لا تخلو مدينة هامة أو نقطة استراتيجية منها فنجد في اللاذقية قلعة صلاح الدين، وفي طرطوس قلاع طرطوس والمرقب، أرواد،، الفوز، في حمص قلاع: حمص، والحصن وتدمر،، وفي حماة: قلاع حماة وشيرز وفي دمشق: قلعة دمشق؛ وفي حلب: قلعة حلب وسمعان، وقلعة النجمي[١٩] ودراسة نماذج من هذه القلاع يظهر سمات تلك القلاع المعمارية والحربية في تلك الفترة.

١ـ قلعة دمشق :

يعود بناء هذه القلعة الى عهد السلاجقة ٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م واكتمل بناؤها زمن الامير السلجوقي «تتش» بن ألب أرسلان أما القلعة الآن فهي تعود الى عهد الملك العادل أبي بكر الأيوبي الذي هدم القلعة السلجوقية عام ٥٩٩هـ/ ١٢٠٢م وأقام مكانها قلعة أكثر تطورا واستمر البناء فيها حتى توفي في سنة ٦١٥هـ/ ١٢١٨م وقد شيدت القلعة في الزاوية الشمالية الغربية من المدينة القديمة ضمن السور، يحيط بالقلعة خندق عرضه حوالي ٢٠م ولها أربعة أبواب[٢٠] أشهرها باب الحديد في سورها الشمالي وكان له جسر فوق نهر بردى ثم جسر الخندق الشرقي وهو الرئيسي الذي يفتح في المدينة والباب الغربي هو باب السر وأخيرا باب السر الجنوبي وللقلعة اثنى عشر برجا موزعة في أطرافها[٢١] ولهذه الأبراج فتحات مزاغل ومشطرفات للدفاع عن القلعة ولكن معظم المشطرفات فُقد جزؤها الأعلى ولا تزال الكوابيل الحاملة لها موجودة حتى الآن[٢٢].

٢ـ قلعة حلب :

شيدت القلعة على جبل مشرف على المدينة يحيطها سور وكان لها بابان حصنها الملك غازي بن صلاح الدين ثم خربها المغول تخريبا شنيعا[٢٣] الا أنها جددت في العصور التالية ويحيط بالقلعة خندق دفاعي عميق كان يُملأ بالماء؛ وقد اتخذت القلعة مقرا



ـ البوابة الرئيسية لقلعة حلب.

للأمير وكبار رجال دولته في العصر الحمداني والمرداسي والعصر الايوبي الأمر الذى أدى الى تشييد القصور والمساجد والمساكن ومستودعات الغلال والحمامات وقاعات للعرش ومساكن لكبار رجال الدولة ومباني المرافق العامة كما حصنت القلعة تحصينا كافيا لحمايتها من الطامعين فاقيمت الأبراج والاسوار وجهزت بوسائل الدفاع المختلفة.

ومن عناصر العمارة العسكرية في قلعة حلب:

(أ) الخندق :

وهو من العناصر الدفاعية الهامة في القلاع وهو يحيط بقلعة حلب من جميع الجهات ويبلغ عمقه حوالى ٢٢م وعرضه ٣٠م وكانً يملأ بالماء وقت الحصار مكونا بذلك حاجزا مائيا بين المدافعين والمهاجمين[٢٤].

(ب) الأبراج والأسوار :

نجد أن الابراج في هذه القلعة إما مفردة أو مزدوجة ومنها ما هو مرتبط بالسور الذي يحيط بالقلعة

وهي في أغلبها مربعة أو مضلعة وتشتمل على مزاغل لرمي السهام كما تشتمل على مشطرفات كما تضم في أعلاها سواتر بينها فتحات يمكن استعمالها لرمي السهام والاختباء.

أما السور فإنه يحيط بالقلعة إحاطة تامة وقد تخللته الابراج بهيئة بارزة عددها أربعة وأربعون برجا وهي مختلفة في الحجم والشكل وزودت بعناصر الدفاع المعروفة في الابراج السابقة.

(ج) التحصينات المائلة :

ترتبط هذه التحصينات بالخندق فهي من الوسائل المعرقلة لتقدم المهاجمين صعودا في حال تمكنهم من اجتياز الخندق، وقد جرى في هذه القلعة تسفيح سطح التل الذى شيدت عليه القلعة بحجارة ملساء يصعب تسلقها وخاصة في حال وجود الماء في الخندق وتساعد هذه الإعاقة على إعطاء الفرصة للمدافعين من اقتناص الأعداء ودحرهم[٢٥].

وبذلك تكون قلعة حلب قد اشتملت على معظم العناصر الدفاعية مع وجود عنصر آخر جديد هو عنصر التل المائل والمغطى بالأحجار الملساء لعرقلة المهاجمين ومنعهم من اقتحام القلعة.

(د) قلعة حصن الاكراد :

تقع هذه القلعة في الطريق المؤدية من حمص الى طرابلس حيث شيدت فوق هضبة مرتفعة تزيد عن ٧٥٠م[٢٦] تأخذ هيئة غير منتظمة أبعادها ٢٠٠ × ١٤٠م تقريبا[٢٧] وقد شيدت القلعة على مراحل زمنية متعاقبة، فقد كان الصليبيون يضيفون اليها الأسوار والأبراج كلما أحسوا بالخطر مع تجديد ما تهدمه الزلازل باستمرار ثم جاء العرب فرمموها وأضافوا اليها.

والقلعة ذات تخطيط فريد،، يوضح التطور الذي وصل اليه فن التحصين في بلاد الشام على مدى أربعة قرون هي الخامس والسادس والسابع والثامن الهجرية/ ١١ ـ ١٤م ولا سيما طرق بناء الأرضيات والمشطرفات وأساليب مقاومة الزلازل والتكيف مع طبيعة الأرض[٢٨] فهي من أشهر قلاع العالم وهي عبارة عن حصن داخل حصن بينهما خندق وحولها خندق[٢٩] فالحصن الأول داخله الثاني وأعلى منه ويشرف على جميع منشاته والمخطط العام للقلعة على هيئة شبه منحرف، ويدعم السور الخارجي مجموعة من أبراج ضخمة تتوزع على محيطه، متعددة الطوابق ذات جدران سميكة لها أكثر من هيئة فمنها المستدير والمربع تدعمها من الخارج جدران ساندة مقاومة للزلازل ولاعمال النقب وتتوجها مشطرفات دفاعية ورواش[٣٠].

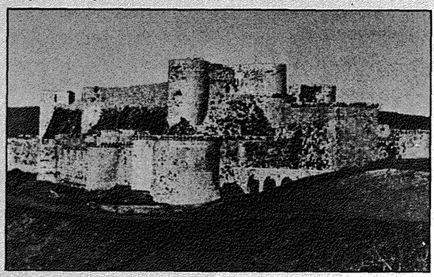
أما الحصن الثاني فهو قلعة قائمة بذاتها شيدت فوق قاعدة صخرية مرتفعة يعزلها عن السور الخارجي خندق مائى عريض محفور في الصخر وهذا الحصن الداخلي يشرف على الحصن الأول إشرافاً تاما، تتألف منشاته عموما من طبقتين تضم الأرضية منها أفنية وقاعات وحواصل وقاعة كبرى ومصلى وفرنا ومعصرة للزيت جميعها مشيدة حول فناء أوسط مكشوف وتضم الطبقة العليا خزانات نومية وغرفاً للسكن تحميها أبراج ضخمة تتوجها شرفات ورواشن محصنة.

وهذا الحصن الداخلي يتصل من الناحية الجنوبية الشرقية بالمدخل الخارجي للقلعة بواسطة طريق صاعد مقبى ينعطف عند منتصفه انعطافا حادا وهو طريق الدخول الاساسي الى الحصن[٣١].

وفي طرطوس شيدت قلعة المرقب :

بالقرب من مدينة بانياس الساحلية[٣٢] فوق هضبة عالية متاخمة للبحر مباشرة وهي تشبه في تخطيطها تخطيط حصن الاكراد، حيث تتكون من قلعة داخلية قوية وقلعة خارجية أكثر اتساعا يحيط بها سور خارجي مزدوج جزئيا مرتبط داخليا بأبراج عديدة مختلفة الاحجام والأشكال، أما القلعة الداخلية فهي صغيرة مستطيلة الشكل لها سور مزدوج ويفصلها عن القلعة الخارجية خندق مائي، دعمت الأسوار الخارجية بأبراج بارزة نصف دائرية لها مزاغل.

وقد مرت هذه القلعة بعدة أحداث منذ تاريخ تشييدها عام ٤٥٤هـ/١٠٦٢م ، حيث مر بها السلطان



ـ منظر عام لقلعة حصن الاكراد، وفيه السوران المكونان للحصن.

صــلاح الدين سنة ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م، وهو في طريقه الى شمال سوريا ولكنه لم يهاجمها وفي سنة ٦٠١ ـ ٦٠٢هـ/ ١٢٠٤ ـ ١٢٠٥م. حاصر القلعة سلطان حلب الظاهر غازي الذي دمر عددا من أبراجها ثم أعيد بناؤها مرة أخرى على يد الامير سيف الدين بلبان الطناحي.

وظلت القلعة واحدة من القلاع الرئيسية في البلاد خلال القرنين ١٤، ١٥ ثم استخدمت معتقلا لسجن الحكام المعزولين من مناصبهم[٣٣]، وهي في ضوء ما تقدم قلعة ساحلية ضمت في مخططها نفس عناصر العمارة الحربية التي وجدت في القلاع الجبلية.

ـ أما عن لبنان التي يحدها من الشمال والشرق سوريا ومن الجنوب فلسطين. ومن الغرب البحر الابيض المتوسط، فقد دخلها الإسلام عام ١٤هـ/ ٦٣٥م كما ضمها صلاح الدين الايوبي لسلطانه عام ٥٨٠هـ/ ١١٨٧م ثم خضعت للمماليك والعثمانيين الذين جعلوا حكم لبنان مناصفة بينهم وبين الأمراء المحليين، وقد اشتملت على الكثير من العمائر الحربية شأنها شأن مدن الشام ولكن معظمها اندثرت معالمه ولم يتبق منها الا النذر اليسير ومن ذلك:

أ) قلعة بعلبك:

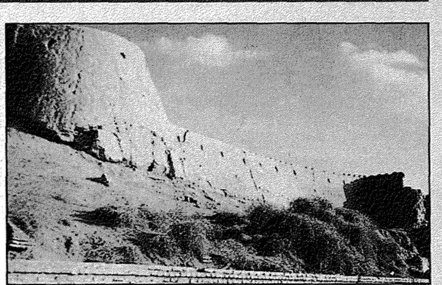
شيدت بمدينة بعلبك اللبنانية، وهي عبارة عن حصن روماني تحول الى قلعة بإضافة أسوار تحيط به مزودة بالأبراج، وهذه الأبراج شيدت في عهود مختلفة منها برج يعود لعهد السلطان قلاوون، مما يفسر تجديده للقلعة التي تشتمل على خندق مائي يحيط بها شأنها شأن بقية قلاع الشام[٣٤].

ب) قلعة الشقيف:

قلعة في جنوب لبنان تقع فوق جرف جبلي شديد الانحدار مقابل نهر الليطاني وهي عبارة عن قلعتين العليا لها سور ضخم من الحجر وبرج محصن كبير وقلعة سفلية ترتبط بها عن طريق ممر ضيق من جهة الشرق والقلعة مكتملة يحيط بها خندق مائي محفور في الصخر، وقد شيدها الصليبيون وحاصرها العرب منذ عام ٥٨٢هـ/١١٨٩م واستسلمت بعد عام فشرع المسلمون في إجراء إصلاحات بها وبناء برج كبير في الزاوية مع السور لتقوية الواجهة الجنوبية وهي بحالة جيدة من الحفظ.

وهكذا نلاحظ أن قلاع لبنان قد أخذت في تخطيطها هيئة المساحة المشيدة فوقها وطبوغرافيتها بحيث أظهر هذا الموقع هيئة القلاع المزدوجة كالتي رأيناها في المرقب ومن قبلها في حصن الأكراد في سوريا كما زودت بنفس العناصر الدفاعية من أبراج وأسوار ومشطرفات ومزاغل.

* وإذا ما انتقلنا الى تركيا، لدراسة عمائرها الحربية التي شيدت في مدنها المختلفة خلال العصور المختلفة التي تعاقبت عليها لوجدنا أن معظم تلك المدن يمتاز باشتماله على الاسوار وتعتبر أسوار مدينة ديار بكر من أقدم الأسوار، فقد شيده الرومان، وبعد استيلاء السلاجقة على المدينة عام ٤٨١هـ/١٠٨٨م أخذت المدينة شكلا مغايرا نتيجة الإضافات



- أسوار قلعة إنشان بخوارزم.

والتوسعات المعمارية التي أضافها ملك شاه السلجوقي[٣٥].

ومن هذا العصر أيضا تبقى بعض العمائر الحربية ومن ذلك قلعة قيصرية التي شيدت في مدينة قيصرية والتي أنشأها علاء الدين كيقباد الاول عام ٦٠١هـ/ ١٢٠٤م والتي اشتملت على أسوار وأبراج تم تنفيذها بالحجر، وهي بحالة جيدة من الحفظ، تسجل المكونات المعمارية للقلعة قيام السلطان محمد الفاتح بأعمال معمارية داخلها حيث قام بترميمها وأنشأ مسجدا بها يحمل اسمه وذلك سنة ٨٧١هـ/ ١٤٦٦م[٣٦].

ومن العهد العثماني، تبقى من القلاع التى تبرز فن التحصين عند العثمانيين ومن هذه القلاع قلعة الشاطىء الأناضولي وهي أنادولي حصار، وقلعة الشاطيء الأوربي وهي روميلي حصار[٣٧]، وقلعة أنقرة[٣٨] وقلاع جناق قلعة[٣٩] وقد أطلق على كلمة قلعة في التركية اسم «حصار» بمعنى القصر أو القلعة أو الحصن، وهو اسم شائع يدخل في تركيب أسماء الأماكن بتركيا وفي آسيا الصغرى. مثل قره حصار صاحب أي قلعة الوزير السوداء وآق حصار أي القلعة البيضاء، وعرب حصار أي قلعة العرب وقوچ حصار أي قلعة الكبش بالقرب من آق سراى[٤٠].

ومن خلال الاوصاف المعمارية الواردة عن بعض هذه القلاع نستطيع أن نُكوِّن فكرة عن سمات القلاع في تركيا.

أ) قلعة أنادولي حصار:

شيدها السلطان بايزيد الاول عام ٧٩٨هـ/ ١٣٩٥م كأول عمل تركي في الاناضول وقد أطلق عليها اسم «كوزلجة حصار» أي الحصون الرشيقة. وقد نالت هذه القلعة رعاية وعناية السلطان محمد الفاتح حيث قام بتجديدها وزاد فيها وأحاطها بالأسوار ذات الابراج[٤١].

ب) قلعة روميللي حصار:

شيدها السلطان محمد الفاتح وعرفت باسم «بوغاز كسن» أي قاطعة البوغاز والتي بها يتم غلق البسفور تماما مع قلعة أنادولي حصار والقلعة تشغل مساحة تبلغ ١٢٥ × ٢٥٠متر ولها ثلاثة أبراج كبيرة أحدها مضلع يتكون من اثني عشر ضلعا، أما البرجان الآخران فمستديران وهي تتصل بالأسوار الخارجية التي يبلغ سمكها سبعة أمتار والبرج المضلع يقع على حافة البسفور ويبلغ قطره ٢٣٫٣٠م وارتفاعه عن سطح البحر ٣٥٫٣٥م.

أما البرجان الآخران فيستقران فوق التل الذى يقع وراء البرج المضلع ويبلغ قطر أحدهما ٢٣٫٨م وارتفاعه ٢٨م والثاني ٢٦٫٧م وارتفاع ٢١م.

وبين تلك الأبراج أبراج صغيرة عددها اثنى عشر برجا ستة منها متعددة الاضلاع وستة أخرى أسطوانية[٤٢].

ج) قلعة الابراج السبعة:

شيدها أيضا محمد الفاتح عام ٨٥٢هـ/١٤٥٨م على هيئة نصف نجمة وهي تعرف باسم قلعة الابراج السبعة Yedikule Hisar شيدها لتحمى مدينة استانبول من جهة بحر مرمرة والقلعة مسورة بسور مرتفع يبلغ ارتفاعه ١٢م وسمكه ٥م ومزودة بثلاثة

أبراج أسطوانية والبقية بهيئة اخرى وقد تحولت القلعة الى مقر للخزانة ثم الى سجن[٤٣].

د) قلعة أنقرة[٤٤]:

شيدت هذه القلعة في وسط مدينة أنقرة فوق ربوة عالية، وهي من أقدم الآثار الموجودة في أنقرة ولا يعرف على وجه التحديد تاريخ انشائها، غير أن هناك بعض الاقوال التي تقول أنها شيدت زمن الحيثيين أو أنها شيدت في القرن الثامن ق.م وتذكر بعض الاقوال أن القلعة كانت موجودة في القرن الثاني قبل الميلاد زمن الرومان، وقد تعرضت القلعة للكثير من أعمال الترميم في عهد الرومان والبيزنطيين[٤٥] وفي عهد سلاجقة الأناضول في النصف الاول من القرن الثالث عشر الميلادي وعهد المغول الايلخانيين (١٣٣٠م) وفي أثناء هذه الترميمات أضيف للقلعة أجزاء متعددة وفي العصر العثماني تم توسيع أسوار مدينة أنقرة الخارجية.

وعندما حارب والي مصر محمد على باشا الدولة العثمانية استولى ابنه إبراهيم باشا على القلعة وقام بترميم أسوارها الخارجية (١٨٣٢م) وبمرور الزمن اختفت أجزاء من أسوارها وشيدت المنازل بداخلها فصارت كالمدينة أو الحي السكني الذي يشتمل على بعض الأبراج[٤٦].

والقلعة اليوم ذات تخطيط مستطيل، تبقى أجزاء من أسوارها وعدد خمسة عشر برجا من عشرين برجا[٤٧]، وقد شيدت هذه الأبراج على هيئة نصف دائرية وبعضها ثلاثة أرباع أخذ هيئة دائرة والمدخل المؤدى الى القلعة عبارة عن مدخل على جانبيه برجان نصف دائريين؛ وهذه التحصينات تكفل الحماية لمن بداخل القلعة خاصة وأن الابراج تحيط بالقلعة من خلال أسوارها.

هـ) القلعة السلطانية:

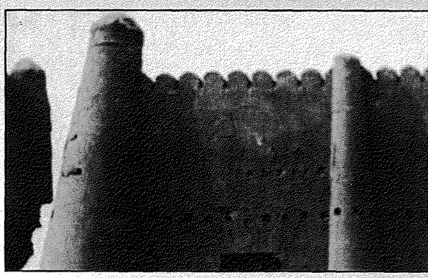
شيدت هذه القلعة بمضيق جناق قلعة (الدردنيل) بأمر من السلطان محمد الفاتح سنة ١٤٥٢م،، وهي تأخذ هيئة مربعة التخطيط تبقى من أبراجها أربعة أبراج اثنان منها ثلاثة أرباع دائرة وبرج نصف دائري وبرج يأخذ هيئة دائرة كاملة إضافة الى البوابة المحصنة ببرجين نصف دائريين في الجهة الجنوبية وهذه الأبراج شيدت ضمن أسوارها التي تحيط بها؛ مما أكسبها حصانة قوية كي تتمكن من أداء دورها في حماية المضيق[٤٨].

و) قلعة كليت البحر:

شيدت في الجهة المقابلة للقلعة السلطانية بمضيق الدردنيل، بأمر السلطان الفاتح بعد القلعة السلطانية بعشر سنوات وذلك لتكون بمثابة قفل للبوغاز مع القلعة السلطانية وقد تم توسعة هذه القلعة فيما بعد، واضيف اليها بعض الأبراج، كما رممها السلطان سليمان القانوني وشيد داخلها قلعة أخرى على هيئة زهرة البرسيم، وذلك في سنة ١٥٥١م، كما شيد سبعة أبراج ضخمة ذات طوابق متعددة كما أحاطها بأسوار ضخمة، بحيث يمكن القول أنها تتضمن حصنين الأول خارجي وبه الأبراج الضخمة التي تتخلل السور والثاني ذو الأبراج الثلاثة الضخمة ويحيط بها سور داخلي، والحصنان معا يشكل الخارجي منهما هيئة مثلث والداخلي هيئة زهرة البرسيم[٤٩]. ذات البتلات الثلاثة.

ومما سبق يتضح لنا أن قلاع تركيا جاءت في معظمها قلاعاً ساحلية للسيطرة على المياه باعتبار أن هذه الدولة كانت معظم حروبها من خلال البحار؛ ولهذا جاء اهتمامها بتشييد القلاع لتأمين مثل هذه القصور؛ وقد تميزت قلاع تركيا بحصانتها وارتفاع أسوارها، وتعدد هيئات قلاعها ما بين المربع والمستطيل والمثلث، ونصف النجمة. وكلها دعمتها الابراج الضخمة ذات الفتحات المهيأة لاطلاق النيران مع فتحات السهام وغيرها.

* واذا ما انتقلنا من تركيا الى العراق الذي كان مقر الخلافة العباسية بعد القضاء على الخلافة الاموية في دمشق لوجدنا أن التاريخ الحافل الذي مر به من



- أسوار قلعة ديشان بخوارزم.

خلفاء عباسيين ومغول وعثمانيين، والعلاقات بين خلفائه وولاته وبين الدول الخارجية قد أوجدت نوعا من الاهتمام بالعمارة الحربية فمنذ انتقال الخلافة الى العباسيين اضمحلت التأثيرات البيزنطية في الفن الاسلامي لتزداد التأثيرات الساسانية التي كانت العراق في محيطها الجغرافي والثقافي، ومما يلفت النظر في تلك المؤثرات تخطيط العاصمة الجديدة «بغداد» التي اتخذت هيئة دائرة واشتملت على سورين أحدهما داخلي والآخر خارجي يفصل بينهما مسافة تقدر بحوالي ٣٥ ـ ٤٠م، ويقدر علو السور الداخلي بنحو ١٧م وسمكه خمسة أمتار مع اشتمالها على ٢٨ برجاً بين كل بوابة وأخرى، وتمتاز بغداد بالمداخل المنكسرة[٥٠]، وهي كلها سمات اختصت بها العمائر الحربية وبذلك تكون مدينة بغداد بمثابة حصن للخليفة وجنوده وحاشيته وعامة شعبه؛ من خلال توفير حامية مهمتها الدفاع والحراسة تسكن الأبراج وأعلى المداخل التي زودت ببوابات حديدية منيعة تغلق في حال الهجوم فضلا عن إحاطة المدينة بخندق مائي عليه جسور متحركة تربط الخارج ببوابات المدينة.

ومن النماذج ذات الطابع العسكري في العصر العباسي «قصر الأخيضر» الذي شيده عيسى بن موسى بن عبد الله ابن عم السفاح سنة ١٥٩هـ/٧٧٥م أو ١٦٣هـ/ ٧٨٠م[٥١]، وهو يقع في الجهة الجنوبية الشرقية من مدينة الكوفة؛ ويتكون من بناء مستطيل محاط بأسوار ارتفاعها ١٧م يتخللها عشرة أبراج، وهناك أبراج أخرى حول المداخل المؤدية الى داخل القصر والتى تشتمل على جسور متحركة[٥٢] وقد زودت المداخل الأربعة للقصر بفتحات مزاغل فوق المداخل بحيث يتمكن المدافعون من قذف المهاجمين بالسهام والحراب ورمي القذائف فوق رؤوسهم، كما وجدت في باطن الاسوار المحيطة بالقصر كله من الخارج[٥٣].

كما اشتملت الأبواب الأربعة أيضا على عنصر دفاعي مهم هو الباب المنزلق رأسيا Portcullis الذى دائما ما يترك لينزلق في حال الهجوم غالقا باب الدخول[٥٤].

ونتيجة للصراع المستمر بين العباسيين والبيزنطيين فقد ازداد اهتمام كلا الطرفين بالثغور وأقاموا فيها القلاع والحصون ورمموا ما كان قائما من قبل، فلقد أمر الخليفة هارون الرشيد ببناء الحصون والقلاع مثل قلعة طرسوس، ومرعش، وملطية[٥٥] لمواجهة الخطر البيزنطي ولم أتمكن من التوصل الى بحوث تشير الى بناء قلاع بالعراق في عصور لاحقة؛ وبالتالي فانني لا أستطيع معرفة سمات تلك العمائر التي لا شك أنها شيدت في تلك العصور لمواجهة الأخطار التي كانت تحدق بالعراق ومدنه المختلفة.

أما إيران:

فقد اشتملت مدنها على عدد كبير من القلاع التي تعود لفترات زمنية عديدة أغلبها يرجع الى فترة ما قبل الاسلام كما وجد الكثير من العمائر الحربية التي تعود للفترة الإسلامية، ولكنها لم تدرس ولم يخرج عنها بحوث تنبيء عنها وذلك للحالة التي وصلت اليها من سوء الحفظ[٥٦].

غير أن المدن الإيرانية الكبرى كانت محاطة

بأسوار لحمايتها مزودة بالوسائل الدفاعية اللازمة، والمعروفة في كافة المدن الإسلامية في تلك الفترة،، غير أن هذه الأسوار لم يتبق منها إلا أجزاء قليلة؛ ومن ذلك أسوار مدينة «يزد» التي لا يزال جزء منها قائما وهي مشيدة باللبن وتشتمل على أبراج بارزة مستديرة ومزودة بفتحات المزاغل التي تسمى بالفارسية «سنكث - أنداز» وببرج عند المدخل يقوم بوظيفة الحصن الأمامي.

كما اشتملت مدينة «قُمُّ» على قلعة لازالت بحالة جيدة من الحفظ وتشتمل على أبراج وأسوار دفاعية[٥٧] تتماثل مع تلك التي وجدت في غيرها من القلاع الاسلامية في غيرها من بلدان شرق العالم الاسلامي[٥٨] ومن القلاع الايرانية أيضا قلعة مدينة هراة التي شيدت في القرن ٩هـ/١٥م ، والتي كانت تشتمل على الأسوار والأبراج والبوابات والقاعات وغير ذلك، وهي في ذلك تتشابه مع الكثير من القلاع التي وجدت في أماكن عديدة من بلدان شرق العالم الاسلامي[٥٩].

غير أن المراجع التي تتناول العمارة الحربية في ايران وأفغانستان قليلة وتأتي على هيئة اشارات ضمن البحوث،، ولم أتمكن من العثور على مراجع متخصصة في هذا الفرع من العمارة الإسلامية ولعل السبب في ذلك راجع الى تهدم الكثير منها واندثار معالمها الأمر الذي أدى الى عدم الكتابة عنها.

* ومن إيران الى آسيا الوسطي أو بلاد ما وراء النهر المعروفة بالتركستان نحاول أن نتلمس بعض سمات العمارة الحربية في تلك الأماكن.

* فبلاد ما وراء النهر هو الاسم الذي أطلقه العرب على المنطقة المنحصرة الواقعة في حوض نهر «أمودريا» «جيحون» وسيردريا «سيحون» أما التركستان فهي المناطق المترامية الأطراف التي تمتد بين بلاد الإسلام ومملكة الصين، والتى كانت مسكونة بالرحل من الترك والمغول، وقد شغلت بلاد ما وراء النهر المكانة الأولى بين الأقطار التي خضعت لسلطان الترك وذلك بسبب خصبها وكثافة سكانها[٦٠] ومن المدن التي تضمها آسيا الوسطى بلخ، وبخارى وسمرقند وخوارزم[٦١] وغيرها وقد ظهرت بحوث تناولت العمارة الحربية المشيدة في آسيا الوسطى قبل الإسلام بمادة اللبن في أراضي خوارزم القديمة كما كانت المدن مسورة يتخللها عدة فتحات للسهام وأبراج عرضية في بعض الأحيان واستمر المعمار في العهد الإسلامي بآسيا الوسطى يتبع نفس قواعد التحصين ذاتها، ولقد وصل فن التحصين ذروته في القرنين ٦ - ٧هـ/١٢ - ١٣م بما شيده خوارزم شاه من أبنية حربية ضخمة[٦٢].

ومن خلال الأعمال المعمارية الباقية في بعض المدن بآسيا الوسطى يمكن أن نتلمس سماتها التي كانت تمتاز بها فمدينة بخارى من المدن المسورة التى شيدت أسوارها سنة ٨٣٠م ودمرتها قوات جنكيز خان سنة ١٢٢٠م،، وأعيد بناؤها سنة ١٢٤٣م، وظلت أسوار المدينة حتى نهاية القرن التاسع عشر، ولم يبق منها الا أجزاء صغيرة، وقد كانت تضم ١١ بوابة و١٣١ برجا، وكانت الاسوار مشيدة من الطين والبوابات من الاجر[٦٣].

وكان للمدينة قلعة تسيطر عليها حيث أنها شيدت أعلى هضبة بخاري الوحيدة، وتمتاز بكبر حجمها وقوة تحصينها وهذه القلعة كانت موجودة قبل الإسلام وجددت في العصر الإسلامي واتخذها الحكام مقرا لهم.

وكانت القلعة تشتمل على بوابتين الأولى على الجانب الغربي وهى البوابة الرئيسية والقلعة من الداخل تضم الكثير من العمائر المدنية مثل مساكن العاملين، والحراسة ومستودع الأسلحة والخدم والورش، وسكن الحاكم والمسجد الجامع وأيضا سجن القلعة المخصص لحبس السجناء ذوى الرتب العالية وأغلبية هذه المبانى قد تهدم واندثر. وكانت هذه القلعة محاطة بسور لازالت توجد بعض أبراجه الركنية وبرجا البوابة الرئيسية[٦٤] وهذه القلعة عرفت باسم قلعة «ارك» أى القلعة القديمة، وضمت عناصر العمارة

الحربية من حيث تشييد القلعة أعلى ربوة مرتفعة لتشرف على المدينة وأحيطت بأسوار تخللها البوابات والأبراج الركنية والأبراج على جانبي البوابة الرئيسية، مدعمة بفتحات المزاغل المخصصة لرمي السهام.

كذلك فقد شيدت في خوارزم العديد من القلاع ما وصلنا منها قلعتان إحداهما تعرف باسم «أيتشان» أي المدينة الداخلية والاخرى باسم «يشان» أي القلعة الخارجية.

وقلعة ايتشان توجد في الناحية الغربية لمدينة خوارزم وكانت تشتمل على القصر وبوابتين وفي الوسط المسجد الجامع. وإحدى بوابتي القلعة تعرف باسم بهلوان دروازة والتي شيدت عام ١٨٠٦ ـ ١٨٢٥م، وهي عبارة عن بوابة مستطيلة الأبعاد ولها عقد مدبب وعليها مصراع خشبي ضخم وفوقها ممر مسقف بقباب وهي[٦٥] تتاخم السور الخارجي بالقلعة والذي دعم بأبراج أسطوانية سقف بقبيبات.

والقلعة اتخذت كمقر للحاكم، ولهذا اشتملت على الكثير من المنشآت الحكومية مثل سكن الحراس، والارشيف والمحكمة، ودارسك العملة، والسجن.

وهذه القلعة الداخلية المعروفة باسم «اييشان» ربما جاءت كبديل للقلعة الخارجية التي تهدمت وتداعت معالمها والمعروفة باسم «ديشان» التى كانت تضم العديد من البوابات.

ومما سبق يتبين لنا أن قلاع خوارزم قد اشتملت على نفس عناصر الدفاع من أسوار وأبراج وبوابات مع توفير حياة مستقرة داخلها للأسرة الحاكمة والحاشية، وعن بقية مدن آسيا الوسطى فلا توجد ـ فيما أعلم ـ بحوث تناولت العمارة الحربية في العصر الإسلامي؛ نظراً لتهدم عدد كبير منها.

وإذا ما انتقلنا الى الهند في نهاية حديثنا عن العمارة الحربية في شرق العالم الإسلامي؛ فانه يتضح لنا أن الهند بما كانت تضم من دولتي باكستان الإسلامية والهند الهندوكية قد بدأ أظهر أدوارها التاريخية بالفتوحات الإسلامية وأخصها تلك التي توغل فيها الغزنويون ومن جاء بعدهم منذ أواخر القرن الرابع الهجري[٦٦] ثم الغوريون ثم دولة المماليك والخلجيتون وآل تغلق، وملوك الطوائف، والأفغان ثم الدولة المغولية ثم الاحتلال البريطاني[٦٧].

وقد قامت المدن المسورة والتحصينات في الهند قبل العهد المسيحي بزمن طويل، وازداد عددها منذ القرن السادس الميلادي وما بعده بسبب افتقار الهند الى الحكومة المركزية وزيادة سيطرة الحكام المحليين.

وقد قام الغزنويون والغوريون بهدم الكثير من هذه التحصينات وهم في طريقهم الى الهند، كما كان هناك عدد من القلاع الحصينة في الكثير من المدن الهندية التي كانت محاطة بالاسوار ذات الابراج في زواياها، والتي كانت تشتمل على مزاغل ومشطرفات وتحيط بها الخنادق المائية من الخارج[٦٨].

ولقد أجرى الأتراك والمغول تحسينات كبيرة في التحصينات القائمة وأضافوا اليها عناصر دفاعية مثلما فعل الخلجيتون عندما زودوا مدينة «سيرى الحصينة بشرفات على هيئة الهب لصد غارات المغول».

هذا وقد تبقى داخل مدن الهند المتعددة الكثير من القلاع الإسلامية التي تلقى ضوءا على ما استعمله المسلمون من عمائر حربية داخل الهند ومن ذلك:

أ) قلعة فيروز شاه تغلق :

شيدها السلطان فيروز شاه تغلق سنة ٧٥٢هـ/ ١٣٥١م[٦٩] بالقرب من دهلي وهي على هيئة مستطيل محاط بسور واحد مدعم بعدد من الأبراج نصف الدائرية والأبراج ثلاثة أرباع الدائرة في الزوايا وتشتمل على بوابات على جانبيها أبراج تزيد من حصانتها تؤدي الى داخل القلعة التي تشتمل على المسجد الجامع والقصر وخزان المياه وهي هنا أيضا استخدمت كمقر للحكم كما في آسيا الوسطى.

ب) قلعة بورانا :

تنسب هذه القلعة الى السلطان شرخان الأفغاني الذي شيدها مقرا لحكمه في دهلي سنة ٩٤٧هـ/ ١٥٤٠م وتعرف باسم «بورانا» أي الأرض العامرة،

وقد شيدت على هيئة مستطيل محاط بأسوار تتخلله الأبراج الركنية والوسطية والبوابة التي هي عبارة عن فتحة باب الدخول وعلى جانبيها برجان نصف دائريين، وهي تؤدي الى داخل القلعة التي تشتمل على المسجد والقصر، وعنصر جديد هو شيرمندل أو بيت الأسود الى جانب ساحة المصارعة ذات الارضية الهابطة عن أرضية القلعة بحوالى ٧ أمتار؛ وحولها مدرجات تتوسطها سلالم بالاجر وقد زودت القلعة الى جانب الأبراج بممرين فوق بعضهما داخل الأسوار اشتملت على فتحات مزاغل لرمى السهام كما تتميز الأبراج بوجود حجرتين في كل برج مزودة أيضا بمزاغل لرمي السهام تعلو الأسوار والأبراج شرفات معقودة تشبه الدروع، وللقلعة ثلاثة مداخل حصينة على جانبي كل مدخل برجان يزيدان من حصانتها[٧٠].

ج) قلعة أجرا :

شيدت هذه القلعة وسط مدينة أجرا تقريبا على الضفة الغربية من نهر جمنا بالقرب من تاج محل وذلك على ربوة غير مهذبة، ومحاطة بسور ضخم من الحجر الجيري الأحمر[٧١].

وقد شيدها الإمبراطور المغولي «أكبر» فيما بين عام ١٥٦٥ ـ ١٥٧٣م لتكون مقرا لعرش الهند.

وتأخذ القلعة هيئة نصف دائرة يحيط بها سوران سور داخلي ارتفاعه أكثر من ٣٠م مدعم بالأبراج نصف الدائرية وثلاثة أرباع الدائرة من إنشاء الإمبراطور «اكبر» وسور آخر خارجي أقل ارتفاعا يدور حول الجزء السفلي من السور الداخلي للقلعة وكان يحيط بالسور الخارجي للقلعة خندق مائي وللقلعة ثلاث بوابات في أسوار الإمبراطور «اكبر» واحدة في السور الجنوبي وهي الرئيسية والثانية وهي بوابة «دلهي»[٧٢] في منتصف الجهة الشرقية للقلعة والثالثة هي البوابة الشرقية بمنتصف السور كذلك ضم السور الذي شيده اورانجزيب بوابتين وتضم القلعة من الداخل عدداً من المنشآت مثل القصور والدواوين والمساجد والحدائق وكلها من أعمال الإمبراطور جهانجير[٧٣] مما يشير الى عناية أباطرة المغول بهذه القلعة،، وهذا التكوين الداخلي للقلعة أشبه ما يكون بمدينة متكاملة تحيطها الأسوار ذات الأبراج مختلفة الاشكال ما بين الدائري والركني ونصف الدائري والمثمنة والمغطاة بقبة تبدو وكأنها قبة نحاسية مثمنة[٧٤] والقلعة تمتاز بتخطيطها الفريد الذي يأخذ هيئة نصف الدائرة.

د) القلعة الحمراء أو قلعة دلهي :

عبارة عن قصر مغولي شيده الإمبراطور شاه جيهان في دلهى سنة ١٦٤٨م وعرفت بالقلعة الحمراء لاستعمال الحجر الجيري الأحمر كمادة أساسية في البناء[٧٥].

والقلعة لها أسوار مرتفعة مزدوجة تتخللها الأبراج المتعددة والمستديرة والمثمنة ونصف الدائرية وثلاثة أرباع الدائرة، كما يحيط بهذه الأسوار الخندق المائى لزيادة الحصانة والمنعة.

كما تشتمل على البوابات الضخمة ذات الداخل المنكسرة والقلعة تشبه قلعة أجرا في تلك العناصر باستثناء التخطيط الذي يأخذ هيئة مستطيل في القلعة الحمراء؛ في حين أن قلعة أجرا على هيئة نصف دائرة.

ومما تقدم يتضح لنا أن قلاع الهند التي وصلت الينا كان معظمها ذا تخطيط مستطيل والقليل أخذ تخطيطا فريدا،، وجميعها شيدت كمقر للحكم، حيث زودت من الداخل بكافة المنشآت الحكومية الى جانب منشآت العبادة والتسلية ومن الخارج في أسوارها الابراج والبوابات الضخمة للذود عن المدينة والحاكم بما تتضمنه من مشطرفات ومزاغل وغير ذلك.

الهوامش :

(١) لانكستر هاردنج: آثار الاردن. تعريب سليمان موسى،، عمان ١٩٨٢ ص ٢٠٠

Creswell (K.A.C);

Ashort account of early Muslim architecture, American university press, 1989, p148,150

(٢) Grabar (O); Palaces, citadels and fortifications, architecture of the Islamic world, T,H 1995, P. 76.

(٣) سعد المؤمني: القلاع الإسلامية في الاردن ـ الفترة الايوبية والمملوكية. عمان ١٩٨٨ ص ١١٤ ـ ١١٥.

(٤) فولغفانغ مولر ـ فيز. القلاع أيام الحروب الصليبية ترجمة وليد الجلاد. دمشق ١٩٨٢م ص ٧٤ ـ ٧٥.

(٥) سعد المؤمني: المرجع السابق ص ١٧٤ ـ ١٧٨، ص ٢٠٠.

(٦) لانكستر هاردنج: المرجع السابق ص ١٣١، مصطفى مراد الدباغ: بلادنا فلسطين، دار الهدى ١٩٩١م ص ٣٢٦.

(٧) سعد المؤمني: المرجع السابق ص ٢٤٥ ـ ٢٤٨.

(٨) سعد المؤمني: المرجع نفسه ص ٢٥٠ ـ ٢٥٤، ٢٨٥.

(٩) تقع مدينة العقبة على الشاطىء الشمالي الشرقي للبحر الاحمر وتبعد عن عمان ٣٥٠ كم جنوبا وقلعتها تبعد عن الشاطىء حوالي ٥٠م . أنظر دائرة المعارف الاسلامية ج ١٣ ص ٢٠٦ ـ وعن القلعة انظر سعد المؤمني: المرجع السابق ص ١٩٤ ـ ٣١٧.

(١٠) منسوبة الى مدينة السلط الواقعة شمال غرب عمان التي تبعد عنها ٣٠كم وعلى احدى قمم جبال البلقاء التي تشرف على وادي الاردن وأريحا أنظر سعد المؤمني: المرجع نفسه ص ٣١٨.

(١١) تبعد عن عمان مسافة ١١٥كم. انظر سعد المؤمني: المرجع نفسه ص ٣٥٧.

(١٢) منسوبه الى بلدة الطفيلة والتي تبعد عن عمان ١٩٧كم جنوبا وعن الكرك ٦٧كم باتجاه الجنوب وقد شيدت فوق حافة وادي الطفيلة انظر سعد المؤمني: المرجع السابق ص ٣٣٣.

(١٣) فولغفانغ مولر: المرجع السابق ص ٩٤ ـ ٩٥.

(١٤) مولر: المرجع السابق ص ٩٥.

(١٥) مولر: المرجع نفسه ص ٣٧ ـ ٩٨. مصطفى مراد الدباغ: المرجع السابق ص ١٤٩.

(١٦) رائف يوسف نجم: كنوز القدس، ط ١، ١٩٨٣ ص ٣٤٢ ـ ٣٤٤.

(١٧) رائف نجم : المرجع نفسه ص ٣٥٢.

(١٨) رائف نجم : المرجع نفسه ص ٣٥٤.

(١٩) شوقي شعث: قلعة حلب تاريخها ومعالمها الاثرية. دار القلم العربي ط ١، ١٩٩٦ ص ٥٣.

(٢٠) قتيبة الشهابي: دمشق تاريخ وصور، دمشق ١٩٩٠ ص ٢٣٦ وقد ذكر المؤلف في بحث آخر أن عدد أبوابها ثلاثة فقط أنظر: قتيبة الشهابي ـ أبواب دمشق وأحداثها التاريخية، دمشق ١٩٩٦ ص ٢١٥.

(٢١) قتيبة الشهابي: المرجع نفسه ص ٢٣٦.

(٢٢) قتيبة الشهابي: المرجع نفسه ص ٣٦٢.

(٢٣) عبد الفتاح رواس قلقبحي: حلب القديمة والحديثة وحكامها وأحداثها، أبوابها وأسواقها وأحياؤها ـ مؤسسة الرسالة ١٩٨٩م ص ٢٧٣ ـ ٢٧٥.

(٢٤) شوقي شعث: المرجع السابق ص ٩٧.

(٢٥) شوقي شعث: المرجع السابق ص ١٠٢.

(٢٦) عبد القادر الريحاوي: قلعة الحصن، المديرية العامة للآثار والمتاحف ـ دمشق ١٩٦٠م ص ٣ ـ ٣٢.

(٢٧) فولغفانغ مولر: المرجع السابق ص ٩٦.

(٢٨) مصطفى طلاس، محمد وليد الجلاد: قلعة الحصن (حصن الاكراد) دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ط١، ١٩٩٠ ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨.

(٢٩) عبد القادر الريحاوي: المرجع نفسه ص ٣ ـ ٣٢.

(٣٠) مصطفى طلاس: المرجع نفسه ص ٢٢٨.

(٣١) مصطفى طلاس: المرجع السابق ص ٢٣٠.

(٣٢) فولغفانغ مولر: المرجع السابق ص ٧١.

(٣٣) مولر : المرجع السابق ص ٧٢.

(٣٤) مولر : المرجع نفسه ص ٦٧.

(٣٥) مولر : المرجع السابق ص ٧٢ ـ ٧٣.

(٣٦) أوفطاي اصلانابا: فنون الترك وعمائرهم، ترجمة احمد عيسى، استانبول ١٩٨٧ ص ٢٣٢ ـ ٢٣٤.

(٣٧) Michell (G); Architecture. of the islamic world, It,s History and social meaning, T.H. 1995, P 241.

(٣٨) Akurgal (E); L, Art en turqui, 1981, P 79.

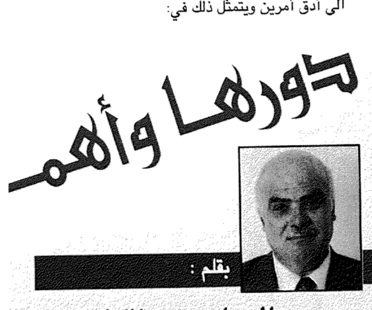
(٣٩) Naditbora Aydogan, Camakale, 1989.

(٤٠) دائرة المعارف الاسلامية: مجلد ١٥ ص ٦٥.

(٤١) أصلانابا: المرجع نفسه ص ٢٣٤.

(٤٢) أوفطاي اصلانابا: المرجع السابق ص ٢٣٤.
(٤٣) اصلانابا: المرجع نفسه ص ٢٣٤.
(٤٤) Akurgal (E); Op. Cit, P, 79
(٤٥) Akurgal (E); Ibid, P, 79.
(٤٦) Anonim: Buyuk Liarousse sozluk ve Ansiklopedisi (Milliyet Gazetecilik A.S) Is tanbul (بدون تاريخ) P639
(٤٧) Besin Darkot; Ankara' Islam Ansiklopedisi, cilt, I, (Milli Egitin Basimeri) Lstanbul بدون تاريخ PP 437-453
(٤٨) Nasit bora, Aydogan; Canakkale 1989, P.78
(٤٩) Nasit Bora Aydogan; op. Cit, P.77
(٥٠) فريد شافعي: العمارة العربية في عصر الولاة، القاهرة ١٩٧٠م ص ١٩١.
- ريجارد كوك: بغداد مدينة السلام، ترجمة مصطفى جواد وفؤاد جميل بغداد ١٩٦٢م.
- صالح أحمد العلي: بغداد مدينة السلام إنشاؤها وتنظيم سكانها في العهود العباسية الاولى - المجمع العلمي العراق - ١٩٨٥م.
(٥١) Creswell (K.A.C); Ashortacount of Early Muslim Architecture, American university in cairo, 1989. P,248-257
(٥٢) فريد شافعي: المرجع السابق ص ١٩٥.
(٥٣) Hoag (J.D); History of world Architecture, Is Lamic Architecture, Italy, 1979, P.23
(٥٤) فريد شافعي: المرجع السابق ص ١٩٦.
(٥٥) عبد الرحمن زكي: القلاع في الحروب الصليبية - المجلة التاريخية المجلد ١٥ - القاهرة ١٩٦٩م ص ١١٣.
(٥٦) دائرة المعارف الاسلامية مجلد ١٥ ص ٩١.
(٥٧) دائرة المعارف الاسلامية مجلد ١٥ ص ٩٢.
(٥٨) Grabar (O); Palaces, citadels and for tifications, architecture of the Islamic world It.s history and social meaning T-H 1995, P
(٥٩) Grabar (O); OP. cit, p69
(٦٠) بارتولد (فاسيلي فلاديمير وفتش) تركستان من الفتح العربي الى الغزو المغولي - ترجمة صلاح الدين عثمان الكويت ١٩٨١م ص ١٤٥.
(٦١) بارتولد: المرجع السابق ص ١٦١.
(٦٢) دائرة المعارف الاسلامية: مجلد ١٥ ص ٩٣ - ٩٤.
(٦٣) فيتالي نومكين، أندرية يندفيتسكي: بخارى - ترجمة صلاح صلاح. المجمع الثقافي بـ (أبو ظبي) ط ١، ١٩٩٥ ص ١٢٣.
(٦٤) أمجد بوهميل بروخازكا: عمارة الحضارة الاسلامية «بخارى» منظمة المدن والعواصم الاسلامية ط ١، ١٩٩٣م ص ١٠٨.
(٦٥) أمجد بوهميل بروخازكا: عمارة الحضارة الاسلامية «خوارزم» الحضارة المنتسبة لمنطقة ما بين بحر قزوين وأرال منظمة العواصم والمدن الاسلامية ط ١، ١٩٩١ ص ٣٢، ٥٣، ١١٥، ١٣٢.
(٦٦) أحمد محمود الساداتي: تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم ط ١، ١٩٥٧م ص ٢.
(٦٧) كليفورد أ. بوزورت: الاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي ترجمة حسن اللبودي الكويت ١٩٩٥ ص ٢٤٩ - ٢٨٣.
(٦٨) دائرة المعارف الاسلامية ج٧ ص ٦٠.
(٦٩) أحمد محمود الساداتي: المرجع السابق ص ١٥٩.
(٧٠) أحمد رجب: منشآت السلطان شيرخان الافغاني بمدينة دهلي بالهند بحث ضمن ندوة الآثار الاسلامية في شرق العالم الاسلامي التي عقدت بكلية الآثار - جامعة القاهرة في الفترة من ٣٠ نوفمبر الى ١ ديسمبر ١٩٩٨م ص ٩١ - ٩٣ وعلى الرغم من أن عنوان البحث منشآت السلطان شيرخان الا أن البحث تناول قلعة يورانا فقط.
(٧١) Andrewpeteren; Dictionary of Islamic Architecture, London and New yirk, 1996, P/7
(٧٢) Andrew Petersen; Ibid, P.7.
(٧٣) Andrew Petersen; Ibid, P7.
(٧٤) أحمد محمود الساداتي: المرجع السابق ص ١٥٩.
(٧٥) *Andrew petersen; Op. Cit, P 245.*

الرباطات.. دورها وأهم



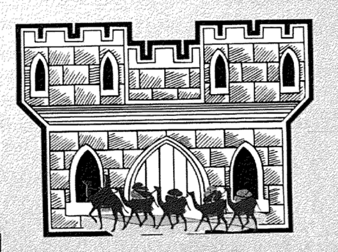
بقلم :

محمد الصادق عبداللطيف

– تونس –

١ ـ تقديم إطاري :

تتمثل المقومات العمرانية بالبلاد التونسية في صورة التفوق الاعلى لمقدرة الانسان العربي الافريقي في ميدان البناء والتشييد، ان صيانة وجود هذا الكائن فوق تراب الاجداد والآباء الذين خلقوا فيه واليه رسالة سمتها الحجارة برباط شاهد، باعتبار الرباط شعبة من الجهاد بالنظر الى القائم فيه، وعينه باتت تحرس باذن من والي هارون الرشيد على السواحل جريا على ما تقوم به دولة بني العباس في المشرق وإن أهملت بعد (الشيعة الفاطمية) تلك الرباطات[١].



بالبلاد التونسية نماذج من المآذن بين اسطوانية ومربعة ومثمنة تعلوها شرفة مستديرة وان صنف الاسطواني هو اول صنف من المآذن عرفته تونس بعد سنة ١٨١هـ منها ما يزال شامخا يرتفع للآن يقاوم عاديات الزمان واعني به رباط المنستير [٢] عمدة المآذن بالبلاد التونسية قبل التخلي عن هذا الشكل الاسطواني والالتجاء للشكل المربع كصنف جديد من العمارة، استقدم من المغرب على شاكلة جامع الكتبيين بمراكش (هو من بناء الموحدين أواخر القرن السادس) عند دخول المذهب الحنفي مع دخول الاتراك كان لسببين:

أ ـ نقص في الخبرة بين البنائين بالصوامع المثمنة الشكل.

ب ـ تمازج مع العقلية التونسية.

أما ظهور صوامع من طراز جديد هو الصنف الثالث الذي شهدته تونس كاعلان عن التمسك بالمذهب المالكي. وهذه المنارات المثمنة الشكل لم ترتفع الا في العاصمة التونسية ثم ظهرت اخيرا ببعض المدن والقرى.

٢ ـ فكرة تأسيس الرباطات :

في العهد الاغلبي اتجهت الانظار بصفة خاصة الى أدق أمرين ويتمثل ذلك في:

- حماية السواحل المغربية من غزوات الاسطول البيزنطي، حينما كان الاسطول الاسلامي بالغرب في صورة تسوء، ولهذه الغاية اسس الاغالبة الرسميون والأدارسة حوارا متواصل الحلقات من الاربطة من طنجة بالمغرب الاقصى الى الاسكندرية بمصر (المسافة ٦ آلاف كلم) وهناك (الفا) رباطات اهمها واقدمها بالبلاد التونسية رباط المنستير ثم سوسة.

- تثبيت الاسلام نهائيا في تونس والمغرب العربي كله وصد الغارات والاطماع والصمود والدفاع عن المدينة ولمّ الصفوف.

الرباط: كمعلم حضاري ودفاعي:

الرباط هو قلعة حربية كبرى يعيش فيها الجنود باستمرار يرابطون بها لمراقبة الحدود غير الآمنة. فهي تشيّد إذن على الثغور اي على الاطراف التي قد تتعرض للهجوم المباغت. ومن عهود التاريخ الاولى بنيت المحارس والرباطات على الحدود الغربية للبلاد اتقاء لهجومات القبائل البربرية ومنها قلاع (باقية) و(بلزمة) و(طبنة) بجبال الاوراس على حدود افريقية القديمة. اي الجزائر الشرقية اليوم.. كما بنيت على السواحل دَرْءاً لخطر القراصنة البيزنطيين، وعندما عمّ الاسلام كامل التراب المغربي، اتجهت عناية الامارة الاغلبية الى رباطات السواحل بالخصوص وكثرة البناءات الدفاعية التي بناها الاغالبة جعلت ابن خلدون يبالغ حين يقول (ان الامير الاغلبي ابا ابراهيم احمد شيد اكثر من عشرة الاف قلعة) وهذه المبالغة لا تنفي كثرة البناءات الدفاعية التي امر بها الاغالبة. وإذن

اضاءة

- تخرج في جامعة الزيتونة - كلية الآداب، تخصص علم النفس التربوي.
- عمل في التدريس والارشاد التربوي.
- له جمهرة من المشاركات الادبية والثقافية في عديد من الصحف والمجلات العربية.
- عضو اتحاد الكتاب التونسيين، واتحاد الادباء العرب، ورابطة الادب الحديث في مصر.
- يهتم بالتراث والحضارة.
- له مجموعة من الاعمال المخطوطة منها:

معجم الخطاطين التونسيين.

من تجليات الخط العربي في تونس.

جواهر الأعلام في تونس.

- تحقيق ديوان الشاعر البحار احمد القبجي القليبي.

يتها التاريخية

فالرباطات يبنيها الامراء والوزراء واصحاب الخير ويرابط بها المرابطون من رجال ونساء ويقررون مدة المرابطة فاذا قرروها صارت لزاما. وقد ضبط الاستاذ عثمان الكعاك في كتابه الحضارة العربية في البحر الابيض المتوسط بان الرباط هو (زاوية او ثكنة أو خانقاه) يرابط به المتطوعون لمدة يعينونها لحراسة الثغور البحرية أو الصحراوية[٣].

٣ـ دور المرابطين :

يشتغل المرابطون بحراسة الثغور جماعة، والمرابط له العديد من الحصص :

ـ حصة للتعبد: لاداء الفرائض والنوافل.

ـ حصة لحراسة الثغور (اما حراسة حية من أعلى الصومعة المستديرة فاذا رأى إسطول الروم ارسل الحمام الزاجل بالخبر الى بقية الاربطة فتأخذ العدة *للطوارىء* واما حراسة مرتخية على *سطح الرباط*. فاذا جاء العدو رماه المرابط بالسهم او القى الزيت المحرق والخرق الملتهبة بالنفط من المسقط).

هذا يدل على ان المسلمين توصلوا الى النهاية من فنّ استحكامات الاربطة فأوجدوا منارة للحراسة والعلامات النارية والحمام الزاجل، وأوجدوا المسقط والشرافات والعرّادات بقوس البندق وصروح المنجنيق والنار الفارسية والباب النازل بالحبال والسقائف المتعاقبة في انعطاف.

ـ المرابط يؤدي في الرباط وظيفته المدنية احتسابا.. فالطبيب يعالج بالمجان من باب زكاة العين وكل الاربطة مستشفيات.

ـ والمعلم يعلم لتثقيف الطلاب على هيئة المدارس والجامعات. والبريدي ينظم البريد الجوي بواسطة الحمام الزاجل (يضعون كاغدا رقيقا يسمى الرقائقي يكتبون البطائق بالجفر او حبر السرو (هو عصير الليمون) ويعلقون البطائق في اعناق الحمام فتنتقل بها منزلة منزلة من طنجة الى الاسكندرية في مدة يسيرة[٤] وفي الليل توقد علامات نارية يصطلح على تناقلها المرابطون.

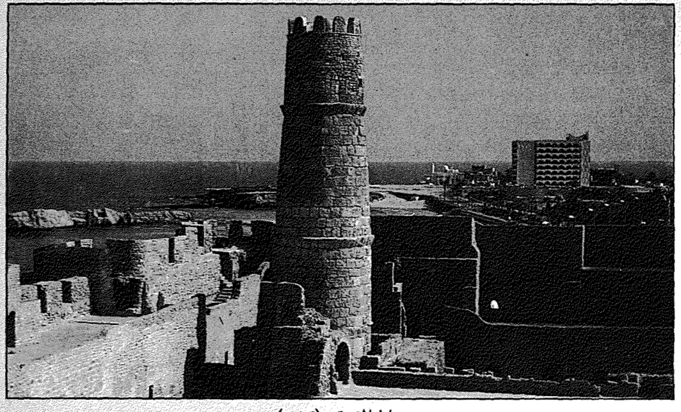
ـ والنساج ينسج. والكواغذي يصنع الكاذغ. وهكذا يكون الرباط ليس مركزا دفاعيا وحسب او هجوميا بل هو مركز عمل اجتماعي وثقافي واقتصادي.. ورغم ان الرباط قلعة حربية يعيش فيها الجنود باستمرار فهو يمتاز بهندسة بديعة وتخطيط معماري فريد وعبقرية نادرة في تشييدها واحكام وضعها، ومرابطوها يدللون على الشجاعة ومحبة الجهاد والاستشهاد في سبيل الوطن والدفاع عن دينهم ودين أجدادهم[٥].

نماذج من الاربطة بتونس :

١) رباط المنستير :

بناه القائد العباسي هرثمة ابن أعين الهاشمي في عهد هارون الرشيد سنة ١٨٠هـ/ ٧٨٦م باشارة من الزاهد القيرواني البهلول بن راشد (الارتفاع ٣٥ مترا، العمر ١٢ قرنا) وحسب رواية ابي العرب يعده البكري من محارس سوسه فيقول (وله في يوم عاشوراء موسم عظيم ومجمع كبير هو حصن عالي البناء متقن العمل ومن الطبقة الثانية منه (الطابق العلوي) مسجد وفيه جماعة من الصالحين والمرابطين قد حبسوا أنفسهم فيه دون الاهل والعشائر، فالرباط يؤسس اذن للتعبد والجهاد معا. والمرابطون هم جنود وعبّاد وكان المتطوعون لهذا الواجب المقدس كثيرين لا يتوانون من اخذ سلاحهم والتقدم الى السواحل لصد هجومات الروم البيزنطيين حتى ان الاهالي كانت تعود لهم الثقة عندما يقدم هؤلاء المجاهدون لحمايتهم، وكان المرابطون يتهيأون للحرب بان يواظبوا على الفروسية والتمارين الحربية فيقفون صفا واحدا كأن العدو بين ايديهم ويجرون حيلهم ويعودون عند الظهر الى حصونهم[٦].

لقد كان الرباط في بدايته ضيقا لما اقبل عليه المرابطون فعني بالزيارة فيه وخاصة باضافة جناح



- رباط المنستير (تونس).

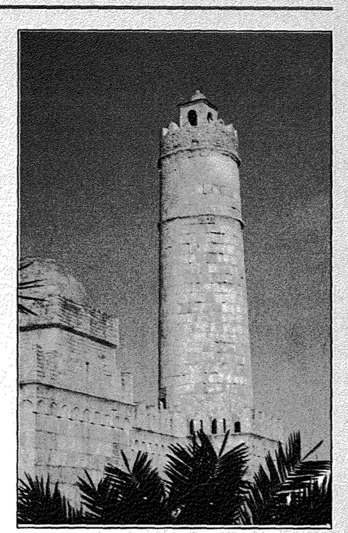
خاص بالنسوة المجاهدات. وقد اخذت جموع اهل السنة ينزحون الى رباط المنستير هروبا من اضطهاد الشيعة الفاطميين وقد أخذ الناس يبنون المنازل والاسواق بقرب القلعة (الرباط) وهي أشياء أشعرت بضرورة حمايتها وراء سور كبير وسميت المجموعة الجديدة (بالبلاد) ومن اشهر الاشغال التي اجريت عليه في القرن ٩هـ/ ١٥م والتي اجراها الاسبان في القرن ١٦م واشغال الحاميات العثمانية حيث أعدّوا القلعة وجهزوها بالمعدات والاسلحة وخاصة المدافع.

يحتوي الرباط اليوم على متحف اسلامي يضم تحفة من العاج المنقوش يعود تاريخها الى العهد الاموي ودمية خشبية من مخلفات الدولة العباسية وبساطاً من جليز الخزف من صنع اندلسي ورسماً مصغر من ابداع الفن الفارسي وآلة فلكية لقياس ارتفاع الحرارة قادمة من قرطبة (القرن العاشر) وسدسية فرنسية يرجع عهدها للقرن الثامن عشر وقطعا من القماش انتجت في القرن التاسع عشر وعقود زواج محررة باللغة التركية بتاريخ القرن الثاني عشر الهجري ومصنوعات من البلور وقطعاً نقدية وعشرات التحف الاخرى التي تجعل من المتحف - على صغر حجمه - مجمعا تاريخيا يجاور الرباط.

٢) رباط سوسة :

بنى هذا الأثر في خلافة زيادة الله الاول وحسب النقيشة المثبتة في مدخل المنارة تؤرخ الاشغال سنة ٢٠٦هـ وهو المكان الذي انطلقت منه حملة لفتح صقلية بقيادة اسد ابن الفرات[٧].

والرباط هو عبارة عن قلعة محصنة مجهزة ببرج للمراقبة والمرابطة (تصلح ايضا لهدي السفن ومراقبة الاعداء وحماية البلاد من الغزوات الخارجية) ومن خصائصه أن منارته من اقدم المنارات في العالم الاسلامي بعد منارة قصر المنستير وان القبة المشرفة في مدخله هي من أقدم القباب الاسلامية بعد قبة الصخرة في بيت القدس[٨].



ـ رباط سوسة (تونس)

واحتوى الطابق الاول من الرباط على مسجد على درجة كبيرة من روعة البناء والتصميم، كما انه يعتبر من اقدم مساجد افريقيا والايام تشهد ان اهل العلم والزهد والورع ومنهم ابو الاحوص احمد بن عبد الله قد جعلوا من رباط سوسة مسكنا، والليالي تشهد أن زوجة المرابط هذا قد قامت في سواد مظلم لا متحرك فيه سوى دوي البحر وهي تنشد بين شرافتي برج الرباط[٩].

أبَوْا أن يرقدوا الليل
فهم والله قوّام
أبَوْا أن يخدموا الدنيا
فهم لله خُدّام

إن رباط سوسة هذا المشيد في القرن التاسع الميلادي في عهد الاغالبة اقيم بناؤه على اسس بيزنطية قديمة وكان الغرض من اقامته القيام بدور حربي يتمثل اساسا في حماية سواحل المدينة اولا والبلاد التونسية ثانيا.

يتكون رباط سوسة من ابراج مستديرة عالية تشرف على مجموعة غرف صغيرة كان المرابطون يقيمون بها للدراسة والتعبد خلال الفترات التي تتخلل اوقات القتال واشهر المرابطين أسد ابن الفرات (١٤٢ ـ ٢١٣هـ) فاتح صقلية وناشر الاسلام بها.

يمتاز هذا الرباط ببساطة فائقة في الهندسة وهو يستخدم الآن في المهرجانات الثقافية.

كان الرباط يحتوي على ثلاثين غرفة للمرابطين علاوة على الحمامات ومسجد جامع في الطابق العلوي ومنارته منها، يراقب الحرس والعسس البحر ليلا ونهاراً استعدادا للطوارىء. ولهذا الرباط خاصية اخرى مؤثرة وهي ان الجدار القبلي الذي يقع فيه المحراب قد فتحت فيه ثغرات لمراقبة الساحل ولرمي السهام على العدو في صورة محاصرته للصحن. وهذه الخاصية تلخص بصفة عجيبة وظيفتي العبادة والدفاع. كأن الصلاة فيه صلاة فزع دوما.

٤) سر الغارات :

يتجلى سر هذه الغارات في الصراع العظيم الذي قام منذ ظهور الاسلام بين النظام الاسلامي والنظام البيزنطي وهو صراع بدأت تدور رحاه في الحوض الشرقي من البحر المتوسط. فانتقل شيئا فشيئا نحو الغرب وذلك كلما ازداد انتشار الدين الاسلامي في ذلك الاتجاه كما انتقل هذا الصراع عن العرب لسبب آخر وهو ان الروم لم يفلحوا في مقاومتهم للاسلام في الشرق من اجل تفوق القوى الاسلامية على القوى النصرانية فراح البيزنطيون يشددون ضرباتهم على النواحي الافريقية التي لم يمض زمن طويل على فتحها والتي لم تنظم بعد وسائل دفاع ناجعة، وهكذا كانت السواحل التونسية منذ السنوات الاولى من الفتح الاسلامي هدفا لغارات الاسطول الرومي ولمحاولة النزول فيها.

هذا الكابوس لا يمكن حله الا بأمرين:

١ ـ إما التنازل للروم عن الممتلكات الاسلامية.

٢ ـ وإما الذود عنها للاحتفاظ بها. فاختار هارون الرشيد هذا الحل الآخر بتحصين الشواطيء وفعلا تم تحصين الشواطىء الافريقية (تونس) بشبكة من الحصون تقيم في وجه العدوان الرومي حاجزا منيعا يصده عن مواصلة العبث، فوقع الاختيار على المنستير لاقامة الحصن الاول وهو الرباط[١٠].

وقد اقتضى فتح صقلية بناء المحارس والمرافق والرباطات والقلاع على الشواطىء التونسية لتكون معاقل يتجمع فيها المرابطون لحراستها من رد فعل النصارى واقدامهم على الغارات المفاجئة فاكتسبت البلاد التونسية لذلك حصانة ومناعة جعلتها طيلة قرون طويلة من بعد في مأمن منهم وقد بقي قائما من هذه المعالم عدد لا يستهان به لم يأت طول الزمن على مظهره الاصلي. وهو ذاك المعلم الشامخ البناء، الراسي رأسه الى السماء سماء العزة والفخار مازالت تتعاقب وتتوالي عليه الاحقاب والاحداث وهو كما وضعه البناؤون الاشاوس، مر عليه من العمر احد عشر قرنا لا تزحزح اركانه الحروب والفتن. ولم تؤثر في عرصاته غوائل الدهر والمحن.

التقديم التاريخي والمادي لبرج قليبية الأثري (تطبيقات)

(أ) تاريخ البرج وأطواره :

أدى برج قليبية دورا عسكريا واستراتيجيا هاماً مدة امتدّت منذ الفترة القرطاجية إلى حوالي منتصف القرن الثامن عشر الميلادي ويرجع هذا الدور إلى موقع البرج على الضفة الجنوبية الشرقية لشبه جزيرة الوطن القبلي كما مثل موقعه على قمة الهضبة حاجزا جعل من الارتقاء إليه عملية صعبة بالنسبة لقوّات معادية. وقد مكنت دراسة المصادر القديمة والوسيطة من ناحية ودراسة المعمار وتقنيات البناء من ناحية أخرى من تشخيص المراحل المتتالية من تاريخ البرج.

ليس هناك ما يثبت قطعا أن القرطاجيين أسسوا البرج في القرن الخامس قبل الميلاد، وأقدم الهياكل في الوقت الحالي ترجع الى أواخر القرن الرابع وتندرج في إطار تحصينات أقامها الإغريق خلال حملتهم ضد قرطاج، كما لعب البرج دورا هاماً في أهم مراحل الصراع الذي واجهت فيه قرطاج روما طوال ثلاثة حروب امتدت من منتصف القرن الثالث إلى منتصف القرن الثاني قبل الميلاد.

ثم استغل البيزنطيون الموقع فأقاموا حصنا أصغر من القاعدة العسكرية القرطاجية، ثم وبعد دخول المسلمين أفريقية حافظ البرج على دوره العسكري فتواترت عمليات البناء والإصلاح والتنقيح.

شيد الأغالبة رباطا على بقايا الحصن البيزنطي في القرن التاسع وقام يحي بن تميم الزيري في بداية القرن الحادي عشر بإعادة بناء الرباط بعد الأضرار التي ألحقها به الرومان.

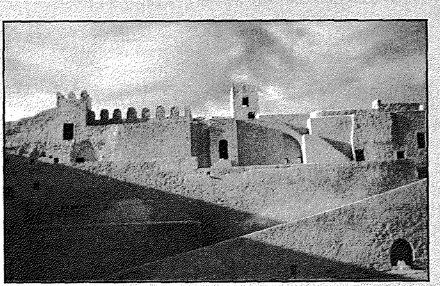
وتتالت بعد ذلك الترميمات نخص منها بالذكر إصلاحات قام بها الأتراك لإصلاح ما هدمه الإسبان في منتصف القرن السادس عشر.

وينتهي دور البرج الفعلي ويقع التخلي عنه في منتصف القرن الثامن عشر بسبب الجو السياسي فيقف الرحالة V.Tuer في سنة ١٨٥٠ على حالة تداعي وانهيار وإهمال البرج.

(ب) التقديم المادي للبرج :

يتراءى البرج على الشكل الذي كان عليه خلال فترة الحكم الزيري (القرن الحادي عشر الميلادي) مع ترميمات وإضافات تركية (القرن السادس عشر)، والقلعة على شكل سداسي الأضلاع يصل أقصى ارتفاع سورها إلى أربعة أمتار تدعمها أبراج فاتكة رباعية الشكل يصل ارتفاع أحدها إلى ١٣ متراً.

يوجد منفذ رئيسي للبرج على الواجهة الشمالية



- رباط المنيز - صورة لبرجين من الفناء.

الشرقية أما المنفذ الثانوي فهو باب صغير يؤدي إلى ممر سري يربط البرج بالمدينة الممتدة على سفح الهضبة وحول المواني.

وقد مكنت الحفريات في سفح الهضبة من رفع الغطاء عن آثار رومانية تتمثل في مبان من بينها منزل تشهد سواريه عن وجاهة مالكه، شيد حسب المثال المعماري الروماني بافريقية حيث زانت أرضيته لوحات الفسيفساء.

٢ - الوضع الحالي للبرج:

إن شموخ البرج وعظمته وجمال الهضبة التي يعتليها يستهويان الزوار تونسيين كانوا أو أجانب غير أن الزائر الذي يتكلف مشقة الصعود إلى البرج بحثا عن المنفعة العلمية وحبا في الاطلاع على ثراء المعلم يكتشف بداخله وضعا يتناقض تماما مع هيبته الخارجية دون أن يحصل على أدنى معلومات تخص تاريخ البرج وأطواره، والحالة تلك لم تتغير رغم وجود من يمثل وكالة النهوض بالتراث الذي يقتصر دوره على رعاية مصالح الوكالة، ناهيك أن العديد من الأكاديميين والصحافيين المختصين قد سبق وأن عبروا في عديد المناسبات عن اقتناعهم بأن الفضاء الداخلي للبرج يبقى في حاجة للدراسة والصيانة والترميم (علما أنه قد تم ترميم السور في فترة سابقة ثم توقفت الأشغال قبل أن تأتي على كامل السور).

والشيء الذي يؤكد عليه أهل الذكر ومما يثير استنكار الزائر الواعي بالمعطيات التاريخية والحضارية للبرج هو النشاز الحاصل داخل المعلم والمتولد عن تركيب بناءات عصرية على بعض أجزاء السور دون اعتبار لهوية البرج الأثري مما سبب تشويها للطابع العام للمعلم، زد على ذلك أن المنظر العام للفضاء يوحي بالغياب الكلي للصيانة إذ تسود المساحة الداخلية للبرج أكوام من الحجارة وأعشاب برية عاتية وشظايا جدران لا تحمل هوية ولا تاريخا كما أن الآثار الرومانية الموجودة في سفح الهضبة تعاني من نفس النقائص، غياب التعريف والحماية والصيانة.

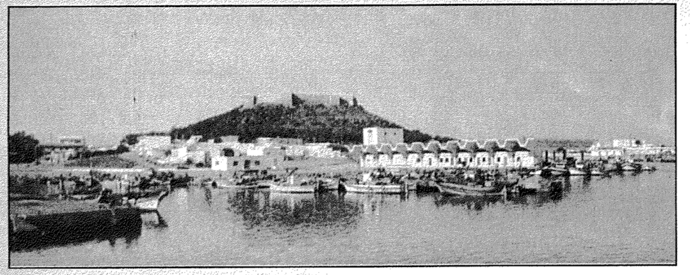
- الحفريات ١٩٦٠ أثبتت وجود مدينة بين القرن ١، ٧ ميلادي.

- الآثار منازل على النمط الروماني، أنهج متقاطعة مبلطة بفسيفساء من أهم المدارس الفسيفساء بقليبية وتمثل (حيوانات وأشكالا هندسية)الساحة الكبرى معبد الكابتول إلى أواخر القرن الاول الميلادي، البزنطيون حصنوا المدينة بإقامة حصن في البرج قبل القرن السادس الميلادي الحصن البيزنطي في البرج قرب الساحل الشرقي توجد بقايا كنيسة قديمة (مقبرة).

- البرج مساحته حوالي ٥ هكتار ومساحة الفورم أمام المقهي - الساحة الكبرى - تحسينات في العهد البيزنطي.

- بئر النحال: منزل فخم روماني مبلط بالفسيفساء، الفسيفساء قبل القرن السادس الميلادي مشهد صيد، نقيشة رومانية بالمدرسة البحرية، الكنيسة الرومانية طريق المنصورة (جهة دار الشباب).

المعمدانية: (بمنزل يحي) قبل القرن السادس



- برج قليبية.

الميلادي ومدرسة قليبية في الفسيفساء قامت بأعمال كبيرة وكانت باتصال مع الشرق (منزل يحي قطع أثرية معبد ريفي قرب الكنيسة).

المواقع الاسلامية :

برج قليبية أشهر المعالم التاريخية، أكبر الأبراج موقع استراتيجي كبير يشرف على البحر المتوسط جاء ذكره في عدد من الكتب، أنشىء هذا البرج منذ القرن الخامس قبل الميلاد على يد القرطاجيين والرومان احتلوه خلّصه تميم بن المعز.

صخرة حمام: (صخرة الصلاح) مكان الاجتماعات.

المقترحات :

- إعداد مثال تهيئة للساحل الشرقي الى المعمورة.
- استخراج المنطقة التي تضم البرج والميناء والساحل لدراستها على سلم دقيق.
- استغلال البرج للترفيه (مسرح - متحف).

الهوامش :

(١) المختار بن زاكور: (من الحجارة حضاره) جريدة الاخبار ١١، ١٢ مايو ١٩٨٥.

(٢) مدينة ساحلية بين سوسة والمهدّية ولفظة المنستير يونانية لاتينية اعتاد اهل البلاد اطلاقها على المؤسسة النصرانية التي يؤمها الرهبان (الدّير).

(٣) عثمان الكعاك: مجموعة المحاضرات القاها بمعهد الدراسات العليا بالقاهرة (تابع لجامعة الدول العربية) بعنوان الحضارة العربية في البحر الابيض المتوسط. القاهرة ١٩٦٥.

(٤) صبح الاعشى. انظر الحمام البطائقي وكذلك دائرة المعارف الاسلامية (مادة كاغذ).

(٥) ابو بكر عبد الله الكافي. تاريخ صفاقس ١٢.

(٦) وزارة الاعلام تونس (تونس الاسلامية).

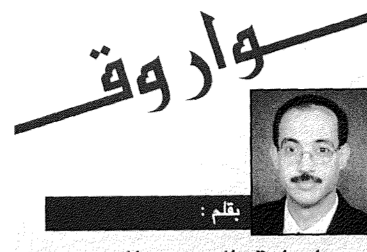
(٧) سليمان مصطفى زبيس (بين الاسلامية في تونس) تونس ١٩٦٣.

(٨) سليمان زبيس (سوسة جوهرة الساحل) تونس ١٩٦٥.

(٩) المختار بن زاكور (ومن الحجارة حضارة) مصدر سابق.

(١٠) سليمان مصطفى زبيس (المنستير ومعالمها) وكذلك جولة بين الاثار الاسلامية في تونس من المفيد الرجوع لما كتبه المستشرق الفرنسي (ماسينون) حول الرباطات ودورها (بالفرنسية) وكذلك اطروحة الدكتور ابراهيم شبوح بجامعة القاهرة.

أسوار وقف

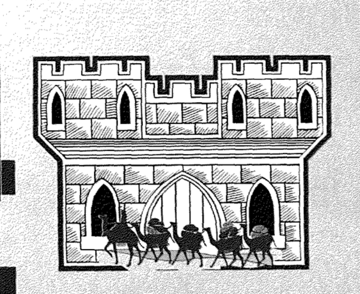


بقلم :

د. اسامة طلعت عبدالنعيم

كلية الآثار – جامعة القاهرة – مصر

تقع شبه الجزيرة الإيبيرية في الطرف الجنوبي الغربي من قارة أوروبا، وتشتمل الآن على دولتين، تشغل إحداهما الجزء الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة وهي البرتغال، بينما تشغل مملكة إسبانيا غالبية مساحة شبه الجزيرة. وتنقسم إسبانيا حاليا إلى مجموعة من الأقاليم أو المقاطعات، تشتمل كل منها على عدد من المحافظات. ويعتبر إقليم الجنوب المعروف الآن بأندلوثيا من أكثر الأقاليم التي لا تزال تحتفظ بتراث ضخم من العمائر والفنون الإسلامية، بدءا من اسمه المشتق من اللفظة التي أطلقها المسلمون على شبه الجزيرة وهي (الأندلس)[١]، ومرورا بعواصم محافظاته الثمانية التي ذاع صيتها في العصر الإسلامي، وكانت ثلاث منها عواصم لدولة الإسلام في الأندلس، وهي: قرطبة وإشبيلية وغرناطة. أما المحافظات الخمس الباقية فهي على الترتيب الجغرافي من الشرق إلى الغرب: ألمرية، جيان، مالقة، قادس، أولبة (شكل ١).



وكان فتح المسلمين للأندلس امتداداً جغرافيا واستراتيجيا لفتوح مصر وشمال إفريقية والمغرب، وتم فتح الأندلس في عصر الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك على ثلاث مراحل أو حملات انطلقت من المغرب، كانت الأولى منها بقيادة أبي زرعة طريف بن مالك سنة ٩١هـ/٧١٠م ، والثانية بقيادة طارق بن زياد سنة ٩٢هـ/ ٧١١م ، والثالثة بقيادة موسى بن نصير والى إفريقية سنة ٩٣هـ/ ٧١٢م ، وقد مر التاريخ الأندلسي بعدة عصور، وإن كان المجال لا يتسع لذكر تفاصيلها، إلا أنه يمكن التعرف على خطوطها الرئيسية على الترتيب التاريخي من خلال النقاط التالية:

أولا: الفتح الإسلامي وعصر الولاة (٩٢ ـ ١٣٨هـ/ ٧١١ ـ ٧٥٥م).

ثانيا: عصر الدولة الأموية (١٣٨ ـ ٤٢٢هـ/ ٧٥٥ ـ ١٠٣١م).

ثالثا: عصر ملوك الطوائف (٤٠٠ أو ٤٢٢ ـ ٤٨٤هـ/ ١٠٠٩ أو ١٠٣١ ـ ١٠٩١م).

رابعا: عصر المرابطين (٤٨٤ ـ ٥٤١هـ/ ١٠٩١ ـ ١١٤٦م).

خامسا: عصر الموحدين (٥٤١ ـ ٦٤٦هـ/ ١١٤٦ ـ ١٢٤٨م).

سادسا: عصر بني نصر أو بني الأحمر أو مملكة غرناطة (٦٣٥ ـ ٨٩٧هـ/ ١٢٣٨ ـ ١٤٩٢م)[٢].

ولا تزال إسبانيا محتفظة بتراث معماري ضخم من الاستحكامات الحربية سواء في أسوار مدن أو قلاع أو حصون، وهو أمر طبيعي فرضه تاريخها الطويل لا سيما في العصر الإسلامي، الذي لم تقف خلاله الحدود الفاصلة بين الأندلس (إسبانيا الإسلامية) وبين الممالك النصرانية في شمال شبه الجزيرة الإيبيرية عند حد ثابت، وكثيرا ما تعرضت هذه الحدود للمد والجزر نتيجة لقوة أحد الطرفين وضعف الآخر، فضلا عن الحملات والغزوات التي كان يشنها كل طرف على الآخر، وكانت هذه الحملات تخترق الحدود وتهدد القواعد والمدن والقرى. لذلك اعتنى المسلمون بتحصين المدن وإحاطتها بالأسوار، وشيدوا القلاع والحصون على الطرق الرئيسية وفوق المرتفعات والجبال ذات المواقع الاستراتيجية، والجدير بالذكر أن بعض هذه القلاع تحولت بمرور الوقت إلى مدن ومنها على سبيل المثال: قلعة أيوب، وقلعة عبد

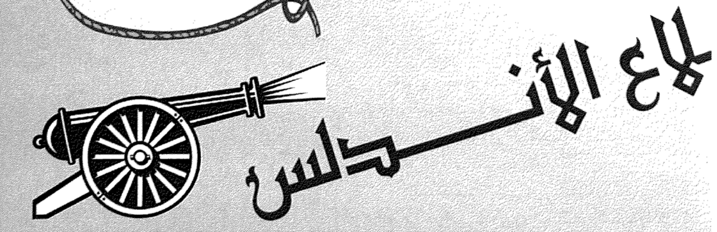
اضاءة

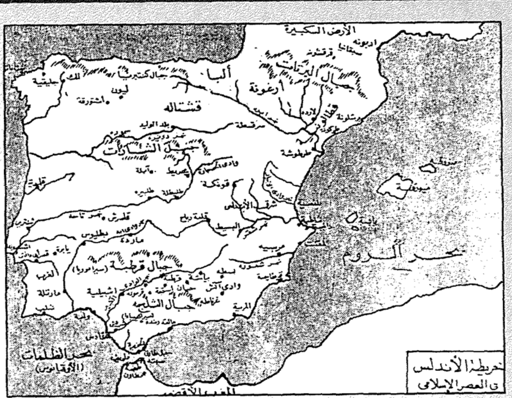
- مدرس الآثار والعمارة الاسلامية بكلية الآثار جامعة القاهرة.

- دكتوراة في الآثار من قسم الآثار الاسلامية ـ جامعة القاهرة (عمارة المغرب والأندلس).

- المؤلفات والابحاث:

* دراسات في الآثار الاسلامية (مصر).
* العمارة الاسلامية في الاندلس.
* أضواء على تاريخ المسلمين في الأندلس (من الفتح حتى نهاية عصر ملوك الطوائف).
* ملامح تخطيط المدخل المنكسر بين مصر والغرب الاسلامي فيما بين القرنين الخامس والسابع الهجريين.





شكل (١) ، خريطة الأندلس في العصر الاسلامي

السلام، وقلعة جابر، وقلعة بني سعيد.

وقد وجدت في الأندلس ثلاثة ثغور تقع على حدود الممالك الاسبانية النصرانية، وتمتد على هيئة خط أفقي يبدأ في الشمال الشرقي ويمتد إلى الجنوب الغربي، وهذه الثغور هي:

١ ـ الثغر الأعلى: في الشمال الشرقي وعاصمته سرقسطة (Zaragoza)، ويواجه مملكة نبارا (Na-varra).

٢ ـ الثغر الأوسط: ويتوسط شبه الجزيرة الإيبيرية، وعاصمته مدينة سالم (Medinaceli) ثم طليطلة (Toledo)، ويواجه مملكتي قشتالة (Castella) وليون (Leon).

٣ ـ الثغر الأدنى: في الغرب والجنوب الغربي فيما بين نهري دويره وتاجه، وكانت عاصمته أولا طليطلة، ثم حلت غيرها لعلها قورية (Coria)[٣].

هذا ويمكننا بشكل عام أن نقسم المدن والقرى الأندلسية إلى قسمين: الأول ويشتمل على المدن والقرى القديمة السابقة في إنشائها للفتح الإسلامي وسكنها المسلمون، ومنها: إشبيلية، قرطبة، غرناطة، جيان، شريش، شاطبة، شذونة، ماردة، رنده، طليطلة. أما القسم الثاني فيشتمل على المدن والقرى التي أنشأها المسلمون، ومنها: ألمرية، بطليوس، قلعة رباح، مرسية، مدريد (مجريط)، مدينة الزهراء[٤].

والجدير بالذكر أنه كان لكل مدينة أو قرية أندلسية تقريبا ـ سواء المذكورة أو غيرها ـ سور يحيط بعمرانها لحمايتها فضلا عن قصبة (قلعة أو حصن في الاصطلاح المغربي والأندلسي) تعمل كخط دفاع ثان عنها، وغالبا ما تشتمل على قصر أو دار الحاكم.

وسنعرض فيما يلي لنماذج لا تزال باقية لأسوار بعض المدن الأندلسية وقصباتها وقلاعها للتعرف على تاريخها وعمارتها.

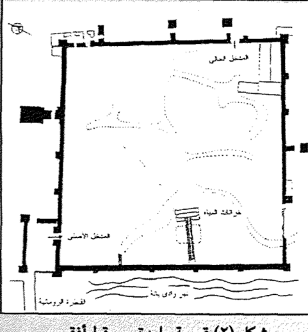
قصبة ماردة:

تقع مدينة ماردة على نهر وادي يانه جنوب غربي إسبانيا، وهي الآن إحدى مدن محافظة بطليوس، وماردة من المدن القديمة أسسها الامبراطور أغسطس سنة ٢٥ ق.م على أطلال مدينة إيبيرية، وافتتحها موسى بن نصير بعد فتحه لإشبيلية سنة ٩٣هـ، ولا تزال المدينة محتفظة بكثير من آثارها الرومانية كالقنطرة وجسور المياه والملعب وخزان المياه، ولم يتبق من آثارها الإسلامية سوى القصبة.

وتقع القصبة جنوب غربي المدينة، ويشرف سورها الغربي على نهر وادي يانه ومدخل القنطرة **(شكل ٢،**

لوحة ١)، وأمر ببناء هذه القصبة الأمير عبد الرحمن بن الحكم سنة ٢٢٠هـ/ ٨٣٥م، وسجل هذا التاريخ بلوحة تأسيسية مستطيلة من الرخام الأبيض مثبتة الآن بأعلى مدخل القصبة، وكان بناؤها لقمع ثورة أهل ماردة وعلى رأسهم سليمان بن مرتين، وجعلها ملاذا لأولى الأمر التابعين لعبد الرحمن بن الحكم، وهي بذلك أقدم قصبة لا تزال باقية ومحتفظة بنص تأسيسها في تاريخ العمارة الأندلسية.

والقصبة مشيدة بأحجار جرانيتية، ويتخذ مسقطها الأفقى شكل مربع طول ضلعه ١٣٠م[٥]، ويبلغ سُمك سورها ٧٠ر٢م، وتتخلل أسوارها أبراج مربعة صماء لا فراغ فيها. ويفتح مدخل القصبة الرئيسي بالزاوية الشمالية الغربية منها، ويكتنف فتحة الباب برجان مربعان، ويتقدم الباب فناء مستطيل مكشوف تحيط به الأسوار، يفتح بضلعه الغربي باب يؤدى الى القنطرة، وبضلعه الشرقي باب آخر كان يؤدي إلى داخل المدينة، والغرض من هذا الفناء المستطيل التحكم في مدخل المدينة من جهة القنطرة.



شكل (٢) قصبة ماردة، مسقط أفقي.

قلعة طريف :

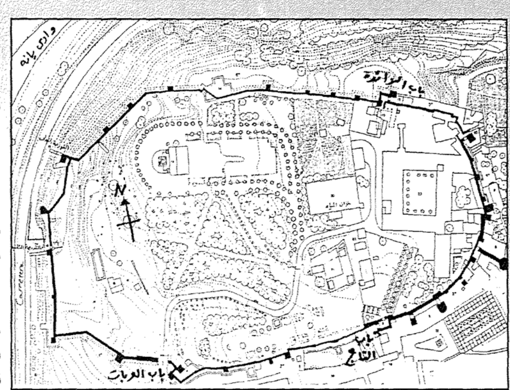
تقع مدينة طريف في أقصى الطرف الجنوبي لشبه الجزيرة الإيبيرية، وتشرف على مضيق جبل طارق قبالة مدينة طنجة المغربية ، وقد عرفت باسم طريف بن مالك قائد أول حملة عسكرية لفتح الأندلس سنة ٩١هـ/ ٧١١م، إذ نزل بموضعها فعرفت[٦] ولا تزال تعرف حتى الآن باسمه بعد أن نقلت مقاطعها الصوتية إلى الإسبانية (Tarifa). وتحتفظ المدينة بقلعة تعرف الآن بقلعة (جوثمان البوينو Guzman El Bueno) بالقرب من المضيق، وهي قلعة إسلامية جددها الخليفة الأموى عبد الرحمن الناصر سنة ٣٤٩هـ/ ٩٦٠م[٧]، وأضاف لعمارتها برجا، وأثبت ذلك في نص مسجل على لوح رخامى مثبت الآن أعلى باب القلعة القديم والقلعة مشيدة بأحجار غير منتظمة الشكل، ويتخذ مسقطها الأفقى شكلا هندسيا (شبه منحرف) تدعمه أبراج مربعة صماء، ويفتح بابها القديم الذى يعلوه نص عبد الرحمن الناصر في الضلع الجنوبي (لوحة ٢)، وقد جددت هذه القلعة في عصر الموحدين.

قصبة بطليوس :

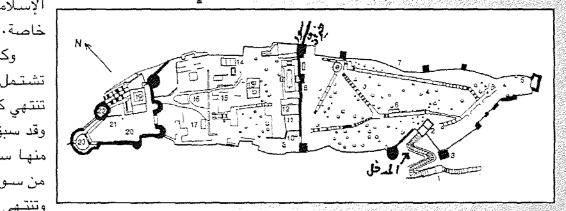
تقع مدينة بطليوس (Badajos) على نهر وادي يانه غرب الأندلس ، وقد ظهر اسم بطليوس في تاريخ الأندلس في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم، حين خرج عليه عبد الرحمن بن مروان الجليقي سنة ٢٦١هـ/ ٨٧٧م، واستقل بغرب الأندلس، وأسس مدينة بطليوس الجديدة وعمرها وأحاطها بالأسوار المنيعة[٨]، كما زودت المدينة بقصبة حصينة لا تزال باقية حتى الآن، وإن كان عالم الآثار الإسباني الأستاذ (توريس بلباس) ينسب بناءها للخليفة الموحدى أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن[٩]، إلا أن الثابت من خلال النصوص التاريخية التى وردت عند ابن صاحب الصلاة - مؤرخ الموحدين - أنه زودها بقورجة وبرج براني[١٠] سنة ٥٦٤هـ [١١] (١١٦٩م).

محتفظة بحجرات الرماية التي تعلوها. ويفتح في أسوار القصبة ثلاث أبواب هي: باب العربات في السور الجنوبي، باب التاج بالسور الجنوبي أيضا، باب الزائدة في السور الشمالي **(شكل ٣)**، فضلا عن باب سر وهو باب صغير بالضلع الغربي الموازي للنهر، والأبواب الرئيسية الثلاث عبارة عن مداخل منكسرة ينحرف الداخل فيها الى اليسار في زاوية قائمة، وهو أسلوب دفاعى معروف في العمارة الإسلامية عامة والأندلسية خاصة.

وكانت أسوار القصبة تشتمل على ثلاث قورجات تنتهي كل منها ببرج براني وقد سبق تعريفها، ولم يتبق منها سوى قورجة تتفرع من سور القصبة الشرقي وتنتهى ببرج برانى يعرف الآن ببرج (اسبانتابروس)، وهو مشيد بالطابية والآجر ويتخذ مسقطه الأفقي شكلا هندسياً مثمناً، ويتكون من كتلة بنائية صماء يعلوها طابقان يشتمل كل منهما على حجرة رماية مثمنة تفتح بأضلاعها مزاغل تشرف على خارج السور **(لوحة ٣)**، ويعد هذا البرج من أقدم الأمثلة الباقية لاستخدام الأبراج البرانية المثمنة في العمارة الحربية الأندلسية.



شكل (٣) قصبة بطليوس ، مسقط أفقي.



شكل (٤) قصبة المرية، مسقط أفقي.

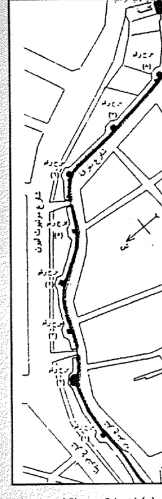
وتقع القصبة شمال غرب مدينة بطليوس، ويشرف سورها الغربي على نهر وادي يانه، وقد شيدت أسوارها وأبراجها بالطابية[١٢] والآجر، ويتخذ السور الذى يدور حول القصبة محيطا بيضي الشكل، يبلغ أقصى طوله حوالي ٤٠٠م وعرضه ٢٠٠م (شكل ٣)[١٣]، ويتراوح ارتفاع الأجزاء الباقية منه ما بين ٤ و ٩م، ويمتد السور على هيئة كتلة صماء لا فراغ فيها، يعلوه ممشى علوى يحدد واجهته الخارجية درابزين يحمل دراوي أو شرافات ذات نهايات مخروطية الشكل، وتدعم السور أبراج مربعة لا تزال بعضها

قصبة المرية :

تقع مدينة المرية في جنوب شرق الأندلس على ساحل البحر المتوسط ، وهي مدينة إسلامية أمر

ببنائها الخليفة الأموى عبد الرحمن (الناصر) بن محمد سنة ٣٤٣هـ/ ٩٥٥م، ذكر ذلك العذري (ت ٤٧٨هـ) في جغرافيته المعروفة بكتاب «ترصيع الأخبار» ووصف تحصيناتها فقال: «وليست المرية بأولية العمارة، وإنما اتخذها العرب رباطا، وابتنوا فيها محارس، وكان الناس ينتجعونها ويرابطون فيها، ولا عمارة فيها يومئذ ولا سكنى، وعليها سور صخر منيع بناه الناصر أمير المؤمنين عبد الرحمن سنة ثلاث وأربعين وثلاثمئة.

ومدينة المرية اليوم (القرن ٥هـ) متقنة البناء مصرية الشكل. والمدينة القديمة منها مسورة بسور عجيب، وقد سور ربضها[١٤] الشرقي، واتصل سور الربض بالمدينة. وكان الذى (بنى) سور الربض الفتى خيران[١٥]. وكذلك الربض الغربي مسور أيضا قد اتصل سوره بالمدينة.



شكل (٥) اشبيلية، خريطة لسور مقرانة

شكل (٦) اشبيلية، مسقط أفقي لطوابق البدن السفلي ببرج الذهب.

وقد أشرفت على المدينة قصبتها، وهي في جبل منفرد، عليه سور متقن، لا يصعد إلى قصبتها إلا بكلفة، ولا يرقى إليها إلا بمشقة، محكمة في رتبها غاية في امتناعها[١٦]. والجدير بالذكر أن هذا الوصف يعد وصفا دقيقا يتطابق مع طبوغرافية المدينة الحالية. ولا تزال المرية محتفظة بقصبتها وجزء من السور الذى كان يحدق بربضها الشرقي، ويعرف حتى الآن بسور خيران.

وقد شيدت القصبة على نشز صخرى مرتفع يحد المدينة من الجهة الشمالية **(لوحة ٤)**، وشيدت أغلب أسوارها وأبراجها بالطابية، واستخدم الحجر والآجر في بعض المواضع، وتحدق أسوار القصبة بقمة النشز الصخرى بحيث اتخذت هيئته وأصبحت نتيجة لذلك غير منظمة الشكل، محورها الرئيسي والأكثر طولا يمتد من الغرب إلى الشرق **(شكل ٤)** مما يظهر بوضوح أثر الموقع في التخطيط، وتشتمل أسوار القصبة على أبراج أغلبها أبراج مربعة، تعلوها حجرات رماية، وتتوج السور والأبراج دراو أو شرفات علوية ذات نهايات مخروطية الشكل. ويقع المدخل الوحيد الحالى للقصبة بالقسم الجنوبي الشرقي منها **(شكل ٤)**، وهو عبارة عن ممر منكسر يفتح داخل برج مربع ويشبه إلى حد كبير باب قصور الحمراء المعروف بباب الشريعة أو باب العدل. ويتم الوصول الى هذا الباب من خلال طريق صاعد مدرج، ويتفرع من منتصف سور القصبة الشمالي السور المعروف بسور خيران، وكان يحدق بربض المدينة الشرقي، وهو مشيد بالطابية، وتتخلله مجموعة من الأبراج المربعة.

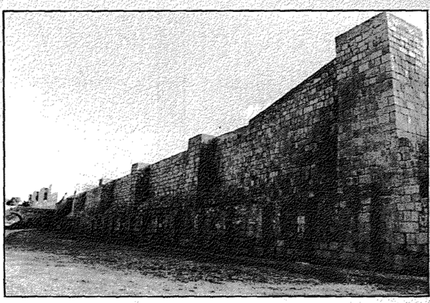
أسوار إشبيلية :

تقع مدينة إشبيلية (Sevilla) في القسم الغربي من جنوب الأندلس على نهر الوادي الكبير، وهي مدينة

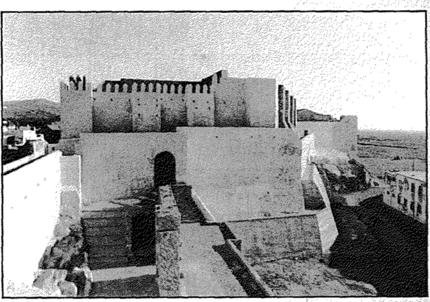
وقد شيدت أسوار إشبيلية ثلاث مرات في العصر الإسلامي، أما السور الأول فقد شيده عبد الله بن سنان بأمر الأمير عبد الرحمن (الأوسط) بن الحكم فيما بين سنتي ٢٣٠ و٢٣٤هـ، وذلك لتحصينها بعد غزوة النورمانديين على سواحل غرب الأندلس وإشبيلية سنة ٢٣٠هـ؛ إذ تمكنوا من الاستيلاء على المدينة بسهولة، وكانت المدينة في ذلك الوقت «عورة لا سور لها» على حد قول ابن سعيد[١٩]، إلا أن سعيد بن المنذر والى إشبيلية من قبل عبد الرحمن (الثالث) بن محمد هدم هذا السور سنة ٣٠١هـ بعد القضاء على ثورة بني حجاج للحيلولة دون استقلالهم أو غيرهم بالمدينة مرة أخرى[٢٠].

وأحيطت إشبيلية بسورها الثاني في عصر الفتنة التى واكبت سقوط الخلافة الأموية (٣٩٩ ـ ٤٢٢هـ) وكان هذا السور مشيدا بالطابية[٢١]، وكان الغرض من بنائه الدفاع عن المدينة في ذلك العصر الذي شهد العديد من الأحداث والتقلبات السياسية، ويتضح من خلال الأحداث التاريخية أنه قد انتهي من بناء هذا السور قبل سنة ٤١٤هـ/ ١٠٢٣م، وظل هذا السور قائما طوال عصر بني عباد وبداية عصر المرابطين، إلا أن بعضه قد تهدم نتيجة للتوسع والامتداد العمراني للمدينة، واندثرت معالمه بمرور الوقت[٢٢].

أما سور إشبيلية الثالث والأخير والذى لا تزال أجزاء منه باقية حتى الآن فقد شيد بأمر الأمير على بن يوسف المرابطي سنة ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م، ويرجع سبب بنائه إلى قيام الفونسو الأول الملقب بالمحارب ملك أراجون بحملة عسكرية من عاصمته سرقسطة في الشمال الشرقي (**شكل ١**) سنة ٥١٩هـ/ ١١٢٥م، واخترق وسط الأندلس وهدد مدنها وقواعدها حتى

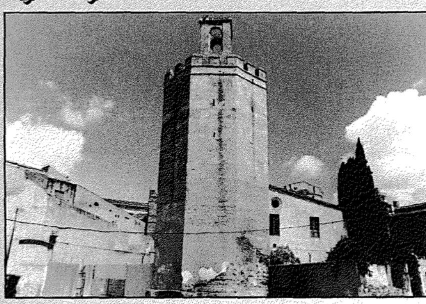


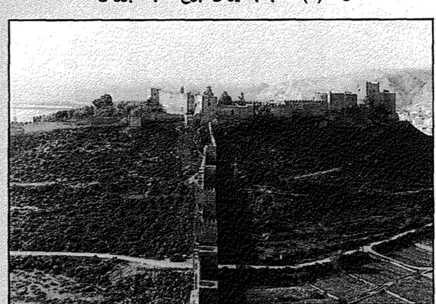
لوحة (١) قصبة ماردة، السور الغربي.



لوحة (٢) قلعة طريف. منظر عام من الجهة الجنوبية.

قديمة ذات أصول إيبيرية، افتتحها موسى بن نصير سنة ٩٣هـ[١٧]، واتخذها ابنه عبد العزيز كأول عاصمة للمسلمين في الأندلس، وعلى الرغم من قيام أيوب بن حبيب اللخمي ـ ثاني ولاة الأندلس ـ بنقل العاصمة إلى قرطبة سنة ٩٧هـ [١٨]، إلا أن إشبيلية لم تفقد مكانتها كمدينة، واستقبلت العديد من الهجرات العربية لا سيما من جند حمص فاشتهرت في التاريخ الإسلامي بحمص تشبيها لها بحمص الشام، وسكنتها أسرات عربية ذاع صيتها في مجال السياسة والعلوم منهم: بنو حجاج، وبنو خلدون، وبنو زهر، وبنو عباد.


لوحة (٣) قصبة بطليوس، برج اسبانتابروس.

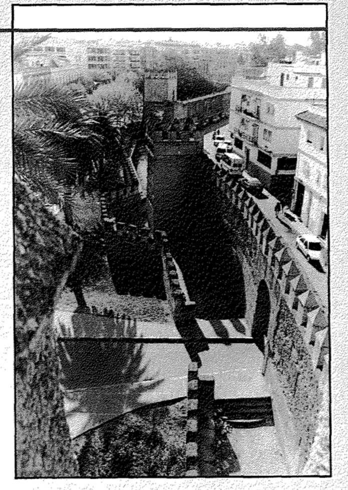

لوحة (٤) قصبة المرية، منظر عام من الجهة الجنوبية الشرقية للقصبة وسورخيران.

وصل جنوبا إلى مدينة بلش بالقرب من مالقة جنوب شرق الأندلس على ساحل البحر المتوسط، وعاد إلى سرقسطة سنة ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م[٢٣]. وكانت هذه الحملة السبب الرئيسي في العناية ببناء أسوار المدن الأندلسية الكبرى ومنها إشبيلية، وفرض الأمير علي بن يوسف على مدن الأندلس ضريبة تعرف بالتعتيب[٢٤] أو المعونة[٢٥] خصص دخلها لترميم الأسوار القديمة أو بناء أسوار جديدة، فشيدت أسوار غرناطة والمرية وقرطبة وإشبيلية.

وأحاط هذا السور بالمجموع العمراني لإشبيلية في ذلك الوقت، واتخذ شكلا بيضاوياً، وشيد بالطابية كمادة بناء رئيسية، فضلا عن الآجر الذي استخدم لبناء عقود وأقبية حجرات رماية الأبراج، وتعرضت إشبيلية سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٨م لسيل جارف تهدم على أثره سور المدينة الغربي الموازي لنهر الوادي الكبير، فأمر الخليفة أبو يعقوب يوسف الموحدي ببنائه[٢٦]، كما أمر سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م ببناء قصبتين[٢٧] متلاصقتين بالقسم الجنوبي من المدينة، وتتصل أسوارهما بسور المدينة، وذلك لضم مباني القصر داخل تحصينات المدينة.

وكان آخر أعمال الموحدين في أسوار إشبيلية ما قام به واليها أبو العلاء إدريس الكبير، حيث عمد إلى تدعيم تحصينات المدينة بعد أن اشتد خطر توسع الإسبان في الاستيلاء على مدن الأندلس بعد هزيمة الموحدين في موقعة العقاب سنة ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م، فشيد برج الذهب على ضفة نهر الوادي الكبير سنة ٦١٧هـ/ ١٢٢١م، ووصله بسور القصبتين بسور قصير (قورجة)، وقام في العام التالي بتجديد سور المدينة وتعليته وبناء الحرم أو الحزام البراني (البربكانة) وهو سور أمامي يتقدم السور الرئيسي وأقل منه ارتفاعا ويمتد موازيا له، كما حفر أمام الأسوار خندقا زيادة في تحصينها[٢٨].

وقد ظل سور إشبيلية الثالث باقيا بحالة شبه متكاملة حتى أواخر القرن ١٩م وبداية القرن ٢٠م، حيث بدأت تمتد إليه يد الهدم واعتبر حاجزا يحول دون الامتداد العمراني للمدينة في ذلك الوقت، فهدمت أجزاء كثيرة منه، ولم يتبق منه الآن سوى جزء السور المعروف بسور مقرانة، والسور المعروف بسور معهد الوادي، وبرج الذهب، فضلا عن أجزاء قليلة متناثرة



لوحة (٥) اشبيلية، سور مقرانه، منظر عام.

بين المباني والمنازل الحالية.

أما سور مقرانة (شكل ٥) فكان جزءا من السور الشمالي للمدينة، وهو أطول الأجزاء الباقية حتى الآن، وهو مشيد بالطابية، وتتخلل بناءه ثمانية أبراج، ويبدأ في الجنوب بباب مقرانة وهو باب حديث في عمارته، حل محل باب مقرانة الأصلي، وينتهي في الشرق بباب قرطبة الواقع ضمن مباني كنيسة (سان إير منخيلدو)، وهو مدخل منكسر كان الداخل فيه ينحرف يسارا في زاوية قائمة واحدة، أما الأبراج فهي أبراج مربعة تتكون من كتلة بنائية صماء حتى ارتفاع ممشى السور، وتعلو كل برج حجرة رماية تفتح بها مزاغل تشرف على خارج السور، ويتقدم السور الرئيسي سور أمامي أو بربكانة (لوحة ٥)، ويتوج السور الرئيسي والأمامي والأبراج صف من الشرافات العلوية ذات نهايات مخروطية الشكل.

ويقع برج الذهب على الضفة الشرقية لنهر الوادي الكبير، وهو أحد أبرز معالم مدينة إشبيلية الحالية، ويتكون من بدنين يعلوهما جوسق حديث، ويتكون البدن السفلي من شكل هندسي متعدد الأضلاع، يبلغ عدد أضلاعه اثنى عشر ضلعا تتراوح أطوالها ما بين ١٠ر٤م و٢٠ر٤م، وقطره ٢٠ر١٥م (**شكل ٦، لوحة ٦**)، وشيدت قاعدة البرج وزواياه بالحجر في حين شيدت جدرانه ما بين الزوايا بالطابية، ويدخل إلى البرج من خلال باب يفتح بالضلع الشمالي الشرقي، ويتكون هذا البدن السفلي من ثلاثة طوابق متكررة التخطيط (**شكل ٦**)، يتكون كل منها من ممر أوسط محصور بين أضلاع البرج الخارجية وكتلة بنائية وسطى سداسية الأضلاع، وتشتمل هذه الكتلة بداخلها على درج سلم صاعد، وينتهي هذا الدرج إلى سطح البدن الأول، أما البدن الثاني أو العلوي فأصغر حجما، ويتكون أيضا من شكل هندسي متعدد الأضلاع (اثنى عشر ضلعا) ويشتمل بداخله على درج سلم صاعد، ويخلو من حجرات الرماية، ويعلو هذا البدن جوسق علوى أضيف للبرج عند تجديده سنة ١٧٦٠م.

الهوامش :

(١) يرجع أصل لفظة «الأندلس» إلى اسم قبائل الوانداال (Vandalus) الجرمانية التي احتلت شبه الجزيرة الإيبيرية أوائل القرن الخامس الميلادي، وسميت باسمها (فاندلسيا Vandalusia) أي بلاد الوانداال، ثم نطقت بالعربية (الأندلس)، وهو الاسم الذي أطلقه المؤرخون والجغرافيون المسلمون على كل شبه الجزيرة الإيبيرية، ثم استعمل بعد ذلك للدلالة على المناطق التي سكنها وحكمها المسلمون فقط من شبه الجزيرة، والتى انحصرت في أواخر العصر الإسلامي في المنطقة الجنوبية منها. البكري: جغرافية الأندلس، ص ٥٩، د. عبد الرحمن على الحجي: التاريخ الأندلسي، ص ٣٧.

(٢) د. أسامة طلعت: العمارة الإسلامية في الأندلس، ص ص ٨ ـ ١١.

(٣) د. عبد الرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي، ص ٣٨.

(٤) Pavon Maldonado, B., Ciudades HispanoMusulmanas, PP.8-9.

(٥) د. السيد عبد العزيز سالم: في تاريخ وحضارة الإسلام، ص ص ٧٩ ـ ٨١.

(٦) مؤلف مجهول: أخبار مجموعة، ص ٦، الحميري: الروض المعطار، ص ١٢٧.

(٧) Levi Provencal, E; Inscriptions Arabes D Espagne, T. 1,P.47.

(٨) الحميري: الروض المعطار، ص ٤٦، د. السيد عبد العزيز سالم: في تاريخ وحضارة الإسلام، ص ١٠١.

(٩) Torres Balbas, L; Ars Hispaniae., 4, P.37.

(١٠) القورجة (Coracha) أو القوراجة هي عبارة عن سور قصير يتفرع من الأسوار الرئيسية ويتعامد عليها في أغلب الأحيان، وينتهي ببرج يعرف بالبرج البراني لأنه يقع خارج نطاق الأسوار الرئيسية، وتشيد القورجة عادة في أضعف مناطق السور لزيادة تحصينها.

Torres Balbas, L.; Las Torres Albarranas, PP. 216-220.

(١١) ابن صاحب الصلاة: تاريخ المن بالإمامة ص ٣٠٦.

(١٢) الطابية مادة بناء ذات أصول قديمة، وهي عبارة عن مونة أو ملاط مكون من خليط من الرمل أو التراب والحصى أو الزلط والجير والماء، ويصب هذا الخليط في موضع البناء بين ألواح خشبية مقدرة طولا وعرضا بالشكل المطلوب. لمزيد من التفاصيل أنظر: ابن حيان: المقتبس، ص ٩٦، البكري: جغرافية الأندلس ، ص ١١٤، ابن خلدون: المقدمة، جـ٣، ص ٩٣٤، أسامة طلعت: الاستحكامات الحربية، ص ص ١٠٥ ـ ١٠٨.

(١٣) د. سحر عبد العزيز سالم: مظاهر الحضارة، ص ٧٩.

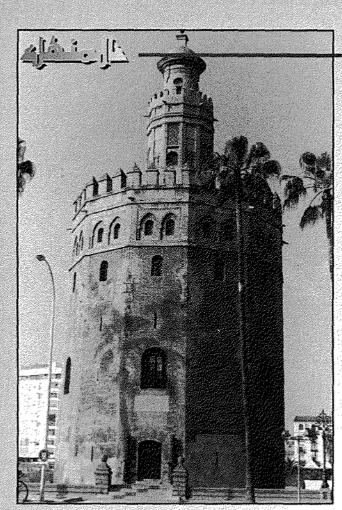
(١٤) الربض (وجمعه أرباض) في المصطلح المغربي والأندلسي هو الحي الواقع خارج أسوار المدينة، وعندما كان يزداد عمران الربض كان يحاط أيضا بسور يتصل في طرفيه بأسوار المدينة.

(١٥) هو الفتى خيران العامري الصقلبي من مماليك المنصور محمد بن أبي عامر فنسب إليه، استولى على المرية خلال الفتنة التي واكبت سقوط الخلافة الأموية في قرطبة، ودخلها سنة ٤٠٥هـ، وتوفي سنة ٤١٩هـ، العذري: ترصيع الأخبار، ص ٨٣.

(١٦) العذري: ترصيع الأخبار، ص٨٦.

(١٧) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٣٥.

(١٨) مؤلف مجهول: أخبار مجموعة، ص ص ٢٠ ـ ٢١.



لوحة (٦) اشبيلية برج الذهب.

(١٩) ابن سعيد: المغرب، جـ ١ ص ٤٩.

(٢٠) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ص ٧٨ ـ ٨١، البكري: جغرافية الأندلس، ص ١١٢، ابن حيان: المقتبس (شالميتا)، ص ٨٠.

(٢١) البكري: جغرافية الأندلس، ص ص ١١٤، الحميري: الروض المعطار، ص ٢١.

(٢٢) د. أسامة طلعت: العمارة الإسلامية في الأندلس، ص ص ٥٧ ـ ٥٨.

(٢٣) ابن القطان: نظم الجمان، ص ١٠٩، ابن الخطيب: الإحاطة، جـ ١، ص ص ١١٤ ـ ١٢٠.

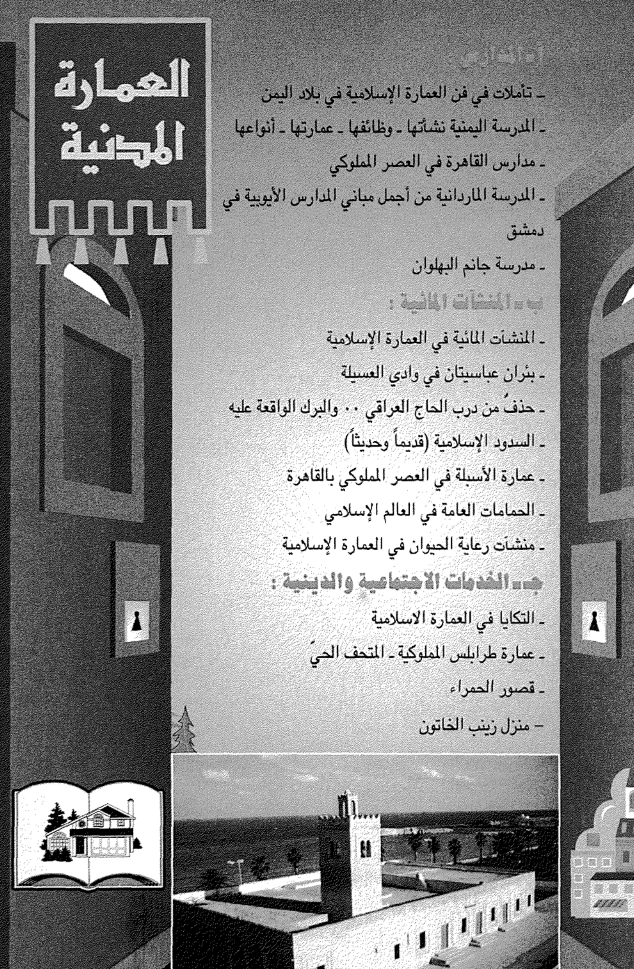
(٢٤) ابن عذاري: البيان المغرب، جـ٤، ص ٧٣.

(٢٥) ابن القطان: نظم الجمان، ص ١٩١ وحاشية (٢).

(٢٦) ابن صاحب الصلاة: تاريخ المن بالإمامة، ص ص ١٦٥ ـ ١٦٦.

(٢٧) ابن صاحب الصلاة: تاريخ المن بالإمامة، ص ص ١٦٦ ـ ١٦٧.

(٢٨) ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٧٣.



العمارة المدنية

أ - المدارس

- تأملات في فن العمارة الإسلامية في بلاد اليمن
- المدرسة اليمنية نشأتها - وظائفها - عمارتها - أنواعها
- مدارس القاهرة في العصر المملوكي
- المدرسة الماردانية من أجمل مباني المدارس الأيوبية في دمشق
- مدرسة جانم البهلوان

ب - المنشآت المائية :

- المنشآت المائية في العمارة الإسلامية
- بئران عباسيتان في وادي العسيلة
- حذفٌ من درب الحاج العراقي .. والبرك الواقعة عليه
- السدود الإسلامية (قديماً وحديثاً)
- عمارة الأسبلة في العصر المملوكي بالقاهرة
- الحمامات العامة في العالم الإسلامي
- منشآت رعاية الحيوان في العمارة الإسلامية

جـ - الخدمات الاجتماعية والدينية :

- التكايا في العمارة الاسلامية
- عمارة طرابلس المملوكية - المتحف الحيّ
- قصور الحمراء
- منزل زينب الخاتون

تأملات في فن العمارة الإسلامية في بلاد اليمن

شهدت بلاد اليمن حضارات عديدة متتالية منذ عصر ما قبل الإسلام، وكان أهلها في طليعة القبائل العربية التي شاركت في الفتوحات الإسلامية في البلاد المختلفة التي أظلها الإسلام بظله واختلطوا مع أهل هذه البلاد. إن العمائر اليمنية الدينية والمدنية والحربية وكذلك الفنون الإسلامية تشير تماما الى أهمية الإنسان اليمني في هذا المجال وإلى قدرته على الابتكار وفي مقاومة الطبيعة والتغلب على تضاريسها، حيث المدن اليمنية بكل ما يتوفر فيها من مقومات المدينة، تشهد للإنسان اليمني بأصالة الفن الإسلامي، الذي مازال باقيا الى اليوم في بلاد اليمن، والواقع ان بلاد اليمن تميزت بكثرة الدويلات وتعددها. وهو الأمر الذي انعكس على الطرز الفنية للعمارة والفنون بها الى حد كبير، ورغم تعدد هذه الآثار الإسلامية وتنوعها في اليمن، فإن ما كتب عنها قليل ولا يفي بالتعريف بحجم الآثار الإسلامية في اليمن.



بقلم:

أ. سادي ميري كاظم جاسم

المركز المهني العالي لإعداد المدربين - ليبيا - مصراته

العمارة الإسلامية في اليمن :

تنوعت المنشآت المعمارية وتعددت خلال العصور الإسلامية في اليمن، تبعا لأغراضها الدينية والمدنية والحربية، ومن المعروف أن العمائر الإسلامية تشمل أبنية عديدة تخدم أغراضا مختلفة، منها ما هو ديني كالجوامع والمساجد والمدارس والخوانق[١] والتكايا[٢] والمشاهد والأضرحة[٣] والأسبلة والكتاتيب[٤] والأربطة[٥] ومنها ما هو مدني كالقصور والمنازل والخانات[٦] والوكالات[٧] وقد تبقى في اليمن بعضها خاصة في مدينة صنعاء ويطلق عليها (السماسر) والبيمارستانات (المستشفيات)، والأسواق والقياصر والحمامات وغيرها من المنشآت ذات الأغراض المدنية.

المعمار القديم في احد مساجد اليمن

أما المنشآت الحربية والدفاعية، فقد تفوق في بنائها المعمار خلال العصر الإسلامي، وكان لليمن في هذا النوع من المنشآت إسهام واضح، فما تزال القلاع اليمنية باقية على قمم الجبال، وقد وهبتها طبيعة التضاريس في بلاد اليمن خاصية دفاعية قل أن توجد في بلاد إسلامية أخرى، ونظراً للارتفاع الشاهق في المرتفعات الجبلية فتميزت القلاع اليمنية بمناعتها وصلابتها ولها تأريخ مشهود في هذا الصدد.



المساجد اليمنية :

كانت بلاد اليمن في طليعة البلاد، التي شهدت إقامة المساجد الأولى في صدر الإسلام وخاصة في

عهد الرسول [صلى الله عليه وسلم] ووفق ما ورد في المصادر التاريخية عنها، وكما بنيت مساجد أخرى عديدة في فترة زمنية لاحقة في عهد الخلفاء الراشدين ثم خلال العصر الأموي والعباسي الأول، ثم تتابع بناء المساجد بكثرة خلال حكم الدويلات الإسلامية العديدة المختلفة في بلاد اليمن.

وقد احتفظ تخطيط المسجد أو الجامع في اليمن لفترة طويلة بالنظام المعماري المعروف والقائم على الصحن أو الفناء المحاط بأربعة أروقة أعمقها رواق القبلة، إلا أنه يلاحظ في كثير من مساجد اليمن حجب الأروقة عن الصحن في فترات متأخرة، بحيث يبدو الفناء وكأنه معزول عن مساحات الأروقة، وقد يرجع ذلك الى عوامل الطقس لحماية المصلين.

ولعل أهم ما يميز الجوامع والمساجد اليمنية وسيلة تغطيتها، وغالبا ما تكون من سقوف خشبية مسطحة، إلا أن هذه السقوف قد ازدانت بزخارف خشبية وفق أسلوب فني وصناعي، ظهر في اليمن مبكرا، حيث يعرف بالصندقات الخشبية، بمعنى تقسيم السقف إلى مساحات مستطيلة ومربعة من عدة مستويات، تمتلىء بالزخارف المحفورة البارزة والغائرة والملونة والمطعمة في أسلوب فني يمكن القول فيه بظهور أسلوب الحشوات المجمعة على هذه السقوف في اليمن قبل غيرها من البلاد الإسلامية الأخرى، والأمثلة على ذلك كثيرة تظهر في سقوف الجامع الكبير بصنعاء والجامع الكبير بشبام وجامع جبلة وجامع ذي أشرق والجامع الكبير في ذمار. ويعتقد بأن هذا الأسلوب الفني قد ظهر في اليمن خلال القرن الرابع الهجري، كذلك فإنه يوجد في بعض الأحيان أربع قباب في أركان المسجد، وإن كان هذا الأمر لا يتكرر كثيرا في المساجد اليمنية، ويعتقد بأن هذا الأسلوب في التغطية، يرجع الى فترة متأخرة وربما يكون من تأثيرات العمارة العثمانية على العمارة اليمنية المحلية.

صنعاء القديمة

وقد استخدم المعمار اليمني كل أنوا ع العقود المعروفة في العمارة الإسلامية وبتنوع كبير وإن كان يلاحظ إقباله بشكل واضح على استخدام العقد المدبب بكل أنواعه إضافة الى العقود المفصصة، وقد اختلفت أشكال الدعائم والأعمدة الى حد كبير داخل العمائر الدينية الإسلامية فبعضها يكون على شكل مستدير ذي محيط كبير كما في الجامع الكبير في صنعاء، وبعض

الأعمدة ذات ارتفاعات كبيرة وتحمل تيجاناً يرتكز عليها السقف مباشرة كما في جامع شبام، وبعض الأعمدة قصير يرتكز على قواعد، كذلك يكثر وجود الأعمدة والدعائم المثمنة الشكل فضلا عن أنواع الأعمدة والدعائم الأخرى ذات القطاع المربع والمستطيل.

ويمتاز المحراب[٨] اليمني في احتوائه على ثروة كتابية وزخرفية كبيرة وإن كان استخدام مواد الطلاء بالألوان البراقة، قد أتلفت الى حد كبير النصوص الكتابية والآيات القرآنية والعناصر الزخرفية النباتية والهندسية التي كانت تملأ المساجد من الخارج والداخل على حد سواء. وقد استخدم في البناء الأحجار المختلفة. وخاصة نوع الحجر المعروف حجر الحبش الأسود. كما استخدم الطابوق (الآجر) في البناء ايضا، إضافة الى مواد الجص والنورة والقضاض[٩].

على أن تخطيط المساجد اليمنية يتراوح بين المساحات المربعة والمستطيلة الشكل وتمتاز واجهاتها ببساطتها المعمارية والزخرفية، وينفرد الجامع الكبير بصنعاء بوجود بعض زخارف من أشكال الطيور على بعض جدرانه الخارجية. أما المئذنة أو المنارة كما يطلق عليها في اليمن، من العناصر المعمارية الأساسية في عمارة المساجد اليمنية، ولعل السبب في ذلك زخرفتها بالزخارف البديعة من مادتي الطابوق (الآجر) والجص في أشكال يغلب عليها الطابع الهندسي، بالإضافة الى الكتابات والزخارف النباتية والمئذنة تتكون عادة من عدة طوابق، وتكون مرتفعة ويقوم عليها عدة دورات أو طوابق مستديرة أو مثمنة الشكل ومزخرفة بعناية تامة، ويعلو هذه الأبدان أحواض (شرفات) متسعة،، مزدانة بأشكال المقرنصات والدلايات ويتوجها من أعلى شكل مقبب قد يختلف من مئذنة إلى أخرى، ولعل مآذن (زبيد) في مساجدها ومدارسها تتسم ببعض الخصائص المميزة عن المآذن اليمنية عامة، خاصة في تدرج قمتها، على أننا لا نجد ضمن مساجد اليمن ومدارسها نماذج كثيرة للعنصر المعروف بدكة المبلّغ[١٠] باستثناء أمثلة قليلة جدا، وترجع الى فترات متأخرة، كما أن مصطلح المقصورة[١١] يطلق في كثير من الأحيان في اليمن على بعض الزيادات داخل المسجد، والتي أضيفت في فترات تالية. هذا وتشغل المطاهير والحمامات والبرك (الميضأة)[١٢] أهمية معمارية خاصة في المساجد اليمنية وتختلف عن المياضيء في معظم البلاد الإسلامية، خاصة المطاهير والحمامات القديمة.

ومن أشهر المساجد الإسلامية في بلاد اليمن :

- **الجامع الكبير بصنعاء**: أقدم المساجد في اليمن، شيد في حياة رسول الله {صلى الله عليه وسلم}، وقيل إن مؤسسه هو (فروة بن مسك المرادي) بعد العام السادس للهجرة.

- **جامع الجند بالقرب من مدينة تعز**: بني في صدر الإسلام، وذكرت بعض المصادر التاريخية، إن (معاذ بن جبل) هو الذي أمر ببناء هذا الجامع، وفي عهد رسول الله {صلى الله عليه وسلم} بعد العام السادس للهجرة.

- **الجامع الكبير بمدينة شبام كوكبان**: يرتبط بالدولة اليعفرية (٢٢٥ ـ ٣٩٣هـ) التي اتخذت مدينة شبام عاصمة لها، ويعتقد بأنه بني قبل عام (٣٠٠هـ) ولعل من بناه الأمير (أسعد بن يعفر).



قلعة الضاحي – الحديدة

ـ **الجامع الكبير بزبيد**: يرجع تأريخ بنائه إلى ما قبل القرن الثالث الهجري، وربما الى زمن (أبي موسى الأشعري)، وقد أخذ أهميته كمسجد جامع في مدينة زبيد (مدينة العلم والعلماء وهي من أمهات المدن اليمنية) في عصر الدولة الزيادية.

ـ **جامع الأشاعر بزبيد**: يرجع بناؤه الى ما قبل اختطاط مدينة زبيد عام (٢٠٤هـ)، وتذكر بعض المصادر إنه تأسس عام (٨هـ) على يد قبيلة الأشاعرة، ومنهم أبو موسي الأشعري.

ـ **الجامع الكبير بذمار**: يروى بأنه بني بعد الجامع الكبير بصنعاء بأربعين يوما وقبل بناء جامع الجند، وقيل في أيام الخليفة (أبي بكر الصديق) رضي الله عنه.

ـ **الجامع الكبير في مدينة إب**: يقع وسط المدينة على ربوة عالية، ويرجع تأسيسه الى عهد الخليفة (عمر بن الخطاب) رضي الله عنه.

ـ **مسجد جبلة**: تنسب عمارة هذا المسجد الى السيدة (أروى) بنت أحمد الصليحي التي حكمت في زمن الدولة الصليحية في اليمن في الفترة (٤٩٢ ـ ٥٣٢هـ). وقد أمرت ببنائه عام (٤٨٠هـ) عندما حولت دار العز الأولى وهي قصر كبير الى هذا المسجد.

ـ **مسجد ذي أشرق**: ويعود تأريخه الى عهد الخليفة الأموي (عمر بن عبد العزيز)، ويقع في بلدة (ذي أشرق) القريبة من (إب).

ـ **الجامع الكبير بثلا**: يصعب تحديد تأريخ البناء الأول لهذا الجامع، ويعتقد بأنه يعود الى فترة مبكرة من بداية العصر الإسلامي.

ـ **جامع المدرسة بثلا**: أنشأه المتوكل على الله يحي شرف الدين بن شمس الدين بن المهدي أحمد (٨٧٧ ـ ٩٦٥هـ) الذي ينتهي نسبه الى الإمام الهادي بن يحي بن الحسين.

ـ **قبة الإمام الهادي بثلا**: شيدها الإمام محمد بن

الهادي بن يحي بن حمزة عام (٨٤٩هـ) وتضم قبره.

- **مسجد صلاح الدين بصنعاء**: يقع في الجهة الشرقية من مدينة صنعاء وعمّره الإمام صلاح الدين محمد بن الإمام المهدي المتوفي عام (٧٩٣هـ) ودفن بجوار مسجده هذا.

المدارس الدينية اليمنية :

انتشر في بلاد اليمن التخطيط المعماري للمدرسة كمنشأة دينية بجانب الجامع، والمدرسة كتخطيط معماري، لها وظيفتها الخاصة، بتعليم الطلبة المذاهب الإسلامية أو بعضها، فضلا عن العلوم الدينية الأخرى، ومن المعروف ان التخطيط المعماري للمدرسة يختلف تماما عن التخطيط المعماري للمسجد أو الجامع، فالمدرسة تعتمد على الإيوان[١٣] والمسجد يعتمد على الرواق، فضلا عما تتطلبه المدرسة كوحدة معمارية للدراسة والتعليم من مساكن للطلبة والأساتذة.

ويتضح من العدد الهائل الذي أحصاه القاضي إسماعيل الأكوع في مؤلفه عن المدارس الدينية اليمنية، أهمية طبيعة هذا البناء في فترات متلاحقة من تأريخ اليمن، وقد اشتهرت مدينة (زبيد) بوجود عدد كبير للغاية من المدارس الدينية، بالإضافة إلى مدن (تعز) و(رداع) و(صنعاء) وغيرها.

أما عن نشأة هذه المدارس في اليمن، فإنها تعود كما يذكر القاضي إسماعيل الأكوع الى أواخر حكم الدولة الأيوبية في اليمن (٥٦٩ - ٦٢٦هـ) حين شرع الملك المعز اسماعيل بن طغتيكين بن أيوب في بناء أول مدرسة له بزبيد عام (٥٩٤هـ) وسماها بالمدرسة المعزية (مدرسة الميلين)، وقد أعقب ذلك حدوث انتشار سريع لنظام المدارس في اليمن خاصة في عصر الدولة الرسولية (٦٢٦ - ٨٥٨هـ).

أما من حيث التخطيط العام للمدرسة اليمنية فيبدو فيه من أول وهلة اختلافه الى حد كبير عن غيره من المدارس الإسلامية الكثيرة في أرجاء العالم الإسلامي، خاصة وانها تستخدم في معظم الأحيان في تدريس مذهب واحد من مذاهب السنة، وهو الأمر الذي انعكس على تخطيطها المعماري على شكل فناء أو وسط مكشوف، في الناحية الشمالية منه المصلّى (البنية) وفي الناحية الجنوبية إيوان مفتوح على الفناء، ويوجد في المدرسة اليمنية عادة مئذنة، وإن كان هناك بعض المدارس لا تحتوي على مآذن، بالإضافة الى مساكن الطلبة والمطاهير والحمامات وبرك المياه، هذا وقد تميزت المدارس اليمنية الكثيرة والكبيرة التي أنشأها السلاطين والملوك والأمراء وكبار رجال الحكم والأثرياء وبعض السيدات، بعظمة وفخامة البناء وتعدد الطوابق في بعض الأحيان، وتختلف وسيلة التغطية في المدرسة اليمنية، فتارة يغطى المصلّى بقبة واحدة، وتارة يغطى بقبة كبيرة تحيطها قباب أقل حجما، ونوع ثالث تغطي فيه المصلّى مجموعة من القباب المتجاورة والمتساوية تقريبا في أحجامها، ونوع رابع يغطي فيه المصلّى سقف خشبي مسطح، ومن أبرز المدارس الإسلامية في بلاد اليمن:

١ - **المدرسة العامرية برداع**: أنشأها السلطان (عامر بن عبد الوهاب) أعظم سلاطين الدولة الطاهرية عام (٩١٠هـ) وأشرف علي بنائها وزيره الأمير (علي بن محمد البعداني).

٢ - **المدرسة الأشرفية بتعز**: بناها السلطان الملك الأشرف (إسماعيل بن الملك الأفضل المجاهد) عام (٨٠٠هـ) في زمن الدولة الرسولية، وهي متعددة الأغراض، فقد جمعت بين وظيفة المسجد والمدرسة والخانقاه والمعلامة والأضرحة وغير ذلك.

٣ - **المدرسة المظفرية بتعز**: تنسب عمارتها إلى السلطان الملك المظفر بن عمر بن علي بن رسول

المتوفي عام (٩٦٥هـ) وقد سقطت مئذنتها عام ١٩٦٢ واستعيض عنها بمئذنة حديثة.

٤ ـ **المدرسة المعتبية بتعز:** تنسب عمارة هذه المدرسة إلى الجهة الكريمة جهة الطواشي الأجل جمال الدين معتب بن عبد ا لله الأشرف المتوفي عام (٧٩٦هـ).

٥ ـ **المدرسة الجبرتية بزبيد:** بناها الشيخ اسماعيل بن عبد الصمد الجبرتي (٧٢٢ ـ ٨٠٦هـ).

٦ ـ **المدرسة الفرحانية بزبيد:** وتعرف هذه المدرسة بمدرسة (أم السلطان) بزبيد ويعزى بناؤها الى السيدة الحرة جهة الطواشي جمال الدين فرحان زوجة السلطان الملك الأشرف اسماعيل بن الفضل، من سلاطين الدولة الرسولية المتوفية عام (٨٣٦هـ).

٧ ـ **المدرسة الكمالية بزبيد:** تنسب عمارة هذه المدرسة إلى الأمير كمال بك الذي تولى أمور مدينة زبيد عام ٩٢٧هـ.

٨ ـ **المدرسة السكندرية بزبيد:** يعزى بناؤها الى الوالي العثماني باليمن اسكندر موز المتوفي عام (٩٤٣هـ)، وتحوي مئذنة عالية، تشبه في شكلها العام أنماط المآذن في العمارة العثمانية.

٩ ـ **المدرسة البكيرية بصنعاء:** شيدها الوزير العثماني حسن باشا عام (١٠٠٥هـ).

القلاع والاستحكامات الحربية اليمنية :

ما تزال القلاع اليمنية القديمة باقية لحد الآن، رغم أن تاريخ بعض هذه القلاع يعود إلى عصر ما قبل الاسلام، وأعيد استخدامها في العصر الاسلامي، والقلاع اليمنية كثيرة ومنتشرة في أعلى قمم الجبال في اليمن، نذكر منها قلعة مدينة (ثلا) وقلعة القاهرة في مدينة (تعز) وقلعة مدينة (ردا ع) وقلعة (ظفارذبين) وغيرها من العديد من القلاع اليمنية، والواقع أنه يتوافر فيها العناصر المعمارية لبناء القلعة من حيث الأسوار وأحيانا تتكون من عدة طبقات ويتقدمها خندق، وتتوافر فيها من الداخل الأبراج وفتحات السهام وصهاريج المياه، وحجرات للإقامة والتخزين، وبئر أو آبار وطواحين ومعاصر ومسجد صغير أو مكان للصلاة، وغير ذلك من العناصر الواجب توافرها في بناء القلاع، كما يلاحظ وجود أبراج تسمح بالمراقبة على مسافات معينة من القلعة ومازال بعضها يمكن رؤيته بكامل تفاصيله المعمارية الأساسية، كما بالنسبة إلى قلعتي (ثلا) و(ردا ع).

الهوامش :

(١) الخانقاه: كلمة فارسية مركبة أصلها (خانكاه) بمعنى دار للتعبد، خاصة برجال الصوفية، وهي تشبه النظام المعماري المعروف لتخطيط المدرسة، إلا في ما عدا وجود الخلوات في جناح منفصل، وقد شهد القرن الخامس الهجري (١١م) فترة تأسيس الخوانق وتنظيمها. انظر صالح لمعي مصطفي، ص ٢١ ـ ٢٣.

(٢) التكايا: نوع من المباني المعمارية أنشئت كبديل للنظام المعماري للخانقاه، فهي عبارة عن فناء مكشوف محاط من الجهات الأربع بدهاليز تفتح على الفناء بعقود تحملها أعمدة، ويغطي هذه الدهاليز قباب صغيرة، وينتظم حول الدهاليز غرف لإقامة الدراويش بها مسجد صغير وسبيل. انظر صالح لمعي مصطفي: ص ٢٣ ـ ٢٥.

(٣) القباب أو الأضرحة من المباني الدينية الإسلامية، ومن المعروف أن قبة الصيلبية، هي أول مدفن عليه قبة وهي خاصة بالخليفة العباسي المنتصر بالله المتوفّى عام ٢٤٥هـ. انظر لمعي مصطفى ص ٢٥ ـ ٢٩.

(٤) الأسبلة: مفردها سبيل، وغالبا ما كان يلحق

السبيل بالمسجد والمدرسة والخانقاه. انظر صالح لمعي مصطفى: ص ٢٧ ـ ٢٩.

(٥) الأربطة: نوع من المباني في العمارة الإسلامية كان يسكنه المجاهدون في الإسلام. انظر حسن الباشا: ص ١٦٩ ـ ١٧٣.

(٦) الخان: كلمة فارسية، أطلقت على أماكن الاستراحات أو الإقامة على طريق المواصلات بين المدن وعلى مبان تجارية وأخيرا يطلق الخان على الفندق، وقد ازدهرت من الناحية المعمارية خلال القرن السابع الهجري (١٣م) في ايران وسوريا والأناضول. ويتكون مبنى الخان من حجرات لإقامة المسافرين ومصلى وفي بعض الأحيان حمام بالإضافة إلى وجود إسطبل للحيوانات. أنظر صالح لمعي مصطفي: ص ٥٦ ـ ٥٧.

(٧) الوكالات: هي أبنية مخصصة لإقامة التجار القادمين من البلاد المجاورة، حيث كانوا يقيمون في الطوابق العليا، وتوضع بضائعهم في مخازن بالطابق الأرضي، غالبا ما يتكون مبنى الوكالة من عدة طوابق، تفتح حجراتها على فناء مكشوف ويشتمل الطابق الأرضي على حوانيت مطلة على الشارع. انظر صالح لمعي مصطفى: ص ٥٩ ـ ٦٠.

(٨) المحراب: تجويف يحدد اتجاه القبلة ناحية الكعبة، وفقا للموقع الجغرافي لكل بلد من بلاد العالم الإسلامي.

(٩) القضاض: مادة لاصقة ورابطة شبيهة بمادة الأسمنت.

(١٠) دكة المبلغ: تستخدم لجلوس المبلغين الذين يقومون بترديد بعض جمل الإمام أثناء الصلاة لتسميعها بصوت مرتفع إلى الصفوف الخلفية.

(١١) المقصورة: في الأصل سياج على المحراب، حاليا عبارة عن ستائر مفتوحة من المشربيات من مادة الخشب.

(١٢) الميضأة: بركة داخل مساحة المسجد أو المدرسة أو الخانقاه، وفي منسوب منخفض عن منسوب أرض المسجد.

(١٣) الإيوان: مساحة مستطيلة الشكل من ثلاثة جوانب ومفتوحة في جانب واحد بعقد كبير أو عدة عقود.

المراجع العربية:

ـ د. مصطفى عبد الله شيحه «مدخل الى العمارة والفنون الإسلامية في الجمهورية اليمنية»، منشورات وكالة Screen للدعاية والتجهيز الفني ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ١٩٨٧.

ـ حسن الباشا «مدخل الى الآثار الإسلامية» القاهرة ١٩٧٩.

ـ صالح لمعي مصطفى «التراث المعماري الإسلامي في مصر»، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٤.

ـ توفيق أحمد عبد الجواد «تأريخ العمارة» الجزء الثاني، القاهرة ١٩٧٠.

ـ بربارة فنستر «تقارير أثرية في اليمن»، ترجمة عبد الفتاح البركاوي، المعهد الألماني للآثار بصنعاء، الجزء الأول ١٩٨٢.

ـ اسماعيل الأكوع «كتاب الآثار الإسلامية في الوطن العربي»، تونس ١٩٨٥، ص (٣٨٩ ـ ٣٩٣).

ـ اسماعيل الأكوع «المدارس الاسلامية في اليمن» منشورات جامعة صنعاء رقم(١) دار الفكر ، دمشق ١٩٨٠.

المراجع الأجنبية:

–Finister, B, (Die Freitags Moschee Von Shibam - Kaukaban), ABB2.

المدرسة اليمنية

نشأتها وظائفها عمارتها أنواعها

اهتمت مساجد اليمن عامة بالجانب الديني والتعليمي منذ دخول الإسلام إليها ومن ذلك الجامع الكبير بصنعاء وجامع الأشاعر بزبيد وجامع الجند بتعز مثلها في ذلك مثل المساجد الأخرى في العالم الإسلامي سواء في المدينة المنورة أو مكة المكرمة أو في أمصار وعواصم أقاليم العالم الإسلامي كالشام والعراق ومصر ومشرق العالم الإسلامي ومغربه، وتلا ذلك إنشاء أماكن تحفيظ القرآن الكريم للأطفال والتي تعرف باسم الكتاتيب أو المعلامات، وكانت تبنى ملحقة بالمساجد والجوامع أو منفصلة عنها وذلك حفاظاً على نظافة المساجد وطهارتها.

أولا : نشأة المدرسة اليمنية وأسبابها :

المدارس: جمع مدرسة، وهي مكان الدرس والتعليم، والمدْرَاس والمدْرَس الموضع الذي يُدْرس فيه، وهي مشتقة من دَرَسَ الكتاب يدْرُسه درساً ودراسة أي قرأة[١].

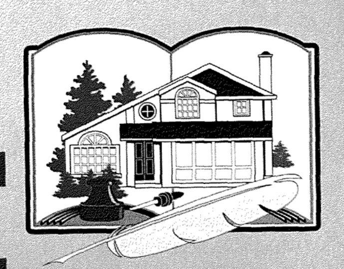
والمقصود بالمدارس الأماكن التي بنيت لغرض نشر نوع من المعرفة بإشراف جهة معينة تقوم بإنفاق المال عليها من ريع الأوقاف الموقوفة عليها، وتقوم باختيار وتعيين المدرسين والطلاب المرتبين فيها[٢].

وكان لتقدم الزمن وزيادة عدد السكان وإقبال الناس بأعداد كبيرة على التعليم، فضلا عن انتشار المذاهب الدينية والفكرية في اليمن، دور كبير في ظهور فكرة إنشاء مبان تعليمية متخصصة في محاولة من

بقلم :

د. عبدالله عبدالسلام الحداد

كلية الآداب - جامعة صنعاء - اليمن



أتباع كل مذهب إلى نشر مذهبهم والقضاء - أو على الأقل - تحجيم المذاهب الأخرى، وبذلك ظهرت المدارس كمنشآت تعليمية متخصصة في اليمن وتواكب ظهورها مع نشأة المدارس في بقية أقطار العالم الإسلامي الأخرى[٣]، بالإضافة إلى ظهور الخانقاوات[٤] كمنشآت للتربية الصوفية، وكذلك هجر العلم[٥] كمنشآت أو مراكز تعليمية خاصة بأصحاب المذهب الزيدي، وهذا يفسر لنا سبب انتشار المذاهب السنية في المناطق الوسطى والشرقية والغربية والجنوبية من اليمن في حين تركز المذهب الزيدي في المنطقة الشمالية منها.

أ. نشأة المدرسة اليمنية :

أجمع مؤرخو اليمن القدماء مثل الخزرجي وابن الديبع وكذلك المعاصرون مثل القاضي إسماعيل الأكوع والدكتور مصطفى شيحة والدكتور محمد سيف النصر أبو الفتوح، والباحث عبد الله الراشد، والباحث فاروق حيدر، على أن نشأة المدارس في اليمن ترجع إلى فترة الحكم الأيوبي لها فيما بين سنة ٥٦٩ - ٦٢٦هـ/ ١١٧٣ - ١٢٢٩م، حيث يذكرون أن المعز اسماعيل بن طغتكين هو أول من قام ببناء المدارس في اليمن[٦].

ولكن من خلال الاطلاع على المصادر والمراجع التاريخية أمكن العثور على العديد من الإشارات التي تدل على وجود المدرسة في اليمن قبل العصر الأيوبي، فقد ذكر ابن سمرة الجعدي في كتابه «طبقات فقهاء اليمن» لفظ المدرسة، ما يزيد على خمس عشرة مرة[٧]، ومن أمثلة ذلك ما ذكره عند ترجمة الإمام القاسم بن محمد بن عبد الله الجمحي المتوفى سنة ٤٣٧هـ بقوله: «وكانت مدرسته في سهفنة»[٨]، وفضلا عن ذلك، فقد ذكر المؤرخ عمارة اليمني أنه كان يدرس في مدرسة زبيد، وذكر أيضا أن الوزير النجاحي أبا منصور منّ الله الفاتكي ٥١٧ - ٥٢٤هـ/ ١١٢٣ - ١١٣٠م تصدق على مدارس الفقهاء الحنفية والشافعية بمدينة زبيد[٩].

ونستدل مما سبق على وجود المدارس المخصصة للمذهبين الحنفي والشافعي منذ عهد هذا الوزير إن لم يكن قبل ذلك، كما أن القاضي اسماعيل الأكوع - وهو أول من ذكر من المؤرخين المعاصرين أن المدارس في اليمن نشأت في عصر الدولة الأيوبية - أورد لنا في كتابه «المدارس اليمنية» ثلاث مدارس تعود إلى ما قبل العصر الأيوبي وهي: مدرسة ابن أبي النهى في مخلاف الشوافي، ومدرسة ابن أبي الأمان في مدينة جبلة، ومدرسة الساتي في قرية الساتي[١٠].

ومن خلال النصوص السابقة يمكن القول إن المدارس في اليمن وجدت منذ القرن الخامس الهجري أي منذ ما قبل العصر الأيوبي في اليمن، سواء أكانت المدارس المذكورة ملحقة بالمساجد أو بمنازل العلماء أو مستقلة عن أي مبنى، هذا من الناحية التاريخية أما من الناحية الأثرية فإن عدم وجود بقايا لمدارس ما قبل العصر الأيوبي في اليمن جعل من افتراض وجودها قبل هذا العصر مشكلة بدون حل حتى ظهور دراسات جديدة أكثر تمحيصا وتدقيقاً تعتمد على شواهد أثرية يمكن استخراجها من باطن الأرض عن طريق الحفريات الأثرية لمواقع المدارس المذكورة، لأن الاعتماد على النصوص التاريخية فقط فيه شيء من عدم المصداقية لأنها مستنبطة من المصادر التاريخية وهي نفسها التي ذكرت أن المدرسة ظهرت في العصر



الأيوبي وفي الوقت نفسه ذكرت أسماء مدارس وتنسبها لعلماء عاشوا قبل العصر الأيوبي.

ب. أسباب نشأة المدرسة :

كان الغرض من إنشاء المدارس في اليمن تحقيق أهداف عدة تتمثل في:

- **هدف ديني**: تعليم الناس مبادىء الإسلام وتعاليمه وآدابه.

- **هدف مذهبي**: نشر المذاهب السنية بهدف القضاء على المذهب الإسماعيلي وإيقاف انتشار المذهب الزيدي حتى لا يمتد إلى المناطق الخاضعة للدول السنية، والعكس أيضاً بالنسبة لإنشاء المدارس الزيدية المذهب[١١].

- **هدف سياسي**: اكتساب قلوب عامة الناس[١٢].

- هدف إداري: تخريج الموظفين لإدارة شؤون الدولة من العلماء والفقهاء العالمين بأمور الحلال والحرام، بغية الفصل بين الناس طبقاً لأحكام الشريعة الإسلامية، والتصدي للأحكام الشرعية وضبط أمور البلاد[١٣].

- **هدف تعليمي**: إعداد المدرِّسين للتدريس في المدارس والكتاتيب والخانقاوات والأربطة والزوايا[١٤].

ثانياً: وظائف المدرسة :

كان منشئو المدارس يحرصون على ترتيب أوضاع المدرسة وتحديد العاملين والعلوم التي تدّرس بها وكذلك طرق التدريس وأجور العاملين بالمدرسة من موظفين ومدرسين وطلاب على النحو التالي:

الهيئة الدينية :

مهمتها القيام بأمور الدين من وعظ وإرشاد وخطبة وصلاة وفتوى ويقوم بها كل من:

١ - **الإمام**: مهمته الصلاة بالناس الصلوات الخمس المفروضة في أوقاتها، وكذلك صلاة التراويح وصلاتي الخسوف والكسوف، ويشترط فيه أن يكون حافظاً للقرآن عن ظهر قلب غيباً، وأن يكون جيد التلاوة حسن الصوت، حسن الديانة، ظاهر العدالة، عارفاً بفروض الوضوء والصلاة وسننهما، وطهارة البدن والثوب، وجميع ما يتعلق بالصلاة، وكان بعض الواقفين يشترطون أن يكون الإمام من أسرة الواقف[١٥].

٢ - **المؤذن**: مهمته المداومة على الأذان والإقامة في كل صلاة من الصلوات الخمس المفروضة، وأن يقوم مع الإمام في الصلاة المفروضة والمسنونة كالتراويح والرغائب وليلة النصف من شعبان وصلاتي الكسوف والخسوف، ويشترط في المؤذن: أن يكون جيداً صيتاً حسن الصوت، أميناً بالأوقاف، وكان بعض الواقفين يشترطون أن يكون المؤذن من أسرتهم، واحتوت بعض المدارس على أكثر من مؤذن حسب عدد المآذن، وحسب حجم المدرسة[١٦].

٣ - **قارىء القرآن**: احتوت بعض المدارس على قارىء للقرآن أو اكثر يقوم بالقراءة وإهداء ثواب القراءة للواقف حيا كان أو ميتاً، ولضمان استمرار القراءة كان بعض الواقفين يشترطون أن يكون القارىء من أولادهم أو من أسرهم[١٧].

٤ - **شيخ الخانقاة**: ويعرف أيضاً باسم شيخ الشيوخ ومهمته الإشراف على الصوفية الذين رتبهم الواقف للإقامة في المدرسة، كما يقوم بجميع الأعمال المتعلقة بالخانقاة كإطعام الطعام للصادر والوارد وخدمتهم، وأخذ العهد على السالكين وأتباعه، ويشترط في شيخ الخانقاة الاستقامة على الطريقة من التسلك والتبتل والانقطاع لله[١٨].

الهيئة الإدارية :

مهمتها القيام بجميع أمور المدرسة الإدارية

والخدمية، وكان يشترط فيهم المواظبة على العمل ومباشرته بأنفسهم ولا يستنيبوا أحداً إلا لعذر، ومن يخالف ذلك يتولى الحاكم معاقبته[١٩]، وتتكون هذه الهيئة من:

١ - **الناظر**: مهمته الإشراف على أوقاف المدرسة ومباشرتها تعميراً وتأجيراً، وقبض غلالها وصرفها على المرتبين في المدرسة، فضلا عن الوظائف الأخرى التي تحددها وثائق الوقف، ومنها مراقبة العاملين في المدرسة. وكان يشترط في الناظر أن يكون أمينا مستقيما صالحاً لأداء الوظيفة، وقد احتوت بعض المدارس على ناظر آخر مهمته الإشراف على الدراسة والتدريس في المدرسة، وكان أيضاً بعض المنشئين يشترطون أن يكون الناظر هو المنشيء نفسه ثم ذريته من بعده[٢٠].

٢ - **نائب الناظر**: يطلق عليه في الوقفيات اسم «نائب كاف أمين»، ومهمته هي نفس مهمة الناظر حيث يقوم بمباشرة الأراضي الموقوفة، وتأجيرها بأجرة مثلها، وتحصيل غلالها، ويسوق حواصلها، ويعمر الأراضي، والمدرسة وأماكنها عند الحاجة إلى ذلك، ثم يصرف ما تبقى في عمارة المنشأة جميعها، وحقوقها ومرافقها، وطرقاتها، وسواقيها من إصلاح مكسر، وإقامة متهدم، ثم في الإنارة التامة للمنشأة، وقد يكون القيم هو نفسه نائب الناظر[٢١].

٣ - **حافظ الكتب**: احتوت بعض المدارس على موظف مسئول عن المكتبة يتولى حفظ الكتب والمصاحف وصيانتها وتجليدها، يعرف باسم حافظ الكتب أو خازن الكتب، وقد يكون هذا الموظف مستقلا وأحياناً يكون أحد المرتبين كمدرس الحديث مثلا، ومهمة هذا الموظف الحفاظ على الكتب الموقوفة لا يمنعها مستحقها، ولا يعطيها غير مستحقها، فإذا طلب الطالب كتاباً أعاره، وقدر له مدة ثم يطلبه منه عند انقضاء المدة، ويتفقدها من الآفات التي تتعرض لها الكتب كالعث والأرضة ونزول الماء[٢٢].

٤ - **القيِّم**: يتولى نظافة المدرسة، والعناية بأمرها، وحفظ متعلقاتها من المصاحف، والفرش، والقناديل، والسليط والبسط والحصر، وأواني السقاية، وكذلك يتولى تنظيف بركة وساقية الماء والمطاهير من الطحالب والأتربة، فضلا عن إشعال السُرج والشماع ليلا داخل المدرسة وخارجها، وقد احتوت بعض المدارس على أكثر من قيِّم حسب حجم المدرسة، وكانت بعض الوثائق تطلق على القيم اسم السَّرّاج[٢٣].

٥ - **النازح**: يطلق عليه أحياناً اسم ساق، مهمته جلب الماء إلى المدرسة من بئرها الخاصة بها أو من آبار وعيون المدينة أو القرية التي توجد بها المدرسة[٢٤].

الهيئة التعليمية: وتتكون من المدرسين والمعيدين والطلاب:

١ - المدرسون:

كان المدرسون يختارون من المختصين في العلوم الدينية واللغوية وعلوم الحساب والفلك والمنطق والطب وغيرها من العلوم، وكان يطلق على كل مدرس صفة العلم الذي يدرسه على النحو التالي:

- **مدرس القرآن (مقرىء)**: يطلق عليه أحياناً اسم معلم، يتولى تدريس القرآن ترتيلا وتجويداً بالقراءات السبع، ويشترط فيه أن يكون محققا لأنواع علوم القراءات متقناً لها علماً ونطقاً، وأن يكون على دراية تامة بالنحو واللغة، وكانت بعض المدارس تضم أكثر من مدرس، كما كانت بعض المدارس تشترط أن يكون المدرس من أسرة المنشيء وذلك لضمان استمرار الإقراء في المدرسة[٢٥].

- **مدرس الفقه (فقيه)**: يقوم بتدريس الفقه فروعاً وأصولا على أحد المذاهب الفقهية حسب ما يحدده الواقف، وكان مدرس الفقه في المدارس الصغرى يتولى أيضاً تدريس الحديث النبوي والتفسير والفرائض والوعظ والرقائق والنحو واللغة، يقرأ عليه الطلبة سماعاً واستماعاً[٢٦].

- **مدرس الحديث (محدث):** كان يلقب بالشيخ، ومهمته كما جاء في وقفيات المدارس: تدريس الحديث النبوي وتفسيره بحيث يأخذه عنه الطلبة سماعا واستماعاً، وكان يقوم أيضاً بالوعظ والإرشاد، ويشترط فيه أن يكون بيِّناً ثابت الرواية، صحيح السند، عارفاً بالأسانيد وأسماء الرواة، وعارفاً بالإعراب والنحو واللغة[٢٧].

- **مدرس النحو (نحوي):** يتولى تدريس النحو والصرف والبلاغة، ويشترط فيه أن يكون عارفاً بأحوال النحو وفروعه، بصيرا بأدلته، مستحضرا لنصوصه، ذاكراً لشواذه وغوامضه، يفيد الطلبة ويصلح من ألسنتهم ركيكها، ويجلو عن صدورهم شكوكها، عارفاً بارعاً فيها ناقلا لصحيحها، مستعملا لفصيحها[٢٨].

- **مدرسون آخرون:** اشتملت بعض المدارس على مدرسين لعلوم التاريخ وعلم الكلام وعلم الفلسفة والجبر والحساب والفلك والطب والفرائض، ولكن لم يكن ينص في وقفيات المدارس على تدريس مثل هذه العلوم، ولا على ضرورة وجود مدرسين مخصصين لها[٢٩].

٢ - المعيد :

يقوم المعيد بإعادة ما ألقاه المدرس على الطلبة بعد انصرافه ليفهموه ويحسنوه، وعلى هذا فإن مستوى المعيد العلمي والوظيفي كان أقل من مستوى المدرس وأكبر درجة من الطلبة، وكانت مهمة المعيد كما تنص عليه بعض وقفيات المدارس «يقرأ عليه الطلبة ويبحثون معه ويبحث معهم توطئة للدرس واستبيان ما يقدح في نفوس الطلبة وتحريراً لصور المسائل وتصويرها»، ومعنى ذلك أن مهمة المعيد مساعدة الطلبة الذين لم يتمكنوا من فهم الدرس واستيعابه، ولم يكن يشترط في المعيد التفرغ للمدرسة المرتب بها، فقد وجد من المعيدين من كان معيداً في مدرسة ومدرساً في مدرسة أخرى أقل مستوى من المدرسة المعيد بها[٣٠].

٣ - الطلاب :

كان المنشيء يرتب في مدرسته عدداً من الطلبة بعضهم لدراسة الفقه والبعض الآخر لدراسة الحديث أو النحو أو حفظ القرآن.. الخ، وكان عدد الطلبة يتفاوت من مدرسة الى أخرى حسب قدرة الواقف، وحسب حجم المدرسة، والعلوم والمذاهب التي تدرس بها، وكان الطالب بعد انتهاء تحصيله للعلم من أستاذه، أو من مجموعة أساتذة المدرسة يمنح إجازة - وهي بمثابة الشهادة أو وثيقة النجاح حالياً - تمكنه من ممارسة التدريس أو الإفتاء في العلم الذي تعلمه وأجيز به، وقد تكون الإجازة شفوية أو كتابية[٣١].

٤ - الأجور :

كان الواقف يحدد في وقفيته مقدار ما يصرف شهريا لكل موظف في المدرسة، وكانت المرتبات تصرف عيناً أو نقداً، أو عينا ونقداً، فالراتب العيني كان يصرف من الحبوب أو من العوائد السنوية للموقوفات بالإضافة إلى الكسوة، حيث يقوم الناظر بتقسيم عائدات الوقف - بعد خصم ما يلزم لإصلاحات المدرسة ومتطلباتها - إلى أسهم توزع حسب ما حدده الواقف من أسهم لكل موظف، فعلى سبيل المثال كان ريع الأوقاف المحبوسة على المدرسة الياقوتية بذي السفال يقسم ثلاثة أثلاث: يصرف الثلث الأول على إصلاح المدرسة وفرشها وإنارتها وإصلاح الأراضي الموقوفة عليها، والثلث الثاني: يقسم إلى أربعة عشر سهماً: أربعة أسهم توزع على الأيتام الأربعة، والعشرة أسهم توزع على المرتبين (الناظر - الإمام - المؤذن - القيم - المعلم) بواقع سهمين لكل واحد ولا تفاضل بينهم، والثلث الثالث: يخصص طعماً وإطعاما للمقيمين في المدرسة والوافدين عليها من الدَّرسة أغنياء كانوا أم فقراء، كما يصرف منه أجور من يصلح الطعام ويهيئه، وما بقي منه يصرف صدقة على حسب ما يراه الناظر من وجوه الخير ومن كسوة عار ومواساة محتاج، وأما الراتب النقدي فكان يصرف بالدرهم أو الدينار حسب ما يحدده الواقف، وكان يتم جمع الأموال اللازمة للإنفاق على المرتبين في المنشآت وعلى إصلاحاتها من عدة مصادر: أولاها ريع أوقاف

المدرسة من الأراضي والمحلات، وثانيها من منح وعطاءات السلاطين، وثالثها من هبات وإعانات أغنياء المجتمع، ورابعها من أموال الزكاة والصدقات وخراج الأرض وجزية اليهود[٣٢].

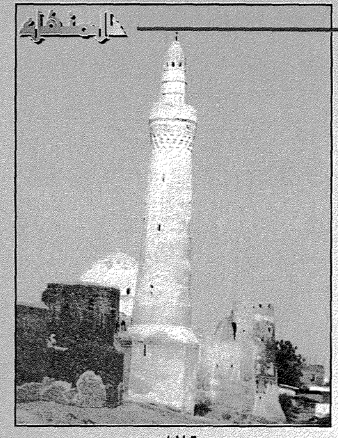
العلوم التي كانت تدرس في المدارس :

احتلت العلوم الدينية والشرعية موضع الصدارة في المناهج التي كانت تدرس في المساجد والمدارس وغيرها من أماكن التعليم، نظرا لارتباطها بالدين من ناحية وبالدولة وحياة الناس من ناحية أخرى، وتشمل العلوم الدينية القرآن وعلومه، وعلم الحديث، والسيرة، والفقه بمذاهبه المختلفة، وعلم الفرائض، ثم يليها في الأهمية علوم اللغة التي تعتبر الدعامة الثانية التي أمدت الحركة العلمية في اليمن بالعديد من المؤلفات وساهمت في نشر المعارف المتنوعة، وكان للعلماء الوافدين إلى اليمن دور كبير في إثراء الحياة الفكرية والتعليمية ومن أشهر هؤلاء العلامة الفيروز ابادي الذي استقر في زبيد ودرّس في مدارسها وتوفي بها سنة ٨١٧هـ[٣٣]، وتشمل علوم اللغة: النحو، واللغة، والأدب والبلاغة، ومن العلوم الأخرى التي كانت تدرس علوم الطبيعة كالتاريخ والأنساب والمنطق والفلسفة وعلم الكلام والجبر والحساب والهندسة والفلك والطب والأدوية.. الخ.

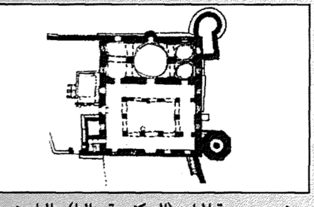
ثالثا : عمارة المدرسة اليمنية :

- في العصر الأيوبي (٥٦٩ - ٦٢٦هـ/ ١١٧٣ - ١٢٢٩م):

كانت المدرسة السيفية بتعز هي أول مدرسة شيدها الأيوبيون في اليمن وذلك سنة ٥٩٣هـ/ ١١٩٧م، ثم تلتها مدرسة الميلين بزبيد سنة ٥٩٤هـ/ ١١٩٨م وهما من إنشاء المعز اسماعيل بن طغتكين الأيوبي[٣٤]، وقد توالى إنشاء المدارس في اليمن على يد الأمراء والعلماء وكبار رجال الدولة فبلغ جملة ما شيد في هذا العصر حوالي أربع عشرة مدرسة.



- مدرسة الميلين بزبيد.



- زبيد: مدرسة الميلين (السكندرية حاليا) - الباحث.

مدرسة الميلين :

تعد **مدرسة الميلين** المدرسة الأيوبية الوحيدة الباقية حتى الآن حيث ساعد وجودها داخل القلعة على بقائها، والاهتمام بتجديدها طوال العصور اللاحقة للدولة الأيوبية، وتعرف حالياً باسم المدرسة السكندرية نسبة إلى اسكندر موز المملوكي الذي حكم اليمن سنة ٩٣٧ - ٩٤٣هـ/ ١٥٣١ - ١٥٣٧م وهذه النسبة خاطئة أدى إليها وجود اسم اسكندر ووقفيته الحجرية في المدرسة، مع أنه قام بتجديدها فقط، بدليل موقعها الذي ذكرته المصادر التاريخية بأنها تقع شرق رحبة

الدار الناصري، وهي المدرسة الوحيدة التي تقع في هذا المكان، وبدليل زخارفها وتخطيطها الرسولي الشبيه بالمدرسة الأسدية بإب التي بنيت بعدها بحوالي سبعين عاماً.

بنيت جدران المدرسة بواسطة قوالب الآجر بسمك (٤٠ر١م) وارتفاع (٢٠ر٧م) وكسيت بطبقة من ملاط النورة البيضاء، تطل واجهاتها الشمالية والشرقية على خارج قلعة زبيد في حين تطل الواجهات الأخرى على رحبة القلعة، وهي مكونة من مساحة مستطيلة تمتد من الشمال إلى الجنوب بطول (٢٦م) وعرض (٢٠ر٢١م) تضم مصلًى وصحناً ـ أو حرماً ـ ومئذنة وميضأة وحجرة للطلبة:

يتكون المصلى من مساحة مستطيلة تمتد من الشرق إلى الغرب بطول (١٨م) وعرض (٥٠ر٧م) قسمت الى ثلاث مساحات: الوسطى تتقدم المحراب مربعة الشكل مغطاة بقبة مركزية مدببة ارتفاعها (١٤م) محمولة على رقبة دائرية تستند على مثمن يبرز عن مستوى السطح يستند على أربع حنايا ركنية محمولة على الجدارين الشمالي والجنوبي للمصلى وعلى أربعة عقود تستند على الجدارين الشمالي والجنوبي للمصلى وعلى دعامتين مربعتين.

باطن القبة زين بالعديد من الزخارف المحفورة والملونة قوامها رسوم نباتية وكتابات نسخية لم يبق منها سوى بعض أشكال الورود الثمانية والبخاريات، بينما احتوت الرقبة على بعض الآيات القرآنية ومنها آية الكرسي[٣٥] أما الحنايا الركنية فقد زخرفت بالعديد من الرسوم النباتية والهندسية لأوراق رمحية ونصلية، وسعف النخيل أو ريش الطاووس وورود ذات أشكال مروحية وبعض أشكال الزهور والأوراق الملتفة والأشكال الهندسية الرباعية والخماسية والسداسية، كما زخرفت العقود الحاملة للقباب بزخارف كتابية على هيئة أشرطة تشغل أوجه العقود، أما بواطنها فشغل كل منها بأربعة صفوف من الجامات المفصصة والدائرية منفذة بالحفر البارز والألوان، تحصر بينها أشكال وريدات ثلاثية، ويتوسط جدار القبة محراب مجوف على هيئة دخلة مرتدة في الجدار متوجة بعقد مدبب، يكتنفها أربعة أعمدة زخرفية مضلعة ذات قواعد وتيجان مزخرفة، ويتوسط الدخلة حنية محراب مثمنة الشكل متوجة بعقد نصف دائري، ويكتنف الحنية عمودان من المرمر زين بدناهما بخطوط بارزة حلزونية الشكل.

أما المساحتان الشرقية والغربية من المصلى فهما مستطيلتان وكان يغطي كلا منهما قبتان ذات ارتفاع أقل من القبة المركزية لم يبق منها سوى قباب المساحة الشرقية، تستند القباب على حنايا ركنية مكونة من خمسة عشر صفا من المقرنصات المخروطية، تستند على عقود القبة المركزية، أما قبتا المساحة الغربية فقد سقطتا وحل محليهما سقف مسطح من الخشب من أعمال إسكندر موز.

أما الصحن فمستطيل الشكل يمتد من الشرق إلى الغرب بطول (١٠م) وعرض (٤٠ر٦م) يحيط به رواق ذو عشرة عقود مدببة ثلاثة في كل من الضلع الشمالي والجنوبي واثنين في كل من الضلعين الشرقي والغربي، تستند على عشر دعامات تحمل سقفاً مسطحاً، في الطرف الجنوبي لجداره الغربي باب يؤدي إلى سلم صاعد يتكون من خمس عشرة درجة تنتهي عند السطح، يجاوره من الجهة الشمالية باب آخر يؤدي إلى حجرة مستطيلة مخصصة للطلاب، وفي منتصف الجدار الغربي أيضا بابان مماثلان للبابين السابقين أحدهما (الجنوبي) يؤدي إلى الساحة التي تتقدم المدرسة من الجهة الغربية والآخر يؤدي إلى الميضأة، وفي جداره الشرقي باب تكتنفه ثلاثة شبابيك كانت تطل على ساحة تفصل بين السور والمدرسة وبعد تهدم السور المجاور للواجهة سد الباب والشبابيك لأنها أصبحت تطل على الخارج مباشرة، لما فيها من خطورة تتمثل في سهولة اقتحام القلعة منها.

وتقع الميضأة بجوار الواجهة الغربية للمدرسة الى الشمال من حجرتي السلم والمؤذن، تتكون من مساحة مستطيلة تمتد من الشمال إلى الجنوب بطول (١٠م) وعرض (٦ر٤٠م) تتوسطها بركة مياه يكتنفها حمامان صغيران مربعان للوضوء، وأما المئذنة: فيبلغ ارتفاعها (٣٥م) قاعدتها مثمنة الشكل يعلوها بدن أسطواني الشكل يقل محيطه كلما ارتفع إلى أعلى، ينتهي البدن الأسطواني بشرفة دائرية الشكل محمولة علي مقرنصات متعددة الصفوف يعلوها بدن أخر أصغر مثمن ينتهي بثمانية شبابيك معقودة ويتوجه من أعلى قمة مقرنصة متعددة الحطات تضيق ويقل عددها كلما ارتفعت إلى أعلى، يعلوها عمود معدني يحمل ثلاث كرات معدنية.

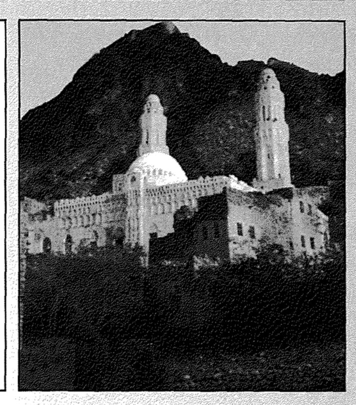
في العصر الرسولي (٦٢٦-٨٥٨هـ/١٢٢٩-١٤٥٠م):

يعد عصر الدولة الرسولية العصر الذهبي لإنشاء المدارس في اليمن، والتي انتشرت ليس فقط في المدن الرئيسية، وإنما أيضاً في المدن الصغيرة والقرى، حيث أدت النواحي الجغرافية والسياسية والاقتصادية والدينية دوراً بارزاً في ظهور مراكز تعليمية متعددة وخاصة في المناطق الغربية والجنوبية والشرقية - الخاضعة لسيطرة الدولة الرسولية - نظراً لسهولة تضاريسها المكونة من السهول الساحلية والمرتفعات المتوسطة والسهول الشرقية، بالإضافة إلى تركز معظم الدول اليمنية وعواصمها ومدنها الرئيسية في هذه المنطقة[٣٦].

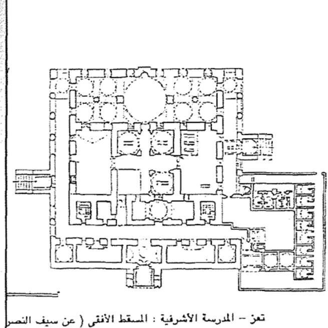
ومن خلال البحث في المصادر التاريخية والمتخصصة في تاريخ الدول الرسولية، أمكن حصر ما يزيد على مائة وخمسين مدرسة شيدت في هذا العصر، ثلاث منها في مكة، والباقي وزعت على مختلف مدن وقرى اليمن[٣٧]، ومن أهم المدارس الرسولية التي مازالت باقية: المنصوريتان العليا والسفلى، والفرحانية، والياقوتية، والجبرتية بمدينة زبيد، والأسدية في مدينة إب، والمعتبية والأشرفية بمدينة تعز، وفيما يلي وصف لنموذجين من مدارس الدولة الرسولية:

المدرسة الأسدية بإب[٣٨]:

أنشأها الأمير أسد الدين محمد بن بدر الدين الحسن بن علي بن رسول قبل وفاته سنة ٦٧٧هـ/١٢٧٨م، وهي مكونة من صحن مكشوف ومصلى وقاعتين للدرس وميضأة، مدخل المدرسة يقع في الواجهة الجنوبية وهو من النوع البارز مكون من فتحة معقودة نصل إليها عبر سلم صاعد ذي أربع درجات تفضي إلى دركاة مربعة مغطاة بقبة ضحلة ومنها عبر باب غير معقود نصل إلى الصحن عن طريق ممر مكشوف يكتنفه حجرتان مربعتان مضافتان، يتكون الصحن من مساحة مربعة مكشوفة محاطة برواق ذي بائكة معقودة بواقع ثلاثة عقود في كل جانب محمولة على دعامات مربعة ومنكسرة، ويغطي الرواق أربع قباب في الزوايا وسقف مسطح فيما بينها، وفي الجهة الشمالية من الصحن مصلى تطل واجهته على الصحن بثلاثة أبواب، الجانبيان منها مغطيان بقباب ضحلة، يتكون المصلى من مساحة مستطيلة ٥ر٧ × ١٦م، قسمت إلى ثلاثة أقسام بواسطة بائكتين عموديتين على جدار القبلة في كل بائكة عقدان، الأوسط منها مربع الشكل مغطى بقبة مركزية كبيرة مدببة محمولة على رقبة دائرية محمولة على مثمن يبرز عن مستوى السطح يستند على أربع حنايا ركنية، ويتوسط جدارها الشمالي حنية محراب يكتنفها عمودان رشيقان، والقسمان الجانبيان مستطيلان قسم كل منهما إلى مساحتين مربعتين بواسطة عقد يمتد من الدعامة حتى الجدار الجانبي للمصلى غطيت جميعها بأربع قباب مدببة صغيرة، ويكتنف الصحن من الجهتين الشرقية والغربية قاعتان للدرس تطل كل منهما عليه بثلاثة عقود مدببة ونصف دائرية، في حين تقع الميضأة في الركن الجنوبي الشرقي للمدرسة ونصل إليه عبر دهليز طويل من المدخل الرئيسي، تتكون الميضأة من مساحة مستطيلة تتوسطها بركة مياه محاطة باثني عشر حماماً.



ـ المدرسة الأشرفية بتعز.



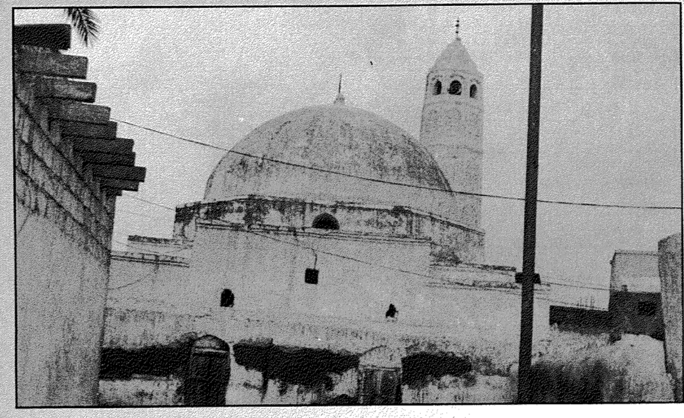
ـ تعز المدرسة الاشرفية ـ المسقط الأفقي (عن سيف نصر).

المدرسة الأشرفية[٣٩] :

بناها السلطان الأشرف اسماعيل الثاني سنة ٨٠٠هـ، وهي مكونة من صحن مكشوف يضم عدداً من قبور ملوك ونساء وأمراء الدولة الرسولية، يكتنفه من الجانبين قاعتان مستطيلتان للدرس يغطي كلا منهما قبو مدبب جملوني الشكل ولذلك تعرفهما الوقفية على أنهما جملونين، وفي الجهة الشمالية من الصحن مصلى ذو مساحة مستطيلة مقسم إلى مساحة مربعة مغطاة بقبة مركزية يكتنفها جناحان يغطي كلا منهما أربع قباب صغيرة، وجميعها محمولة على عقود مدببة ذات أربعة مراكز تستند على دعامتين كبيرتين ودعامتين صغيرتين، ويتوسط جدار المصلى الشمالي محراب مجوف، وقد كسيت الجدران والعقود والقباب بزخارف بارزة وملونة قوامها آيات من القرآن الكريم، وعبارات دعائية ونصوص تأسيسية، وأشكال نباتية متنوعة أهمها الوردية الخماسية والسداسية شعار الدولة الرسولية.

ويحيط بالصحن والمصلى وقاعات الدرس من الجهات الشرقية والغربية والجنوبية ثلاثة دهاليز تؤدي إليها المداخل الرئيسية البارزة الثلاثة، تطل الدهاليز المغطاة بأقبية مدببة على خارج المدرسة بفتحات كبيرة ذات عقود مدببة، وفي منتصف الجدار الجنوبي للدهليز الجنوبي قاعة مستطيلة مغطاة بقبة في الوسط وإيوانان جانبيان يغطيهما قبوان مدببان وهذه القاعة نصت وقفية المدرسة على أنها خانقاه للصوفية، ويكتنف هذه القاعة من الجانبين مئذنتان جميلتان يتكون كل منهما من قاعدة مربعة مبنية من الحجر يعلوها بدن مثمن ذو أضلاع مجوفة على هيئة محاريب صماء معقودة، يعلوه شرفة مزينة بحنايا صماء كبيرة وصغيرة يعلوه بدن مثمن آخر مماثل وشرفة مماثلة للسابقة، يعلو ذلك بدن ثالث مثمن أيضا متوج بقبة صغيرة نصف كروية، وفي الركن الجنوبي الشرقي من المدرسة ميضأة مكونة من بركة مياه محاطة من ثلاث جهات بثلاثة عشر حمام مغطاة بقباب صغيرة.

وللمدرسة ثلاثة مداخل بارزة متماثلة في الجهات الشرقية والغربية والجنوبية، مبنية بالحجر المشهر



- المدرسة المجاهدية بحيس.

الأخضر والأصفر يتوج كلا منها عقد مدبب ذو حليات مفصصة ويغطيها قبة مدببة، وعلى جانبي المدخلين الشرقي والغربي مكاسل للجلوس، أما الجنوبي فيتميز بوجود دركاة تلي الباب ذات مساحة مربعة مغطاة بقبة يكتنفها إيوانان صغيران مقببان، وقد نصت وقفية المدرسة على تخصيص هذه القبة والإيوانين كتاباً لتعليم الأيتام وتحفيظهم القرآن الكريم.

في العصر الطاهري (٨٥٨-٩٢٣هـ/١٤٥٤-١٥١٧م):

سار سلاطين الدولة الطاهرية على أسلافهم الرسوليين، فشيدوا العديد من المدارس رغم قصر فترة حكم دولتهم، وقد بلغ عدد المدارس الطاهرية - حسب ما أمكن حصره من المصادر والمراجع سبعة عشر مدرسة من أهمها: الوهابية بزبيد والمنصورية بجبن، والعامرية والبغدادية برداع والمجاهدية بحيس، وفيما يلي وصف لمدرستين من مدارس العصر الطاهري:

المدرسة المجاهدية بحيس[٤٠]:

تعرف حالياً باسم المدرسة السكندرية مثلها في ذلك مثل مدرسة الميلين بزبيد السابق ذكرها، وهي مبنية بالآجر ومكسوة بطبقة من الجص والنورة، تتكون المدرسة من مساحة مستطيلة ١٧,٥ × ٢٢م تمتد من الشمال إلى الجنوب، تضم مصلًى مستطيلا ٨,٥ × ١٧,٥م مكوناً من دور قاعة مربعة مغطاة بقبة مركزية ارتفاعها ١٠م، محمولة على مثمن يبرز عن مستوى السطح يستند على أربع حنايا كبيرة، ويتوسط الجدار الشمالي للدور قاعة كتلة محراب مجوفة متوجة بعقد مفصص، ويكتنف الدور قاعة بايوانين مقببين مساحة كل منهما (٤,٥ × ٥م)، يشغل الركن الجنوبي الشرقي من الإيوان الشرقي مئذنة ارتفاعها (١٥م) تتكون من قاعدة مربعة مصمتة يعلوها بدن مثمن يحتوي على سلم مروحي من الداخل يتوج البدن جوسق ذو ثمان

فتحات مغطى بقبة مخروطية مقرنصة متعددة الحطات.

يكتنف المصلى من الجهة الجنوبية فناء مكشوف مستطيل الشكل (٦ر٥ × ٥ر١٤م)، في الطرف الشمالي لجداره الشرقي يقع المدخل الرئيسي للمدرسة متوج بعقد مفصص مزدوج، ويشغل الضلع الجنوبي للفناء قاعة درس مستطيلة (٨ر٥ × ١٣م) تطل عليه بثلاث فتحات معقودة، ويغطي القاعة قبتان مدببتان وقبو صغير جملوني الشكل.

المدرسة العامرية برداع [٤١]:

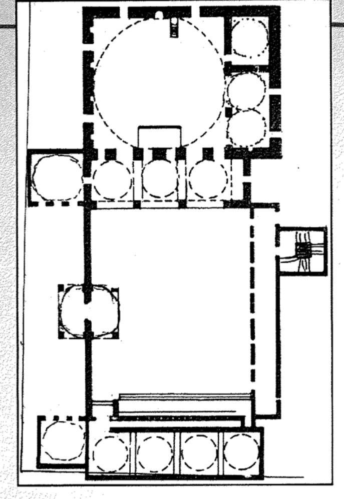
أنشأها السلطان الظافر عامر الثاني بن عبد الوهاب بن داود بن طاهر سنة ٩١٠هـ/ ١٥٠٤م، وهي مكونة من مساحة مستطيلة (١٤ × ٢٣م) تمتد من الشمال إلى الجنوب، وتضم طابقين الأرضي يشتمل على مساكن للطلبة ومخازن لمستلزمات المدرسة وريع أوقافها، ومصلى للنوافل، وميضأة، في حين شغلت واجهاته الشمالية والشرقية والغربية المطلة على الشوارع المحيطة بحوانيت تجارية، وفي الطرف الجنوبي للواجهة الشرقية يقع مدخل المدرسة وهو من النوع البارز يتصدره فتحة معقودة مفصصة يفضي إلى دركاة تعلوها مقصورة مغطاة بقبة.

الطابق الثاني مكون من صحن مكشوف محاط برواق ذي ثلاثة عقود مدببة في كل جانب تحمل سقفاً خشبياً ذا قصعات، ويكتنف الصحن من الشرق والغرب قاعتا درس مستطيلتان يغطي كلا منهما سقف مسطح، وفي الجهة الشمالية من الصحن مصلًى مستطيل ٨ × ٥ر١٢م مقسم إلى بلاطتين بواسطة دعامتين مثمنتين تحملان سبعة عقود مدببة رباعية المراكز، تحمل ست قباب بصلية الشكل، ويتوسط جدار القبلة محراب مجوف توج هو والشبابيك بعقود مفصصة، وقد كسيت جدران المصلى وعقوده وقبابه بزخارف بارزة وملونة تضم آيات قرآنية وعبارات دعائية وأشكال نباتية وهندسية أهمها الأطباق النجمية، ويكتنف المصلى من الجهات الشمالية والشرقية والغربية ثلاثة دهاليز تطل على الخارج بفتحات معقودة مماثلة لفتحات مدرسة الأشرفية الرسولية بتعز، غطيت بأسقف مسطحة وقباب مفصصة في مناطق اتصال الدهاليز ببعضها أو بالرواق الشمالي للصحن.

وفي الجهة الجنوبية من المدرسة ميضأة أخرى مكونة من بركة مستطيلة محاطة بعدد من الحمامات.

في العصر العثماني:

استمر إنشاء المدارس بعد سقوط الدولة الطاهرية سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م على يد قادة جيش المماليك الذين أعلنوا ولاءهم للدولة العثمانية التي قضت على الدولة المملوكية في مصر في السنة نفسها، وبالتالي أصبحت السيطرة على اليمن مقسمة بين العثمانيين الذين يمثلهم فيها ولاة يرسلهم الباب العالي العثماني وبين الأئمة الزيدية في المناطق الشمالية من اليمن، وقد شيد العثمانيون في فترة حكمهم الأولى لليمن (٩٢٣ - ١٠٤٥هـ/ ١٥١٧ - ١٦٣٥م)، والثانية (١٢٨٩ - ١٣٣٨هـ/ ١٨٧٢ - ١٩١٩م) العديد من المدارس في اليمن من أهمها: المدرسة الكمالية بمدينة زبيد وهي من إنشاء الوالي العثماني كمال بك، ومدرسة مصطفى باشا النشار بزبيد أيضا، والمدرسة العادلية بصنعاء من إنشاء مراد باشا، والمدرسة البكيرية، وفيما يلي وصف لأهم مدرسة عثمانية في اليمن:



ـ صنعاء المدرسة البكيرية (عن ربيع خليفة).

المدرسة البكيرية بصنعاء[٤٢]:

بناها الوزير العثماني حسن باشا سنة ١٠٠٥هـ، وسميت البكيرية نسبة إلى مولاه بكير الذي قضى نحبه سقوطاً من على فرسه، وهي مكونة من فناء مكشوف نصل إليه من المدخل الرئيسي في الجهة الغربية منه وهو من النوع البارز مغطى بقبة محمولة على أربعة أكتاف قصيرة تحمل عقوداً مخموسة، ومصلًى وعدداً من الملحقات:

الفناء: مستطيل الشكل ٢١ × ٥ر٢٦م، مكسو بحجر الحبش الأسود (البازلت الإسفنجي) في الجهة الشرقية منه دهليز يفضي إلى المئذنة وإلى المطاهير، بنيت المئذنة على الطراز الصنعاني المكون من قاعدة مربعة مبنية بأحجار الحبش، يعلوها بدن مرتفع أسطواني الشكل ينتهي عند شرفة محلاة بحنايا معقودة مجوفة، يعلو الشرفة بدن آخر مضلع (١٦ ضلع)، متوج بقبة صغيرة مضلعة، وأما المطاهير فتتكون من مساحة مستطيلة تمتد بطول الواجهة الجنوبية للفناء وتحتوي على إثني عشر حماماً، غطيت جميعها بثلاث قباب مدببة.

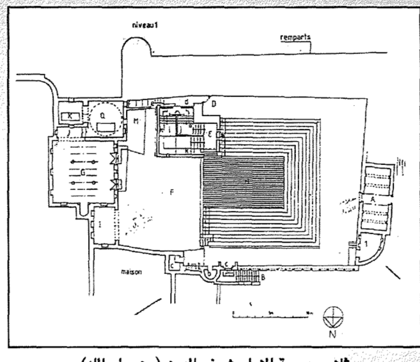
المصلًى: يتقدمه سقيفة مستطيلة تطل على الفناء بثلاثة عقود أكثرها اتساعاً الأوسط تستند على عمودين ذوي تيجان مزخرفة، ويغطي السقيفة ثلاث قباب مدببة، ونصل من السقيفة عبر باب يفضي إلى المصلى المكون من مساحة مربعة طول ضعله ٢٥ر١٧م، مغطى بقبة مركزية كبيرة قطاعها نصف دائري، تستند على مثمن يظهر من الخارج مثله في ذلك مثل مثمني مدرسة الميلين بزبيد والمدرسة المجاهدية بحيس، يستند المثمن على أربع حنايا ركنية كبيرة ذات مقرنصات سباعية الحطات ودلايات زخرفية، ويتوسط جدار القبلة محراب مجوف ذو حنية نصف دائرية متوج بعقد مفصص يتدرج من أعلى إلى أسفل، ويكتنف المصلى من جهة الشرق رواق مستطيل ٦ × ١٠م، يطل على المصلى بعقدين مدببين من النوع ذي الأربعة مراكز، يغطي الرواق قبتان مدببتان، وقد زينت القبة والجدران والحنايا والمحراب بالعديد من الزخارف البارزة والملونة تتبع أسلوب الروكوكو العثماني ، ويكتنف مدخل المصلى دكة للمبلغ تطل على المصلى من الداخل بثلاثة أعمدة رخامية رشيقة.

في عصر الأئمة :

شيد الأئمة منذ نشأة دولتهم في صعدة سنة ٢٨٠هـ، وفي فترات سيطرتهم على المناطق الشمالية أثناء معاصرتهم للدول اليمنية الأخرى، وفي فترتي حكمهم الأولى والثانية بعد سقوط الدولة الطاهرية سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م، والتي تمتد من ١٠٤٥ ـ ١٢٨٩هـ/ ١٦٣٥ ـ ١٨٧٢م، و١٣٣٨ ـ ١٣٨٢هـ/ ١٩١٩ ـ ١٩٦٢م العديد من المدارس في صنعاء وثلا وشهارة وذمار وغيرها وكانت من أهم المدارس التي أنشئوها المدارس

المعروفة بمدارس الإمام شرف الدين في كل من: صنعاء وكوكبان وثلا وذمار وحجة والسودة والظفير التي تنسب إلى الإمام المتوكل على الله يحي شرف الدين فيما بين ٩٢٣ ـ ٩٦٥هـ/ ١٥١٧ ـ ١٥٤٣م، والمدرسة العلمية بصنعاء التي أنشأها الإمام يحي حميد الدين سنة ١٣٤٣هـ، وفيما يلي وصف لأهم مدرسة من مدارس الأئمة:

مدرسة الإمام شرف الدين بثلا[٤٣]:



ـ ثلا : مدرسة الامام شرف الدين (عن جار الله).

أنشأها الإمام المتوكل على الله يحي شرف الدين بن شمس الدين بن المهدي أحمد فيما بين ٩٢٣ ـ ٩٦٥هـ/ ١٥١٧ ـ ١٥٤٣م، وهي مكونة من فناء محاط بمصلى وإيوان ومقصورة للعلماء ومكتبة ومنازل للطلبة وقبة ضريحية وميضأة:

يتم الوصول إلى المدرسة من مدخلها الرئيسي شرق الفناء نصل إليه عبر سلم صاعد ذي عشر درجات، يفضي المدخل إلى فناء مكشوف مبلط بالأحجار مستطيل الشكل (٢١ × ٣١م) ، في الجهة الغربية منه بركة مياه مستطيلة (٦ × ١٧م) وفي الجهة الشرقية من الفناء إيوان مستطيل توجت فتحته بعقد مدبب ذي أربعة مراكز، ويغطيه سقف مسطح وفي جداره الشمالي محراب، والى الجنوب من الإيوان مصلى محصور بينه وبين القبة الضريحية، مكون من مساحة مربعة طول ضلعها ٨ر٥م، ومغطى بسقف مسطح محمول على عوارض خشبية تستند مباشرة على الأعمدة، ويكتنف المصلى من الجنوب قبة ضريحية مكونة من مساحة شبه مربعة (٥ر٤ × ٥م) مغطاة بقبة كبيرة محمولة على أربع حنايا ركنية كبيرة، شغلت مع القبة بزخارف كتابية ونباتية وهندسية قوامها آيات قرآنية وأحاديث وأوراق ومراوح نخيلية، ويكتنف المدرسة من الجهة الجنوبية حجرات للطلبة تعرف باسم المنازل مكونة من ثلاثة طوابق قليلة الارتفاع.

رابعاً : طرز المدارس اليمنية :

قسم الدكتور محمد سيف النصر أبو الفتوح المدارس اليمنية من حيث التخطيط الى طرازين: المدارس الكبرى، والمدارس الصغرى[٤٤]، ويمكننا إضافة طراز ثالث لها وهو المدرسة الإيوانية.

١ ـ المدارس الكبرى :

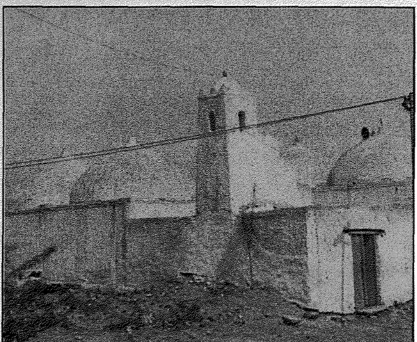
تتكون من مصلى وصحن ودهاليز تكتنف كلا من المصلى والصحن من الجهات الشرقية والغربية كما في مدارس المعتبية والأشرفية والظاهرية الرسولية، والمنصورية الطاهرية بجبن، والمدرسة البغدادية الطاهرية برداع، أو تكتنف المصلى من الشمال والشرق والغرب كما في المدرسة العامرية الطاهرية

٢ ـ المدارس الصغرى :

تتميز بصغر حجمها وبساطة تخطيطها المكون من مصلى مغطى بقبة أو أكثر أو بأسقف مسطحة أو أقبية، وفناء أوسط مكشوف، ويقابل المصلى أو في احد جوانب الصحن قاعة للدرس أو أكثر وميضأة ومئذنة ومقصورة وحجرة للمؤذن وحجرة أو أكثر لسكن بعض المدرسين أو الطلاب، والذي فرض هذا التخطيط ليس ضيق المساحة المراد البناء عليها فحسب، وإنما أيضاً قلة إمكانيات المنشىء، فضلا عن غلبة تدريس المذهب الواحد، مما كان له أثره الكبير في شيوع المدارس ذات قاعة الدرس الواحدة بالإضافة إلى المصلى. وإن كان ذلك لم يمنع من جود مدارس تضم أكثر من قاعة درس ومع ذلك خصصت لتدريس مذهب واحد، بينما خصصت القاعات الأخرى لتدريس الحديث والقرآن، ومن أمثلتها: مدارس الفاتنية بزبيد، والظاهرية، والأشرفية بتعز، وهذا يدلنا على أنه لا توجد هناك علاقة بين عدد القاعات وعدد المذاهب التي تدرس في المدرسة. ومن أمثلة هذه المدارس: المنصوريتين العليا والسفلى، والدعاسية، والزاتية، والجبرتية، والفرحانية، والجوهرية، والمزجاجية، والزكارية، والعلوية الشرقية، بزبيد، **ومدارس الهتاري** والمعجار والياقوتية بحيس[٤٦].

٣ ـ المدارس الإيوانية :

تتكون من مصلى مكون من دور قاعة مغطاة بقبة مركزية يكتنفها من الشرق والغرب إيوانان مقببان، ويقابل المصلى إيوان مغطى بقباب، يفصل بينه وبين المصلى فناء مكشوف، بالإضافة إلى احتواء هذا النوع



ـ حيس: مدرسة الهتاري.

برداع ، بالإضافة إلي قاعات الدرس التي تكتنف الصحن من الشرق والغرب، وكذلك ممرات الاستطراق والوحدات المعمارية الخاصة بالكتاتيب والخانقاوات والمقصورات والميضات وحجرات المخازن، وخلاوي الصوفية وحجرات سكن المدرسين والطلاب، وقد تحتوي بعض المدارس على طابق أرضي يضم دكاكين تطل على الشارع ومخازن داخلية كما في المدرسة الأشرفية بتعز، والمدرستين المنصورية بجبن والعامرية برداع، وتحتوي أيضا بعض المدارس على أماكن لدفن المنشيء وأسرته كما في المدرسة الأشرفية بتعز، وإلى هذا النوع من المدارس ينتمي الجامع الكبير بمدينة حيس الذي بناه السلطان المظفر يوسف الرسولي سنة ٦٨٢هـ، ويرجع السبب في ذلك إلى أنه لم ين كجامع فقط وإنما كان عبارة عن مسجد ومدرسة وخانقاة كما هو مذكور في نص تأسيسه على المدخل الجنوبي للجامع، ويلاحظ أن معظم أجزاء هذا النوع من المدارس مغطى بقباب وأقبية مدببة، ويلاحظ احتواءها على مدخلين محوريين أو أكثر[٤٥].

من المدارس على ميضأة ومئذنة، ومن أمثلة هذه المدارس: المدرسة الوهابية بزبيد، ومدرسة في مدينة موزع، والمدرسة السكندرية ومدرسة التكية بحيس، وتنتمي إلى هذا النوع أيضاً المدرستين السكندرية والكمالية بزبيد وإن كانتا تختلفان عن هذا الطراز باستبدال الإيوانين المقب]بين بجناحين يغطي كلا منهما قبتان أو أكثر، وإحاطة الصحن برواق ذي بوائك معقودة وسقف مسطح أو مقبب.

وتتميز مدارس الطرازين الثاني والثالث باستقلالية المصلى الذي حجب عن الفناء أو الصحن بجدار كان الهدف منه تخصيص المصلى للعبادة فقط، كما تتميز هذه المدارس باستخدام قاعات الدرس للارتفاق ونوم الطلبة على عكس مدارس العالم الإسلامي التي كانت تخصص فيها خلاو أو حجرات خاصة لإقامة الطلبة[٤٧].

الهوامش والتعليقات:

(١) المعجم الوسيط، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ج١ ص ٢٨٠، ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف مصر، ج٣، ص ١٣٦٠، الفيروز آبادي القاموس المحيط، مكتب تحقيق التراث بمؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م، ص ٧٠١.

(٢) عبد العزيز راشد عبد الكريم السنيدي، المدارس وأثرها على الحياة العلمية في اليمن في عصر الدولة الرسولية (٦٢٦ - ٨٥٨هـ/ ١٢٢٩ - ١٤٥٤م) رسالة ماجستير (غير منشورة) جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، السعودية ١٩٩٠م، ص ٤٥.

(٣) قام المسجد منذ نشأته بالعديد من الوظائف - إلى جانب وظيفته الأساسية وهي إقامة الصلاة فيه - من أهمها: كان يمثل داراً للقضاء، ومقراً للحكومة، وداراً للتعليم، يلتقي بين جوانبه المعلمون والمتعلمون ليتدارسوا أمور دينهم اقتداء برسول الله [صلي الله عليه وسلم] الذي كان يجلس في مسجده النبوي ليعلم الناس أمور دينهم ودنياهم، وبعد وفاته [صلي الله عليه وسلم] انتشر الصحابة والتابعون في أرجاء الأرض يجلسون في مساجد الأمصار ويلتف حولهم المسلمون لينهلوا من علوم القرآن والحديث والفقه والسيرة وأحكام الدين فضلا عن اتخاذ بعض الصحابة والتابعين لبعض دورهم كأماكن لنشر العلم ومنهم عبد الله بن عباس الذي اتخذ من منزله بالطائف مكاناً لإلقاء الدروس، فكان ذلك بداية ظهور فكرة اتخاذ الدور والقصور للتدريس، ومع ازدياد أعداد الداخلين في الإسلام واتساع رقعة الدولة الإسلامية وارتقاء نظمها وتطور حضارتها جاءت الحاجة الى إنشاء مؤسسات خاصة تخفف الحمل الثقيل عن المسجد فظهرت بيوت الإمارة ودور القضاء ومكاتب الأيتام ثم تلا ذلك ظهور مؤسسات ثقافية أكبر ومنها بيوت الحكمة في العصر العباسي ودور العلم في العصر الفاطمي بالإضافة إلى دور القرآن والحديث وزوايا العلم، وقد مهد ذلك لظهور مؤسسة تعليمية متخصصة ومنفصلة عن المسجد تمثلت في المدرسة التي قامت بالوظيفة التعليمية جنباً إلى جنب مع المسجد الذي لم يفقد مكانته التعليمية بعد ظهور المدرسة وإنما ظل يقوم بهذه الوظيفة إلى جانب وظيفته الأصلية حتى عهد قريب، وكانت أول مدرسة بمعناها اللفظي والمعماري قد ظهرت في العالم الإسلامي سنة ٣٤٥هـ عندما بنى الإمام أبو حاتم البستي مدرسته في بلدته بست، وتلتها المدرسة التي شيدها الشافعيون في نيسابور للإمام النيسابوري سنة ٣٤٩هـ، ثم مدرسة الإمام الحاتمي في طهران سنة ٣٦٢هـ، ثم المدرسة الصادرية بدمشق سنة ٣٩١هـ، ثم مدرسة الإمام الإسماعيلي ببغداد سنة ٣٩٣هـ، فالمدرسة الرشائية بدمشق لنيف وأربعمائة للهجرة، فالمدرستان اللتان أسسهما فقهاء نيسابور سنة ٤١١هـ، ثم المدرسة السعيدية التي بناها سبكتكين أخو السلطان محمود الغزنوي سنة ٤٥٠هـ، والمدرسة

البيهقية في نيسابور سنة ٤٥٠هـ أيضا، ثم مدارس الوزير نظام الملك في نيسابور وبغداد سنة ٤٥٧هـ، ومدرسة طوس، والمدرسة العوفية في الإسكندرية سنة ٥٣٢هـ، والمدرسة السلفية بها سنة ٥٤٦هـ (أنظر) أحمد فكري (د)، مساجد القاهرة ومدارسها، ج٢، العصر الأيوبي، دار المعارف مصر، ص ٤٩، ٥٠، ١٥١، ١٥٤، سعيد عبد الفتاح عاشور (د)، العلم بين المسجد والمدرسة، بحث منشور في كتاب: تاريخ المدارس في مصر الإسلامية، سلسلة تاريخ المصريين رقم ٥١، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢م، ص ١٦ ـ ١٨، أيمن فؤاد سيد (د)، المدارس في مصر قبل العصر الأيوبي، بحث منشور في الكتاب السابق ص ٩٢، عفاف سيد صبرة (د)، المدارس في العصر الأيوبي، بحث منشور في الكتاب السابق، ص ١٤١، ١٤٢، حسني محمد نويصر (د)، عوامل مؤثرة في تخطيط المدرسة المملوكية، بحث منشور في الكتاب السابق، ص ٢٣١، ٢٣٢، مصطفى عبد الله شيحة (د) دراسة مقارنة بين المدرسة المصرية والمدرسة اليمنية، بحث منشور في الكتاب السابق، ص ٤١٧، محمد سيف النصر أبو الفتوح (د)، نظرة عامة على تخطيطات المدارس اليمنية، مجلة الإكليل، وزارة الإعلام، صنعاء، العدد الأول، السنة الثالثة، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م، ص ٩٩.

(٤) الخانقاوات: جمع خانقاه، وهي كلمة فارسية تتألف من لفظين (خان) وتعني دار، و(كاه) وهي لاحقة تفيد المكان، (أنظر) دولة عبد الله (د)، معاهد تزكية النفوس في مصر في العصر الأيوبي والمملوكي، مطبعة حسان ١٩٨٠م ص٥.

(٥) الهجر مفردها هجرة وهي قرية أو مدينة يهاجر إليها أحد العلماء فيقصده طلاب العلم إليها ومن أشهرها هجرة صعدة وهجرة دبر في سنحان وهجرة فلله في بني جماعة وهجرة الكبس، (أنظر) عبد الرحمن عبد الواحد الشجاع، الحياة العلمية في اليمن في القرنين الثالث والرابع للهجرة، رسالة دكتوراه (غير منشورة) كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر ١٩٨٦م ص ٩١، ٩٢.

(٦) ابن الديبع، عبد الرحمن بن علي (ت ٩٤٤هـ) بغية المستفيد في تاريخ مدينة زبيد، تحقيق عبد الله الحبشي، مركز الدراسات والبحوث اليمني صنعاء الطبعة الأولى ١٩٧٩م، ص ٧٦، اسماعيل الأكوع (القاضي)، المدارس الإسلامية في اليمن، منشورات جامعة صنعاء، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ص ٧، مصطفى عبد الله شيحة (د)، مدخل إلى العمارة والفنون الإسلامية في الجمهورية اليمنية، وكالة سكرين، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٨٧م، ص ٨٥، محمد سيف النصر، نظرة عامة، ص ١٠٠، عبد الله إبراهيم الراشد، المنشآت المعمارية الرسولية في اليمن، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب جامعة الملك سعود، الرياض ١٩٩٢م، ص١٠٠، فاروق أحمد حيدر، التعليم في اليمن في عهد دولة بني رسول خلال القرنين ٧، ٨هـ، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية التربية جامعة عين شمس، ص ١٠٨.

(٧) من أمثلة هذه المدارس كما جاءت في كتاب: طبقات فقهاء اليمن، مدرسة الجبابي في جبلة (ص ١٩٤، ٢٠٥)، مدرسة ذي أشرق (ص ١٧٦، ١٧٩، ١٩٦، ٢٠١)، مدرسة جامع ذي أشرق (ص ١١٦)، مدرسة ضراس (ص ١٦٠)، مدرسة الشوافي (ص ١١٤، ١٩٥)، مدرسة الملحمة في السحول (ص ١٩٢، ٢١٤، ٢٣٧)، مدرسة دلال بعدان (ص ٢١٤، ٢٣٧)، مدرسة تيثد في بعدان (ص ٢٣٨)، مدرسة الجند (ص ٩٨، ١٢٠، ١٩٠)، مدرستي المسجد الصغير والجامع الكبير في ذي السفال (ص ٢١٨، ٢٠٠)، مدرسة الصلو في الحجرية (ص ٢٢٦)، مدرسة عمق ومدرسة جامع عمق (ص ٢٢٦)، مدرسة جامع الأشاعر بزبيد (ص٢٤٥).

(٨) الجعدي، عمر بن علي بن سمرة، طبقات فقهاء

اليمن وعيون من أخبار سادات الزمن، تحقيق: فؤاد سيد، القاهرة ١٩٥٧م، ص ٣١٨.

(٩) عمارة اليمني، نجم الدين عمارة بن علي، تاريخ اليمن المسمى المفيد في أخبار صنعاء وزبيد وشعراء ملوكها وأعيانها وأدبائها، تحقيق محمد بن علي الأكوع، المكتبة اليمنية للنشر والتوزيع صنعاء، الطبعة الثالثة ١٩٨٥م، ص ١٨٥، ٢١٦.

(١٠) تنسب الأولى إلى الحسين بن علي بن عمر بن أبي النهى (ولد لنيف وعشرين وخمسمائة)، والثانية إلى الشيخ أبي الحسن علي بن ابراهيم بن أبي الأمان (ت٥٥٨هـ)، والثالثة لمحمد بن أحمد بن هندوة السيفي المرادي (عاش في القرن ٥هـ)، (أنظر)، إسماعيل الأكوع، المدارس ص ١٥، ١٦.

(١١) فاروق حيدر، التعليم في اليمن، ص ٦٤ ـ ٦٧، أيمن فؤاد سيد، المدارس في مصر، ص ٩٤.

(١٢) فاروق حيدر، التعليم في اليمن، ص ٦٤.

(١٣) الجندي، أبو عبد الله بهاء الدين محمد بن يوسف بن يعقوب، السلوك في طبقات العلماء والملوك، جزآن، تحقيق محمد بن علي الأكوع، الطبعة الأولى ١٩٨٩م، ج٢، ص ٥٧٦، فاروق حيدر، التعليم في اليمن، ص ١٠٩، أيمن فؤاد سيد، المدارس في مصر، ص ٩٤.

(١٤) أحمد فكري، مساجد القاهرة، ج٢، العصر الأيوبي، ص ١٥٤، فاروق حيدر، التعليم في اليمن، ص ٦٤.

(١٥) اسماعيل الأكوع، المدارس، ص ١٨١، ١٨٧، ١٩٢، ٢٢٣، ٢٢٩، محمد سيف النصر أبو الفتوح (د)، المدرسة الدعاسية بمدينة زبيد، بحث نشر في مجلة كلية الآداب، قنا، جامعة أسيوط، عدد ٢، ١٩٩٢، ص ٨٩.

(١٦) إسماعيل الأكوع، المدارس، ص ١٨١ ـ ٢٢٩، عبد الله الراشد، المنشآت، ص ٨٦، ٩٩، ١٠٢، محمد سيف النصر، المدرسة الدعاسية، ص ٩٠.

(١٧) محمد سيف النصر، المدرسة الدعاسية، ص ٩٠.

(١٨) السنيدي، المدارس، ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧.

(١٩) محمد سيف النصر، المدرسة الدعاسية، ص ٨٩.

(٢٠) إسماعيل الأكوع، المدارس، ص ٢٠١، ٢٢٣، ٢٢٩، ٢٦٠، ٢٧١، ٢٧٤، محمد سيف النصر، المدرسة الدعاسية، ص ٩٠، ٩١.

(٢١) إسماعيل الأكوع، المدارس ، ص ١٨٢، ١٨٨.

(٢٢) إسماعيل الأكوع، المدارس، ص ١٩٢، ٢٢٤، السنيدي، المدارس، ص ٢٢٨.

(٢٣) إسماعيل الأكوع، المدارس، ص ٨٨، ١٨١، ١٨٨، ١٩٢، ٢٠١، ٢٢٣، ٢٢٩، السنيدي، المدارس، ص ٢٣٠، عبد الله الراشد، المنشآت المعمارية، ص ٩٤، ٢٢٥، محمد سيف النصر، المدرسة الدعاسية، ص٩٠.

(٢٤) إسماعيل الأكوع، المدارس ص ٢٢٠، السنيدي، المدارس، ص ٢٣١.

(٢٥) إسماعيل الأكوع، المدارس، ص ١٨٢، ٢٠١، ٢٢٤، فاروق حيدر، التعليم في اليمن، ص ١٤٣.

(٢٦) إسماعيل الأكوع، المدارس، ص ١٨٢، ١٨٧، ١٩٢، ٢٠١، ٢٢٤، ٢٢٩.

(٢٧) إسماعيل الأكوع، المدارس، ص ١٨٨، ١٩٢، ٢٠١، ٢٢٤، فاروق حيدر، التعليم في اليمن، ص ١٤٣، عفاف صبرة، المدارس ص ١٧٨.

(٢٨) إسماعيل الأكوع، المدارس، ص ١٨٨، ١٩٢، ٢٠١، ٢٢٤، فاروق حيدر، التعليم في اليمن، ص ١٤٣، عبد الله الراشد، المنشآت المعمارية، ص ٨٩.

(٢٩) فاروق حيدر، التعليم في اليمن، ص ٨٣.

(٣٠) القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي، صبح الأعشى بصناعة الإنشاء نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والنشر، ج٥، ص ٤٦٤، إسماعيل الأكوع، المدارس، ص ١٠٨،

١٥٢، ١٦٩، ١٧١، ١٨٨، ٢٠١، ٢٢٤، فاروق حيدر، التعليم في اليمن، ٧٩ ـ ٨٤، ١٤٠.

(٣١) إسماعيل الأكوع، المدارس، ص ٢٠١، السنيدي، المدارس، ص ٢٨٩ ـ ٢٩٥، مصطفى شيحة، دراسة مقارنة، ص ٤١٥.

(٣٢) الخزرجي، العسجد المسبوك، ص ٤٩٩، إسماعيل الأكوع، المدارس ص ١٩٢، ٢٩٩، محمد سيف النصر، المدرسة الدعاسيةص ٩١، فاروق حيدر، التعليم في اليمن، ص ١٣٠، عفاف صبرة المدارس، ص ١٩٢.

(٣٣) فاروق حيدر، التعليم في اليمن، ص ٧٧، عفاف صبرة، المدارس، ص ١٧٠.

(٣٤) الخزرجي، علي بن الحسن (ت ٨١٢هـ)، العسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك، مخطوط مصور، وزارة الإعلام والثقافة صنعاء، الطبعة الثانية ١٩٨١م، ص ١٦٧، ١٧٢، ١٧٣، اسماعيل الأكوع، المدارس ص ٢١، ٢٠، ١٨ . ٢٠، عبد الله عبد السلام الحداد، مساجد ومدارس مدينة حيس اليمنية منذ عهد الدولة الرسولية وحتى نهاية عصر الدولة الطاهرية، ٦٢٦ ـ ٩٢٣هـ/ ١٢٢٩ ـ ١٥١٧م، رسالة ماجستير (غير منشورة) كلية الآثار جامعة القاهرة، ١٩٩٥م، ص ١٦٢ ـ ١٦٤، ٣١٠ ـ ٣١٢.

(٣٥) آية رقم ٢٥٥ من سورة البقرة.

(٣٦) قامت في هذه المنطقة ـ قبل الدولة الرسولية ـ العديد من الدول منها: دولة بني زياد ودولة بني نجاح ودولة بني مهدي في زبيد، والدولة الصليحية في جبلة، ودولة بني زريع في عدن، والدولة الأيوبية في تعز.

(٣٧) مدارس مكة هي: المدرسة المنصورية من إنشاء السلطان المنصور عمر بن علي بن رسول (٦٢٦ ـ ٦٤٧هـ)، والمدرسة المجاهدية من إنشاء السلطان المجاهد علي بن المؤيد داود (٧٢١ ـ ٧٦٤هـ)، والمدرسة الأفضلية من إنشاء السلطان الأفضل عباس بن المجاهد (٧٦٤ ـ ٧٧٨هـ)، (أنظر)، إسماعيل الأكوع، المدارس ص ٢٥ ـ ٨٩، ٢٨، ١٧٤، ١٨٥، عبد الله الراشد، المنشآت المعمارية، ص ٥٣ ـ ١٠٦، مصطفى شيحة، المدخل ص ٨١ ـ ١٠٢.

(٣٨) عبد الله الراشد، المنشآت، ص ١٧٤ ـ ١٧٨.

(٣٩) مصطفى شيحة، المدخل، ص ٨٩ ـ ٩٢، سيف النصر، نظرة عامة، ص ١٠٩ ـ ١١٢، عبد الله الراشد، المنشآت، ص ١٩٦ ـ ٢٣٠.

(٤٠) عبد الله الحداد، مساجد ومدارس، ص ١٩٥ ـ ٢٠٤.

(٤١) عن بحثين قدمهما الباحث: الأول بحث تخرج في السنة الرابعة من الدراسة الجامعية ١٩٨٦م، والآخر في المرحلة التمهيدية للماجستير ١٩٩٢م.

(٤٢) عن بحث تخرج الباحث من الجامعة سنة ١٩٨٦م، وللمزيد (أنظر) مصطفى شيحة، المدخل ١٠٢ ـ ١٠٧، سيف النصر، نظرة عامة، ص ١١٤ ـ ١١٦، ربيع حامد خليفة (د)، البكيرية المسجد والمدرسة، دراسة أثرية، مجلة الإكليل، وزارة الإعلام والثقافة صنعاء، عدد ١، السنة الخامسة ١٩٨٧م، ص ١٣٤ ـ ١٤٥.

(٤٣) عبد الرحمن جار الله، عمائر مدينة ثلا الدينية باليمن خلال العصر الإسلامي حتى نهاية العصر العثماني، رسالة ماجستير (غير منشورة) كلية الآثار جامعة القاهرة ١٩٩٤م، ص ١٩٤ ـ ٢٠٦.

(٤٤) محمد سيف النصر، نظرة عامة ص ١٠٧.

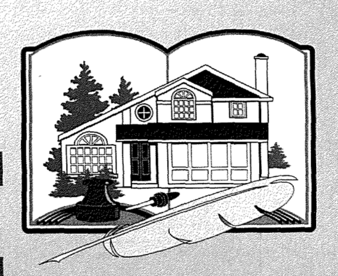
(٤٥) محمد سيف النصر، نظرة عامة، ص ١٠٧، مصطفى شيحة، دراسة مقارنة، ص ٤٤٤ ـ ٤٤٩، عبد الله الحداد، مساجد ومدارس حيس، ص ٢١٧.

(٤٦) محمد سيف النصر، نظرة عامة، ص ١٠٩، مصطفى شيحة، دراسة مقارنة، ص ٤٤٤، المدخل، ص ٩٦ ـ ٩٨ عبد الله الراشد، المنشآت المعمارية، ص ٢٧٥، عبد الله الحداد، مساجد ومدارس حيس، ص ٢١٧.

(٤٧) حسني نويصر، عوامل مؤثرة، ص ٢٢٤، عبد الله الحداد، مساجد ومدارس حيس، ص ٢١٨، عبد الله الراشد، المنشآت المعمارية، ص ٢٧٦.

مدارس القاهرة في العصر المملوكي

كان نظام التعليم في العصور الإسلامية الأولى مرتبطاً بالمسجد الجامع حتى القرن ٥هـ/١١م خلال فترة حكم السلطان محمود الغزنوي (٣٩١-٤٢١هـ/٩٩٩-١٠٣٠) وأخيه الأمير نصر بن سبكتكين حيث ظهرت أولى المدارس في نيسابور ومرو وبخارى. ثم قامت بعد ذلك دولة السلاجقة واستولت على مناطق إيران والعراق والأناضول، وأرادت محاربة المذهب الشيعي والقضاء عليه ونشر مذاهب أهل السنة، وبنى نظام الملك وزير السلطان ملك شاه المدرسة المستنصرية بمدينة بغداد (شكل رقم ١) كأول مدرسة مختصة بالتعليم فقط في العالم الإسلامي على النظام الذي أخذت كل المدارس شكله بعد ذلك[١]، وكانت مكونة من صحن أوسط مكشوف يتعامد عليه أربعة أواوين مخصصة لأصحاب المذاهب السنية الأربعة، ويلتف حولها مساكن لطلبة العلم والمدرسين ومكان للمكتبة وملحقات أخرى.





بقلم :

د. محمد حسام الدين إسماعيل

جامعة اسيوط - مصر

وقد بدأ انتشار نظام المدارس بمصر منذ بداية الدولة الأيوبية[٢] للقضاء أيضاً على المذهب الشيعي، واستخدم في البعض منها بيوت الفاطميين لسرعة إنشاء أكبر عدد ممكن منها كبيت الوزير المأمون البطائحي في المدرسة السيوفية للحنفية[٣] (جامع الشيخ مطهر الآن بشارع المعز لدين الله بالصاغة)، فكان تخطيط المدرسة في هذا الوقت مكوناً من إيوانين، حيث استعملت قاعة البيت المكونة من إيوانين متعامدين على صحن في التدريس لمذهبين، ولدينا مثال باق لذلك هو دار الحديث الكاملية (لأنها كانت مخصصة لتدريس علوم الحديث النبوي التي بناها الملك الكامل الأيوبي سنة ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م[٤] **(شكل رقم٢)**، وقد اختصت المدارس في هذه الفترة لتدريس مذهب واحد أو مذهبين فقط من المذاهب الأربعة.

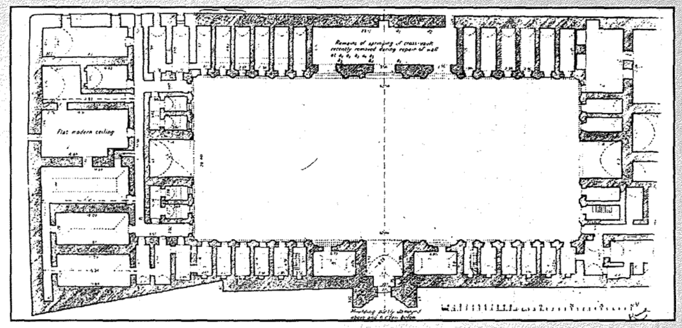
ثم أراد السلطان الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل بعد ذلك استخدام مدرسته لتدريس المذاهب الأربعة سنة ٦٤١ ـ ٦٤٨هـ/ ١٢٤٣ ـ ١٢٥٠م، فبنى مدرسته من جزأين كل جزء مكون من إيوانين متعامدين على صحن وفي الضلعين الآخرين توجد حجرات للطلاب والموظفين، ويجمع الجزأين واجهة واحدة يتوسطها المدخل الرئيسي تعلوه مئذنة، يؤدي إلى ممر يفصل بين الجزأين[٥]، والمتبقي منهما الآن جزء واحد فقط وتبقى لنا كذلك الواجهة الرئيسية كلها **(شكل رقم ٣ . ٤)**.

وقد ألحق بهذه المدرسة قبة لدفن صاحبها مطلة على شارع المعز لدين الله[٦]، كان لها أكبر الأثر في انتشار هذا النظام بعد ذلك في عصر المماليك[٧].

وفي العصر المملوكي بنى السلطان الظاهر بيبرس مدرسة مكونة من أربعة أواوين متعامدة على صحن أوسط مكشوف، إيوانين لتدريس المذهبين الشافعي والحنفي، وإيوان لتدريس الحديث وآخر لتدريس القراءات السبع[٨]، فكانت أول مدرسة في

إفادة

- دكتوراه آثار اسلامية ـ جامعة أسيوط.
- استاذ الآثار الاسلامية ـ كلية الآداب.
- مستشار الهيئة العامة للتخطيط العمراني.
- له عدد وافر من المشاركات والاستشارات العلمية في مجال الآثار.
- شارك في عدد من المؤتمرات والندوات العالمية.
- له مجموعة من الدراسات والبحوث في مجال الآثار والترميم والتنقيب.



شكل (١) بغداد المدرسة المستنصرية ـ مسقط.

مصر ذات أربعة أواوين كالمستنصرية في بغداد، ولكنها هدمت ولم يتبق منها سوى أجزاء بسيطة.

أما في عصر أسرة السلطان المنصور قلاوون الذي استمر من نهاية القرن ٧هـ/ ١٣م الى الربع الأخير من القرن ٨هـ/١٤م، فقد ظهرت عدة تجديدات على نظام المدرسة، فنجد بداية عصر المجموعات المعمارية في مجموعة السلطان قلاوون، حيث بني مجموعة معمارية مكونة من مدرسة ذات إيوانين على صحن مكشوف، وقبة لدفنه وبيمارستان لعلاج المرضى وحوض لسقي الدواب ـ حوله ابنه الناصر محمد بعد ذلك إلى سبيل لسقي المارة ـ على واجهة المدرسة وضم إليها حمامين لخدمة البيمارستان[٩] كما بنى حول المدرسة عدة منشآت تجارية امتدت على جانبي شارع المعز لدين الله، أعطت لنا نماذج مختلفة للمنشآت التجارية في هذا العصر من وكائل وقياسر وأسواق ومقاعد مفردة وسقائف[١٠] وبذلك نشأ نظام المجاميع المعمارية التي كانت المدارس أساساً لها وتطورت بعد ذلك طوال العصر المملوكي.

وجدنا بعد ذلك أقدم مثال باق لمدرسة مكونة من أربعة أواوين متعامدة على صحن أوسط مكشوف لتدريس المذاهب الأربعة في مدرسة السلطان الناصر محمد بن قلاوون بشارع المعز لدين الله بالقاهرة التي بناها ـ بدأ بناءها السلطان كتبغا المنصوري ثم أكملها الناصر ـ سنة ٦٩٥ ـ ٧٠٣هـ/ ١٢٩٥ ـ ١٣٠٤م[١١]، وبذلك أصبحت المدارس في مصر مكونة من صحن أوسط تتعامد عليه أربعة أواوين كالمدرسة المستنصرية في بغداد لتدريس المذاهب الأربعة.

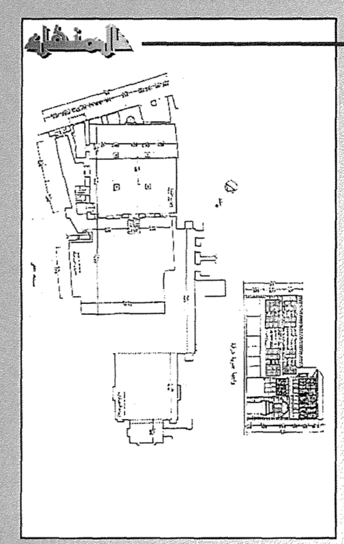
وظهر في عصر أولاد الناصر محمد بن قلاوون تأثير هدف إلى إنشاء المدرسة وموقعها على الشكل العام لها، حيث نرى في مدرسة الأميرة تتر الحجازية ابنة الناصر محمد وزوجة الأمير ملكتمر الحجازي ٧٤٨ ـ ٧٦١هـ/ ١٣٤٨ ـ ١٣٦٠م، أن المدرسة ذات ثلاثة أواوين فقط، حيث بنت تلك الأميرة قبة لدفن زوجها بجوار قصرها ثم بنت المدرسة لتدريس الفقه الشافعي والمالكي فقط، كما جعلت بها منبراً للصلوات الجامعة وسبيلا وكتاباً لتعليم الأطفال الأيتام، فكان

أساس بناء تلك المدرسة هو القبة، فوجدناها تتكون من ثلاثة أواوين فقط تفتح على صحن مكشوف، ولم نجد داخل التربة إلا جثة واحدة تنطبق عليها أوصاف الأمير بكتمر الذي بنيت له القبة[١٢].

وجدنا بعد ذلك تطوراً آخر للمجاميع المعمارية بصورة أكبر في جامع ومدرسة السلطان حسن بن الناصر محمد بن قلاوون - سنة ٧٥٧ - ٧٦٤هـ/ ١٣٥٦ - ١٣٦٢م - فقد كان معظم السلاطين قبل ذلك يُنشئون مسجداً جامعاً ومدرسة كالسلطان الظاهر بيبرس والسلطان الناصر محمد بن قلاوون، فجاء السلطان حسن وبنى مبنى واحداً يجمع بين النظامين في وقت واحد، فأساس المبنى أربعة أواوين تتعامد على صحن أوسط مكشوف، ويتخلل الصحن أربعة أبواب تؤدي إلى أربعة مدارس يتكون كل منها من إيوان يفتح على صحن مكشوف، كما ألحق بها قبة خلف إيوان القبلة على الطراز السلجوقي، وألحق بالمبنى كتاباً لتعليم الأطفال - تهدم في حياة السلطان - ومجموعة من المباني التجارية والسكنية لم يتبق منها سوى مقاعد سوق السلاح، وكان في التخطيط الأصلي ألحق أربعة مآذن لم يصلنا منها إلا اثنتين، وكان هناك نية لعمل جزء خاص لتدريس علم الفروض ولكن لم يتم[١٣].

تبع هذا الطراز مثال آخر نجده في مدرسة أم السلطان شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون التي ترجع إلي سنة ٧٧١هـ/ ١٣٦٩م (أثر رقم ١٢٥)، حيث أضيف إليها في الجزء الشرقي للصحن مدرسة للشافعية وفي الجزء الغربي مدرسة للحنفية، بالإضافة إلى الأربعة أواوين المتعامدة على الصحن[١٤].

ظهر أيضاً نظام جديد في المجاميع المعمارية التي كان أساسها المدرسة، فنجد في مدرسة أم السلطان شعبان - أثر رقم ١٢٥، سنة ٧٧٠هـ/ ٦٨ - ١٣٦٩م -



شكل (٢) المدرسة الكاملية.

ومدرسة الأمير قجماس الإسحاقي - أثر رقم ١١٤، سنة ٨٥ - ٨٨٦هـ/ ٨٠ - ١٤٨١م، نظاماً جديداً للمنشآت المائية، فبعد أن استقر نظام بناء سبيل يعلوه كتاب، نجد في مدرسة أم السلطان السبيل مفرداً على يمين الباب الرئيسي بينما على يسار الباب نجد حوضا لسقي الدواب يعلوه الكتاب، وفي مدرسة الأمير قجماس نجد السبيل إلى يسار الباب الرئيسي، بينما يعلو الكتاب حوض لسقي الدواب وخلفه الميضأة منفصلين عن المدرسة، ويربط هذه المجموعة بالمدرسة سباط يعلو خط البياطرة (حارة بير المش الحالية).

تغير نظام المدارس بعد الربع الأول من القرن ٩هـ/ ١٥م، حيث نجد مدرسة السلطان برسباي بشارع المعز لدين الله الفاطمي أثر رقم ١٧٥، سنة

الجاميع المعمارية الكبيرة في عصر المماليك التي وجدنا فيها صحن المدرسة مكشوفاً[١٦].

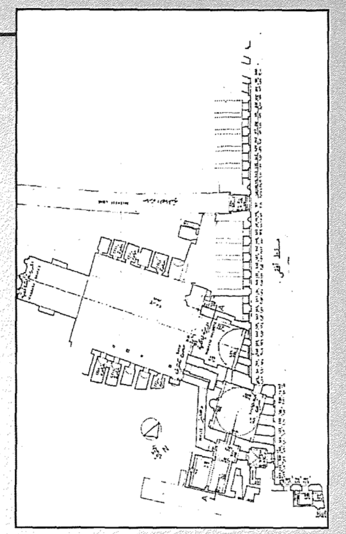
أضيف أيضاً إلى وظيفة المدرسة في هذه الفترة وظيفة المسجد الجامع والخانقاه، مما استدعى إلحاق طباق لسكن الصوفية، كما هو الحال في مجموعة السلطان قايتباي بقرافة المماليك أثر رقم ٩٩ و١٠٤ و١٨٣، سنة ٨٧٧ ـ ٨٧٩هـ/ ١٤٧٢ ـ ١٤٧٤م، ومجموعة أمير كبير قرقماس[١٧].

لم يقتصر التدريس على المدارس فقط، بل وقف كثير من السلاطين والأمراء وظائف تدريس بالمساجد الجامعة بجانب وظيفتها الأصلية، وكان على رأسها جامع السلطان المؤيد شيخ والجامع الأزهر وجامع أحمد بن طولون[١٨].

كما أخذ نظام المساجد الجامعة في تلك الفترة نفس تخطيط المدرسة، كجامع السلطان قانصوه الغوري، الذي جعله ضمن مجموعة معمارية على جانبي قصبة القاهرة ـ شارع المعز لدين الله ـ اشتملت بالإضافة إلى الجامع على خانقاه ملحق بها قبة للدفن وسبيلا وكتاباً ومقعداً (دفن بصحنه المكشوف السلطان طومان باي آخر سلاطين المماليك) ومنازل للموظفين ووكالة، بالإضافة إلى سوق كبير امتدت حوانيته أسفل الجامع والخانقاه ـ أثر رقم ١٨٩ و ٦٥، سنة ٩٠٩ ـ ٩١٠هـ/ ١٥٠٤ ـ ١٥٠٥م.

اختيار الموقع:

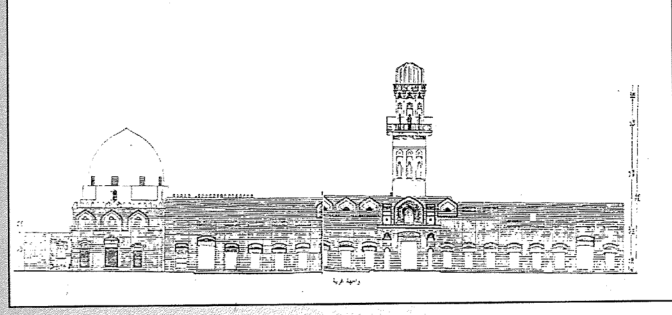
اختار سلاطين الأيوبيين والمماليك وأمراؤهم مواقع مميزة لمدارسهم بالشارع الرئيسي لمدينة القاهرة الذي تمر منه مواكب السلاطين، وقد تأثرت واجهات المدارس بهذا الطريق الممتد من باب النصر فشارع الجمالية فشارع التمبكشية فشارع المعز لدين الله ـ قصبة القاهرة أو الشارع الأعظم ـ عند المدرسة



شكل (٣) الاجزاء المتبقية من المدرسة الصالحية.

٨٢٩هـ/ ١٤٢٥م، آخر مدرسة لها تخطيط ذو أربعة أواوين متعامدة على صحن مكشوف[١٥]، إذ وجدنا تخطيط المدرسة ينكمش بعد ذلك، فنجد الإيوانين الجانبيين تتقلص مساحتهما حتى أن الوثائق أطلقت عليهما لفظ «سدلة» وليس إيوان، كما انتشر تغطية الصحن المكشوف بسقف خشبي يتوسطه قبة خشبية أطلق عليها لفظ «الشخشيخة».

احتفظ التعديل الأخير في نظام المدارس بملاحقها التي أصبحت ثابتة كالسبيل والكتاب وقبة دفن المنشيء، ولكن أضيف إلى الجاميع المعمارية وخاصة في الصحراء حوش لدفن المماليك وقصر لإقامة الزوار، كما هو الحال في مجموعة أمير كبير قرقماس سنة ٩١١ ـ ٩١٣هـ/ ١٥٠٦ ـ ١٥٠٧م آخر



شكل (٤) مدرسة ومدفن الصالح نجم الدين ايوب (واجهة غربية).

الكاملية[١٩]، وحتى يصل إلى باب زويلة[٢٠]، ثم ينعطف الموكب يساراً شاقاً الظاهر الجنوبي للمدينة عن طريق شارع الدرب الأحمر وشارع التبانة وشارع باب الوزير فشارع المحجر، أو شارع سوق السلاح فميدان القلعة، حتى يصل إلى قلعة الجبل[٢١].

وإذا نظرنا نظرة سريعة إلى المدارس الباقية في هذه الجهة من تقاطع شارع باب النصر مع شارع التمبكشية ومن تقاطعه مع شارع المعز لدين الله وحتى باب زويلة سواء في العصر الأيوبي أو في عصري المماليك، نجد أن معظم هذه المنشآت إما لسلاطين الأيوبيين والمماليك، وإما لكبار الأمراء عبر تلك العصور، فنجد مدرسة الأمير جمال الدين الاستادار (أثر رقم ٣٥)، ودار الحديث الكاملية (أثر رقم ٤٢٨)، ومدرسة (خانقاة) السلطان برقوق (أثر رقم ١٨٧)، ومدرسة السلطان الناصر محمد بن قلاوون (أثر رقم ٤٤)، مجموعة السلطان قلاوون (أثر رقم ٤٣)، بقايا مدرسة الظاهر بيبرس البندقداري (أثر رقم ٣٧)، والمدرسة السيوفية من عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي والتي تحولت فيما بعد إلى مسجد الشيخ مطهر والسبيل الملحق به للأمير عبد الرحمن كتخدا من القرن ١٨م (أثر رقم ٤٠)، مدرسة الصالح نجم الدين أيوب (أثر رقم ٣٨)، فمدرسة الأشرف برسباي (أثر رقم ١٧٥)، فمجموعة السلطان الغوري (أثر رقم ١٨٩، ٦٥، ٦٦، ٦٧)، فجامع السلطان المؤيد شيخ (أثر رقم ١٩٠).

كما نجد جهة الجنوب الشرقي في المنطقة ما بين باب زويلة والقلعة عدة مدارس أخرى، أهمها مدرسة الأمير قجماس الإسحاقي (أثر رقم ١١٤) ومدرسة أم السلطان شعبان (أثر رقم ١٢٥)، ومدرسة الأمير آلجاي اليوسفي بواجهتها الضخمة الفخمة (أثر رقم ١٣١)، ومدرسة سودون من زاده (أثر رقم ١٢٧) ومدرسة السلطان حسن بواجهتها العملاقة على هذا الطريق (أثر رقم ١٣٣)[٢٢].

وفي كل هذه المدارس حرص المعمار على ابراز واجهتها الرئيسية المطلة على الشوارع الرئيسية في اتجاه يرى فيه الذاهب إلى الجنوب حيث قلعة الجبل

كل تفاصيل الواجهة، بينما المتجه من القلعة إلى الشمال لا يرى أي تفاصيل، ويظهر ذلك بكل وضوح في واجهة مدرسة السلطان قلاوون التي خرجت بايوان القبلة في الطريق ليلتف حوله الذاهب إلى الجنوب[٢٣]، وواجهة جامع السلطان المؤيد شيخ، ومدرسة الأمير قجماس الإسحاقي، وواجهة مدرسة السلطان حسن.

الهوامش:

(١) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جزءان، بولاق ١٨٥٤م، ج٢، ص ٣٦٣، د. أيمن فؤاد سيد: المدارس في مصر قبل العصر الأيوبي، أبحاث ندوة المدارس في مصر الإسلامية، القاهرة سنة ١٩٩٣، ص ٩٤ ـ ٩٦؛ د. محمد عبد الستار عثمان: نظرية الوظيفية بالسمائر الدينية المملوكية الباقية بمدينة القاهرة، الإسكندرية سنة ٢٠٠٠م ص ٦٢.

(٢) ظهرت المدرسة الحافظية للفقه المالكي ومدرسة العادل بن سلار للفقه الشافعي في مدينة الإسكندرية لتدريس المذاهب السنية في نهاية العصر الفاطمي. أيمن فؤاد سيد: المدارس في مصر قبل العصر الأيوبي، ص ١١٦ ـ ١٢٠، د. محمد عبد الستار عثمان: نظرية الوظيفية، ص ٦٥ ـ ٦٦.

(٣) المقريزي: الخطط ج ٢ ، ص ٣٦٥ ـ ٣٦٦.

(٤) أثر رقم ٤٢٨. أنظرك المقريزي: الخطط، ج٢ ، ص ٣٧٥.

(٥) أثر رقم ٣٨. المقريزي: الخطط، ج٢، ص ٣٧٤ ـ ٣٧٥؛ د. أحمد فكري : مساجد القاهرة ومدارسها، القاهرة سنة ١٩٦٩م، ج٢، ص ٦٠ ـ ٧٥.

(٦) أنشأت هذا المدفن السلطانة شجرة الدر بعد وفاة زوجها في مكان قاعة شيخ المالكية بهذه المدرسة. د. أحمد فكري: مساجد القاهرة، ج٢، ص ٤١ ـ ٤٤.

(٧) كان السلطان نور الدين محمود أول من ألحق ضريحاً بالمدرسة التي أنشأها ببلاد الشام، وقد اتبع الأيوبيين. أنظر: د. محمد عبد الستار عثمان: نظرية الوظيفية، ص ٦٨ ـ ٦٩.

(٨) أثر رقم ٣٧. المقريزي: الخطط، ج٢، ص ٣٧٨ ـ ٣٧٩.

(٩) أثر رقم ٤٣. المقريزي: الخطط، ج٢، ص ٣٧٩ ـ ٣٨٠؛ محمد سيف النصر أبو الفتوح: الحمامات بمنطقة بين القصرين وخان الخليلي من العصر الفاطمي حتى نهاية العصر المملوكي، الخان الخليلي وما حوله، جزءان ، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، القاهرة سنة ١٩٩٩م، ج١، ص ٩٣، ٩٤ ـ ٩٥.

(١٠) محمد حسام الدين إسماعيل عبد الفتاح: سبيل عبد الرحمن كتخدا بالنحاسين، دراسة جديدة من خلال بعض الوثائق المملوكية، دراسات في تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني، بالاشتراك مع أ.د. دانيال كريسيليوس وأ.د. حمزة عبد العزيز بدر، دار الآفاق العربية، القاهرة سنة ١٩٩٧م، ص ٢١ ـ ٢٧؛ حسام الدين إسماعيل وسلفي دنواه وميشيل توشرر: الخان الخليلي وما حوله، ج٢، ص ١١، ١٤ ـ ١٥ ، ١٦ ـ ١٧ ، ١٩ ، ٢٠ ـ ٢١ ، ٢٧ ـ ٢٨، وملحق الوثائق.

(١١) أثر رقم ٤٤. المقريزي: الخطط، ج ٢، ص ٢٨١

(١٢) أثر رقم ٣٦ ، المقريزي: الخطط، ج ٢ ، ص ٣٨٢ ـ ٣٨٣.

T. Dzierzykray-Rogalski, J. Kania

et M. al-Minabbawi: The Investigations of Burial Crypts in the Mausoleum of Princess Tatar al-Higazyya in Cairo, Annales Islamologiques, Institut Francais D;Archeologie Orientale Du Caire Tom XX 111, 1987. pp. 73-83.

(١٣) أثر رقم ١٣٣ . المقــريزي: الخطط، ج ٢، ص ٣١٦ ـ ٣١٧؛ ابن حبيب، الحسن بن عمر، ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م: تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، ٣ أجزاء، تحقيق د. محمد محمد أمين، القاهرة ١٩٧٦ ـ ١٩٨٦م، ج٣ ، ص ٣٨٦ ـ ٣٩٣؛ محمد حسام الدين إسماعيل عبد الفتاح: منطقة الدرب الأحمر، دراسة للقسم الثالث من ظاهر القاهرة القبلي، دراسة أثرية تسجيلية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية آداب سوهاج، جامعة أسيوط (جنوب الوادي) سنة ١٩٨٦م، ص ٣٤ ـ ٣٧، ٢٧٠ ـ ٢٧٩ .

(١٤) مرفت محمود عيسى: مدرسة خوند بركة (أم السلطان شعبان) دراسة أثرية معمارية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآثار جامعة القاهرة، ١٩٧٧م، ص ٧٢ ـ ٧٦ .

(١٥) أنشأ السلطان برسباي هذه المدرسة أيضاً ضمن مجموعة معمارية تجارية التفت حولها عبر قصبة القاهرة (شارع المعز لدين الله الحالي) من وكالات وقياصر لم نر مثلها بعد ذلك سوى مجموعة السلطان الغوري في القرن ١٠هـ/ ١٦م. حسام إسماعيل : ادارة الأوقاف في العصر المملوكي، الخان الخليلي وما حوله، ج ١، ص ٤٩، ج ٢، ملحق الوثائق.

(١٦) أثر رقم ١٦٢ .

Andrzeg Misiorowski, Mausoleum of Qurqumas in Cairo An Example of The Architecture and Building Art of Mamlouk Period, Warszawa, 1979.

(١٧) د. محمد عبد الستار عثمان: نظرية الوظيفية، ص ٢١٠ .

(١٨) نفسه ، ص ٢٠٩ .

(١٩) أثر رقم ٤٢٨ .

(٢٠) المقريزي: الخطط، ج ١، ص ٣٧٩ ـ ٣٨٠، حيث قال «وعبر السلطان (الناصر فرج بن برقوق) إلى القاهرة من باب النصر.. حتى مر بالمدرسة التي أنشأها الأمير جمال الدين يوسف الأستادار برحبة باب العيد.. ولما سار السلطان من هذه المدرسة مر بمدرسة أبيه في بين القصرين (أثر رقم ١٨٧) فنزل إليها أيضاً وزار جده، ثم ركب وخرج من باب زويلة إلى القلعة»، وهذا النص هو مثال للمواكب داخل مدينة القاهرة من بداية العصر الأيوبي، وحتي آخر العصر العثماني وعهد أسرة محمد علي. أنظر كذلك: العسقلاني: إنباء الغمر، ج٢، ص ٤٨٠؛ المقريزي: السلوك، ج٤، ق ١، ص ١٧٥؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج١٣، ص ١٢٠؛ الجبرتي: عجائب الآثار، ج٧، ص ٤٠٨ .

(٢١) المقريزي: الخطط، ج٢، ص ١١٠ .

(٢٢) محمد حسام الدين إسماعيل عبد الفتاح: بعض الملاحظات على العلاقة بين مرور المواكب ووضع المباني الآثارية في شوارع مدينة القاهرة، حوليات إسلامية، المجلد ٢٥، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، القاهرة سنة ١٩٩٠م، ص ١ ـ ١٠ .

(٢٣) سلفي دونوا وشارل ديبول وميشيل توشيرير وجان لوك أرنو ومحمد حسام الدين إسماعيل: الخان الخليلي وما حوله، ج٢، خريطة رقم ١٥ .

المدرسة الماردانية من أجمل مباني المدارس الأيوبية في دمشق



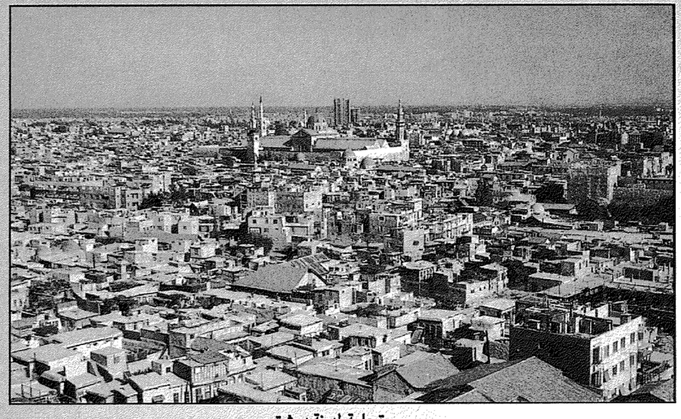
بقلم :

محمد بشير زهدي

مدير المتحف الوطني بدمشق - سوريا

بناء المدارس من أعمال الخير عند العرب والمسلمين :

لقد حث الإسلام على التحلي بالفضائل وحب الخير وممارسته في مختلف ميادين الحياة كما حث على حب العلم والتعلم والتعليم، (وطلب العلم ولو في الصين)، وان (طلب العلم فريضة) .. مما يفسر رغبة الخلفاء والأمراء والسلاطين والملوك والأثرياء من رجال ونساء في تشييد المباني العامة في خدمة المجتمع آخذين بعين الاعتبار أحاديث الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) وانه إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية وعلم ينتفع به وولد صالح يدعو له .. ولا شك أن تشييد مباني المساجد والجوامع والمدارس والتكايا والحمامات والبيمارستانات وسبل الماء .. وغيرها مفيد للجميع . وكانت المساجد والجوامع بمثابة جامعات . واذا كان الوزير نظام الملك اهتم بتأسيس مباني المدارس المستقلة عن مباني الجوامع والمساجد .. فان مباني هذه المدارس انتشرت في كل مكان وتزايد عددها، وتعدد تخصصها وظهرت المدرسة كمبنى مستقل عن الجامع، له صفاته المعمارية ومتطلباته التدريسية .



ـ صورة عامة لمدينة دمشق.

وان كثرة مدارس حي الصالحية في دمشق جعلته يعرف بـ (حي المدارس). ومازالت مباني مدارس هذا الحي تبدو كأنها كائنات معمارية تتحدث بصوت الصمت ولغة فن العمارة عن أولئك الآباء والأجداد وأمجادهم، الذين جعلوا (دمشق مدينة المدارس).

وان كثرة إعجاب الرحالة الأندلسي ابن جبير بالمدارس وفعالياتها الثقافية والروحية والتربوية والاجتماعية مما جعله يعتبر (المدارس معيار النهضة).

لقد ظهر الايوبيون كأقوى السلالات الحاكمة من عام ١١٦٩ حتى ١٢٧٠م في فترة الحروب الفرنجية الصليبية العدوانية التي دامت من عام ١٠٩٦م حتى عام ١٢٩١م وحكمت بلاد الشام ومصر واليمن.. واستطاعت أن توحد الجبهة العربية الإسلامية للقضاء على غزو الفرنجة الصليبيين المعتدين وتحرير الأرض منهم.. فشيد الأيوبيون أهم المباني الدفاعية (من قلاع وأبراج وحصون وأسوار..) وأجمل المباني الدينية (من جوامع ومساجد..) وأحدث المباني الثقافية (المدارس بأنواعها المختلفة).

وان كثرة المدارس في دمشق وأهمية فعالياتها العلمية والثقافية والتربوية والروحية والاجتماعية وغيرها جعلت الشاعر (ابن منقذ الكتاني) ينشد في



مدارس دمشق ونشاطاتها العلمية قائلا:

ومدارس لم تأتها في مشكل
إلا وجدت فتي يحلّ المشكلا
ما أمّها امرؤ يكابد حيرة
وخصاصة إلا اهتدى وتحولا
وبها وقوف لا يزال مغلها
يستنفد الأسرى ويُغني النبلا
وأئمة تلقي الدروس، وسادة
تشفي النفوس وداؤها قد أعضلا
ومعاشر اتخذوا الصنائع مكسبا
وأفاضل حفظوا العلوم تجملا

من تلك المدارس الهامة:

ـ المدرسة العمرية: شيدها الشيخ عمر بن أحمد بن قدامة في حي الصالحية.

ـ المدرسة الماردانية: شيدتها عزيزة الدين اخشا خاتون بنت قطب الدين صاحب ماردين وهي زوجة السلطان الملك المعظم عيسى.

ـ المدرسة الصاحبية: شيدتها ربيعة خاتون أخت السلطان صلاح الدين الايوبي وزوجة أمير آربيل.

ـ المدرسة المرشدية: شيدتها خديجة خاتون بنت الملك المعظم عيسى.

ـ المدرسة الحافظية: شيدتها أرغون الحافظية في عهد الملك العادل.

ـ المدرسة الأتابكية: شيدتها الأميرة تركان خاتون بنت حاكم الموصل في عهد الملك العادل وزوجة الملك الاشرف موسى.

ـ المدرسة الركنية: شيدها ركن الدين.

ـ المدرسة الجهاركسية: شيدها جهاركس في عهد صلاح الدين... الخ.

موقع مبنى المدرسة الماردانية:

يقع مبنى المدرسة الماردانية على سفح جبل قاسيون في حي الجسر الأبيض ـ الصالحية في دمشق شمال ضفة نهر ثوري أحد فروع بردى ويطل هذا المبنى على الطريق المؤدية الى حي الشيخ محي الدين بن عربي،، والطريق المؤدية الى حي المهاجرين. والطريق المؤدية إلى شارع المقدّم وحي الجهاركسية في الصالحية. وفي غرب هذا المبنى تبدو جادة نوري باشا.

مبنى المدرسة الماردانية من المباني الأثرية والتاريخية المسجلة:

ان مبنى المدرسة الماردانية هو أحد المباني الأثرية والتاريخية المسجلة رسمياً في المديرية العامة للآثار والمتاحف برقم ٦٣، ورقم سجله في الدائرة العقارية ٥٩٠.

مبنى المدرسة الماردانية وبانيته:

كانت عزيزة الدين اخشا خاتون بنت الملك قطب الدين مودود بن أتابك زنكي صاحب ماردين تتصف بالصلاح والتقوى وتميل الي العمارة والإسهام في العمران كغيرها من نساء السلالة الأيوبية، وكانت قد تزوجت من الملك المعظم عيسى. ومن أعمالها التي خلّدت ذكرها بناؤها مبنى المدرسة الماردانية عام ٦١٠هـ وقد دامت عمليات البناء نحو سبع سنين وقد

أوقفت هذا المبنى عام ٦٢٤هـ. وقيل انها بعد وفاة زوجها الملك المعظم عيسى عادت إلى ماردين. وقيل أيضاً أنها حجت واستمرت مقيمة في مكة المكرمة. لهذا لم تدفن في مبنى المدرسة الماردانية.

من أوقاف مبنى المدرسة الماردانية :

أوقفت عزيزة الدين اخشا خاتون بنت الملك قطب الدين للمدرسة الماردانية أوقافاً وقد ورد في كشف محمد بن منجك الناصري عام ٨٢٠هـ ما يلي:

- بستان جوار الجسر الأبيض.
- بستان آخر جوار المدرسة الماردانية.
- ثلاثة حوانيت في الجسر الأبيض.
- أحكار في جوارها.

المدرسة الماردانية في دراسات الباحثين وكتب المؤلفين :

اهتم بدراسة مبنى المدرسة الماردانية عدد من الباحثين والمؤرخين العرب والمسلمين والأجانب نذكر منهم:

- ابن شداد : الأعلاق الخطيرة.
- ابن طولون : القلائد الجوهرية.
- ابن عبد الهادي : ثمار المقاصد.
- ابن قنان : المروج السندسية.
- أسعد طلس : ذيل ثمار المقاصد.
- بدران : منادمة الأطلال.
- بشير زهدي : دمشق وأهميتها العمرانية والمعمارية عبر العصور.
- عادل نجم: المدرسة في العمارة الأيوبية في سورية (مجلة الحوليات الاثرية السورية المجلد ٢٤ عام ١٩٧٤ ص ٧٥.
- العلموي : مختصر الدارس .
- النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس.
- محمد كرد علي : خطط الشام.
- J.sauvaget: Les Monuments Historiques De Damas P.96
- وغيرهم ..

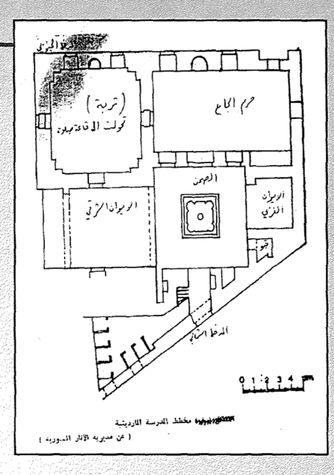


ـ المدرسة الماردانية في حي الجسر الأبيض (لوحة الفنان عز الدين همت).

وصف مبنى المدرسة الماردانية :

يمكن وصف مبنى المدرسة الماردانية وأقسامه المختلفة كما يلي:

١ ـ مدخل مبنى المدرسة العمرية: يقع مدخل مبنى المدرسة الماردانية في الجهة الشمالية من هذا المبنى، ويؤدي الى بهو صغير كان يعلوه مبنى صغير استخدم



ـ مخطط المدرسة الماردانية (عن مديرية الآثار السورية).

مدرسة للأطفال ومكان سكن خادم الجامع. والجدير بالذكر فوق باب المدخل يوجد نحت منقوش. وكانت الحمامات في الجهة الشرقية خلف باب المدخل.

٢ ـ صحن الجامع: يؤدي البهو في الجهة الجنوبية الى صحن الجامع الذي تتوسطه بحرة جميلة حجرية مربعة الشكل غزيرة المياه، وتمتاز أرضية هذا الصحن ببلاطاتها الحجرية المرصوفة بشكل هندسي متميز بجمال التشكيل وتجاور اللون الاسود مع اللون الأصفر. وقد وصفه الأجانب بعبارة (أرضية زخرفية Dauage Decoratif) وهناك باب صغير يؤدي إلى القبو ويقع الى يمين الداخل إلى هذا الصحن.

٣ ـ إيوان صغير: يطل صحن جامع المدرسة الماردانية في الجهة الغربية على إيوان صغير يستخدم للصلاة في فصل الصيف.

٤ ـ إيوان شرقي: يطل صحن جامع المدرسة الماردانية في الجهة الشرقية على إيوان كبير يستخدم للصلاة في فصل الصيف وفي منتصف جداره الجنوبي باب يؤدي الي قاعة حجرية مربعة الشكل تعلوها قبة جميلة تقوم فوق مضلعين، المضلع الاسفل مؤلف من ثمانية أضلاع فوق المضلع العلوي المؤلف من ستة عشر ضلعاً، ويزين هذه الأضلاع نوافذ قمريات زجاجية جميلة الألوان تضفي الجمال على داخل هذه القاعة التي استخدمت تربة.

٥ ـ حرم جامع المدرسة الماردانية: هناك ثلاثة أبواب في جنوب صحن جامع المدرسة الماردانية تؤدي إلى الحرم، البابان الشرقي والغربي صغيران، في حين أن الباب الأوسط أكبر مساحة ويتألف من أربع فردات خشبية لها زخارف هندسية مستقيمة مؤلفة من أربعة مربعات في الوسط وثلاثة مربعات في الفردتين الجانبيتين، يحيط بكل من أعلاها وأسفلها نصف مربع.

يتألف حرم جامع المدرسة الماردانية من رواق واحد يعلوه سقف جمالون من الخشب يغطيه القرميد الأحمر، وفي الجهة الجنوبية من هذا الحرم محراب جميل وإلى يمينه منبر خشبي قديم وجميل. تضيء هذا الحرم نافذتان جنوبيتان ونافذة غربية،، وفي أعلى جدران المصلَّى قمريات من الجص جميلة جداً بألوانها. وتقوم مئذنة جامع المدرسة العمرية المربعة الشكل والكثيرة الارتفاع. وفي جوانبها نوافذ تضيء درج هذه المئذنة.

٦ ـ التربة في مبنى المدرسة الماردانية: في منتصف الجدار الشرقي لحرم جامع المدرسة الماردانية باب يؤدي الى تربة لها باب آخر في جنوب

الإيوان الشرقي. وقد دفن في هذه التربة أحد أمراء المماليك عام ٨١٦هـ هو اسنك بن ازدمر.. وكانت هناك قبور أخرى نقلت إلى تربة الباب الصغير في مدينة دمشق وذلك رغبة في توسيع أماكن عبادة المصلين في مبنى هذه المدرسة الماردانية.

٧ ـ وفي خارج مبنى المدرسة الماردانية في الجهة الغربية من مبنى المدرسة الماردانية كان هناك جرن حجري مستطيل الشكل يشبه الناووس الروماني. وكانت المياه تصبّ في هذا الجرن وتملؤه ماء يروي ظمأ الحيوانات المارة في هذه الطرقات المحيطة بمبنى المدرسة الماردانية.

المباني الملاصقة لجدران مبنى المدرسة الماردانية في الخارج :

شيدت في جنوب مبنى المدرسة الماردانية المباني الآتية:

ـ حانوتان ملاصقان للجدار الخارجي لمبنى حرم جامع المدرسة الماردانية.

ـ أحد هذين الحانوتين اتخذهما السيد خالد الكلتا وأخوه لبيع الخضار والفواكه.

ـ أما الحانوت الآخر فقد اتخذه السيد سليم متجرا لبيع الساعات المختلفة وتصليحها.

ـ مبنى بيت صغير فوق الحانوتين له باب، ولغرفه نوافذ في الجهة الجنوبية.

ـ حانوت صغير ملاصق للجدار الخارجي الغربي لمبنى حرم جامع المدرسة الماردانية اتخذها بائع لبيع سيجارات التبغ والتنباك.

مما جعل الأستاذ جان سوفاجيه يقول: المنظر الخارجي رائع شوه بمبان حديثة.

(Exterievr Pittoresque Defigure Par Des Constructious Modernes)

وإن جمال هذا المكان وهدوءه مما جعله بمثابة مقهى يجتمع فيه بعض وجهاء الحي، ويتبادلون الأحاديث المختلفة ويتسلّون بالتدخين بالزاجيل وضجيج مياهها.

من المدرسين في مبنى المدرسة الماردانية :

كان التدريس يعتبر أشرف المهن العلمية، وكان المدرس ينال الأجر من أهل التلاميذ والثواب من الخالق العظيم، وكان يشترط في المدرس التفرغ للتدريس في المدرسة الماردانية، والاهتمام بأوقافها.. وكان التنافس وسوء التفاهم مما يؤدي الى عزل المدرس وتكليف مدرس آخر غيره بالقيام بمهمة التدريس في مبنى المدرسة الماردانية.

ومن المدرسين الذين تعاقبوا على التدريس في مبنى المدرسة الماردانية نذكر:

ـ الصدر الخلاطي.

ـ برهان الدين ابراهيم التركماني.

ـ شمس الدين معكشاه المعروف باسم قاضي بيسان.

ـ برهان الدين ابو اسحق حمزة بن خلف بن ايوب.

ـ الصدر ابراهيم بن عقبة.

ـ شمس الدين مشرف العجمي.

وفي الثلاثينيات من هذا القرن العشرين كان الشيخ محمود التاجي إمام الجامع ومدرس الأطفال في مبنى المدرسة الماردانية، وربما ورث هذا العمل من

أبيه الشيخ التاجي. والجدير بالذكر أن الكتاتيب كانت مدارس لتدريس الأطفال، ثم تناقص عددها وزالت أخيراً لعدم مواكبتها روح التطور التربوي الحديث، وحلّت محلها المدارس الرسمية بمناهجها التربوية المتطورة[*].

عادة الدفن في الترب:

- اعتادت الطبقة الحاكمة والغنية على تشييد مباني المدارس والجوامع، وكانت توصي بأن تدفن في أحد أماكن هذه المباني التي كانوا يعتبرونها أماكن مقدسة تحقق طموحاتهم الروحية بعد الموت. وتضمن حماية قبورهم من الخراب والاندثار.

وإذا كانت عزيزة الدين اخشا خاتون بنت الملك قطب الدين، وهي التى كانت زوجة الملك المعظم عيسى، قد بنت مبنى المدرسة الماردانية وكانت تأمل أن تدفن في هذا المبنى، فإن وفاة زوجها الملك المعظم عيسى جعلها تعود حزينة إلى مدينتها ماردين، وهناك رأي بعضهم بأنها أمضت السنوات الأخيرة من حياتها في مكة المكرمة.. مما حال دون دفنها في مبنى هذه المدرسة الماردانية. فدفن فيه أمير مملوكي هو استك بن ازدمر، أخو الأمير اسيك بن ازدمر. وتتحدث النصوص عن دفنه في تربة هذا المبنى فاشترى أخوه وقفاً أوقفه على مقرئين يقرآن آيات القرآن الكريم على روحه، كما اشترى لهذه المدرسة بُسُطاً أرضية تحمي التلاميد من الرطوبة والبرد. وكان يتردد عدة مرات إلى قبره تعبيراً عن الوفاء وطلباً لرضا الخالق العظيم. وقد خصص له قراءة القرآن وختمها في ليالي أيام الجمع.. الخ.. مما يوضح لنا العادات والتقاليد التي تفرض على الأحياء احترام الموتى.

مشاريع توسيع مبنى المدرسة الماردانية:

بعد ما أصبح حي الصالحية مدينة عامرة وكثيرة السكان،، شعر المصلّون بضيق مكان الصلاة في هذا المبنى وفكروا بمشاريع توسع هذا المبنى الأثري الهام.

وفي فترة الانتداب تبنت دائرة أوقاف دمشق فكرة ضرورة توسع مكان الصلاة في مبنى المدرسة الماردانية ولكن أفكاراً جديدة ظهرت تقضي بحماية المباني الأثرية والتاريخية كما هي للأجيال القادمة فكلف المهندس الفرنسي روبيرت آمي بزيارة مبنى المدرسة الماردانية برفقة مهندس دائرة الأوقاف ودراسة إمكانات توسع الجامع لتلبية متطلبات المصلين في هذا الحي الجسر الأبيض - الصالحية الذي يتزايد فيه عدد السكان باستمرار. ولكن الدراسة تضمنت تعذر إمكان توسع هذا المبنى الواجب المحافظة عليه كما هو للأجيال القادمة.

وبقيت فكرة توسع الجامع، ودراسة الإمكانات المختلفة وفي بداية عام ١٩٦٩ تقرر نقل القبور من تربة هذا المبنى إلى مقبرة الباب الصغير، ورغم اعتراض أحفاد الموتى المدفونين في تلك القبور، فقد نفذ هذا المشروع المتضمن نقل رفات الموتى إلى مقبرة الباب الصغير، وضُمّت هذه القاعة المربعة التي تعلوها القبة الجميلة الى أماكن الصلاة في مبنى المدرسة العادلية واستخدم المصلون في هذه القاعة المربعة الباب الجنوبي في الإيوان الشرقي كما دخلوا إليها من باب آخر يقع في شرق حرم جامع المدرسة الماردانية، أضف الى ذلك الباب الجنوبي المؤدي مباشرة من شارع الشيخ محي الدين إلى هذه القاعة المربعة.

لم يحقق هذا المشروع متطلبات المصلّين المتزايدة

أعدادهم، مما جعل القائمين على مشروع توسيع هذا الجامع يستملكون رسميا العقارين المجاورين في الجهة الشرقية ويبنون عوضاً عن الغرفة الصغيرة التى كانت فوق بهو المدخل الشمالي مصلى كبيراً يعلوه طابق مصلى آخر أصغر حجماً منه. ولكل منهما نوافذ إضاءة كافية.

مما تطلب تعديلا في الجهة الشمالية تضمن أماكن الحمامات،، وإضافة مدخل في الجهة الشمالية جانب المدخل القديم يؤدي الى درجين أحدهما يوصل إلى الديوان الشرقي، ويوصل الآخر الى درج يؤدي الى المصلى الجديد في الطابق العلوي.

مشروع توسيع مبنى جامع المدرسة الماردانية بين المؤيدين والمعارضين :

لقي مشروع توسيع مبنى جامع المدرسة الماردانية تأييد المؤيدين ومعارضة المعارضين ومن أهم أفكارهم نذكر ما يلي:

١ ـ فيما يتعلق بنقل القبور ورفات الموتى من تربة مبنى المدرسة الماردانية:

ـ رحب الكثيرون بهذا المشروع الذي أضاف مصلى الى أماكن الصلاة في حرم هذا المبنى والإيوان الشرقي والغربي.

ـ اعترض أحفاد أولئك الموتى على عملية نقل القبور ورفات الموتى من تربة مبنى المدرسة الماردانية.

٢ ـ فيما يتعلق باستملاك عقارين مجاورين في الجهة الشمالية لمبنى المدرسة الماردانية:

ـ رحب كثير من المصلين بهذا المشروع الذي ضمن لهم الصلاة يوم الجمعة في جامع هذا الحي الذي يسكنون فيه.

ـ واعترض الآن ربون على هذا المشروع الذي أدخل تعديلا كبيراً وتغييراً ملحوظاً في الجهة الشمالية من هذا المبنى وواجهته الخارجية.

وهكذا نجد صعوبة هذا الموضوع في عصر يفرض علينا الأخذ بعين الاعتبار ما يلي:

(أ) وجوب المحافظة على المباني الأثرية والتاريخية للأجيال القادمة، وترميمها في عصر أصبح فيه ترميم هذه المباني والمحافظة عليها من معايير رقي الأمم وتقدمها ووعيها الحضاري.

(ب) متطلبات عصرنا الحاضر.

من الطرائف المتعلقة بالمدرسة الماردانية :

إذا كان (المثقفون) يتميزون بوعيهم الحضاري وحسّهم الجمالي وحرصهم على المحافظة على التراث المعماري، فان بعض (رجال الأعمال) حريصون على الربح المادي في كل زمان ومكان.

ومن الطرائف المتعلقة برغبة بعض رجال الأعمال في الربح نذكر ما يلي:

ـ طلب المواطن (.....) رسمياً استئجار قسم من الجدار الجنوبي الخارجي وذلك لأغراض تجارية.. فكان جواب السلطات المختصة بعدم الموافقة.

ـ طلب المواطن (....) رسميا استئجار الخلع الواقع مع المحضر ٥٨٩ فكان جواب السلطات المختصة بعدم الموافقة.

ـ سوء استخدام الباعة جدران مبنى المدرسة الماردانية وقيام المؤسسة بوضع كشك بيع الخبز أمام واجهة المبنى مما شوّه واجهة المبنى وتطلب رفع الكشك ومنع الباعة من التجارة حول مبنى الجامع.

- قيام المواطن (....) بوضع خيمة من القماش أمام واجهة مبنى المدرسة الماردانية في الجهة الغربية.. وإجباره على إزالة هذه الخيمة... الخ.

اهتمام وزارة الأوقاف بالمحافظة على المباني الأثرية:

كثيراً ما كان بعض القيّمين على المساجد والجوامع والمدارس يقومون بأعمال الترميم دون أن يدركوا أن الترميم المعماري أصبح في عصرنا علماً له مبادئه وخبرته.. كما أصبح فناً لأنه يتطلب الذوق الفني في الترميم المعماري للمحافظة على جمالية هذه المباني الأثرية.. مما يفسر بلاغ السيد وزير الأوقاف رقم (٧) في ١٩٧٧/٢/١ يتضمن عدم السماح بإجراء أي ترميم للمباني الأثرية إلا بموافقة رسمية وخطية.. مما اسهم في حماية المباني الأثرية والتاريخية التابعة لوزارة الأوقاف.

المدرسة الماردانية في روائع الفنانين :

إن جمالية مبنى المدرسة الماردانية ألهمت الفنانين السوريين ودفعتهم إلى إبداع روائعهم الفنية التى تمثل جمالية هذا المبنى الأثري الجميل.

ومن أولئك الفنانين نذكر اسم الفنان (ج . جنوره) والفنان (عز الدين همت).. وغيرهما، وتميزت لوحة الفنان الأستاذ عز الدين بخصائص واقعية جعلت هذه اللوحة وثيقة مفيدة في دراسة المظهر الخارجي لهذه المدرسة الماردانية. ففيها تبدو جمالية المدرسة الماردانية ومظهرها الخارجي (مثل المئذنة المربعة الشاهقة والقرميد الأحمر الجميل الذي يغطي سقف حرم الجامع بشكله الجملون. وهناك القبة الجميلة القائمة فوق مضلعين احدهما مثمن الأضلاع والآخر له ستة عشر ضلعاً، وتبدو النوافذ الجميلة المفردة والمزدوجة لاضاءة داخل هذه القاعة المربعة التى كانت في الماضي تربة المبنى وغدت قاعة صلاة إضافية جانب الحرم، كما تبدو في هذه اللوحة صورة الحانوتين في جنوب مبنى المدرسة الماردانية والمسكن المبنى فوق هذين الحانوتين. أضف الي ذلك حانوت بائع التبغ والتنباك في الجهة الغربية من مبنى المدرسة الماردانية.

من التوصيات :

إن كل من يهتم بدراسة التراث المعماري ويحرص على المباني التاريخية والأثرية وجمالياتها والتعريف بها لابد أن يوصي بما يلي:

- المحافظة على مبنى المدرسة الماردانية وبقية المباني الأثرية والتاريخية المختلفة التي تشكل تراثنا المعماري وتؤكد جذورنا الحضارية.

- حسن التعريف بتراثنا بمختلف الوسائل داخل بلادنا وخارجها.

- حسن الاهتمام بالدراسات المقارنة.

- متابعة تسجيل المباني الأثرية والتاريخية والمحافظة عليها والتعريف بها.

- متابعة حسن ترميم المباني الأثرية والتاريخية وحسن الإفادة منها بتوظيفها المناسب في حياتنا المعاصرة.

- متابعة الاهتمام بالمصطلحات المعمارية والأثرية والفنية وغيرها.

- تخصيص زاوية للمباني الأثرية والتاريخية في أدب الأطفال.

لمحة عن جمالية مبنى المدرسة الماردانية :

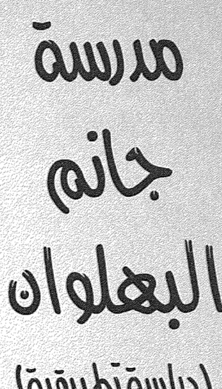
اذا كان لكل امرىء مفاهيمه الجمالية فإن لكل مبنى جماله المعماري،، وإن جمالية مبنى المدرسة الماردانية تجذبنا إليها وتثير فينا الإعجاب بها للأسباب الآتية:

- إن مبنى المدرسة الماردانية من الحجر وان مداميكه الحجرية البيضاء الصفراء والسوداء تتعاقب فيه منسجمة كل الانسجام وتوحي بالجمال المعماري والذوق الفني والطموح والشموخ الذي يتجسد في ارتفاع مئذنته المربعة الشكل التي تعبر عن هذا الطموح الروحي في هذا الكون الواسع الجميل.
- إن أرضية هذا المبنى مرصوفة بالأحجار السوداء والصفراء بتكوينات فنية جميلة التشكيل والتكوين الهندسي البديع.
- جمالية النوافذ والقمريات الجميلة التشكيل والألوان.
- جمالية المحراب .
- جمالية المنبر الخشبي وحشواته وتكويناتها الهندسية البديعة.
- جمالية الأبواب الخشبية وحشواتها الجميلة التكوين الهندسي.
- جمالية الأقواس والقبوات.
- جمالية السقف الخشبي الجملون.
- جمالية القبة المرتفعة القائمة فوق مضلع مثمن يعلوه مضلع مؤلف من ستة عشر ضلعاً.
- جمالية البحرة المربعة الشكل، وجمالية مياهها الغزيرة وايقاعاتها الموسيقية.
- جمالية انسجام مبنى المدرسة الماردانية مع المباني المجاورة، مما يحقق جمالية النسيج العمراني.
- جمالية السجاد والبسط المفروشة في أرضية مبنى المدرسة الماردانية.
- جمالية متعدد وظائف المدرسة الماردانية (للصلاة، وتدريس المصلين، وتعليم الأطفال، وكثرة الخدمات الصحية).
- إن جمالية مبنى المدرسة الماردانية تجعل المرء يشعر وكأنه في مشفى للروح يحرره من العناء والتعب والهم والقلق ويبعث فيه نشوة الإيمان والراحة النفسية والإحساس بالسعادة الروحية الحقيقية.

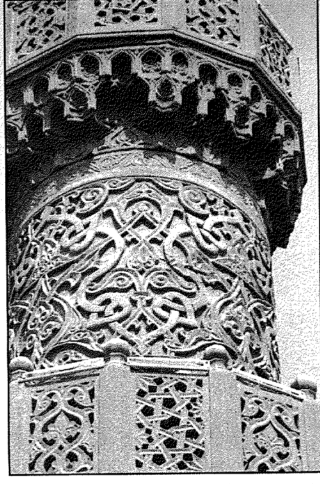
والخلاصة: مما تقدم تبدو أهمية (فن العمارة مرآة الحضارة) وفائدة دراسة مبنى المدرسة الماردانية وغيره من المباني الأثرية والتاريخية، ووجوب المحافظة على هذا الأثر المعماري الجميل وتقدير تقوى وصلاح بانيته المرحومة عزيزة الدين اخشا خاتون بنت الملك قطب الدين صاحب ماردين وزوجة الملك المعظم عيسى،، كما يجب تقدير مهارة كل أولئك المهندسين المعماريين والعمال الفنيين وخبرتهم المهنية وذوقهم الفني وحسّهم الجمالي المعماري وحسن إسهامهم في إغناء التراث المعماري العربي الاسلامي.

المنهل :

[*] ما كان للكتاتيب أن تزول بحجة التطور، ذلك لانها هي الوحيدة التي استدامت على تحفيظ الناشئة القرآن الكريم، وهي لا تزال تؤدي دورها في تحفيظ القرآن الكريم في كثير من الدول العربية والعالم الاسلامي، وان كانت قد اتخذت في بعض البلدان مسميات اخرى مثل (الجمعية الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم) أو الخلوة أو الزاوية.. وهي مما ينبغي الحفاظ عليه..



(دراسة تطبيقية)



مدرسة جانم البهلوان – السروجية

١ـ الموقع:

تقع المدرسة بالسروجية عن يمين الذاهب إلى باب زويلة تجاه عطفة جامع قوصون، وتطل المدرسة بواجهتها الشمالية الغربية على شارع السروجية، ويحيط بها من الجهات الثلاث مبان سكنية وقد أقيمت المدرسة في محل مصلى الأموات (أثر رقم ١٢/ وثيقة ٩٥ج مؤرخه في ١٢ شوال ٨٧٦هـ/ ٢٣ مارس ١٤٧٢م).



إعداد

مركز احياء تراث العمارة الاسلامية

– القاهرة –

٢ـ المنشيء :

أقام هذه المدرسة السيفي جانم بن عبد الله السيفي قاني باي البهلوان. شغل وظيفة أمير عشرة، تولى كشف الصعيد. كما شغل وظيفة دوادار للأمير يشبك من مهدي. ويستدل من الرنك على المنبر بأنه شغل وظيفة الساقي والسلاحدار أيضا، توفي في ١٣ ذي القعدة ٩١٩هـ/ ١٠ يناير ١٥١٤م.

٣ـ تاريخ الإنشاء :

بدأ العمل في الإنشاء عام ٨٨٣هـ/ ١٤٧٨م ويسدل على تاريخ الانتهاء من النص بالدورقاعة في رمضان ٨٨٣هـ/ ديسمبر ١٤٧٨م، وقد الحق بها جانم ضريحا له؛ بدأ العمل به في رمضان ٩١٥هـ/ يناير ١٥١٠م وانتهى في صفر ٩١٦هـ/ يونيو ١٥١٠م.

٤ـ وظيفة المبنى :

أقيم المبنى كمدرسة وجامع حيث تقام به خطبة الجمعة طبقا لما أشار إليه علي مبارك؛ أما السخاوي فقد أشار إليه في تحفة الأحباب كجامع فقط.

٥ـ الوصف المعماري :

١/٥ـ المسقط :

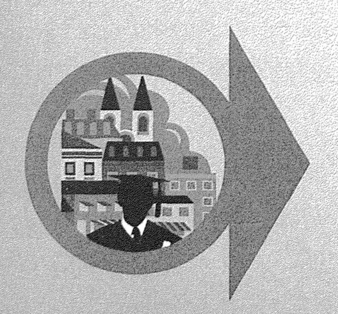
يتكون المسقط من دركاة لطيفة مغطاة بقبو مروحي (Folded Vault) تؤدي إلى دهليز منكسر ينتهي بالمطهرة على الجانب الأيمن من فلتدركاه باب فراغ السلم المؤدي الى الحجرات العلوية وسطح

اضاءة

* المركز عضو مشارك في المجلس الدولي للآثار ICOMO.

* المركز عضو مشارك في منظمة العواصم والمدن الاسلامية.

* مدير المركز الأستاذ الدكتور / **صالح لمعي مصطفى**، استاذ العمارة الاسلامية والترميم ، عضو المجلس التنفيذي الدولي للآثار.



المدرسة، بينما يؤدي الباب عن اليسار إلى الدهليز المنكسر.

وعن يسار الدهليز يوجد باب معقود يؤدي الى فراغ المدرسة، والدهليز مغطي جزئيا بقبو متقاطع وبعضه بسقف خشبي.

يتكون مسقط المدرسة من دور قاعة مستطيلة وايوانين، وينخفض منسوب أرضية الدورقاعة حوالي ٢٠ سم عن منسوب الايوان الشمالي الغربي، وغطيت أرضية الدورقاعة بالرخام بشكل دالات، ويتوسط سقف الدور قاعة فانوس خشبي.

ويتكون الإيوان الجنوبي الشرقي من رواقين (١٥ر١٧ × ٣٥ر٧م) تسير عقودهما المدببة ذات الأرجل موازية لحائط القبلة وتتركز العقود على أعمدة من الرخام غير متزنة إنشائيا، وينفتح الايوان على الدور قاعة عن طريق ثلاث عقود محمولة على عمودين من الرخام، ويتوسط صدر الايوان محراب من الحجر المشهر يكتنفه عمودان من الرخام، وسقف الايوان ملون مذهب به ازار عليه كتابات مقسم بالجسور الخشبية الى مربعات ومستطيلات.

والايوان الشمالي الغربي (٤٠ر١٠ × ٩٠ر٣م) يطل على الشارع بثلاث نوافذ سفلية مستطيلة وثلاث علوية معقودة بعقد مدبب. وينفتح الايوان على الدور قاعة عن طريق ثلاث عقود مدببة محمولة على أعمدة من الرخام، وقد أشار علي مبارك عند ذكر هذا الايوان بأنه مرتفع يصعد إليه بدرج؛ كما أشار الى المسجد بأنه معلق أي أن أسفله حوانيت؛ وهو ما يدل المسقط الذي سجلته لجنة حفظ الآثار العربية في القرن الماضي.

وقد رجح الباحث علي الطايش أن رفع منسوب سقف الحوانيت قد تم بعد رفع منسوب الشارع نتيجة لشق شارع محمد علي وربط الشوارع الجانبية مع شارع محمد علي.

ويؤدي الباب بالإيوان الشمالي الغربي - كان في الأصل شباكا بالحائط الشمالي الشرقي مضاهيا للشباك المقابل بالحائط الجنوبي الغربي من الايوان الشمالي الغربي - إلى قبة الضريح التي الحقت بالمدرسة بعد انشائها بثلاثين عاما وعلى ذلك يمكن تفهم انكسار حوائط الباب لارتباط هذه الفتحة الفترة داخل المدفن بتشكيل الحوائط الداخلية للمدفن ومضاهاتها للحنية المقابلة وكذلك الفاصل في حائط الواجهة.

وتغطي قبة الضريح مربعا ضلعه ٤٠ر٥م وفرشت ارضيتها بالرخام الملون وبنيت حوائطها بأسلوب المشهر، وعمل محراب في صدر حائط القبلة، ونظمت خزائن بالحوائط، ويطل المدفن على الشارع عن طريق نافذتين سفليتين مستطيلتين ونافذتين علويتين قنديليتين، كما وضعت نافذتان بالحائط الشمالي الشرقي.

وقد تم تحويل المسقط المربع للضريح إلى دائرة عن طريق خمسة حطات من المقرنصات.

٢/٥ـ الواجهة الشمالية الغربية:

قسمت الواجهة الى ثلاثة أجزاء: المدخل ـ واجهة المدرسة ـ واجهة الضريح.

يتكون المدخل من دخلة عميقة وضع في صدرها باب المدرسة يعلوه على محوره شباك صغير مستطيل به مصبعات برونزية.

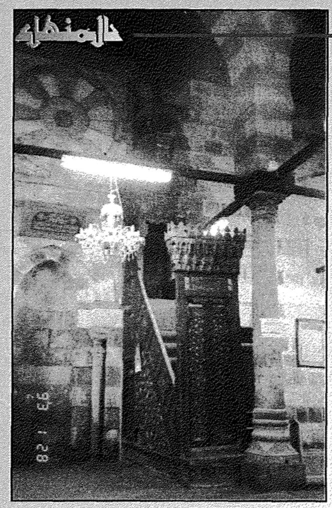
ويغطي المدخل عقد مدائني (ثلاثي الاقواس). وقد استعمل في بناء المدخل الاسلوب المشهر.

أما واجهة المدرسة فهي عبارة عن دخلة غير عميقة؛ نظم بها بالجزء السفلي نافذتين مستطيلتين يعلو كل منهما نافذة قنديلية بسيطة، وتنتهي الدخلة من أعلى بثلاث حطات من المقرنصات.

ويتوج الواجهة الشمالية الغربية شرفات مورقة مركبة شغلت واجهاتها بالحفر بزخارف نباتية متنوعة، وقد تم تحويل منطقة الانتقال بالقبة من الخارج الى المسقط المثمن عن طريق مثلثات مقلوبة، يعلو ذلك رقبه (طبلة) القبة، نظم بها نوافذ صغيرة معقودة بعقد دائرى، أما خوذة القبة فقد شغلت بزخارف نباتية مركبة.

٣/٥ـ المئذنة:

أقيمت المئذنة عن يسار باب المدخل وعمل كرسي



مدرسة جانم البهلوان – السروجية

المئذنة بكامل ارتفاع جسم البناء، وتتكون المئذنة من ثلاث دورات: الأول مربع نظم به اربع شرفات صغيرة محمولة على ثلاثة صفوف من المقرنصات، كما شكل بدن الدورة الاولى بدخلات غير عميقة معقودة بعقد بشكل مثلث يحيط به جفت يتقاطع من أعلى بميمات، وينتهي البدن بشرفة مثمنة محمولة على أربع حطات من المقرنصات.

والدورة الثانية عبارة عن بدن اسطواني زخرف بزخارف نباتية متشابكة، وينتهي من أعلى بثلاث حطات من المقرنصات تحمل الشرفة الثانية، أما الجزء الثالث وهو الجوسق فيتكون من ثمانية اعمدة من الرخام على جلسة مرتفعة تحمل اعلاها شرفة صغيرة

ويتوجها جسم القلة والخوذة البصلية يعلوها صاري الهلال.

وقد سقط الجزء العلوي وعمل بشكل مخروط في العصر العثماني ثم اعادته لجنة حفظ الآثار العربية استرشادا بالمآذن المملوكية لتلك الحقبة التاريخية وبقايا قلة المئذنة التي وجدت.

٦ـ النظام الإنشائي :

١/٦ ـ الحوائط: استعملت الحوائط الحاملة من الحجر الجيري النحيت بنظام المشهر مع حشوة داخلية من كسر الحجر (الدبش) ومونة الجير والطين.

٢/٦ ـ الأسقف: استعمل القبو المروحي من الحجر النحيت في دركاة المدخل والقبو المتقاطع في سقف الدهليز والقبة في الضريح؛ أما الأخشاب فقد استعملت في سقف الايوانين والدورقاعه والغرف العلوية.

٣/٦ ـ الأعمدة: استعملت أعمدة رخامية أخذت من مبان سابقة مختلفة الاشكال بالنسبة للتاج والبدن والقاعدة ومختلفة الارتفاعات مما استدعي عمل قاعدة من الحجر أسفل قاعدة العمود.

٤/٦ ـ العقود: استعملت العقود المدببة برجل ترتكز على طبلية من الخشب.

٥/٦ ـ الأوتار: استعملت الاوتار الخشبية فوق الطبالي لربط الأعمدة وحمل المشكاوات.

٦/٦ ـ الأرضيات: استعمل الرخام الملون في دركاة المدخل والدور قاعة والضريح واستعمل البلاط الحجاري في الايوانين. ومن الأرجح أن الأرضيات كانت في الأصل مغطاه بالرخام.

ـ تم ترميم الحوائط بالمسجد ما عدا الحائط الشمالي للمدفن، حيث الاحجار تفككت بسبب الرطوبة الناتجة من منزل قديم مجاور يتكون من دكان وغرفتين ويتسبب أيضا في غلق نوافذ المدفن، ويتطلب الامر ازالة هذا المنزل قبل القيام باصلاح الحائط، وقد تبين أن المحل يدخل في وقف ابراهيم أغا مستحفظان والحجرتين الى ورثة درويش أغا (زوجته الست أم عفيفي وأولاده).

وقد طالب هرتزبك بشراء الحجرتين وان تقوم الاوقاف بإزالة الدكان فانه علاوة على أنه دكان صغير فانه غير صحي حيث ينزل اليه بست درجات.

٧ـ دراسات الأحجار :

الاحجار:

تم اخذ ثلاث عينات من الاحجار لدراستها بالمختبر (انظر التقرير الفني لدراسة الاحجار المرفق) اتضح وجود نوعية من الاحجار الجيرية:

١ ـ حجر جيري / محاجر المقطم (عدد ٢ عينه).

٢ ـ حجر جيري دولو ميني / جنوب غرب حلوان (عدد ١ عينه).

والعينة الاولى أخذت من حجر متدهور (المدماك

الثاني) بالحائط الشمالي الشرقي بالايوان الشمالي الغربي على ارتفاع ٥٠ر٠م من منسوب ارضية الايوان.

والعينة الثانية والثالثة من الحائط الشمالي الغربي من الايوان الجنوبي الشرقي على ارتفاع حوالي ٠٠ر١م من منسوب الأرضية من حجر متدهور وآخر في حالة (مدماكين متتاليين).

ويتضح من الدراسة أن كلا من قوة الضغط والشد بشكل عام جيدة كما ان الكثافة مقبولة والمسامية بشكل عام جيدة والامتصاص مقبول، مع ملاحظة أن الحجر الدولوميني قد أعطي ناتجاً افضل قبل وبعد المعالجة بمادة التقوية Wacker OH.

ونوصي باستعمال الرش بمادة Wacker H بعد التقوية التي تعالج السطح الخارجي وتقلل إلى حد كبير من الامتصاص للمياه وما تحمله منها من املاح ومواد ضارة بالاحجار وذلك بعد إزالة الاملاح من الاحجار عن طريق الكمادات.

٨ ـ الاضرار بالمبنى :

٨/١ ـ تدهور حاد باحجار المبنى وخاصة بالمدفن بالجسم السفلي والجزء السفلي من حوائط المدرسة.

٨/٢ ـ تدهور بالاعمدة الرخامية وخاصة القواعد الرخامية لثلاثة أعمدة بالايوان الجنوبي الشرقي.

٨/٣ ـ تدهور وتعفن أخشاب التطبيق للسقف الخشبي العلوي بالايوانين والدورقاعه وكذلك بالسقف الأثري المزخرف المذهب بالاضافة الى اسقف الغرف العلوية الملحقة بالمدرسة.

٨/٤ ـ تدهور كرسي المصحف وكذلك المنبر واختفاء الكثير من زخارفه المذهبة (خوذة القبة اعلى جلسة الخطيب).

٨/٥ ـ تدهور بالارضيات الرخامية وهبوط بالارضية وخاصة في ارضية الضريح.

٨/٦ ـ تدهور في الدلف الخشبية للابواب والخزائن والنوافذ وكذلك المصبعات كالخرط مع العلم بأنها كلها من عمل لجنة حفظ الآثار العربية.

٨/٧ ـ تدهور في التغشيات البرونزية لباب المدخل والسنابل (رماح ومخرزات) بالنوافذ السفلية.

٨/٨ ـ تراكم الاتربة والضبخن على أسطح الاحجار بالواجهة والقبة والمئذنة.

٨/٩ ـ تراكم المخلفات فوق سطح منطقة المطهرة.

٨/١٠ ـ تدهور إنشائي يحتاج لعلاج عاجل.

٨/١٠/١ ـ ميول في الحوائط الداخلية في اجزائها السفلية في اتجاه شارع السروجية وذلك في منطقة التواشيح وأعلى العقود.

٨/١٠/٢ ـ إنكفاء الاعمدة في اتجاه شارع السروجية وبالتالي عدم محورية الاعمدة للاحمال الواقعة عليها.

٨/١٠/٣ ـ انفصال في بعض صنج عقد طاقية المدخل وفواصل اللحامات بالنهاية العلوية لحائط المدخل.

٨/١٠/٤ ـ انفصال بين حائط القبلة والحائطين الجانبين بالايوان الجنوبي الشرقي (ايوان القبلة).

المنشآت المائية في العمارة الإسلامية

الماء عصب الحياة في المدن والقرى، فيه تعمر البلاد، ولذا وجه المسلمون منذ فجر العصور الإسلامية جل عنايتهم لهذا العنصر، وواجهوا ندرته بحلول مبتكرة، وعرفوا استغلاله كطاقة في إدارة الطواحين، وتحريك الساعات.

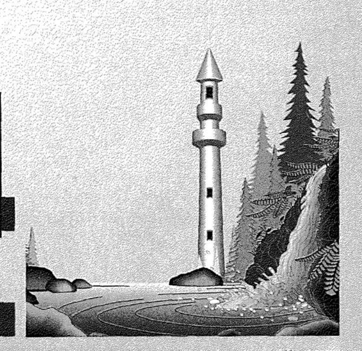
وللأسف الشديد لم تلق المنشآت المائية في العمارة الإسلامية حقها من الدراسة الى اليوم. فقد كان المستشرقون الذين درسوا العمارة الإسلامية يركزون على عمارة المساجد والمدارس الملحق بها مسجد أو الملحقة بالمدارس.

ولنعد بالذاكرة إلى العصور الإسلامية الأولى، ففي الربذة تم الكشف عن منشآت مائية متنوعة منها برك المياه الكبيرة، وكانت تستخدم لحفظ مياه الأمطار والسيول. وكذلك وجد بها نظام دقيق لخزن المياه داخل المنازل السكنية في خزانات أرضية حفرت وبنيت بطريقة هندسية بارعة تحت مستوى أرضيات الغرف والساحات السكنية[١].

بقلم:

د. خالد محمد عزب

- القاهرة -



وعانت جدة من ندرة المياه كثيرا، فحينما زارها المقدسي وصفها بأنها عامرة، أهلها أهل تجارات ويسار.. وأهلها في تعب من الماء، وفي منتصف القرن الخامس الهجري قدم (ناصرو خسرو) وشاهد جدة ووصفها وأفاد بعدم وجود الأشجار والزرع رغم ازدهارها العمراني، وسبب ذلك قلة الماء. وقد عني السلطان قانصوه الغوري عندما كان حاكما لجدة بأزمة المياه وتحويل مياه الشرب من الصهاريج التي تجمع بها مياه السيول والأمطار إلى المياه العذبة التي جلبت من المناطق الغربية من جدة، فجلب الماء من «وادى قوس» الواقع شمال الرغامة. والرغامة تبعد عن جدة حوالى ١٢ كيلومتر[٢].

استخدمت أساليب أكثر تركيبا من الناحية الإنشائية في توصيل الماء من مصادره البعيدة إلى المدن.. والعاصمة الإسبانية مدريد تدين بفضل سقياها وريها بل وحياتها إلى نظام مبتكر، عرف المسلمون كيف يتقدمون به تقدماً عظيماً جدير بالإعجاب - درس المسلمون طبيعة الأرض في مدريد فاكتشفوا أن الهضبة المنبسطة التي تقوم عليها المدينة تتألف من طبقتين أرضيتين: الأولى والعليا أرض رملية تتشرب الماء تليها من أسفل طبقة أخرى من طين أحمر يضرب إلى الصفرة مصمت لا يمتص الماء، ومن تحت هذه الطبقة توجد مياه غزيرة عذبة.

ولابد وأن المسلمين بمقتضى خبرتهم في استخراج هذه المياه عن طريق المجاري الجوفية قد بدأوا بهذه الأبحاث «الجيولوجية» في أرض مجريط، واكتشفوا هذه الثروة المائية الهائلة التي تحتفظ بها المدينة في باطن الأرض، وهكذا طبقوا فيها ما كانوا يعرفونه من تلك النظم التي نقلوها من المشرق الإسلامي، فقد وجدت في نيسابور ومرو وفي الجزيرة العربية.

وتتجلى مقدرة المهندسين المسلمين في حساب العمق الذي توجد عليه تلك المياه الجوفية ثم حفر آبار

اضاءة

- دكتوراة في الآثار - كلية الآثار - جامعة القاهرة.
- عضو الجمعية المصرية للدراسات التاريخية.
- المشرف على مشروع انقاذ اسوار صلاح الدين بالقاهرة، ومشروع ترميم منزل احمد كتخدا بالقاهرة.
- شارك في العديد من المؤتمرات الدولية.
- محرر التراث بجريدة الحياة.
- له عدد من المؤلفات منها:

القدس المدينة والتهويد.

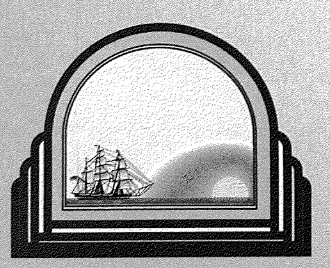
بخارى - تاريخها وتراثها الحضاري.

فقه العمارة الاسلامية.

الفسطاط النشأة والازدهار.

تخطيط وعمارة المدن الاسلامية.

المسلمون واكتشاف الامريكتين.



تصل إليه والتوصيل بعد ذلك بين هذه الآبار بقنوات يراعى فيها أن تحفر في الطبقة الأرضية التي لا تمتص الماء وأن تكون منحدرة انحدارا خفيفا يسمح باجراء الماء بغير توقف، وقد كانت هذه القنوات تصنع من فخار مدريد نفسها، وهو فخار ممتاز نوه الجغرافيون العرب أنفسهم بأنه من أجود ما يعرف من الأنواع إذ هو مصمت لا يتشرب السوائل قوى متماسك لامع يشبه الخزف.

ويكون حفر تلك الآبار في مواضع مرتفعة عن مستوى المدينة وفي ضواحيها الخارجة عنها، وأما القنوات الجوفية فتتجه مقتربة من المدينة، وهى تتألف من قناة ضخمة تعتبر هي «الأم» ومنها تتفرع في داخل المدينة شبكة معقدة من قنوات صغار فرعية. وفي كل «عقدة» يتجمع عندها عدد من تلك الفروع يقام خزان أو مستودع يجتهد في حمايته ووقايته بالطوب والفخار، وهذه الخزانات هي التي يتحكم منها المهندسون والخبراء في توزيع الماء توزيعا عادلا بين الأحياء والمنازل والحدائق العامة والخاصة، وتبنى عليها صهاريج مقفلة بأبواب وقضبان من الحديد ولا يسمح بدخلوها إلا للقنواتي الذي يوكل إليه الصهريج ويكون مسئولا عنه، ويحتفظ بمفتاحه[٣] وهناك صهاريج عامة في الشوارع لسقيا الناس والبيوت وتكون أحيانا على ظهر الأرض وأحيانا أخرى في باطن الأرض، إذ كانت القناة التي تمده على عمق شديد، وحينئذ لا يوصل اليها إلا بسلالم تصل في بعض الأحيان إلى نحو ستين درجة ويلاحظ أن الآبار الأولى التي حفرت لكى تمتد منها هذه الشبكة من المجاري الجوفية تقع شرق مدريد وشمالها.

وهذه المواضع تبعد عن وسط المدينة عند تأسيسها على أيدى المسلمين بما يتراوح بين سبعة واثنى عشر كليومترات. أما الفرق بين سطح الأرض عند الآبار الأولى التي تولد فيها القنوات الجوفية وسطحها في وسط المدينة فيتراوح بين ثمانين ومائة متر تقطعها القنوات في انحدار متدرج يسمح بانصباب الماء[٤].

وعرفت بلغراد على يد العثمانيين المياه النظيفة، التي تصلح للوضوء في الجامع أو للاغتسال في الحمامات العامة أو البيتية، ومن هنا كان الاهتمام بالبحث عن مصادر للمياه في ضواحي المدينة، وشق الأقنية الجوفية لإيصال المياه النظيفة إلى الجوامع والحمامات والبيوت في بلغراد، الأمر الذي جعلها تمتاز عن بقية المدن الأوربية بشبكة المياه العذبة آنذاك، وفي الواقع ان العثمانيين، كما يعترف المؤرخ د. بوبوفيتش، كانوا خبراء في تمديد الأقنية، نظراً لأنهم كانوا يهتمون ككل المسلمين بتوفير المياه النظيفة لمدنهم[٥].

وجلب المسلمون الماء إلى سمرقند من جبل كبير تخرج من تحته عين خرارة قد صنع لها في أصل الجبل طيقان وجلب عليها الماء في قنوات رصاص حتى يصب في سمرقند، وهي طريقة توضح مدى استفادة المسلمين من مصادر المياه الطبيعية[٦].

الأفلاج:

انتشرت في العالم الإسلامي تقنيات متعددة لاستنباط المياه ففي عمان والامارات العربية المتحدة استخدمت الأفلاج[٧] والفلج هو الماء الجاري عبر قناة صناعية مشقوقة في الأرض، ومصدره الأساسي المياه الجوفية الباقية من مياه الأمطار التي تمكث في طبقات الأرض، وهذه المياه المترسبة في باطن الأرض يكون مصدرها المرتفعات الجبلية التي تعتبر بمثابة خزانات ينفق مخزونها بطريقة منتظمة من خلال قنوات تنساب فيها المياه وابرازها على سطح الأرض للانتفاع بها، فقاموا ببناء هندسى كلفهم الجهد والوقت والمال

ونجحوا في عملهم الذي يوحي بأنهم كانوا مهرة في هندستها.

وطريقة البناء تتم عن طريق استغلال أعلى قمة توجد بها المياه حيث توجد الفتحة التي يتم سحب المياه منها، ثم يبدأ سريان المياه في قناة تتجه نحو القرية أو المدينة، حتي يصل الفلج للمنطقة المزروعة ثم يليها المنطقة السكنية التي يقدم لها تسهيلات هي ماء الشرب ثم أحواض الاستحمام وأخيرا مغاسل الموتى، ولا يسمح بتحويل الفلج في المناطق المسكونة للأغراض الخاصة، ولا يمر تحت المباني، ولكنه يمر تحت المساجد حيث تستخدم مياهه للوضوء، ويتضح لنا من خلال هذا الوصف الموجز أن مياه الفلج تعتبر ملكيته ملكية عامة، لا حقوق للأفراد فيها ولهذا السبب توجد بعض الآبار في المناطق السكنية لزيادة كميات الماء للاستخدام الداخلي.

ويتكون الفلج من عدة قنوات مصممة لسد احتياجات الماء في أماكن معينة، وبجداول زمنية محددة، بينما يتحمل منظمو الفلج مسئولية التأكد من عمل هذه القنوات بكفاءة فهم ليسو مسئولين عما يحدث للماء داخل الحدائق، والعمل الأساسي لقنوات الفلج الصغيرة محدد، ومنفصل عن شبكة توزيع الماء، وهي التي يمكن أن تختلف طبقا لما يريده المالكون[٨].

تناط مسئولية توزيع المياه ومعرفة الأوقات وحل الخلافات بشخص يسمى «العريف» مقابل شيء معين من ماء الفلج. ولكن ما هى الصفات التي يجب توافرها في هذا العريف؟.

يجب أن تتوفر فيه المعرفة بحساب النجوم والمسافات الزمنية بين غياب نجم وظهور نجم آخر واختلاف مواضعها صيفا وشتاء وبقية الفصول، وأن يتقن قياس الظل بالأقدام نهارا. وعندما يصبح هذا الشخص محل ثقة الأهالي ويشهدون له بالخبرة في هذا المجال يوكل اليه توزيع مياه الفلج بين مزارعهم بالتناوب. وفي حالة حدوث أية خلافات حول التوزيع بين المساهمين، فإنهم يلجأون إليه لحل خلافاتهم ويتقاضى مقابل ذلك نصيبا زمنيا من المياه[٩].

المواجل :

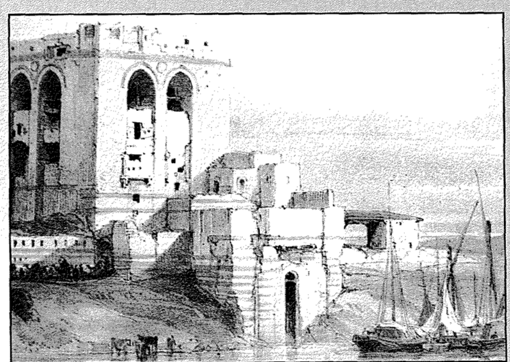
اعتنى أهل المغرب الإسلامي بخزن مياه الأمطار فبنوا صهاريج المياه وجبابها، والصهريج عبارة عن خزان ماء فوق الأرض، أما الجب فلا يكون إلا في باطن الأرض. والجب مخزن واسع يتكون من حجرة واسعة قد يصل قطرها إلى أربعين متراً، وعمقها نحو عشرين متراً ثم يبنون عند الماء حجرة أو قبوا واسعاً بالحجر أو الطوب الأحمر أو الطوب المغطى بالملاط الذي لا تؤثر فيه المياه. ومن المنشآت التي انتشرت في المغرب الإسلامي المواجل، والمواجل عبارة عن أحواض ماء واسعة وعميقة تشبه الفسقيات يتجمع فيها ماء المطر وهي دائما مكشوفة، وقد يقام في وسط الماجل جوسق يجلس فيه الأمير للراحة، ومواجل القيروان وسوسة وتونس تعتبر من الآثار الجميلة التي تستحق المشاهدة.

ويصف الادريسي الماجل الكبير بالقيروان بأنه «من عجيب البناء لأنه مبنى على تربيع وفي وسطه بناء قائم كالصومعة، وهو مملوء كله بالماء»[١٠].

أما البكري فيذكر عن الماجل الكبير «أنه مستدير الشكل، عظيم الإتساع، يتوسطه برج مثمن الشكل، يعلوه مجلس له أربعة أبواب وبأعلاه قبة يحملها (١١ عمودا) وبجوار هذا الماجل مباشرة وفي الجهة الشمالية منه ماجل آخر أقل اتساعاً يعرف بالفسقية يتلقى مياهه من الوادى عند جريانها، فيخفف سرعتها، وعندما يمتلىء بالمياه حتى ارتفاع قامتين، تتدفق في الماجل الكبير عن طريق فتحة يسميها الصدح[١١]،

مجرى العيون :

ومن الطرق التى استخدمت في توصيل الماء من مصادره البعيدة المنخفضة عن مستوى موضع المدينة أو المرتفعة عنها، القناطر التى يعلوها مجرى لنقل الماء، حيث يرفع الماء بواسطة السواقى من المكان المنخفض مثل قناطر ابن طولون، التى مازالت بقاياها وقطاعات منها واضحة في شرق قرافة الإمام الشافعي بالقاهرة[١٣].



ـ مأخذ المياه بسور مجرى العيون بالقاهرة.

وعلى الرغم من مناعة قلعة صلاح الدين بالقاهرة واشتمالها على كل ما يلزم السلطان وجنده من منشآت وخدمات، إلا أن نقطة الضعف الكبرى جاءت من قلة أو ندرة موارد المياه في هذا النشز المرتفع، في الوقت الذى كانت المسافة بين القلعة وشاطىء النيل كبيرة فضلا عن شدة الحاجة للمياه المتزايدة لتزايد سكان القلعة من الجند، وخطورة هذه الحالة عند وقوع الحصار للقلعة.

يعود إنشاء هذه القناطر إلى السلطان العادل أبى بكر بن أيوب الذى تولى حكم مصر من سنة (٥٩٦هـ/ ١٢٠٠م) إلى سنة (٦١٥هـ/ ١٢١٨م) وكانت آنذاك عبارة عن مجرى ماء فوق السور الشرقي للعاصمة، الذى كان يبدأ من الموضع المعروف الآن بدار السلام، ويمتد حتى يتصل بأسوار القلعة، وقد جعل العادل فوق هذا السور قناة يرفع اليها الماء بالسواقى من النيل

وكان الأمير ابراهيم بن محمد قد شرع في بناء هذا الماجل سنة ٢٤٥هـ وأتمه في سنة ٢٤٨هـ. ويروى أنه اعتل أثناء اتخاذ الماجل بالقصر القديم، فكان يسأل: هل دخله الماء؟ إلى أن دخله، فعرفوه بذلك فسربه، وأمرهم أن يأتوه بكأس مملوءة منه فشربها وقال: الحمد لله أنّى لم أمت حتى تمّ أمره. ثم مات على إثر ذلك. وفي عهد زيادة الله الثالث آخر أمراء الأغالبة أنشأ ماجلا طوله خمسمائة ذراع وعرضه أربعمائة ذراع وأجرى إليه الماء بالسواقى وسمى هذا الماجل الفسيح بالبحر، وأقام على ضفته قصراً من أربعة طوابق سماه العروس[١٢].

ونرحل من تونس إلي اليمن لنجد بها «الكريف» وهو نوع من الأحواض التي تبنى بالأحجار لتجميع مياه الأمطار ولها أشكال متعددة منها ما هو بيضاوى أو مستطيل أو دائري ويختلف حجم الكريف من مكان إلى آخر، حسب عمقه واتساعه. ويبطن الكريف من الداخل بمونة مانعة لتسرب المياه.

ويسيل فيها حتى يصل إلى القلعة، وكان ذلك عندما استقر رأيه على الإقامة الدائمة في القلعة واتخاذها كمقر للحكم. ثم جدد السلطان الناصر محمد بن قلاوون هذا المجرى، وأضاف إليه أربع سواق على النيل لنقل الماء في مجراه فوق قناطر إلى القلعة[١٤] وذلك سنة ٧١٢هـ/ ١٣١٢م. وفي سنة ٧٤١ هجرية/ ١٣٤٣م شيد عدة سواق أخرى عند ساحل النيل بلغ عددها ستا ترفع الست السواقي المياه إلى قناطر معقودة تلتقى مع المجرى القديم، وذلك لسد حاجة القلعة المتزايدة من الماء. وفي سنة ٩١٢هـ/ ١٥٠٦م أمر السلطان الغوري بابطال مجرى المياه القديم، وشرع في بناء مأخذ للماء من النيل ذى ست سواق عند فم الخليج ترفع المياه الى قناطر معقودة أعلاها مجرى ماء يلتقى مع بقايا قناطر الناصر محمد ثم تلتقى بسور صلاح الدين حتى تصل المياه للقلعة[١٥].

نواعير حماة:

تذكرنا سواقى سور مجرى العيون بالقاهرة بنواعير حماه الشهيرة والناعورة عبارة عن دولاب كبير من الخشب يقام في مجرى ماء، ويصدر بدورانه صوتا مميزا، يثبت محوره على جدار عال وتوزع على دائرته الخارجية دلاء تغرف المياه أثناء دورانها لتصب عندما ترتفع الماء في قناة تجرى في أعلى الجدار، لتوزع منها على البساتين والمنازل والمساجد والحمامات وأحياء المدينة، وتعد مدينة حماه الأولى في العالم بكثرة نواعيرها، وتعود اثنتان منها إلى العهد المملوكي، الأولى «المحمدية» أقيمت سنة ٧٦٣هـ/ ١٣٦١م، والثانية «المأمونية» أنشئت سنة ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م.

يبلغ عدد النواعير في حماه خمس عشرة، وخارجها إحدى وسبعين، تتراوح أقطارها ما بين خمسة أمتار وواحد وعشرين، وعدد الدلاء في كل واحدة منها ما بين خمسين ومئة وعشرين. وهي دائمة الدوران ليلا ونهاراً. تصل سعة الدلو إلى العشرين لتراً، ويدور دولاب أحدها دورة كاملة كل عشرين ثانية وتعطى كل دقيقة ٧٢٠٠ليتر.

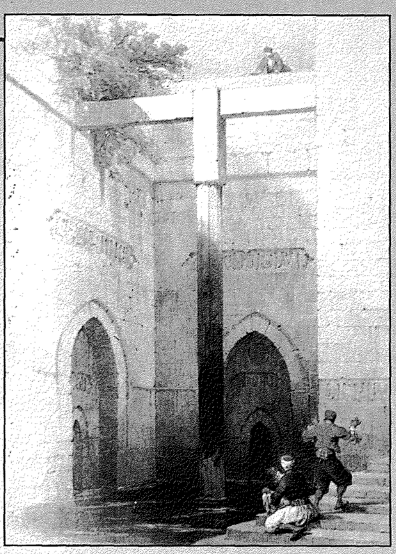


ـ نواعير حماة.

الطبلية الخشبية عمود مرتفع بارتفاع البئر وله قطاع متعدد الأضلاع، وربط طرفاها بكمرة قوية من الخشب ثبت طرفاها بجدران الفوهه. وحفر على أضلاع العمود علامات تمثل القراريط والأذرع لكي تبين ارتفاع منسوب مياه النيل، ويتصل المقياس بالنيل من خلال ثلاثة أنفاق وكان ينزل إلى قاع البئر عند انحسار الماء بواسطة درجات سلم في جوانبه لاجراء أعمال الصيانة[١٦].

حلول تقنية :

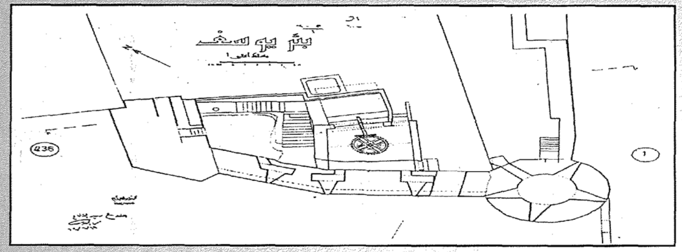
قدم المسلمون العديد من الحلول التقنية والابتكارات للمشاكل التي واجهتهم والتي نلمسها من خلال علم الحيل الذي يدخل في نطاق الهندسة وهو علم يبحث في الآلات الميكانيكية والتجهيزات الهيدروليكية[١٧] وطور المسلمون آلات رفع المياه ومنها «الساقية» وهي الآلة الأوسع والأكثر استعمالا من بين آلات رفع الماء التي ورثها المسلمون وطوروها، إنها عبارة عن سلسلة من الأوعية يسيرها حيوان أو اثنان بواسطة زوج من العجلات المسننة، وذلك بأن يدفعها قضيب جر على قرص يدور ويدير جزءاً يتشابك ترسه مع عجلة عمودية تحمل سلسلة الأوعية التي تتألف من حبلين علقت بينهما أوان فخارية. وتعد سلسلة الأوعية هذه مثلى لرفع كميات من الماء صغيرة من آبار عميقة نسبيا. إلا أن الحاجة كانت تدعو لاستعمال آليات أخرى لرفع كميات كبيرة من المياه لمسافات قصيرة نسبيا. وقد وجدت هذه المشكلة حلها عبر استعمال عجلة مغرفة حلزونية، ترفع الماء إلى مستوى الأرض بفاعلية كبيرة وتنتشر هذه الآلة في مصر.



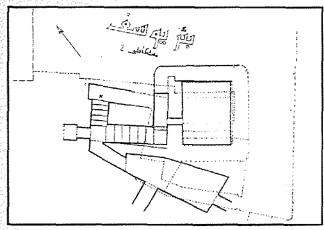
ـ مقياس النيل بالقاهرة.

المقاييس :

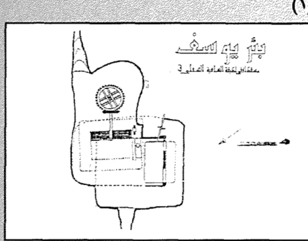
لم يقتصر اهتمام المسلمين على إنشاء القنوات والمجارى والأنهار الصناعية ونصب النواعير على الأنهار لرفع المياه، بل امتد الى الأنهار الطبيعية كنهر النيل، فأقيمت المقاييس لتحديد منسوبه من أشهرها أثر معماري غاية في الأهمية، وهو مقياس النيل بجزيرة الروضة المقابلة للفسطاط، ويؤرخ في سنة ٢٤٧هـ/ ٨٦١م. وهو من أجل الأعمال الهندسية، إذ أنه بئر عميقة يصل عمقها إلى نحو ١٢ مترا وعرض فوهتها المربعة نحو ٦ أمتار، وشيدت جدرانها على طبلية من جذوع الأشجار حملت مداميك الأحجار المتقنة النحت هذا وقد وضع في محور البئر وفوق



- بئر صلاح الدين (بئر يوسف الحلزون) بالقلعة - مسقط أفقي (١)



- بئـر صـلاح الدين (بئـر يوسف الحلزون) بالقلعـة - مسقط أفقي (٢)



- بئـر صـلاح الدين (بئـر يوسف الحلزون) بالقلعـة - مسقط أفقي للساقية السفلية.

بئر يوسف :

يعـد بئـر يوسف صـلاح الدين الأيوبي تحـفـة هندسية أيوبية من الطراز الأول، إذ يبلغ عمقها في الصخر ٩٠ مترا ، منها حوالى ٨٥ مترا محفورة في الصخر، ويتكون مقطعها من بئرين غير مستمرتين على الخط العمودى نفسه ومتساويتين في العمق تقريبا، ولذلك سميتا بالبئرين عند بعض المؤرخين، تبلغ مساحة المقطع الأفقى للبئر السفلية ٣ر٢ متر مربع، في حين أن مساحة مقطع البئر العلوية خمسة أمتار مربعة. وقد احتيج إلى هذا المسطح في البئـر العلوي لأجل تمرير ممر حول مهوى البئر ذاته يسمح بنزول الثيران لتدوير الساقية المركزة في مقر المهوى الأول والتى تسحب المياه من قعر المهوى الثانى إلى منسوبها، في حين يقوم زوج آخر من الثيران بتدوير ساقية ثانية مركزة في أعلى البئرين مهمتها رفع الماء من منسوب الساقية الأولى إلى سطح الأرض. ولعل أكثر المظاهر إدهاشا في تصميم وتنفيذ هذه البئر العلوية هو رقة الجدار الحجرى المنحوت الفاصل بين مهوى البئر وممر الثيران المنحدر إلى أسفل البئر وقد قيست سماكته في بعض الأماكن ولم تتجاوز العشرين سنتيمتر[١٨]

نوافير مؤقتة :

برع علماء الميكانيكا المسلمين في ابتكار كل ما هو مبدع للترفيه عن الإنسان، ومن ذلك النوافير المؤقتة التى انتشرت في المنازل، وقد تضمنت كتب الحيل وصفا لها، وهذه النوافير ينتقل فيها دفق الماء من حوض كبير لآخر كل ساعة أو نصف. ولإنجاز هذه العملية كان يستعمل العديد من الأجهزة البارعة في التحويل المائى. كما كان يتحكم في خروج الماء بطريقة ميكانيكية من النوافير بحيث يخرج بأشكال متفاوتة تلفت الانتباه، وفي أوقات منتظمة وذلك حسب تصميم كل نافورة. ومن أشهر النوافير الاسلامية نوافير الماء الراقصة في قصر الحمراء[١٩].

الطواحين المائية :

عرف المسلمون قوة جريان المياه كطاقة متجددة فيذكر القزويني:

«أن أهل الموصل انتفعوا بدجلة انتفاعاً كبيرا مثل شق القناة منها، ونصب نواعير على الماء يديرها الماء نفسه، كذلك نصبت العربات أي الطواحين التى يديرها الماء في شط دجلة في سفينة وتنقل من موضع إلى موضع[٢٠]، ويشير هذا النص إلى استغلال الماء الجاري في الأنهار والقنوات المتفرعة منها في إدارة الطواحين التى تعمل بالماء كطاقة مفيدة، وانتشرت هذه الظاهرة في العديد من المدن كفاس التى يذكر الحميري عنها ما يلى:

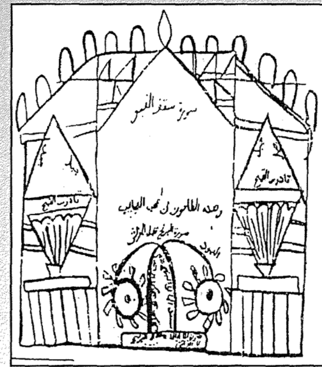
«وفيها أرحاء للماء نحو ثلثمائة وستين رحى يضمها السور»[٢١]، وعندما تهبط مستويات الأنهار في فصل الجفاف ويضعف دفقها، تفقد عجلات الدفع السفلى بعضا من طاقتها، وخاصة إذا كانت مثبتة بضفاف الأنهار، حيث لا تعود مغاريفها تصل الى الماء.

وأحد حلول هذه المسألة تجلى برفع العجلات المائية على دعامات الجسور للاستفادة من زيادة الدفق عندها.

ومن الحلول الأخرى التي استخدمها المسلمون، كان استعمال السفينة ـ الطاحونة التى كانت تديرها عجلات دفع سفلى ترفع على جانبي السفن الرأسية عند منتصف المجرى، كما كانت الحال مثلا أثناء القرن (٤هـ/ ١٠م) في نهرى دجلة والفرات، حيث كانت سفن ـ طواحين ضخمة مصنوعة من الخشب الصلب والحديد، كانت تنتج عشرة أطنان من طحين الذرة كل أربع وعشرين ساعة.

وكان سحق الذرة والحبوب الأخرى للحصول على الجريش من أهم وظائف الطواحين. إلا أنها كانت تستعمل كذلك لغايات صناعية أخرى مثل تنظيف الثياب وسحق الخامات المعدنية، وتقشير الأرز، وصناعة الورق، وانتزاع لب قصب السكر.

كانت الطريقة المألوفة إعداد العجلات المائية لهذه الأعمال هي إطالة محورها وتزويدها بالحدبات التى تؤدى إلى رفع المطارق ثم إسقاطها فوق المادة المراد سحقها[٢٢].



ـ طاحون عجيب ذكره الدمشقي.

طاحون عجيب :

وصف لنا شيخ الربوة الدمشقي طاحون ماء عجيب بمرند باقليم آذربيجان بقوله «إن بها طاحونا تدور بالماء الواقف وهو من أعاجيب البلاد والزمان والعمارة وذلك أن هذه الطاحون لها فراشان كل فراش يدور بمائه ويدير حجره الأعلى من حجريه فيطحن الحب والفراشان داخلان في جانبي قبو فيه من الماء المخزون المحقون نحواً من قامة عمقا ومن ستة أذرع في مثلها وسعا وفي وسط هذا القبو عمود ممدود كالجسر في عرض القبو داخل في جداريه ومن هاهنا وها هنا وعليه يعنى العمود الممدود برابخ رصاص محكمة الوصل موصولة ببعض قطعة واحدة مفتوحة الحلقوم، وهذا الحلقوم مرتفع عن وجه الماء بقدر معلوم يخر منه الماء فيقع على أرياش الفراش ويدير الحجر ويصل الماء بعد وقوعه على الفراش إلى الماء بعينه وكذلك يفعل بريخ آخر ملاصق لهذا البريخ وهو مثله في الطول والسعة ومخالف له في الحلقوم فإن هذا يرفع الماء من حيث يصبه للآخر والماء واحد صاعد ومنحدر أبدا لا ينقص ولا يزيد ولا يتحرك إلا بامتصاص هذين الحلقومين للماء بالإخلاف وصبهما له كذلك، وهذا مثال القبو والماء والعمود والبريخين، وينبهنا الدمشقي إلى أهمية هذا النموذج واستيعابه بعبارة «فافهم ذلك» في نهاية كلامه عنه[٢٣]، ومثل هذا النموذج الذي قدم ابن عبد البر الدمشقي شرحا تفصيليا له ورسما دقيقا لأجزائه، نحن في حاجة إلى صناعة مثيل له، ويمكننا اعادة توظيفه مرة أخرى، وتطويره والاستفادة منه، خاصة مع تصاعد الدعوى إلى استغلال الطاقة المتجددة كمصدر رخيص ونظيف للطاقة.

الساعات المائية :

من المجالات التى أولع العديد من علماء المسلمين بها، وقطعوا شوطا كبيرا فيها الساعات المائية، التى وصفوا العديد منها في كتبهم وصفا يدل على تفوق المسلمين ـ وقتذاك ـ في هذا المجال، ويعتبر العالم أبو يوسف الكندي (ق٣هـ/ ٩م) من أوائل علماء المسلمين الذين تناولوا عمل الساعات في كتاباتهم، فله رسالة خطية من ست صفحات محفوظة في المكتبة البودلية في اكسفورد برقم ٦٦٣ بعنوان «رسالة في عمل

الساعات على صفيحة تنصب على سطح مواز للأفق بالخطوط خبر من غير برهان». ووصف ابن فضل الله العمري ساعات مائية كانت منتصبة بباب جامع الكتبية (ارتفاعها في الهواء خمسون ذراعا، تنزل عند انقضاء كل ساعة صنجة وزنها مئة درهم فتحدث رنة ولها أجراس يسمع وقعها من بعد، وتسمى عندهم المنجانة[٢٣].

وقد بقي لنا بفاس ساعة مائية في القبة العليا من منار الجامع الأعظم الذي يقع شرقي المدينة، في تلك القبة العليا من منار القرويين نصبت الساعة المائية الأولى التي عرفتها فاس وما تبعتها من ساعات. والساعة الباقية صنعت بأمر السلطان أبي سالم بن السلطان أبي الحسن المتوفي عام (٧٦٢هـ/ ١٣٦١م)[٢٤].

الهوامش :

(١) د. سعد بن عبد العزيز الراشد، الربذة صورة مبكرة للحضارة الإسلامية، ص ٦٢:٧٠، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود.

(٢) د. محمد سعيد فارسي، جدة .. التخطيط والعمارة الاسلامية، ص ١٤، أمانة مدينة جدة، بدون تاريخ.

(٣) عرف هذا النظام في العمارة المملوكية باسم مقاسم المياه، والمقسم حوض غير عميق تصل إليه المياه من الساقية وله عدة فتحات قد تختلف في الاتساع عن طريق قنوات بأجزاء البناء المختلفة، فيتم توزيع المياه منها حسب الكمية المطلوبة لكل جهة. د. محمد محمد أمين وليلى ابراهيم، المصطلحات المعمارية في الوثائق المملوكية، ص ١١٣، دار النشر بالجامعة الأمريكية بالقاهرة ١٩٩١م.

(٤) د. محمود مكي، مدريد العربية، ص ٥٧:٦١، دار الكاتب العربي ١٩٦٦م، شريف جاه ومرجريتا جوفيث، لغز الماء في الأندلس، مدريد، معهد التعاون مع العالم العربي ١٩٩٩م.

(٥) د. محمد موفاكو، تاريخ بلغراد الإسلامية، ص ٢٩، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع. الكويت ١٩٨٧م.

(٦) الحميري، محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، ص ٣٢٢، تحقيق د. احسان عباس، مؤسسة ناصر، بيروت ١٩٨٠م.

(٧) يقول ابن سيدة الأندلسي في المحكم «أن الفلج هو النهر، وقيل هو النهر الصغير، وقيل هو الماء الجارى من العين، والجمع أفلاج، ويذكر ابن منظور بأن الفلج قد يوصف به فيقال ماء فلج، وعين فلج وقيل الفلج الماء الجارى من العين، وهذا المعنى يدل على جريان الماء.

(٨) بدر العميري، الأفلاج العمانية ونظامها، ندوة حصاد للدراسات العمانية، المجلد ٣، ص ٩. محمد حسن العيدروس، الأفلاج ووسائل الري في عمان، ص ٥٥، ٥٩، مجلة دراسات، العدد السادس، السنة الرابعة ١٩٩٣م. جي، سي، ولكنسون، الأفلاج ووسائل

الري في عمان ص ٥٥:٥٩ وزارة التراث القومي والثقافة ، مسقط ١٩٨٦م.

(٩) د. محمد حسن العيدروس، المرجع السابق، ص ١٤٨.

(١٠) الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ص ١١٠، طبعة نابولي ١٩٥١م.

(١١) البكري، أبو عبد الله بن عبد العزيز، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص ٢٥، باريس ١٩١١م.

(١٢) ابن عذارى، محمد بن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار المغرب، جـ ١، ص ١٨٦، بيروت ١٩٥٠م.

(١٣) د. فريد شافعي، العمارة العربية الإسلامية، ماضيها، حاضرها ومستقبلها ص ٣٥، عمادة شؤون المكتبات جامعة الملك سعود، الرياض ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.، د. عاصم رزق، المنشآت المائية في مصر الإسلامية، ص ٢٨١:٢٨٤، بحث ضمن كتاب النقائش والصخور في الوطن العربي، تونس ١٩٩٧م.

(١٤) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جـ٢، ص ٢٢٩، ٢٣٠ ـ دار الثقافة الجديدة، القاهرة ١٩٨٨م.

(١٥) د. عاصم رزق، مرجع سابق، ص ٢٩١، ٢٩٤ ـ محمد رمزي، الجغرافيا التاريخية لمدينة القاهرة، ص ٦٥١، ٦٥٤ ـ مجلة العلوم السنة التاسعة، المجلد الخامس، القاهرة ١٩٤٢م ـ د. عبد العال الشامي، مدن مصر وقراها في القرن الثامن الهجري، ص ٤٩ ، ٥٠، ٥١ ـ الاصدارات الخاصة لمجلة الآداب والعلوم الانسانية، جامعة المنيا، المجلد التاسع العدد ١، ١٩٩١م.

(١٦) د. فريد شافعي، مرجع سابق، ص ٣٤.

(١٧) بنو موسى بن شاكر، كتاب الجيل، تحقيق الدكتور أحمد يوسف الحسن، ص ٥٦، معهد التراث العلمي العربي بحلب ١٩٨١م.

(١٨) د. عاصم رزق، مرجع سابق، ص ٢٨٧:٢٩٠ ـ د. ناصر الرباط، تاريخ قلعة القاهرة ص ٦ ـ مؤسسة أغاخان للعمارة ١٩٨٩م.

(١٩) دونالدهيل، الهندسة الميكانيكية في الشرق الأدنى، تكنولوجيا الحضارة الإسلامية في القرون الوسطى، ص ١٢٢، ترجمة هيثم لمعي، مجلة كتابات معاصرة، المجلد ٤ ، العدد ١٣ ، مارس ١٩٩٢م.

(٢٠) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٤٦٢ ـ دار صادر، بيروت ـ بدون تاريخ.

(٢١) الحميري، مرجع سابق، ص ٤٣٤.

(٢٢) دونالدهيل، مرجع سابق ص ١٢١.

(٢٣) دونالدهيل، الساعات المائية ، كتاب أصدره معهد التراث العلمي العربي بحلب باللغة الإنجليزية.

(٢٤) د. عبد الهادي التازي، ساعة مائية ترجع للقرن الثامن الهجري في منار جامع القرويين بفاس، مركز الأبحاث والتاريخ والحضارة والفنون الاسلامية، دار الفكر العربي بدمشق ١٩٨٩م، بحث ضمن كتاب «الفنون الإسلامية».

بئران عباسيتان في وادي العسيلة شمال شرق مكة المكرمة

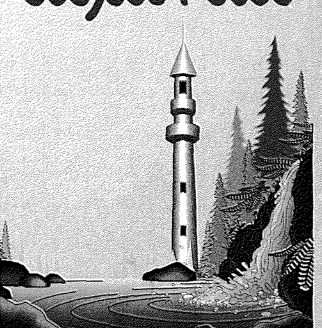
ملخص البحث :

تُعنى هذه الدراسة ببئرين عباسيتين تقعان في وادي العسيلة الواقع شمال شرق مكة المكرمة، من حيث وصفهما، ومقارنتهما بغيرهما من الآبار، كما دعمت الدراسة بالصور والأشكال الموضحة للمعلومات التي وردت في ثناياها.

تمهيد : الموقع وأهميته :

تقع هاتان البئران في وادي العسيلة الذي كان يعرف في صدر الإسلام باسم: شعب خالد بن عبد الله آل أسيد[١]، ويقع هذا الوادي شمال شرق مكة المكرمة، ويبعد أولهما عن المسجد الحرام بحوالي خمسة عشر كيلا، ويصل اليه السالك لطريق مكة المكرمة السيل من جسر المعيصم ماراً بحراج الخردة (**شكل رقم١**)، ويمتد هذا الوادي باستطالة من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، ويحده من الشمال ريع النقراء، ومن الجنوب ريع أم السلم، ومن الشرق البرود، ومن الغرب جبل الصر، وهو واد خصب، تتوفر فيه المياه العذبة الصالحة للشرب والزراعة، وفضلا عن ذلك فإن هذا الوادي يقع على طريق الحاج العراقي والشامي واليمني، كما يقع أيضاً على الطريق المؤدي إلى الجعرانة[٢] (**اللوحتان رقما ١ ـ ٢**).

وقد أولى الخلفاء والسلاطين والأمراء هذا الوادي جل عنايتهم واهتمامهم بتوفير المياه الصالحة للشرب فيه، فقد ذكر الفاسي ما نصه[٣] «ومنها ـ أي الآبار التي بظاهر مكة من أعلاها ـ أربعة آبار تعرف بآبار العسيلة، وفي رأس طي بعضها ما يقتضي

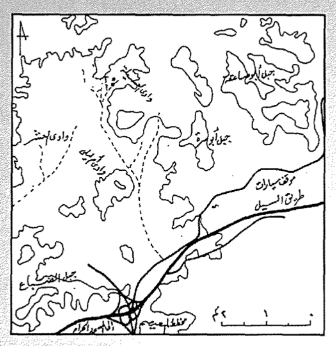




بقلم :

د. ناصر بن على الحارثى

- جامعة أم القري -



شكل رقم (١) خريطة للبئرين (نقلا عن ناصر الحارثي وآخر نقوش، ش رقم (١)٠ (١) البئر الأولى (٢) البئر الثانية٠

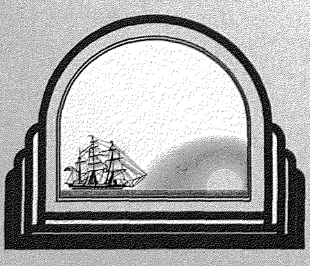
أن المقتدر العباسي[٤] أمر بحفر بئرين منها، وفي طي بعضها ما يقتضي أن العجوز والدة المقتدر[٥] عمرتها مع سقايات هناك ومسجد لا يعرف الآن منه شيء، وقد ذكرنا نص المكتوب في أصل الكتاب، والبئر الرابعة من آبار العسيلة جدد دثورها بعض الأمراء المصريين في سنة ٧٩٢هـ، ويقصد بذلك قطلوبك الناصري[٦]٠

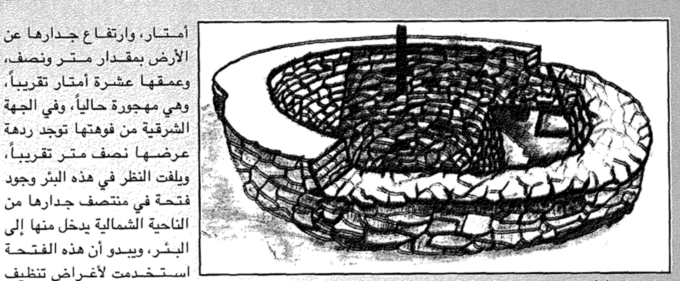
وفي القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) كان سكان مكة المكرمة يتزودون بالماء من آبار العسيلة، بسبب قلة المياه داخل مكة المكرمة[٧]، وقد أشار إلى ذلك قطب الدين النهروالي (ت ٩٩٠هـ/ ١٥٨٢م)، بقوله:[٨] في أوائل الدولة العثمانية بهذه الأقطار الحجازية٠٠ بطلت العيون وتهدمت قنواتها وانقطعت عين حنين عن مكة المشرفة، وصار أهل البلاد يستقون من الآبار حول مكة من أبيار يقال لها العسيلات في علو مكة قريب من المنحنا»٠

وفي أواخر العصر العثماني كان سكان مكة المكرمة يتزودون بالماء من آبار العسيلة، فقد ذكر البتنوني الذي زار مكة المكرمة عام ١٣١٧هـ/ ١٩٠٩م أن أهل مكة يشربون من ماء الآبار التي فيها، مثل: زمزم، أو التي في ضواحيها كالزاهر، والعسيلات، والجعرانة وغيرها[٩]٠

اضاءة

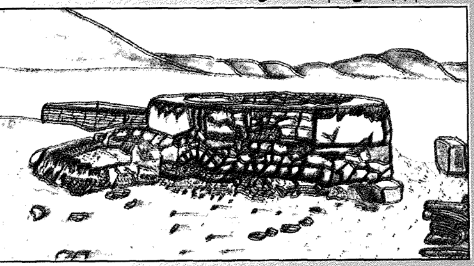
- دكتوراه آثار وفنون اسلامية٠
- عضو اتحاد المؤرخين العرب، وعضو جمعية التاريخ والآثار بمجلس التعاون لدول الخليج العربي، وعضو الجمعية التاريخية المصرية، وعضو جمعية الآثاريين العرب٠
- عضو هيئة التحكيم في العديد من المجلات العلمية٠
- شارك في العديد من المؤتمرات والندوات الدولية٠
- مشرف علمي على انشاء متحف الحرمين الشريفين٠
- عضو الفريق العلمي المؤسس للمتحف الوطني بالرياض٠
- له تسعة عشر مؤلفاً مطبوعاً في التاريخ والآثار، والعمل الموسوعي والتحقيق٠





شكل رقم (٢) قطاع عام للبئر الاولى.

أمتار، وارتفاع جدارها عن الأرض بمقدار متر ونصف، وعمقها عشرة أمتار تقريباً، وهي مهجورة حالياً، وفي الجهة الشرقية من فوهتها توجد ردهة عرضها نصف متر تقريباً، ويلفت النظر في هذه البئر وجود فتحة في منتصف جدارها من الناحية الشمالية يدخل منها إلى البئر، ويبدو أن هذه الفتحة استخدمت لأغراض تنظيف البئر، وتحيط بهذه البئر مجموعة من المباني المستحدثة، من أهمها: حوض مائي مستطيل الشكل طوله أربعة أمتار، وعرضه متر ونصف، وعمقه متر ونصف، وارتفاعه ثلاثة أمتار، دعمت أركانه من الداخل بدعامات دائرية، وإلى الشرق من هذا الحوض توجد غرفتان متهدمتان، وبقايا قنوات مياه.



شكل رقم (٣) قطاع عام للبئر الثانية.

أولا: وصف الآبار المتبقية:

من خلال النصوص التاريخية السابقة اتضح لنا أنه كان في وادي العسيلة أربع آبار عباسية، غير أنه لم يتبق من هذه الآبار سوى بئرين تقعان ضمن أملاك أحد المواطنين جنوب غربي الوادي، وتبعدان عن بعضهما بحوالي ٢٠٠م، إحداهما شمال غرب، والأخرى جنوب غرب (**شكل رقم ١**) وفيما يلي وصف لكل من البئرين:

البئر الأولى

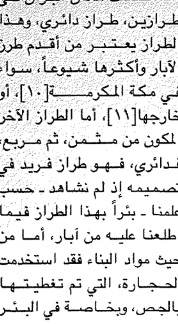
(**اللوحات أرقام ٣ ـ ٥ ، الشكلان رقما ٢ ، ٣**):

بئر دائرية الشكل مطوية بالحجارة، قطرها ثلاثة

البئر الثانية

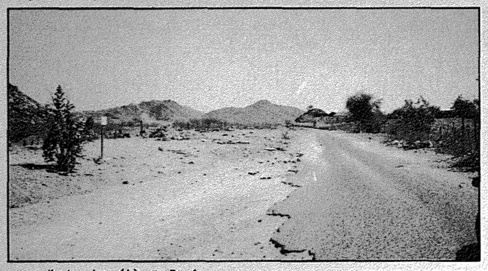
(**اللوحات أرقام ٦ ـ ٨**) :

تقع هذه البئر شمال البئر الأولى، ويختلف طرازها عن طراز البئر الأولى، إذ أنها محكمة البناء، متقنة الطي، تأخذ من أعلاها شكلا مثمناً طول كل ضلع حوالي المتر، بعمق أربعة أمتار، ثم يتحول التصميم في منتصف جدار البئر إلى مربع طول ضلعه ٢ متر، بعمق مترين تقريباً، أما من أسفلها فتأخذ شكلا دائرياً بعمق ثلاثة عشر متراً، ويبلغ ارتفاع جدارها عن الأرض بحوالي مترين، ولها درج خاص بها في أحد الأضلاع القريبة يصعد منه إلى فوهة البئر، وبجواره من الناحية الغربية حوض صغير، وعلى يساره من أسفل خارج جدار البئر حوض آخر، مستطيل الشكل طوله ٥ر١م وعرضه حوالي ١م.

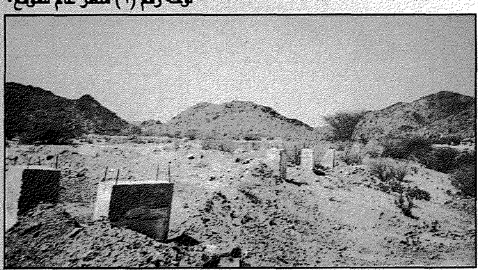


ثانيا: الطراز المعماري:

صممت هاتان البئران على طرازين، طراز دائري، وهذا الطراز يعتبر من أقدم طرز الآبار وأكثرها شيوعاً، سواء في مكة المكرمة[١٠]، أو خارجها[١١]، أما الطراز الآخر المكون من مثمن، ثم مربع، فدائري، فهو طراز فريد في تصميمه إذ لم نشاهد ـ حسب علمنا ـ بئراً بهذا الطراز فيما اطلعنا عليه من آبار، أما من حيث مواد البناء فقد استخدمت الحجارة، التي تم تغطيتها بالجص، وبخاصة في البئر الثانية.



لوحة رقم (١) منظر عام للموقع.



لوحة رقم (٢) منظر تفصيلي للموقع.



الخاتمة:

بينت هذه الدراسة أهمية موقع وادي العسيلة، واهتمام الخلفاء والسلاطين والأمراء به، وكشفت لأول مرة عن هذه الآبار التي تم إنشاؤها في العصر العباسي، وأوضحت أنها بنيت من الحجارة المغطاة بالجص، وبينت الدراسة أن طراز الآبار المتبقية في وادي العسيلة على نوعين، أحدهما دائري، والآخر مثمن، ثم مربع، ثم دائري، وهو طراز فريد، وبخاصة في آبار المنطقة التي صمم معظمها على هيئة دائرية.

الهوامش:

(١) كان معروفاً باسم شعب بني عبد الله بن خالد بن أسيد، وأشار الفاكهي إلى أنه ما بين جعرانة والمحدث، أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن العباس الفاكهي المكي، أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، دراسة وتحقيق عبد الملك بن دهيش، ج ٤، ط٢ (بيروت: دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م)، ص ١٨٦، أي من جبال النقواء إلى شارع الحج، الفاكهي، أخبار، ج٤، ص ١٨٦، هامش ٢، ونسب هذا الشعب إلى عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب القرشي الأموي المكي، أمير مكة في زمن عثمان بن عفان، ومعاوية بن أبي سفيان، وفارس في زمن زياد، تقي الدين محمد بن أحمد الحسني الفاسي المكي، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق فؤاد سيد، ج٥، ط١، (القاهرة: مطبعة السنة المحمدية، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٦م)، ص ص ١٣٣ ـ ١٣٥.

(٢) ناصر بن علي الحارثي وعادل محمد نور غباشي، «نقوش إسلامية مبكرة في وادي العسيلة بمكة المكرمة»، عالم المخطوطات والنوادر، المجلد الثاني، العدد الأول (المحرم ـ جمادى الآخرة ١٤١٨هـ/ مايو ـ اكتوبر ١٩٩٧م)، ص ص ١٢ ، ١٣.

(٣) الفاسي العقد، ج ١ ، ص ١٢٥.

(٤) هو أبو الفضل جعفر المقتدر بالله بن أحمد المعتمد على الله بويع بالخلافة بعد وفاة أخيه المكتفي بالله عام ٢٩٥هـ، وعمره لم يتجاوز الثالثة عشرة، مما كان لذلك أثره في خلعه أكثر من مرة، قتل عام ٣٢٠هـ، عن ثمان وثلاثين سنة، كان

جواداً كريماً، له آثار معمارية عديدة في مكة المكرمة.
أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٣، (القاهرة: دار الكتب المصرية، د.ت)، ص ص ٢٣٣ ـ ٢٣٥، ومحمد بن فهد الفعر، تطور الكتابات والنقوش في الحجاز منذ فجر الإسلام حتى منتصف القرن السابع الهجري، ط ١ (جدة: تهامة، سلسلة رسائل جامعية رقم ٢٣، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م)، ص ص ٢٤٨، ٢٤٩.

(٥) تقي الدين محمد بن أحمد بن علي الفاسي المكي، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، حققه ووضع فهارسه عمر عبد السلام تدمري، ط١، ج١ (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م)، ص ٥٥١، والنجم عمر بن محمد بن فهد، إتحاف الورى بأخبار أم القرى، ج٣، تحقيق فهيم محمد شلتوت، ط١، (مكة المكرمة: مطبوعات مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، سلسلة التراث الإسلامي رقم ٢٠، د.ت)، ص ٣٧٨.

(٦) قطلبك بن عبد الله الحسامي المنجكي، أحد الأمراء بالقاهرة، كان يتردد على الحرمين الشريفين لتوزيع صدقة القمح التي يأمر بها الملك الظاهر، له آثار معمارية بمكة المكرمة، توفي سنة ٨٠٢هـ بينبع، وهو عائد الى مصر بعد أدائه فريضة الحج، الفاسي، العقد، ج٧ ، ص ٧٦.

(٧) الحارثي وآخر، نقوش ، ص ١٣.

(٨) قطب الدين محمد بن



لوحة رقم (٣) منظر عام للبئر الاولى من الداخل.



لوحة رقم (٤) منظر تفصيلي للفوهة التي بمنتصف جدار البئر الاولى.



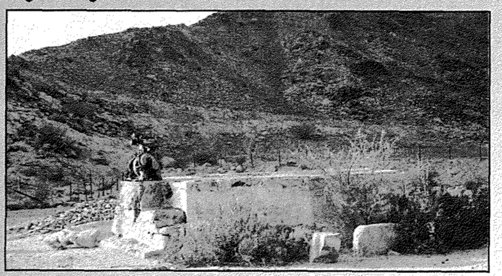
لوحة رقم (٥) منظر عام لأحد المباني والحوض المجاورين للبئر الاولى.

أحمد النهروالي، تاريخ القطبي المسمى الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، تقديم محمد أمين كتبي، شرح وتعليق محمد طاهر الكردي (مكة المكرمة: طبع ونشر المكتبة العلمية، د٠ت)، ص ص ٢٨٤، ٢٨٥٠

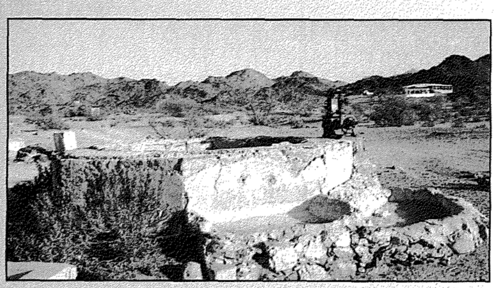
(٩) محمد لبيب البتنوني، الرحلة الحجازية، ط٢ (الطائف: مكتبة المعارف، د٠ت)، ص ٠٦٤

(١٠) عادل محمد نور غباشي، «المنشآت المائية لخدمة مكة المكرمة في العصر العثماني» رسالة دكتوراه غير منشورة بقسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية جامعة أم القرى، ج١ (١٤١٠هـ/١٩٩١م) ص ٠١٢٠

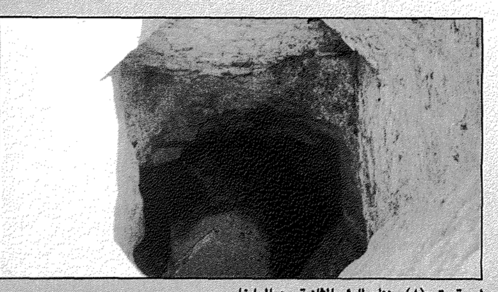
(١١) ومن أمثلة ذلك الآبار المطوية على طول طرق الحج، وأشهرها درب زبيدة، أنظر: سعد بن عبد العزيز الراشد، درب زبيدة طريق الحج من الكوفة إلى مكة المكرمة دراسة تاريخية وحضارية أثرية، ط ١ (الرياض: دار الوطن للنشر والإعلام، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م)، ص ص ١٣٩ ، ١٥٥ ، ١٨٥ ، ١٨٧ ، ٢٦٠ ، ٢٧٣، وأيضاً الابار التي اكتشفت في مدينة الربذة، أنظر: سعد بن عبد العزيز الراشد، الربذة صورة للحضارة الإسلامية المبكرة في المملكة العربية السعودية ، ط ١ (الرياض: جامعة الملك سعود، د٠ت)، وكذلك علي ابراهيم غبان «الآبار السلطانية في وادي الزريب بالوجه»، العصور، المجلد الخامس، الجزء الثاني (١٩٩٠م)، ص ص ٢٦٥ ـ ٢٧٢، الأشكال أرقام ٦ ـ ٠٨



لوحة رقم (٦) منظر عام للبئر الثانية من الناحية الجنوبية.



لوحة رقم (٧) منظر عام للبئر الثانية من الناحية الشمالية.



لوحة رقم (٨) منظر للبئر الثانية من الداخل.

حذف من درب الحاج العراقي.. والبرك الواقعة عليه ما بين المسلح وبسيان وأوطاس

سجل العرب والمسلمون؛ تفوقاً كبيراً في الهندسة المعمارية، والإنشاءات المدنية والعسكرية على حد سواء، وزاد من قيمة هذه الإنجازات؛ أنها حافظت على الطابع الإسلامي الفريد، فبرزت صنعة المسلمين في بناء المدن الحضرية، كما في بغداد وقرطبة واشبيلية ودمشق وغيرها، وظهرت خصوصية هذا الفن المعماري أكثر؛ في المساجد والجوامع، مثل المسجد الحرام في مكة المكرمة، والمسجد النبوي في المدينة المنورة، والمسجد الأقصى في القدس، والجامع الأموي في دمشق، ومسجد الحسن الثاني رحمه الله في الدار البيضاء في المغرب. وفي غيرها من الأمصار التي وصلت إليها حضارة العرب والمسلمين.

ومن الإنشاءات المعمارية التي اختص بها العرب والمسلمون على مر التاريخ؛ ما فتحوا من طرق ودروب بين أمصارهم المتباعدة، وما أقاموا من برك وقصور وحصون وقلاع؛ ومرافق أخرى على هذه الدروب؛ وعلى الأخص منها؛ دروب الحجيج التي كانت تربط بين مكة المكرمة، وبقية الأمصار في الشرق والشمال والغرب من البلاد الإسلامية.

بقلم:

حمّاد بن حامد السالمي [*]

– السعودية –



ومن دروب الحجيج هذه ذائعة الصيت في التاريخ الإسلامي؛ درب الحاج العراقي بين الكوفة ومكة المكرمة وهو ما يطلق عليه درب زبيدة؛ نسبة إلى السيدة زبيدة بنت جعفر[١]، زوج الخليفة العباسي هارون الرشيد[٢]، فهي التي أمرت وأنفقت على الإنشاءات المعمارية على طول هذه الطريق من الكوفة جنوبي العراق حتى مكة في وسط الحجاز، ومنها خزانات وصهاريج وآبار ومبان[٣]، فحمل هذا الدرب؛ اسم هذه السيدة المصلحة تقديراً لفضلها حتى اليوم.

درب زبيدة على مر التاريخ:

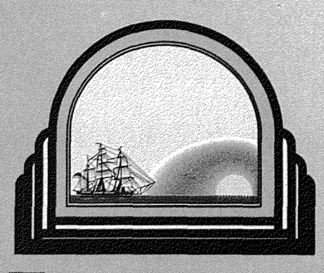
عرفت الطريق هذه قبل الإسلام؛ باسم طريق الحيرة مكة المكرمة، وكانت الحيرة على ثلاثة أميال من موضع الكوفة الحالي[٤]، وازدهرت الطريق في العصور الإسلامية بازدهار الفتوح في المشرق، وظهور الدولة العباسية، واتخاذ بغداد عاصمة لهذه الدولة، فزاد عدد الحجاج القادمين من الشرق؛ سواء من بلاد السواد؛ أو من الأقطار الإسلامية التي تقع في الشرق منها وفي الشمال. وبدأ الاهتمام بالطريق بوضع علامات وملامح رئيسة للإرشاد[٥].

وكان الخليفة العباسي الأول، قد أمر بوضع معالم على هذه الطريق سنة ١٣٤هـ [٦]، ثم جاء أبو العباس السفاح، فأمر بتسجيل علامات الأميال، وبنى المنارات، وأوقدت النار عليها ليلا لهداية الحجيج. وفي عهد المهدي اعتني بهذه الطريق كثيراً حتى قيل بأن الثلج كان يجلب للمهدي من العراق إلى مكة في حجه سنة ١٦٠هـ [٧]، وقام الرشيد بأعمال صيانة وإصلاح وبعده قدمت السيدة الخيزران زوج المهدي وأم الرشيد بعض الانجازات على الدرب، فبعد أربعة أميال من محطة زبالة، أقيم علم الخيزران[٨].

- وشهد درب الحاج العراقي هذا؛ نقلة مهمة في تاريخه، بعد أن تدخلت السيدة زبيدة بنت جعفر زوج هارون الرشيد التي أمرت بإصلاحات كبيرة ظل كثير منها قائماً حتى يومنا هذا. ومن ذلك برك وخزانات

اضاءة

- يعمل معلماً وأمين مكتبة ومشرف نشاط، ومرشداً طلابيا.
- مدير فرع مؤسسة الجزيرة الصحفية في الطائف.
- عضو اللجنة العليا للتنشيط السياحي ورئيس لجنة المطبوعات والمشرف العام على معرض الكتاب السنوي.
- له اكثر من ١٣ كتاباً في التاريخ والبلدان والدراسات الادبية والشعرية والآثارية.
- له العديد من المشاركات الأدبية والعلمية في الصحف والمجلات المحلية والعربية.



وصهاريج وآبار ومبان، من حصون وقلاع، على محطات هذا الدرب الذي يعد اليوم من الآثار المهمة في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية.

المنازل الرئيسة على درب زبيدة :

أحصى الرحالة والمؤرخون حتى اليوم: تسعاً وعشرين محطة على درب الحاج بين الكوفة ومكة المكرمة وتكلم على هذه المنازل والمحطات مع تقدير متباين للمسافات بين كل محطة والتي تليها كل من: الحربي صاحب كتاب المناسك، وابن خرداذبة في المسالك والممالك، والمقدسي في أحسن التقاسم في معرفة الأقاليم، وابن قدامة في الخراج، وابن رستة في الأعلاق النفيسة، وموزل في بحث له بمجلة العرب. ونورد في التالي المسافات التقديرية المرجحة عند سيد عبد المجيد بكر[٩]، وقد اعتمد في المقارنة على تقديرات من سبقه من الرحالة والمؤرخين، فوصل إلى أن طول الدرب بين الكوفة ومكة المكرمة هو ١٣٠١ كيلا تقريباً.

١ ـ الكوفة ـ القادسية (٢٧) كيلا.

٢ ـ القادسية ـ العذيب (٨) أكيال

٣ ـ العذيب ـ المغيثة (٣٤) كيلا

٤ ـ المغيثة ـ القرعاء (٤٢) كيلا

٥ ـ القرعاء ـ واقصة (٤٦) كيلا

٦ ـ واقصة ـ العقبة (٥٠) كيلا

٧ ـ العقبة ـ القاع (٤٧) كيلا

٨ ـ القاع ـ زبالة (٣٦) كيلا

٩ ـ زبالة ـ الشقوق «الشبجيات» (٣٩) كيلا

١٠ ـ الشقوق ـ بطان (٥٠) كيلا

١١ ـ بطان ـ الثعلبية (٤٥) كيلا

١٢ ـ الثعلبية ـ الخزيمة «زرود» (٤٦) كيلا

١٣ ـ الخزيمة ـ الأجفر (٤١) كيلا

١٤ ـ الأجفر ـ فيد (٦١) كيلا

١٥ ـ فيد ـ توز التوزي (٦٤) كيلا

١٦ ـ توز التوزي ـ سميرا (٣٠) كيلا

١٧ ـ سميرا ـ الحاجر (٥٦) كيلا

١٨ ـ الحاجر ـ النقرة (٥٦) كيلا

١٩ ـ النقرة ـ فضية الماوان (٥٦) كيلا

٢٠ ـ فضية الماوان ـ الربذة (٥٩) كيلا

٢١ ـ الربذة ـ السليلة (٤٧) كيلا

٢٢ ـ السليلة ـ العمق (٤٠) كيلا

٢٣ ـ العمق ـ معدن بني سليم (٤٤) كيلا

٢٤ ـ معدن بني سليم ـ الأفيعية (٥٣) كيلا

٢٥ ـ الأفيعية ـ المسلح (٥٢) كيلا

٢٦ ـ المسلح ـ غمرة (٣٤) كيلا

٢٧ ـ غمرة ـ ذات عرق (٤٠) كيلا

٢٨ ـ ذات عرق ـ بستان ابن معمر (٤٢) كيلا

٢٩ ـ بستان ابن معمر ـ مكة المكرمة (٥٦) كيلا

منطقة البحث :

منطقة البحث التي نحن بصددها تنحصر في جزء من درب زبيدة، وتحديداً بين منزلتين هما المسلح وغمرة، وفق الترتيب الذي مر معنا أعلاه، وفي مساحة لا تتجاوز ٤٠ كيلا من طول الدرب في اتجاه مكة المكرمة، ومنطقة البحث هذه، تقع شمالي عشيرة على عشرين كيلا تقريباً، وعلى ثمانين كيلا من الطائف شمالا. وهي منطقة تمتد على طول وادي عقيق عشيرة الشهير، واخترت الدراسة في مثلث رأسه الشرقي جبل بسيان. ورأسه الغربي جبل أوطاس. والرأس الشمالي هو المسلح. وطول كل ضلع في هذا المثلث لا يتجاوز ٤٠ كيلا. وفي داخل هذا المثلث تقع مجموعة من البرك وبقايا لمبان ضمن منظومة المحطات والمنازل على درب زبيدة، وهي موضوع هذا البحث، ونبدأ بالتعرف على المعالم الجغرافية داخل المثلث.

وقوم دريد وقوم الخنساء كانوا يتجاورون في تلك الناحية، وهذا ما عناه أبو وجزة السعدي بقوله:

يا صاحبيَّ انظرا هل تؤنسان لنا
بين العقيق وأوطاس بأحداج؟[١٠]

٢ ـ أوطاس :

صحراء واقعة شمال شرقي عشيرة على ضفة عقيق عشيرة من شماليه، فرت إليها جموع هوازن بعد كسرتهم في حنين، ولما نزلوها قال دريد بن الصمة، وكان مع قومه شيخاً كبيراً: بأي واد أنتم؟ قالوا: بأوطاس قال: نعم .. مجال الخيل، لا حزن ولا ضرس ولا سهل دهس. وقال أبو الحسين أحمد بن فارس اللغوي في أماليه: أنشدني أبي ـ رحمه الله ـ :

يا دار أقوت بأوطاس، وغيَّرها
من بعد مأهولها الأمطار والمُوَر
كم ذا لأهلك من دهرٍ ومن حجج
وأين حل الدُّمى والكُنَّس الحور؟
ردي الجواب على حران مكتئب
وقد تجلى العمايات الأخابير

وقال أبو وجزة:

يا صاحبي انظرا هل تؤنسان لنا
بين العقيق وأوطاس بأحداج؟[١١]

قال الحربي: (وعلى ثمانية أميال من غمرة؛ عند الحادي عشر من البريد يسرة، قبل البريد؛ أم خرمان. ومنه يعدل أهل البصرة، وهو الجبل الذي عليه علم ومنظرة وعنده بركة أوطاس وآبار ومنازل)[١٢]. وفي أوطاس جبل يسمى أم خرمان على بعد ثمانية أميال من غمرة، ومنها يعدل أهل البصرة، فهي ملتقى حجاج البصرة بحجاج الكوفة.

٣ ـ بُسيان:

أكمة سوداء شمال شرقي عشيرة بينها وبين مران

ـ مثلث البحث بين بسيان والمسلح وأوطاس.

المعالم الجغرافية في منطقة البحث :

في داخل مثلث البحث؛ نجد عدداً من المعالم الجغرافية التي تعترض درب زبيدة؛ وترتبط بملامحه الأرضية ومعالمه الأثرية، وهي:

١ ـ وادي العقيق:

عقيق عشيرة، وهو واد فحل من أودية الحجاز الشرقية، يأخذ مياهه من شمالي الطائف، ثم يتجه مشملا بين حرتي بُسّ غرباً، ثم حرة الروقة وحرة كشب شرقاً، حتى يدفع في قاع حاذة جنوبي مهد الذهب.

وهذا الوادي، قليل المياه، قليل الزراعة، وجل ما فيه من المناهل هي: عشيرة والمحدثة والمسلح. ويبلغ طوله ١٤٠ كيلا. وله ذكر في الشعر. وخطب دريد بن الصمة الخنساء فرفضته فقال من أبيات:

لمن طلل بذات الخمس أمسى
عفا بين العقيق فبطن خرس

وأم الدوم والشبيكة، عندها آثار مندثرة، وبرك متهدمة، مما يدل على عمران المكان فيما سلف. وهو مجاور لحرة بُسّ من مطلع الشمس على شفير الوادي - وادي العقيق. قال ذو الرمة:

سرت من منى جنح الظلام فأصبحت
ببسيان أيديها مع الفجر تلمع

وحكى أبو بكر محمد بن موسى: إن بسيان موضع فيه برك وأنهار على واحد وعشرين ميلا من الشبيكة. والشبيكة هي ما يعرف بـ (دغيبجة) اليوم. بينها وبين وجرة. وكانت به وقعة مشهورة قال المساور بن هند:

ونحن قتلنا ابني طميّة بالعصا
ونحن قتلنا يوم بسيان مُسهرا[١٣]

٤ - وجرة :

صحراء ملساء بضفة عقيق عشيرة من شرقيه. فيها بركة تدعى بركة زبيدة، يؤخذ لها خليج من سيل العقيق. فإذا امتلأت شربوا منها إلى منتصف الصيف أو إلى الشتاء، تتصل في الجنوب بركبة، وفي الشرق والشمال الشرقي بحرة كشب هي كثيرة الشجر والخمائل. كانت على طريق البصرة. ومنها إلى مكة ثلاث مراحل من مكة إلى ملتقى النخلتين، ثم إلى الضريبة، ثم إلى البركة بطرف وجرة. وكانت وجرة مشهورة بالصيد. يقول الملك عبد الله بن الحسين بن علي:

يا طالب الصيد هات الصقر والبازي
أريد طرداً لصيد في الفلا جازي
وحش بوجرة يرعى خضر أودية
منها السُليم ومنها رهن أحجاز[١٤]

٥ - المسلح:

قرية في وادي عقيق عشيرة من أسفله شمالي بركة زبيدة. فيه مقاه وبيع محروقات على الطريق بين الطائف ومهد الذهب[١٥].

٦ - المحدثة:

بئار سقي على طرفي عقيق عشيرة على ١٢ كيلا شمالي عشيرة. بين أوطاس وبسيان، وهي على طريق الطائف المهد[١٦].

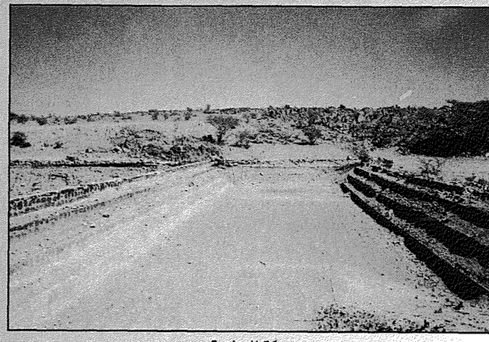
٧ - غمرة :

منهل بعقيق عشيرة قرب أوطاس. وغمرة بإزاء وجرة على درب الحاج، ومنها إلى ذات عرق عشرون ميلا. قال أبو إسحاق البكري: ليس ينبت فيها كباث، والكباث من ثمر الأراك[١٧].

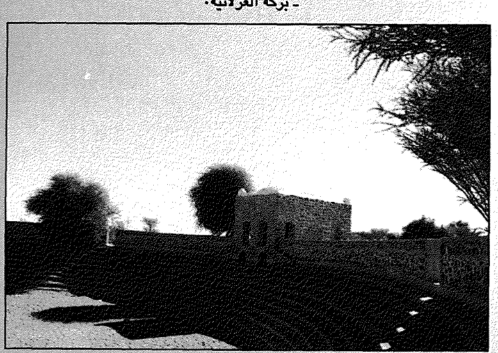
وإلى الشمال الغربي من غمرة: محطة يقال لها (أم خرمان) على بعد ٨ أميال منها يفرق حجاج البصرة عن حجاج الكوفة.

البرك في منطقة البحث :

إن ما يمكن مشاهدته في مثلث البحث هذا بين أوطاس غرباً وبسيان شرقاً والمسلح شمالا، لا يتجاوز أربع أو خمس برك ظاهرة، وبعض آبار، وهناك برك أخرى قريباً منها مطمورة ولا يتضح منها أكثر من رسوم على وجه الأرض، إلى جانب غرف وبقايا لمبان أخرى. وهذا الحذف من درب زبيدة لحاج العراق، بما فيه من الملامح الأرضية المتبقية، والمتمثلة في برك وبقايا مستراحات واصطبلات وآبار وقلاع ومساجد وغيرها، يعطي صورة جلية عن المكانة التاريخية لهذا الدرب على مدى القرون التي خلت، يوم لم يكن هناك من وسائل المواصلات سوى الخيل والجمال والدواب، وبعض الحجاج يسير على قدميه مئات الأميال، في صحاري ومفاوز مقفرة جافة، فتوفر له هذه الطريق في المنازل والمحطات المتقاربة، ما يحتاج إليه من طعام وماء وسكن وراحة، إضافة إلى علامات ومنظرات يستدل بها في الليل والنهار، وحصون للحراسة والحماية، وما إلى ذلك مما ذكره عدد من الرحالة والمؤرخين، مما لم يعد لكثير منه وجود فيما تبقى من منازل وما بين محطتي المسلح وغمرة اللتين ورد ذكرهما في منازل درب زبيدة، أربع برك نتناولها فيما يلي:



- بركة الغزلانية.



- جانب من بركة الخرابة.

أولا: بركة الغزلانية:

هي بركة[١٦]؛ ربما تكون قريبة من محطة على هذا الدرب، وتقع إلى الغرب من المسلح، وإلى الشمال من بركة الخرابة بحوالي ٢٠ كيلا، وفي منطقة مستوية بين جبلين. ويظهر من الجزء البارز من جدرانها؛ أنها دائرية الشكل - مثل بقية البرك - وقطرها من الداخل (٥ر٢٧) متراً، وهي محاطة بجدار سمكه ٨٥ سم، وفي طرفها الغربي بئر قديمة من آثار الدرب.

والبركة متهدمة ومطمورة ومملوءة بالطمي. وقريباً منها تقوم بركة مربعة الشكل أقيمت قبل حوالي ثلاثين عاماً لتجميع مياه السيول لتستفيد منها البادية في شربها وسقي مواشيها[١٨].

ثانيا: الخرابة:

يبدو أن الخرابة كانت منزلة ومحطة من كبريات منازل ومحطات طريق الحاج العراقي على بعد ٢٠ كيلا تقريباً غربي بركة الغزلانية، وعلى بعد ١٠ أكيال تقريباً شرقي بركة البركة.

والخرابة تقع قريباً من أكمة بسيان الشهير، ويسحب إليها ماء عقيق عشيرة عبر خليج طويل. وهذه البركة بركتان، وحولها غرف وآثار لمسجد وقنوات ملحقة بالبركتين. والبركة الأولى دائرية الشكل قطرها الخارجي (٥٠ × ٥٤) متراً. وتضم جداراً خارجياً مرتفعاً عن سطح الأرض بعرض متر واحد وارتفاع متر واحد تقريباً.

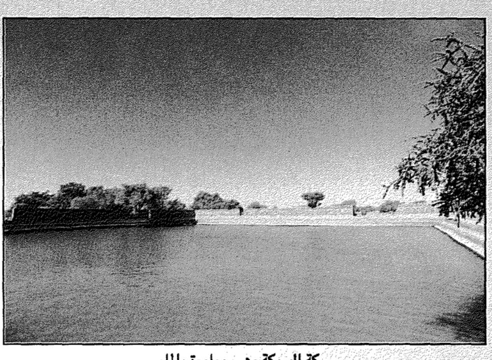
وتشتمل البركة على درج دائري متدرج إلى أسفل. وطوله حوالي ١٢ درجة على شكل مدرج روماني. وتبدو الأرضية والجدران مليسة بالجبس الأبيض، وهي مقفلة ولا مدخل لها إلا عن طريق البركة

الثانية، التي تأتي على شكل مستطيل بطول ٣٥ متراً وعرض ٢٥ مترا من الخارج. ولها درج من الداخل، وجدرانها وأرضيتها ودرجها مليسة بالجبس. وتعتبر مصفاة للأولى. وكل بركة كبيرة على محطات الدرب، يلاحظ أن لها أخرى صغيرة للتصفية.

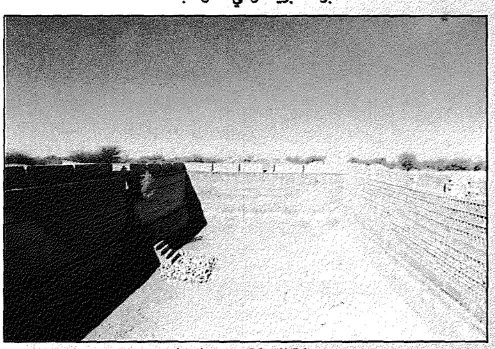
وتتوسط بين البركتين أربع غرف تشكل زاوية قائمة، وتوجد آثار لمسجد إلى الشرق من البركة. وعلى بعد كيل من هذا الموقع غرباً تقوم بركة حديثة أنشئت في العهد السعودي لتؤدي الغرض نفسه لبادية هذه النواحي[١٩].

ثالثا: البركة :

هذا الموقع يسمى البركة، نسبة إلى بركة مربعة الشكل طولها ٤٩ متراً، وعرضها مثل ذلك، وملحق بها بركة تصفية طولها ٥٥ متراً وعرضها ٢٢ مترا. والبركة مدرجة من أعلى إلى أسفل.



ـ بركة البريكة وهي مملوءة بالماء.



ـ بركة البريكة بعد تنظيفها.

وتقع متبطنة عقيق عشيرة إلى الغرب من الخرابة بحوالي ١٠ أكيال. وتصب فيها مياه سيول الوادي عبر خليج يعترض طرفه الشرقي، ويقربها تقوم آثار لقصر جنوبي الموقع في أعلى المنحدر، بعيداً عن بطن الوادي، وفي أقصى الشمال آثار اسطبل خيل وبهائم، وهذه مواصفات محطة قريبة من وصف (غمرة) الذي ذكره المؤرخون. وتقع البركة قريباً من الفيصلية، وغرباً من المحدثة التي بها آبار كثيرة للسقيا علي طرف العقيق، وتبعد عن عشيرة بحوالي ١٥ كيلا شمالا. وقريباً من البركة أقامت الدولة السعودية قبل أكثر من ثلاثين عاماً بركة حديثة مستطيلة الشكل لخزن مياه السيول والاستفادة منها طوال العام[٢٠].

رابعا: البريكة:

تقع البريكة إلى الغرب من البركة بحوالي ١١ كيلا



ـ بركة حديثة مما أنشىء في العهد السعودي.

تتقارب في منطقة لا تخرج كثيراً عن ضفتي وادي عقيق عشيرة الشرقية والغربية، ولتعيين المكان على ضوء ما جاء في ذكر محطات درب الحاج العراقي عند الحربي تحديداً[٢٣] فإن بركة الغزلانية تأتي محاذية للمسلح من غربيه. وبركة الخرابة وما تشتمل عليه من مرافق ومباني، تشكل محطة وجرة التي تحاذي جبل بسيان من غربيه. فالحربي يقول: بأن وجرة بإزاء غمرة، وبين المسلح وغمرة بـ ١٧ ميلا[٢٤]، وهذا الوصف يجعل غمرة تبعد عن المسلح ١٧ ميلا نحو الجنوب، وتجعلها قريبة من البركة الموجودة حالياً على الوادي، ووجرة بين المسلح وغمرة بميل نحو الشرق، وهي الخرابة بلا أدنى شك، كما أن أوطاس تقع إلى الغرب من البركة؛ فهي إذن تشرف على بركة البريكة؛ البركة الرابعة التي ورد الكلام عليها في هذا البحث.

أما وجرة .. فقد خصها الحربي بشعر في أرجوزته فقال:[٢٥]

ثم مضت تؤم حوض وجرة ... فاترة البُغام أي فترة
ما قصعت مذ أصبحت بجره
فوردت فشربت على ظما ... من بارد عذب رقيق قد صفى
يشفي به حرات الصدى

أما (أم خرمان).. فهي محطة على جبل في أوطاس شمال غربي غمرة هذه. ومنها يفرق حجاج البصرة عن حجاج الكوفة متجهين شرقاً نحو وجرة والشبيكة ومران بين حرتي ركبة وكشب، وهذه الطريق كان يسلكها الملك عبد العزيز رحمه الله في تنقله البري

في الطرف الغربي من عقيق عشيرة، وهذا الموقع هو أقرب ما يكون إلى (أوطاس) التي جاء ذكرها في التاريخ والأدب. والبريكة كانت حتى العام ١٤١٦هـ مطمورة بالكامل، يغطيها الطمي، ومعالمها مندثرة وغير معروفة. ولم تصل إليها بعثة إدارة الآثار، حتى قيض الله لها رجلا محباً للآثار، راغباً في الأجر والثواب من ربه سبحانه وتعالى، هو معالي محافظ الطائف فهد بن عبد العزيز بن معمر[٢١]، فتولى على حسابه الخاص حفرها وتنظيفها وبيان حالها، وبدت بركتها مستطيلة الشكل تقريباً، في نمط مختلف عن البرك الأخرى، فهي غير مدرجة إلا من مدخل بدرج يقود إلى أرضيتها من غربيها، وغير بعيد منها توجد بئر مطوية ويبلغ طولها ٤٠ متراً في ٢٠ متراً عرضاً وهي معرضة للسيول نظراً لانخفاضها الشديد، فهي عرضة للطمر والاختفاء مرة أخرى، ولهذا قام باعثها بتحصينها بجدار من جهة الوادي، وفتح مشربها وخليجها عليه[٢٢].

بين المسلح ووجرة وغمرة:

إن البرك الأربع التي جاء الكلام عليها أعلاه؛

بين نجد والحجاز. وفيها يقول الحربي:[٢٦]

حتى إذا مرت بأم خرمان ... وذاك حين اجتمع الطريقان
عجوا إلى الله الغفور المنان
ثم مضوا مثل الجراد الارسال ... ساجمة أعينهم بالتهمال
قد رفعوا أصواتهم بالإهلال

خاتمة:

ومما سبق .. يتضح بجلاء أن هذا المثلث موضوع البحث، هو نطقة التقاء وافتراق حجاج الكوفة وحجاج البصرة وعنده مفرق درب الكوفة ودرب البصرة، فالدربان يلتقيان ويفترقان عند نقطة (أم خرمان)، فيتجه الحاج البصري بعد حجه، من (أم خرمان) ماراً بـ (غمرة)، ومشرقاً حتى (وجرة)، ثم يشمل نحو الشبيكة - (دغيبجة) فمران، سالكاً بين حريتي ركبة وكشب. بينما ينعطف الحاج الكوفي بعد (أم خرمان) و(غمرة)؛ عبر وادي العقيق مشملا، وتبقى (وجرة) عن يمينه، فيأخذ طريقه عبر المسلح فالأفيعية. فهذا المثلث هو عقدة دربي الحجيج بين مكة ونجد والشرق والعراق من دون أدنى شك.

الهوامش والإحالات:

[*] الصور بعدسة الباحث . والرسم له.

(١) زينب بنت جعفر بن المنصور الهاشمية العباسية أم جعفر. زوجة هارون الرشيد وبنت عمه، هي أم الأمين العباسي واسمها «أمة العزيز» إليها تنسب عين زبيدة بمكة، جلبت إليها الماء من أقصى وادي نعمان. تزوج بها الرشيد سنة ١٦٥هـ. كانت لها ثروة واسعة، ولها آثار نافعة غير العين، منها هذا الدرب المشهور. قال ابن جبير: (وهذه المصانع والبرك والآبار والمنازل التي من بغداد الى مكة: هي آثار زبيدة بنت جعفر. انتدبت لذلك مدة حياتها، فأبقت في هذا الطريق مرافق ومنافع تعم وفد الله تعالى كل سنة من لدن وفاتها إلى الآن. ولولا آثارها الكريمة في ذلك لما سلكت هذه الطريق). توفيت ببغداد سنة ٢١٦هـ.

(٢) هارون الرشيد ابن محمد المهدي خامس خلفاء الدولة العباسية في العراق وأشهرهم. ولد عام ١٤٩هـ وتوفي سنة ١٩٣هـ. كان شجاعاً كثير الغزوات، يغزو عاماً ويحج عاماً، دامت ولايته ٢٣ سنة.

(٣) المناسك ص ٢٨٥.

(٤) الملامح الجغرافية ص ١٧.

(٥) المصدر السابق ص ١٨.

(٦) مجلة العرب، ج ٣ س ٧ ص ٩٣.

(٧) الملامح الجغرافية ، ص ١٨ عن مجلة الدارة.

(٨) المناسك ص ٢٨٥.

(٩) الملامح الجغرافية ص ٣١.

(١٠) انظر معجم معالم الحجاز مادة (عقيق) ومعجم البلدان، ومعجم أودية الجزيرة.

(١١) انظر المصادر السابقة.

(١٢) المناسك ص ٦٦.

(١٣) انظر معجم معالم الحجاز. مادة (بسيان) ومعجم جبال الجزيرة وصحيح الأخبار.

(١٤) المصادر السابقة.

(١٥) المصادر السابقة.

(١٦) البركة هي: كالحوض. والجمع البرك، سميت بذلك لإقامة الماء فيها. والبركة مستقع الماء، شبه حوض يحفر في الأرض لا يجعل له أعضاد فوق صعيد الأرض. وهو البرك أيضاً.

قال أبو منصور: ورأيت العرب يسمون الصهاريج التي سويت بالآجر ومزجت بالنورة في طريق مكة ومناهلها بركاً. واحدتها بركة. قال: ورب بركة تكون ألف ذراع وأقل وأكثر. (اللسان والمخصص).

(١٧) معجم معالم الحجاز. مادة (غمرة) ص ٢٥٧.

(١٨) انظر أطلال ج ٢ بتصرف. وكتابنا (ثراء الآثار في منطقة الطائف) ص ٤٤.

(١٩) المصدران السابقان.

(٢٠) المصدران السابقان.

(٢١) هو فهد بن عبد العزيز بن معمر، والده الأمير عبد العزيز بن معمر رحمه الله، كان أميراً على الطائف حتى العام ١٣٨٤هـ. وابنه فهد تعين أميراً على الطائف عام ١٤٠٦هـ ثم محافظا فيما بعد، وهو من ألمع الرجال وأنبههم وأخلصهم، وله دراية ومعرفة بأحوال المحافظة حاضرة وبادية، وقدم خدمات جليلة إدارية وثقافية وسياحية لأبناء محافظة الطائف لم يسبق إليها. (عن بحث لنا منشور في كتاب السجل الذهبي ص ١٤). وكتابنا تحت الطبع: (الطائف في مئة عام).

(٢٢) كتابنا: ثراء الآثار ... ص ٤٥.

(٢٣) في كتابه الشهير: المناسك.

(٢٤) المناسك. ص ٦٥.

(٢٥) المصدر السابق. ص ٦٣٧.

(٢٦) المصدر السابق. ص ٦٣٧.

المصادر والمراجع:

١ - أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي، مكتبة خياط، بيروت.

٢ - الأعلاق النفيسة، أبو علي أحمد بن عمر بن رستة، ليدن، مطابع بريل ١٨٩١م.

٣ - الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة ١٩٨٠م.

٤ - ثراء الآثار في منطقة الطائف، حماد بن حامد السالمي، لجنة المطبوعات، الطبعتان الأولى والثانية ١٤١٦هـ.

٥ - الخراج، أبو الفرج قدامة.

٦ - رحلة ابن جبير، أبو الحسين محمد بن أحمد الكناني الأندلسي، دار بيروت ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

٧ - السجل الذهبي لمحافظة الطائف، لجنة المطبوعات ١٤٢٠هـ.

٨ - صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار، الشيخ محمد بن عبد الله بن بليهد، الطبعة الثانية.

٩ - الطائف في مئة عام، حمّاد بن حامد السالمي، تحت الطبع.

١٠ - كتاب ما تقارب سماعه وتباينت أمكنته وبقاعه، الشيخ محمد بن عبد الله بن بليهد، تحقيق الدكتور محمد بن سعد بن حسين.

١١ - كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة. الإمام أبو إسحاق الحربي، تحقيق الشيخ حمد الجاسر، منشورات دار اليمامة ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.

١٢ - لسان العرب، الإمام العلامة أبو الفضل جمال الدين محمد بن منظور، دار صادر، بيروت.

١٣ - معجم أودية الجزيرة، الشيخ عبد الله بن محمد بن خميس، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

١٤ - معجم البلدان، الشيخ الإمام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت.

١٥ - معجم جبال الجزيرة، الشيخ عبد الله بن محمد بن خميس، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

١٦ - معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي، عالم الكتب، بيروت.

١٧ - معجم معالم الحجاز، الشيخ عاتق بن غيث البلادي، دار مكة، الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

١٨ - الملامح الجغرافية لدروب الحجيج، سيد عبد المجيد بكر، سلسلة الكتاب الجامعي، تهامة الطبعة الأولى ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

١٩ - المجاز بين اليمامة والحجاز، الشيخ عبد الله بن محمد بن خميس، منشورات دار اليمامة ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

٢٠ - المخصص، أبو الحسن علي بن إسماعيل النحوي الأندلسي المعروف بابن سيدة، دار الآفاق، بيروت.

٢١ - المسالك والممالك، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خردانبة، دار صادر، بيروت.

٢٢ - مجلة العرب التي تصدر من الرياض.

السدود الإسلامية القديمة بالمشرق والمعاصرة بالمغرب

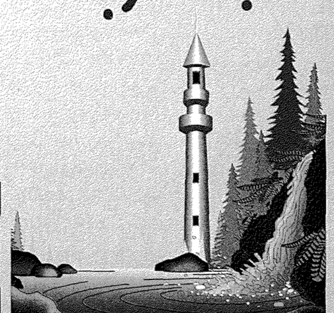
وجعلنا من الماء كل شيء حي) الأنبياء/ ٣٠

قال الأصفهاني: السَدُّ والسُدُّ قيل هما واحد، وقيل السدُّ ما كان خلقة والسُدُّ ما كان صنعة، وأصل السد مصدر سددته، قال تعالى (بيننا وبينهم سداً) وشبه به الموانع نحو (وجعلنا من بين أيديهم سداً ...) وقُرئ سُدّاً، والسدد الاستقامة، والسداد ما يُسدُّ به الثلمة والثغرة، والسدة كالمظلة على الباب تقيه من المطر وقد يعبر بها عن الباب (معجم الأصفهاني ص ٢٣٣).

سد مأرب باليمن السعيد:

سد مأرب ١٤٥ كيلا شمال شرق صنعاء من القرن الثامن قبل الميلاد[١].

يعتبر سد مأرب أو سد العرم كما سماه العرب أعظم أسداد بلاد العرب وأشهرها وأكبر عمل هندسي من عجائب العالم القديم بشبه الجزيرة العربية، إذ بمقارنة تصميم السد ومخارجه المائية (مخارج الري ومخارج الفائض من المياه) مع التصاميم الحديثة، يمكن القول أن العرب كانوا أول من وضع أسس صناعة السدود (انظر قصة السدود تأليف بيتر فارب ترجمة المهندس محمد توفيق محمود،

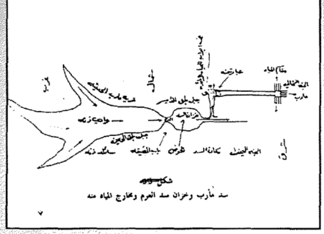




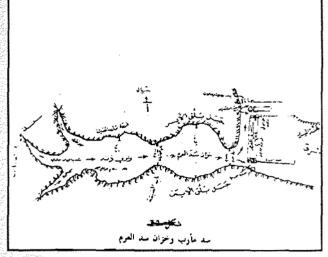
بقلم:

د. عثمان عثمان إسماعيل

- المغرب -



سدّ مأرب وخزان سدّ العرم ومخارج المياه منه.



سد مأرب وخزان سد العرم.

القاهرة ١٩٦٤م).

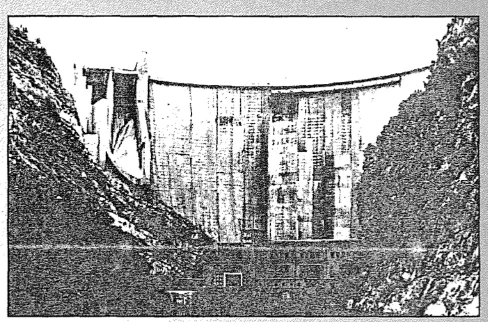
وتدل الوثائق على أن سد صنعاء عاصمة السبأيين بقي حوالي (١٣٠٠) عاما تصدع خلالها وأعيد ترميمه عدة مرات الى أن انفجر بفعل نوائب الطبيعة فتفرق عرب الجنوب في أنحاء الجزيرة ناشرين حضارتهم وتقاليدهم.

وأقدم ما ورد في أخبار السد قوله تعالى {**لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كُلُوا من رزق ربكمْ واشكروا له بلدة طيبةٌ وربٌ غفور فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتَيْ أكُل خمط وأثل وشيء من سدر قليل ذلك**

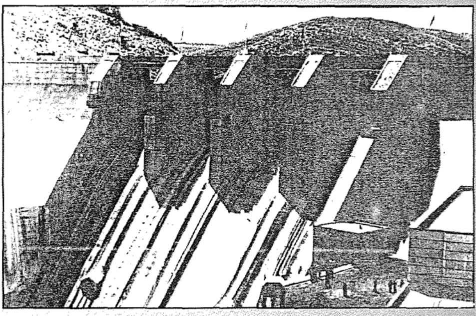
افادة

- درجة الدكتوراة بامتياز مع درجة الشرف الاولى في الحضارة والآثار الاسلامية المغربية.
- استاذ الحضارة والتاريخ والآثار الاسلامية.
- عضو اتحاد المؤرخين العرب.
- له مكتشفاته الاثرية المقَّرة عربياً وعالميا.
- له جمهرة من المؤلفات في التاريخ والآثار.
- له العديد من المشاركات العلمية.





سد بين الوديان.



سد مشروع قليلة.

جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور} (سورة سبأ/ ١٥ ـ ١٧).

وصف الهمذاني الذي كان يحسن قراءة خط المسند اليمني القديم في كتابه الاكليل خرائب السد التي شاهدها أوائل القرن الرابع للهجرة وطبق مشاهداته على ما ورد بالقرآن الكريم، ثم أيد المنقبون عن آثار السد مشاهدات الهمذاني وإشاراة القرآن الكريم {بلدة طيبة وربٌ غفور} والبلدة سبأ كثيرة العجائب، والجنتان عن يمين السد وشماله وهما اليوم غامرتان، ولازالت مقاسم الماء من مداخل السد قائمة كأن صانعها فرغ من عملها بالأمس، ويزيد الهمذاني انه رأى بناء أحد الصدفين باقياً وهو الذي يخرج منه الماء.. وإنما وقع الكسر في العرم الذي بقي منه شيء يحاذي الجنة اليسرى وعرض أسفله خمسة عشر ذراعاً، قال تعالى {فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم}.

وكان العرم مسندا الى حائط ما بين عضاد بالمذخر بمحاذيب الصخر عظام ملحمة ملس الأساس بالقطر.. الى هنا ينتهي كلام الهمذاني.

وتدل النقوش التأسيسية على صخر السد على أنه يرجع إلى القرن الثامن قبل الميلاد عهد المكرب (سمه على ينف) الذي أدخل ابنه (يثع أمر بين) تحـ ينات وفروعاً جديدة وتحكم في مياه السيول، ثم نما السـ .. ـل زمن (شهر يرعش) في نهاية القرن الثالث للميلاد، وبقي السد قائما الى سنة ٥٧٥م قبيل ظهور الإسلام، وعندما تهدم انتقلت عاصمة السبأيين

الى ظفار التي عمروها فتقهقرت مأرب، وكلما انفتق العرم رمموه الى ان أهمل فتهدم.

وفي سنة ١٨٩٧م اكتشف غلازر أثرين عليهما كتابة تتعلق بخراب السد، الأولى مؤرخة ٥٢٩م والأخرى سنة ٥٦٥م كتب أحدها أبرهة (النص بالمرجع الذي وضعه الدكتور المهندس احمد سوسة: حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور وزارة الاعلام بغداد ص ٢٢٦).

والسد عبارة عن حائط ضخم مبني على عرض الوادي على زاوية منفرجة يمتد من الجنوب الى الشمال على مسافة ٥٦٠ مترا، وبالسد ثلاثة مخارج للمياه، مخرجان لارواء الأرض الزراعية، والمخرج الشمالي لارواء الجنة اليسرى أو الجنة الشمالية، والمخرج الجنوبي أو الأيمن لارواء الجنة اليمنى أو الجنوبية، أما المخرج الثالث فهو صمام أمن لخروج الفائض من المياه اذا عصفت الأنواء العاتية بالمنطقة تخفيفا للضغط على السد (موجز بتصرف أمين من كتاب الدكتور أحمد سوسة).

ويتكون المخرج الشمالي من فتحتين متجاورتين (بينهما جدار صغير، والسد بالجهة الشمالية ظاهر منه قطعتان من البناء الأصلي) وجدارين عظيمين متقاطعين في منتهاه شمالا، عرض الأولى ٣٥ متراً والثانية ٢٠ متراً مبنيتان على زاوية منفرجة من الحجارة البركانية السوداء والبيضاء الصغيرة على هيئة الخرسانة الحديثة ككتلة واحدة.

ويجرى الماء من الفتحتين مسافة (١٦٥ مترا) من السد شرقا في مقاسيم خاصة سبعة منها الى الشرق والشرق الجنوبي، وسبعة الى الشمال وعدد مجهول الى الجنوب، وينتهي هذا التقسيم الى ٢١ نهرا، وكانت المقاسيم أو المجاري الكبيرة من الأحجار البركانية السوداء محشوة بينها باللبن الأسود المصنوع بقوالب من الرمل والحصى البركانية الناعمة وبعض أنواع الأسمنت ويتكون المخرج بالنهاية الجنوبية من فتحة باتساع أربعة أمتار ونصف، وجداراه مبنيان بالتوازي، الأيمن عبارة عن صخرة عظيمة في جانب الجبل عليها كتابات حميرية، والثاني مبني من الحجر المنحوت خلفه جدار ثان لازال قائما متقن البناء الى حد بعيد فلا تدخل إبرة بين حجر وآخر لاحتمال استعمالهم مادة شبيهة بالأسمنت بين الأحجار، وبأرض الفتحة ثقوب كبيرة يحتمل كونها مواقع عمدان حديدية كباب متحرك يفتح ويغلق بحسب الحاجة.

أما المخرج الثالث فمن خمسة أبواب متحركة لتصريف المياه الزائدة الى الجهة الشمالية وتخفيف الضغط عن السد (كتاب الدكتور سوسة ص ٢٢١ - ٢٣٠).

إرم : بلدة عاد الذين تحدوا نبي الله هود فدمرها الله وجعلهم كأعجاز نخل خاوية **{ألم تر كيف فعل ربك بعاد}**.

مجموعة السدود الحديثة بالمغرب الأقصى وسد مولاي إدريس الأول :

وسوف يظل بدون شك ولا ريب من أبرز معالم المنجزات المعمارية في فن العمارة المدنية على طول ذلك العصر، تلك المجموعة من السدود المائية الهائلة التي عرفها المغرب منذ أوائل عصر الاستقلال وعلى الخصوص ابتداء من تاريخ البدء في تنفيذ التصميم الخماسي لعام ١٩٦٨م.

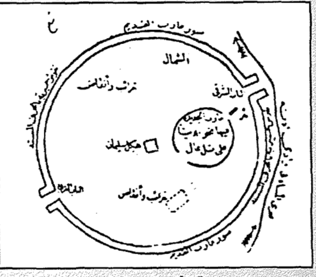
إن تخطيط المغرب وتصميمه للمحافظة على ثروته

مثال آخر في بلد عربي أو إسلامي نحو سبعة وعشرين سداً أقيم منها بعد الاستقلال سبعة عشر سداً منها تعلية سد القنصرة وبناء سد النخلة وسد آسفي قبل تنفيذ التصميم الخماسي لعام ١٩٦٨. وبعد ذلك تم بناء سد مولاي يوسف على وادي تساوت الواقع على بعد سبعين كيلومتر من مراكش وكذلك تشييد سد من الطين فوق وادي كرو بالقرب من مدينة الرباط وسد الحسن الداخل فوق وادي زيز لسقي ١٩ ألف هكتار بتافيلالت وحماية هذا الاقليم من مغبات الفيضانات، ثم بناء مركب المنصور الذهبي فوق وادي درعة ويبلغ حجمه ٥٦٠ مليون مترا مكعبا ويكفل سقي ١٩ ألف هكتار وحماية واحات النخيل المنحدرة من آلات تضخ المياه. وشرع في نفس التصميم الخماسي في بناء سد إدريس الأول فوق وادي ايناو ويرمي إلى سقي ٨٠ ألف هكتار بوادي سبو ثم سد يوسف بن تاشفين الذي تبلغ طاقته ٣١٠ مليون مترا مكعبا يستهدف أساسا سقي ١٩ ألف هكتار. اما سد أبي رقراق فإنه يستطيع ادخال ٥٠٠ مليون متر مكعب ويستهدف تزويد المنطقة الساحلية الممتدة من القنيطرة الى الدار البيضاء بالماء العذب.

ومن بين السدود الكبرى في تصميم ١٩٧٣ - ١٩٧٧م يوجد اثنان منها ذات طابع فلاحي وهي كدية الغرفة فوق نهر اللوكوس وسد آخر في أعلى نهر سوس ومن شأنهما أن يزيدا في المساحة المزروعة بالسقي نحو ٥٠ ألف هكتار كما يلعبان دورا هاما في حماية وادييهما الأسفلين من مغبة الفيضانات المترتبة عن تضخم المياه. أما السد الثالث فهو سد أبي رقراق الذي يساهم في مضاعفة توفير حجم الماء الصالح



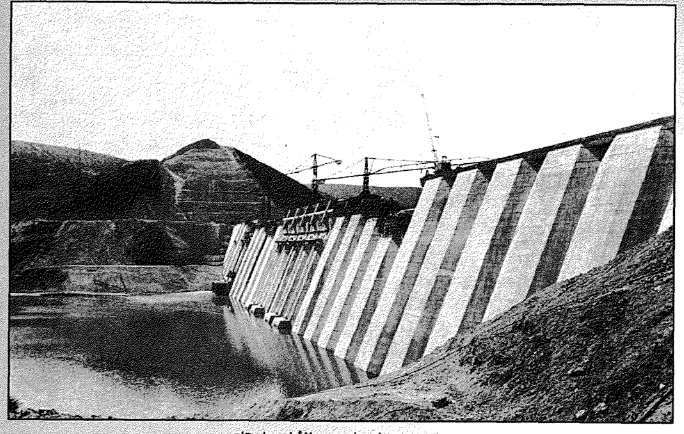
مواطن الحضارة العربية أيام دولة اليمن في (١٤ ق.م - ٦ ق.م).



مدينة مأرب بعد خرابها.

المائية وصيانتها وحسن استغلالها يوفر لذلك المخطط المدروس المعد سقي مليون هكتار في سنة ٢٠٠٠ للميلاد ولا شك في قيمة ما تضيفه هذه الطاقة الضخمة على الفلاحة وما يترتب عليها من صناعات وطنية تؤدي الى تطوير وانعاش المستوى الاجتماعي الذي هو هدف كل تخطيط إنساني.

ويبلغ مجموع السدود المغربية اليوم[٢] على غير



موقع سد مولاي إدريس الأول وملحقاته

للشرب في المنطقة الساحلية المذكورة، وأخيرا فإن سد تنين موتين فوق نهر تساوت سيختص بدور كبير في طاقة الصرف يعتبر بمثابة حوض تعويض لسد مولاي يوسف. وإن حِرْص جلالة الحسن الثاني - يرحمه الله - على التعمير المدني جعله يصر على تدشين سد المسيرة في نفس الوقت الذي جرت فيه احداث معجزة العصر المسيرة الخضراء فضرب أروع الأمثلة للقادة التاريخيين على التوازن الفكري في مضمار الحضارة الاسلامية المتكاملة.

ولا شك أن مثل تلك الشبكة الضخمة الهائلة من السدود المائية التي تهدف أولا وأخيرا الى انعاش الفلاحة وتطوير الصناعة وتشغيل الأيدي العاملة وتحقيق الرخاء تعتبر معلمة من أبرز معالم العمران المدني في العصر الحديث[٣].

سد مولاي ادريس الاول استصلاح فلاحي بسهل الغرب :

يعد سهل الغرب الواقع على واجهة المحيط الاطلسي شمال القنطرة التي تبعد عن الرباط العاصمة نحو اربعين كيلومترا منطقة دلتوية (نسبة الى الدلتا) واسعة المساحة نتيجة ترسبات ثلاثة انهار، نهر ورغة بما يجلب من صلصال جبال الريف (منطقة شمال المغرب) ثم نهر سبو بما يجلب من مياه الاطلس المتوسط وما يجلب من هضباته الجيرية بالاضافة الى وادي بهت الوافد من منطقة ازمور شبه الصحراوية.

هذه الانهار الثلاثة تجتمع لتكوين سهل سبو السفلي ومساحة السهل المستوية طبوغرافيا التي تمكن من اقامة دوائر فلاحية كبيرة يمكن استصلاحها خاصة وقد اثبتت الدراسات والابحاث ان ذلك السهل صالح لاقامة زراعات هامة عدة.

لقد اوضحت دراسات تقنية على المستوى البنيوي والبحث الاقتصادي اهمية بناء سدين هامين لسد حاجة السقي في سهل الغرب، لهذا برزت اهمية تشييد سد المجاعرة على نهر ورغة وسد ادريس الاول على نهر ايناون.

وقد دعت الحاجة العملية والعلمية إلي تقسيم سهل الغرب المطل على الاطلسي الى ثلاثة دوائر تناهز مساحة كل منها خمسين الف هتكار، والدائرة السقوية الاولى منها التي بدأ تنفيذها سنة ١٩٧٠م تغطي حوالي خمسة واربعين الف هكتار اصبحت مسقية بأكملها بعد عشرة اعوام، لقد بدأ بالفعل سد حاجتها بالماء المنتظم بواسطة سد ادريس الاول مع صيف سنة ١٩٧٣ للميلاد.

ابحاث ودراسات تنفيذ المشروع :

لقد اختبر الموقع الجغرافي بعناية للتأكد من البيئة الطبيعية وقدرتها على امساك الماء المراد تجميعه (وهو خطر ظهر في مشروع السد العالي باسوان) وللتأكد من متانة الوادي بما يضمن شروط ثبات المنشآت الامر الذي يستدعى تدخل الجيولوجي الى جانب الاخصائي الجيوفيزيائي وميكانيكي الصخور وانجاز دراساته.

كذلك تم دراسة المنشآت الملحقة مثل التحويل المؤقت ومفرغ الفيضان، ويتم التحويل المؤقت الاقتصادي بفضل توسيع الوادي بموقع السد دون تحريف جانبي (بواسطة قناة سد ابي الرقراق او نفق يوسف بن تاشفين وذلك بتأسيس جزر عمل محاطة بحاجزات حامية، وتمهيدا لذلك عمل نموذج مصغر لضمان تقليل نفقات الحاجزات وللاطمئنان على درجة سلامة النظام.

اما مفرغ الفيضان فهو عبارة عن فتحة بقمة السد بكيفية منطقية واقتصادية، كما درست المفرغات من اسفل على نموذجين احدهما يدمج في السد ليحدد كيفية ارجاع المياه الى السافلة والآخر خاص ببقية الدراسة اللازمة.

مواصفات وخصائص ومنشآت ملحقة :

الخصائص والمواصفات

الارتفـــاع:

أقصى ما فوق السرير	٦٢، م
أقصى ما فوق الاسس	٧٢،م

القمـــة :

الارتفاع	٢٢٠.٥ م
الطول	٤٤٧.٣ م

مجهزة بممر للاستغلال

سد بكتل مستقلة عن بعضها

دعامتان (٢٣م و ٤٩.٣م)	٧٢ م
١٣ كتلة عادية (١٥م)	١٩٥ م

منها ٦ كتلات على بساط عام بالضفة اليسري

١٢ كتلة منحدرة (١٥م)	١٨٠ م

منهما ٥ كتلات مجهزة بالمفرغ.

كتل عادية (الارتفاع الاقصى)

السمك بالقاعدة (٣)	٦٣ م
السمك بالقمة	٢.٥ م
الميل بالعالية	٠.٤ م
الميل بالسافلة	٠.٥ م

المنشآت الملحقة

مفرغ الفيضان

عتبة «كرياجي» طولها	١٨٠ م
عارضة عند الارتفاع م ع م	١٢٧ م
قادرة على صب تحت الارتفاع ٢٢٠م ع م	٢,٤٠٠ م٣/ث

التفريغ من أسفل

٤ سكور مسطحة للحراسة ٣,٠ × ٥,٠ م٢

٤ سكور للقطاعات المشحونة ٣,٠ × ٤,٧ م٢

الصب المفرغ (بمفرغ واحد)

الارتفاع ٢٢٠ م ع م	٣٠٠ م/ث
تحت الارتفاع ٢٠٥ م ع م	٢٧٥ م/ث

التفريغ المعد للفلاحة

السكر المسطح للحراسة ١.٥ × ٣,٠ م٢

السكر القطاع المشحون ١.٥ × ٣,٠ م٢

الصب المفرغ تحت ١٩٠ م ع م	٥٠ م/ث

المآخذ الصناعية

سكران مسطحان للحراسة ٣,٠ × ٤,٠ م٢

بديتان للقنوات المقواة المجهزة بقعر معمر[٤]

ومن هذه التقنية والكفاءة في الهندسة المعمارية يتبين للخبير تفوق الفكر الهندسي العربي من ملاحظة تطور المخزون بالأمتار المكعبة نتيجة تنفيذ مشروع سد إدريس الاول لتغذية سهل الغرب على النحو الذي تفصح عنه هذه الدراسة.

وخلاصة القول أن البحث الوارد بصدر المقال يوضح نجاح الفكر الهندسي المعماري العربي في وضع الأسس والتقنيات المناسبة للموقع والتربة والمناخ والمواد المتاحة كما يشهد به انجاز مجموعة القلاع والحصون التي تحقق أهدافها في ضمان الأمن والاستقرار كأسس الحضارة، كما كان تصميم وبناء الأربطة للغرضين المتاحين للجهاد بالسلاح والدعاء ناجحاً منذ المنشأ الى اليوم، أما التكايا والزوايا والأسبلة فقد كانت عنوان تفوق المعمار الاسلامي على شكل ونحو ليس له نظير في تاريخ العمارة العالمية بناء وسخاء وإنسانية.

ويكفي الشطر الثاني من المقال والمخصص للسدود الإسلامية القديمة بالمشرق والمعاصرة بالمغرب أنه شهادة تفوق للمعمار العربي لضمان استمرار العمران وسلامة النسيج الاجتماعي بالتجمع البشري على أوسع نطاق ممكن حقق للفكر العربي تميزاً لا سبيل الى إنكاره في سلم الحضارة العالمية الأمر الذي يؤكده إسهام مهندسين عرباً ومسلمين في أكبر المشاريع العمرانية العالمية.

الهوامش :

(١) اشكال ٢١ ـ ٢٢ والنص موجز ميسر من كتابنا معجم ألفاظ القرآن الكريم في علوم الحضارة، الآثار والعمارة والفنون.

(٢) انظر السدود الكبرى بالمغرب لوزارة الأشغال العمومية والمواصلات ـ ديسمبر ١٩٧٣ ـ سلسلة المطبوعات المتعلقة بالسدود لنفس الادارة وكتابنا تاريخ العمارة الاسلامية والفنون بالمغرب الجزء الخامس.

(٣) عن كتابنا تاريخ العمارة الاسلامية والفنون بالمغرب الجزء الخامس.

(٤) موجز ميسر مستخلص من كتاب مديرية هندسة المياه بوزارة الاشغال بالمغرب.

عمارة الأسبلة في العصر المملوكي بالقاهرة

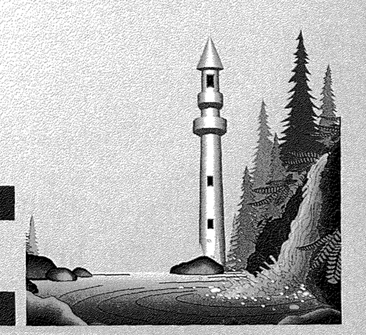
السبيل مكان لاستقاء الماء . وفي اللغة أسبل المطر بمعنى هطل . وقد يذكر الاسم ويؤنث، قال ابن السكيت يجمع على التأنيث سبول وأسبلة وعلى التذكير سبل[١] .

والمراد بالسبيل، في بحثنا هذا، هو المواضع المعدة والمجهزة لسقى المارة في سبيل الله ولوجه الخير، وبناء الأسبلة من الأعمال الخيرية الجاري ثوابها على أربابها بعد الموت ما دامت باقية منفعتها، والحق أن شرف سقاية الناس وتسهيل الحصول على الشرب في المنطقة العربية عامة قديم جدا ومعروف لا سيما وأن البيئة بجوها الحار وبيئتها المتربة قد جعلت التبارى في انشاء هذه الأسبلة من أجل الخدمات على الناس، ويذكر ابن هشام أن أشراف قريش قبل الإسلام قد تباروا على أخذ السقاية بجوار الكعبة في حوزتهم لأن فيها رفعة لهم بين قومهم واعلاء شأنهم .

بقلم :

د. حسني نويصر

أستاذ العمارة الاسلامية بجامعة القاهرة

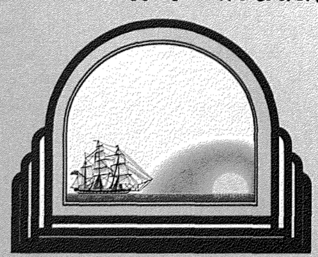


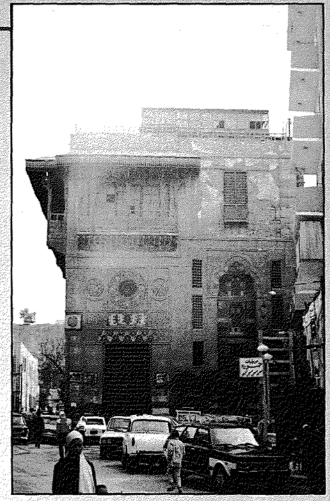
وفي مصر نجد أن الروح الطيبة الخيرة قد سعت وراء ايجاد مصدر مستمر للماء وتسهيله للناس في أوقات الحر والظمأ . وظلت هذه الروح قائمة حتى الآن، ولذا بنيت الأسبلة كمنشآت لتخزين الماء، لتقديمه بعد ذلك للمارة لارواء عطشهم. وأدى تتبعى التاريخى لهذا النوع من البنايات، الى الوصول الى أن أقدم ورود معروف لذكر السبيل في الكتابات الأثرية التأسيسية كان في سنة ٤٧٠هـ/ ١٠٧٧ ـ ١٠٧٨م. وكان ذلك بمدينة دمشق حيث يوجد نص على سبيل بحي عمرا يقرأ «أنشأ هذا السبيل المبارك السعيد العبد الفقير الى الله تعالى الحاج محمد الجبوري عفى الله عنه سنة سبعين وأربعماية».

كما يوجد أيضا بمدينة دمشق نص تجديد يقرأ «بسم الله الرحمن الرحيم . جدد هذا السبيل المبارك الحاج خيرو ابن عبد الله والله يرحم من كان السبب في الماء ومن أعان على مصالحه ولجميع المسلمين سنة خمسماية».

ـ سبيل فرج بن برقوق، واجهة شمالية شرقية.

وأقدم ورود لذكر الأسبلة في القاهرة يرجع لعصر الظاهر بيبرس حيث كان ملحقا بمدرسته سبيل ، وأنشأ السلطان المنصور قلاوون سبيلا ذا كتاب جدد سنة ١١٧١هـ/ ١٧٥٧م غير أن هذا السبيل اندثر الآن[٢]، على أن أقدم الأسبلة الموجودة بالفعل والقائمة حتى الآن هو سبيل الناصر محمد بن قلاوون، وهو مبنى على واجهة مدرسة السلطان المنصور، ويرجعه كريزويل الى سنة ٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م[٣].





- سبيل قايتباي بالقاهرة.

وتنقسم الأسبلة المملوكية إلى الأنواع الآتية:

١ - السبيل المستقل :

وهو سبيل قائم بذاته كوحدة معمارية، ومن أقدم هذا النوع من الأسبلة القائمة في القاهرة سبيل شيخو الملكي الناصري ٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م، وهذا السبيل بدوره غريب عن أسبلة عصره، بل ومعظم الأبنية الاسلامية اذ أنه محفور في الصخر وليس مبنيا، وله واجهة فقط هي المبنية بالحجر على هيئة دخلة نصف دائرية، والمسقط الأفقي لهذا السبيل عبارة عن قاعتين مستطيلتين منحوتتين في الصخر بكل قاعة من القاعتين صهريج للماء محفور أيضا في أرض الصخر.

٢ - السبيل ذو الكُتّاب:

ويكون غالبا في الطابق الثاني منه على سطح الأرض أو فوقه بقليل حجرة السبيل[٤] وأما الطابق الثالث فهو الكُتّاب الملحق، وأقدم هذا النوع من الأسبلة ذات الكتاتيب في مصر هو سبيل المنصور قلاوون وسبيل وكتاب الوفائية، على أنه أحسن مثل للسبيل ذي الكتاب - المتأثر بالعمارة المملوكية هو سبيل وكتاب خسرو باشا بالقاهرة ٩٤٢هـ/ ١٥٣٥م، وهو من العصر العثماني.

٣ - الأسبلة والكتاتيب الملحقة:

- هذا النوع من الأسبلة يكون ملحقا بكثير من منشآت العصر المملوكي مثل المساجد والمدارس والوكالات والخانقاوات، ففي زيادة أحمد بن طولون الجنوبية الغربية ألحق السلطان لاجين سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٩٦م سبيلا وكتابا جدده فيما بعد السلطان قايتباي. **وسبيل وكتاب قايتباي بالصحراء بالقاهرة** ٨٧٩هـ/ ١٤٧٤م، وسبيل وكُتّاب ملحق بوكالة السلطان قايتباي بالأزهر ٨٨١هـ/ ١٤٧٧م، وسبيل ملحق بقبة الغوري ٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م، ومن البيوت التى لا يزال بها سبيل للآن هو بيت الكريدليه من القرن ١٦، ١٧م.

طرز السبيل :

لعمارة السبيل طرز خاصة تفنن فيها المهندس المسلم، وتذكر المصادر التاريخية والفنية أنه جرت العادة بأن يلحق السبيل بواجهات المنشآت الدينية لا سيما في زاوية البناء على الطريق[٥] ويذكر ماكس هرتز أن الأسبلة والكتاتيب من المرافق التى ألحقت بالمنشآت الدينية التي ابتدعها المعمار مع المحافظة على خط تنظيم الشوارع التى كانت أخذت في الاتساع، وقد استطاع المهندسون أن يوائموا بين[٦] البناء المضاف والبناء الأصلى بطرق عديدة ابتدعوها وظهرت بشكل واضح في عصر المماليك الجراكسة وذلك باقامتها في نواصي منشآتهم.

ويمكننا أن نقسم طرز الأسبلة الى أربعة طرز هي :

١ - طراز السبيل ذي الحجاب:

هذا الطراز من الأسبلة يكون دائما في زاوية المبنى الملحق به، وهو يتكون من مساحة مربعة أو

مستطيلة يرتكز سقفها على عامود أو أكثر، ويغطى واجهة السبيل حجاب من الخشب الخرط به فتحات يسيل منها الماء في أحواض، وأقدم مثل لهذا النوع من الأسبلة بالقاهرة هو سبيل الناصر محمد بن قلاوون على واجهة المدرسة المنصورية قلاوون ٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م، وسبيل ملحق بمدرسة جقمق ٨٥٥هـ/ ١٤٥٥م. وهذا النوع من الأسبلة لا يوجد به سلسبيل لتبريد الماء، وانما كان التسبيل يتم عن طريق الأحواض مباشرة، ويعلو بعض هذه الأسبلة كتاب لتعليم أيتام المسلمين القراءة والخط والقرآن الكريم.

٢ ـ طراز السبيل ذي الشباك الواحد:

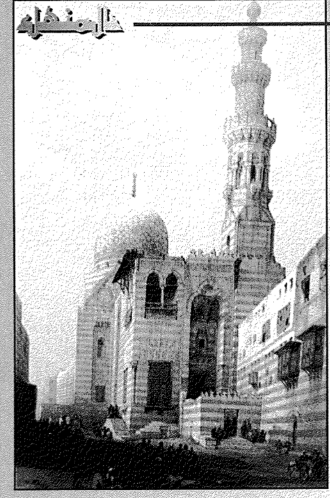
هذا النوع من الأسبلة يكون غالبا ملحقا بأحد المساجد أو المدارس أو الخانقاوات، ويكون عادة على الطريق العام على يمين أو يسار المدخل، والسبب في كونه ذا شباك واحد هو أن المساحة التى شيد فيها المسجد أو المدرسة لا تسمح بأكثر من ذلك حيث يكون ملاصقا لها بعض المبانى مما يجعل المهندس يقتصر على جعل السبيل بشباك واحد.

ومن أمثلة هذا النوع من الأسبلة سبيل ملحق بمدرسة جمال الدين الاستادار بالقاهرة ٨١١هـ/ ١٤٠٨م، وسبيل ملحق بمدرسة تغرى بردى ٨٤٤هـ/ ١٤٤٥م، وسبيل الوفائية ٨٤٦هـ/ ١٤٤٢م.

وتخطيط هذا النوع من الأسبلة من الداخل عبارة عن حجرة مربعة أو مستطيلة حسب المساحة المتبقية من الواجهة ويوجد في هذا الطراز من الأسبلة في بعض الأحيان دخله للشاذروان[٧] وفي كثير من الأحيان لا توجد هذه الدخلة، الا أن كل أسبلة هذا الطراز وغيره تشترك في وجود صهريج للماء عليه خرزه من الرخام، كما تشترك هذه الأسبلة السابقة في كونها ذات شباك واحد عليه مصبعات من النحاس أو الحديد على الطريق العام وبأرضيتها من الداخل حوض من الرخام يسيل منه الماء، ومعظم هذه الأسبلة لها كتاب فوقها.

٣ ـ طراز السبيل ذي الشباكين:

يكون هذا النوع من الأسبلة في أركان المساجد



ـ مدرسة قايتباي، ملحق بها على اليسار سبيل يعلوه كتاب.

أو المدارس، بل وحتى في بعض الأسبلة المستقلة بذاتها، ومن أمثلة هذا النوع من الأسبلة سبيلا خانقاة الناصر فرج بن برقوق ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م، **وسبيل فرج بن برقوق** الملحق بزاويته، وسبيل ملحق بالمدرسة الأشرفية وسبيل ملحق بمدرسة قجماس الاسحاقي ٨٨٥ ـ ٨٦هـ/ ١٤٨٠ ـ ١٤٨١م.

وتخطيط حجرة السبيل في معظم هذه الأسبلة يكون مربعا أو مستطيلا ويوجد أسفل هذه الأسبلة صهريج لحفظ المياه للمارة مجاور لكل شباك، وقد الحق فوق كل هذه الأسبلة مبنى للكتاب فيما عدا ثلاثة منها هي سبيل قايتباي بالصليبة وسبيل ملحق بمدرسة قجماس الاسحاقي، وسبيل ملحق بمدرسة خاير بك حيث يوجد مكان الكتاب سكن لمزملاتي السبيل أو صاحب المبنى.

٤ ـ طراز السبيل ذي الثلاثة شبابيك:

يكون بناء هذا النوع من الأسبلة ذات الثلاثة

عمارة السبيل :

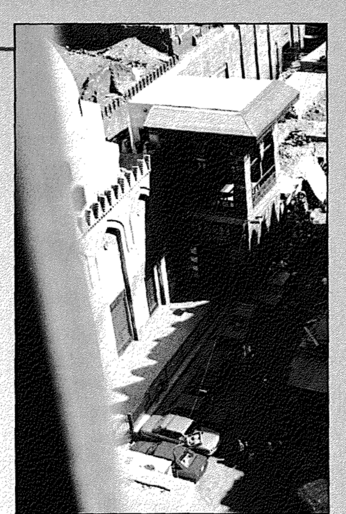
اختلفت طرز الأسبلة وتنوعت إلا أن عمارتها تقوم في الغالب على أساس نظرية واحدة إذ تتكون عادة من ثلاث طبقات[٨]:

ـ الطبقة الأولى:

وتكون تحت الأرض وهي الصهريج، وكانت الصهاريج تبنى عادة بالآجر والخافقي في تخوم الأرض لحفظ المياه وكانت لها قباب غير عميقة[٩] أي ضحلة ـ مقامة على دعامات وقناطر من الحجر المنحوت، وكانت فوهة الصهريج تغطى بخرزة من الرخام الصلد ويكون شكلها في الغالب مستديرا، ولم تقتصر بعض السبل على بناء صهريج واحد ودائما كانت هناك أنواع من الأسبلة بني بها أكثر من صهريج، مثال ذلك سبيل السلطان قايتباي الملحق بوكالته بالأزهر حيث يوجد بها صهريجان لحفظ المياه، وكانت لهذه الصهاريج منازل عبارة عن سلالم ضيقة يطلق عليها سلم طرابلسي[١٠]، وكانت هذه الصهاريج تملأ سنويا في وقت يحدده الواقف عليها، وكانت تنظف ويمسح ما علق بها من الفطريات ثم تملأ بالروايا، وتشترك كل الأسبلة في اشتمالها على صهريج الماء، وهو المصنع[١١] المبني تحت الأرض لخزن المياه للسبيل يملأ منه حتي ينفذ ماؤه على ميعاد ملئه من السنة الثانية.

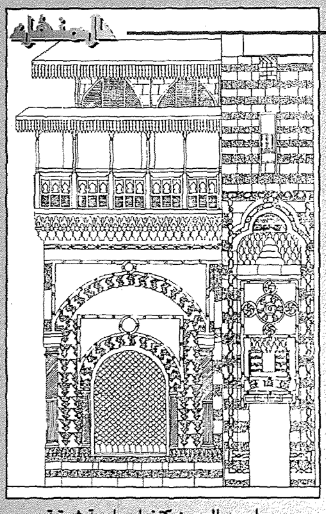
ـ الطبقة الثانية:

تكون مع مستوى الأرض أو فوقه بقليل حيث حجرة السبيل وهذه الحجرة تكون مربعة أو مستطيلة حسب مساحة البناء، وأرضية هذا الطابق هي سقف الصهريج الذى أسفلها[١٢] وتوجد بهذه الحجرة الشبابيك التي عليها مصبعات البرونز أو الحديد أو النحاس وفي أرضيتها توجد أحواض الشرب وتكون ملاصقة للشبابيك من الداخل، وهذه الأحواض تكون عادة بعدد شبابيك حجرة السبيل، وهي موصلة بأقصاب من الرصاص حيث الحوض الذي يوجد بأسفل السلسبيل والذى تجمع فيه المياه المسبلة.



ـ سبيل خسرو بيك.

شبابيك إما مفردا بذاته كوحدة سبيل وكتاب بذاتها، ومن أمثلة هذا النوع من الأسبلة **سبيل السلطان قايتباي** بمنطقة تحت الربع (مندثر) وقد يكون هذا السبيل ملحقا بمدرسة مثل سبيل خايربك ٩٠٨هـ/ ١٥٠٢م ، وسبيل ملحق بقبة الغورى ٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م، وواجهات تلك الأسبلة تكون بارزة عن مستوى واجهة البناء الأصلي. وهذا يبين الأهمية التي بلغتها هذه الأسبلة في أواخر عصر المماليك، وتكون حجرة السبيل إما مربعة أو مستطيلة بصدرها دخلة للشاذروان وملحق بها صهريج للماء ، وفي أسفل كل شباك من الشبابيك الثلاثة من الداخل حوض يسيل منه الماء، وتصل اليه المياه عن طريق أقصاب مغيبه في باطن الأرض، وكما هو واضح من بروز هذه الأسبلة الأخيرة عن واجهات المبانى الملحقة بها فانها تنبيء فيما بعد باستقلال وحدة السبيل والكتاب كلية لتصبح قائمة بذاتها في الغالب الأعم من عمارة السبيل في العصر العثماني.



- سبيل عبد الرحمن كتخدا - واجهة شرقية.

واذا كان عنصر الصهريج أساسي في بناء السبيل، فاننا نجد أن عنصر السلسبيل ليس بنفس الأهمية التي حظيت بها الصهاريج، اذ وجد كثير من الأسبلة بدون سلسبيلات ويتم التسبيل في هذه الحالة في الأحواض مباشرة، وربما كان مرجع ذلك الى صغر حجم هذه الأسبلة.

أما في الأسبلة الكبيرة فيوجد في صدرها سلسبيل في الغالب، ولفظ سلسبيل العربي هو نفسه لفظ شاذروان باللغة الفارسية، ولقد بحثت أصل هذه الكلمة بالفعل لعلها تفيد في تفسير شيء فتبين لي أن الكلمة في حد ذاتها لها أكثر من معنى لعل أهمها في بحثنا هذا هو السطح البارز، وهو لوح من الرخام المموج أو المنقوش دالات أو مروق[١٣] وتكون هذه النقوش بارزة ومموجة[١٤]، ويسمى الجزء السفلى من السلسبيل باسم صدر سفلى يعلوه صدر علوى أو قبله الشاذروان ، وتكون هذه القبلة من الخشب أو الحجر المقرنص[١٥]، ويعلو هذه القبلة طاقية مجوفة ومخوصة، وكان الصدران العلوى والسفلى يوضعان في تجويف مستطيل بصدر حجرة السبيل، ويوجد بأسفل السلسبيل عادة صحن أو حوض من رخام ملون أو فسقية من رخام الخردة.

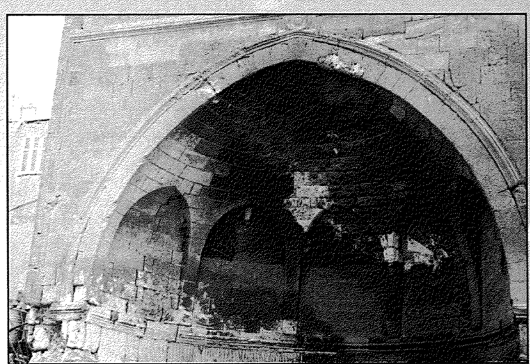
طريقة تشغيل السبيل :

يوجد بمعظم الأسبلة ذات السلسبيلات في خلف الصدر العلوي حوض كبير ترفع اليه المياه عن طريق صهريج السبيل، ثم ينزل الماء عن طريق أقصاب مغية في الجدران حتى يصل الى حوض آخر في واجهة السلسبيل يسمى قرقر أو قرقار ويكون موضعه بأعلى السطح المائل مباشرة، وهذا الحوض قد يكون منقوشا وأحيانا أخرى يكون ملمعا بالتذهيب، تتجمع المياه في هذا القرقر ثم تنساب على السطح البارز المائل ببطء متخللة التعاريج الموجودة على السطح فتتعرض للهواء أكبر وقت ممكن حتى تبرد ثم تجمع مرة أخرى في حوض أسفل اللوح البارز مباشرة، ويصرف الماء المتجمع في هذا الحوض عن طريق أقصاب مغيبه في باطن الأرض موجهة الى الشبابيك المطلة على الطريق حيث توجد أحواض الشرب بداخل أرضية الشبابيك فيأخذ الناس من هذه الأحواض مياها عذبة بعد أن يضيف اليها المزملاتي ماء ورد لتعطيرها، ويكون الشرب بواسطة كيزان أو أكواب من النحاس مربوطة في سلاسل بشباك السبيل.

ولقد ظهر في العصر العثماني طراز جديد للأسبلة الى جانب الطراز المملوكى الذي ظل موجودا حيث نشاهده في **سبيل خسرو باشا** بالنحاسين (٩٤٢هـ/ ١٥٣٥م) وسبيل حسن آغا كوكليان ١١٠٦هـ/ ١٦٩٤م بسوق السلاح، أما طراز السبيل العثمانى فاننا نجد أن الواجهة قد استدارت بعد أن كانت مربعة أو مستطيلة فتعددت شبابيكها[١٦] التى يغشيها شبكات من النحاس أو الحديد على هيئة قشور السمك، وفي أسفل الشباك توجد فتحات الشرب على

ذلك سبيل ملحق بمدرسة قجماس الاسحاقي بالدرب الأحمر ٨٨٥هـ/ ١٤٨١م، وكان البناء في بعض الأحيان ينتهي عند سقف الطابق الثاني حيث السطح.

وعلى أية حال فان الكتاب يأخذ نفس شكل المسقط الأفقي لحجرة السبيل الموجودة أسفله، فاذا كانت حجرة السبل مربعة أو مستطيلة كان الكتاب على شاكلتها، وكذلك من حيث كونها بشباك أو شباكين أو ثلاثة شبابيك حسب طراز السبيل.



ـ سبيل شيخو.

وكانت تقام على واجهات الكتاب عقود مدببة أو نصف دائرية ويغطى جوانبه السفلية المطلة على الطريق حجاب من الخشب الخرط، كما يعلو العقود ظلة مائلة من الخشب لها شرافات (رفرف) تلف حول واجهات كتاب السبيل، وقد يكون للكتاب باب خاص به مثل سبيل السلطان قايتباي الملحق بوكالته بالأزهر (٨٨١هـ/ ١٤٧٧م) أو يصعد اليه بدرج من داخل السبيل مثل سبيل أزبك اليوسفي ٩٠٠هـ/ ١٤٩٥م.

العاملون بالسبيل :

يوجد بكل مبنى من هذه المباني الخيرية عدد من العاملين يقومون على خدمته والعمل على سير المنشأة واظهارها في أحسن صورها ليكون النفع به أعم وتكون الحسنة مقبوله، ومن أهم العاملين بالأسبلة.. المزملاتي وهو الموظف المختص بالعمل في السبيل والذي عليه أن يقوم بتسبيل الماء للناس وملء الصهريج

هيئة عقود صغيرة، ومن أمثلة هذا النوع من الأسبلة سبيل السلطان محمود بشارع درب الجماميز ١١٦٤هـ/ ١٧٥٠م، وكذلك سبيل السلطان مصطفى بميدان السيدة زينب ١١٧٣هـ/ ١٧٥٩م، وكانت المياه بالأسبلة العثمانية تسيل بطريقتين، الأولى: وهي الطريقة التقليدية عن طريق كيزان الشرب المربوطة بسلاسل في الشبابيك. وأما الطريقة الثانية الجديدة: فكانت عملية الشرب عن طريق بزبوز من النحاس يخرج من لوح رخامي، وهو موصول بماسورة على هيئة ملتوية تتصل بحوض الماء بالداخل، وتتم عملية الشرب عن طريق السحب بالفم من هذا البزبوز.

والواقع أن معظم أسبلة العصر العثماني يوجد بها هاتان الطريقتان كما زادت العناية بزخرفة الأسبلة ببلاطات القاشاني ذات النماذج المزهرة أو منظر عام لمدينة مكة المكرمة والكعبة.

الطابق الثالث من السبيل:

ويكون في الغالب الأعم من الأسبلة عبارة عن قاعة الكتاب وهو مكان لتعليم أيتام المسلمين، وعلى الرغم من ذلك فقد وجدت بعض الأسبلة لا يوجد بها في الطابق الثالث قاعة للدرس بل قاعات للسكنى، ومن

الخاص بالسبيل ووضع ماء الورد في أحواض الشرب وتنظيف المبنى ورش ما تجاهه، كما كان يقوم بحراسة أواني الشرب، والى جانب هذه الوظائف المتعددة للمزملاتي، فانه كان عليه أن يقوم بتنظيف الكتاب الملحق بالسبيل ويتولى انارة السبيل من الداخل والخارج، واشترطت بعض الوقفيات ان يكون المزملاتي مقيما بسكن خاص ملحق بالسبيل له ولعائلته. وفي كثير من الأحيان كان يقيم خارج السبيل الا أنه كانت له حجرة خاصة به لاحراز أواني الشرب ومتعلقات السبيل.

وقد تطلب الواقفون على الأسبلة اشتراطات كثيرة أخذوها على المزملاتي لشغل هذه الوظيفة كأن يكون سالما من العاهات والأمراض وبخاصة الجزام، وأن يكون عفيفا دينا خيرا وأن يسهل الشرب على الناس، ويعاملهم بالحسنى والرفق ليكون أبلغ في ادخال الراحة على الواردين.

وكان المزملاتي يأخذ جامكية من النقود شهرية وكمية من القمح الى جانب أرطال من الخبز يوميا، والى جانب المزملاتي كان يوجد بالسبيل عدد من العاملين بالأسبلة نذكر منهم الفراش الذي كان عليه أن يقوم بتنظيف السبيل من الخارج وما تجاهه - وان كانت هناك أيضا من ضمن الوظائف الكناس الذي يتولى الكنس، والسباك الذي كان عليه أن يتولى عمل ما يحتاج اليه السبيل من ترميم الأقصاب والميازيب والمجاري، والمرخم الذي كان يتولى ما يحتاج اليه السبيل من ترميم، وكانت بعض السبل تلحق بها ساقية يعين لها سواق يتولى ادارتها وسوق الماء من بئرها الى حاصل مائها ويقوم بتركيب القواديس للساقية هذا الى جانب تقديم العلف للماشية.

الهوامش :

(١) قاموس المصباح المنير جـ ١ ، ص ١٢١.

(٢) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب جـ ٢٩، ص ٣٠، مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٥٤٩ معارف عامة - على مبارك، الخطط التوفيقية، جـ ٦ ، ص ٦٢.

(٣) Creswell, Muslim Arehitec Ture of Egypt, vol, 2, p275.

(٤) يكون تحت حجرة السبيل دائما صهريج للماء في باطن الأرض تحفظ فيه الماء سنويا.

(٥) زكى محمد حسن - فنون الاسلام ص ٢٨.

(٦) أحمد عطية، دائرة المعارف الحديثة ص ٢٧٧، ماكس هرتز. فهرس دليل الآثار العربية ص ٤٠.

(٧) الشاذروان: كلمة فارسية، وهي تدل في الأسبلة على لوح رخامي تجري عليه المياه لتبريدها ثم تجمع في فسقية أسفله من الرخام.

(٨) على مبارك، الخطط، جـ١ ، ص ٩٧.

(٩) عبد اللطيف ابراهيم، وثيقة وقف قراقجا الحسنى، ص ٢٣٤.

(١٠) وثيقة قايتباي، أوقاف رقم ٨٨٦ ص ١٩٧ سطر ١٢. والسلم الطربلسي، مصطلح عند رجال المعمار في العصر المملوكي وهو نوع من السلالم تتكون من قلبه واحدة محصورة بين حائطي المبنى وكان يغلف بالبلاط الكدان. انظر عبد اللطيف ابراهيم، دراسات تاريخية وأثرية تحقيق ٢٩٤، ص ١٨.

(١١) المصنع: حاصل أو صهريج مبنى تحت الأرض لخزن الماء، انظر: على مبارك، الخطط ، جـ ٦، ص ٥٨.

(١٢) وثيقة وقف قايتباي، ص ٣٩ سطر ٦.

(١٣) عبد اللطيف ابراهيم، دراسات تاريخية. تحقيق ١٢٩، ص ١٤.

(١٤) محمد عبد العزيز مرزوق، الفن المصري الاسلامي ص١١٨.

(١٥) من أحسن الأمثلة الحجرية الصدر المقرنص بسبيل ملحق بمدرسة خايربك بشارع باب الوزير. أما الصدر الخشبي فيوجد بسبيل السلطان قايتباي بالصلبية.

(١٦) د. عبد الرحمن زكي، القاهرة، تريخها وآثارها جـ٢، ص ٨٣، ٨٤.

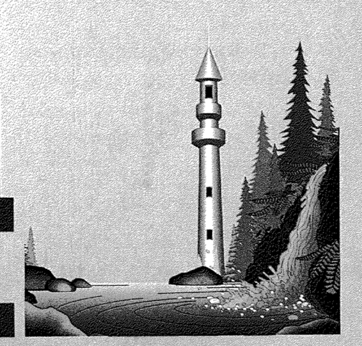
الحمامات العامة في العالم الإسلامي

عرفت الحمامات العامة قبل العصر الإسلامي، فقد اهتم الرومان بصفة خاصة بإنشاء الحمامات في معظم البلاد التي خضعت لهم، واعتنوا بعمارتها وزخرفتها عناية فائقة، سواء كان ذلك عن طريق التماثيل المنحوتة، أو اللوحات المنفذة بالفسيفساء الرخامية، أو الرسوم الجدارية التي كانت في معظمها إما مناظر صيد أو مناظر طرب من عازفين أو مغنين أو راقصات أو مناظر لألعاب رياضية. ولكن الحمامات لم تكن منتشرة في كل البلاد قبل العصر الإسلامي، وإنما كانت تقتصر على بعض البلاد دون غيرها. ويمكن الاستدلال على ذلك مما ذكره الطبري في تاريخه «تاريخ الرسل والملوك» من أن بلاد فارس والجزيرة العربية لم تكن بها حمامات قبل العصر الإسلامي، بل كان إنشاء الحمامات من الأمور المكروهة، فعندما أمر الملك الفارسي «بلاش» سنة (٤٨٤ - ٤٨٨م) بإنشاء الحمامات سخطت عليه الكهنة.

بقلم:

د. صلاح أحمد البهنسى

جامعة المنيا - مصر



أما في العصر الإسلامي فقد تغير الأمر حيث حض الإسلام على النظافة والتطهر مما أدى الى انتشار الحمامات العامة في كل البلاد الإسلامية وكانت الحمامات تجاور المساجد الجامعة.

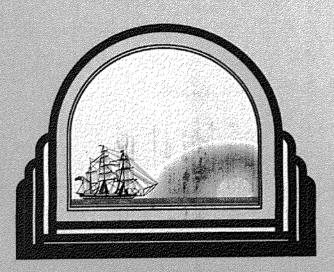
وكانت الحمامات في البلاد الإسلامية على درجة عالية من النظافة والجمال، الأمر الذي جعل العالم الفرنسي «جوستاف لوبون» الذي عكف على دراسة الحضارة الإسلامية يذكر في كتابه «حضارة العرب» عند حديثه عن مظاهر الرقي والتمدين في الحضارة الإسلامية أن أحد مؤرخي الغرب تمنى أن تشتمل جميع المدن الأوروبية الهامة على حمامات مشابهة للحمامات التي توجد في بلدان العالم الإسلامي.

نظرة تاريخية على نشأة الحمامات في العالم الإسلامي:

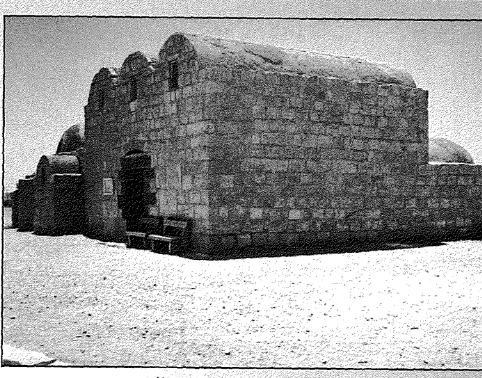
عندما بنى الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك المسجد الجامع في دمشق تحدث إلى اهلها قائلا «تفخرون على الناس بأربع خصال (ماؤكم وهواؤكم وفاكهتكم وحماماتكم) فأحببت أن يكون مسجدكم الخامسة» ومن هذا يتضح أن إنشاء الحمامات كان من الأمور المتبعة في تأسيس المدينة الإسلامية وان عدد الحمامات كان يزداد باتساع عمران المدينة وزيادة عدد سكانها وقد ذكر المؤرخ ابن شداد الذي عاش في القرن ٧هـ/١٤م مائة وعشرين حماماً في دمشق، وفي النصف الأول من القرن العشرين قام كل من ايكوشار ولوكور بإعداد دراسة عن الحمامات القديمة بمدينة دمشق واحصيا منها ستين حماماً باقيا كما كانت مدينة بغداد تحفل بالحمامات العامة، فقد ذكر الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد أن عدد حمامات بغداد في عصر الخليفة العباسي المأمون كان خمسة وستين ألف حمام، كما كانت الحمامات الهامة في بلاد الأندلس، فقد ورد أن مدينة غرناطة كان بها عند نهاية القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي ٢٧١١ حماماً. وكانت

إضاءة

- دكتوراه الآثار الاسلامية - كلية الآثار - جامعة القاهرة.
- مدرس الآثار والفنون الاسلامية - جامعة المنيا.
- رئيس قسم المتاحف - مدير ادارة المتاحف بكلية الآثار - جامعة القاهرة.
- له مجموعة من المؤلفات والأبحاث في مجال الآثار والفنون الاسلامية.. وله مشاركات علمية في المجلات العربية.
- شارك في عدد من الندوات والمؤتمرات المحلية والدولية.
- شارك في اعداد المادة العلمية لموسوعة الآثار الاسلامية في ليبيا.



جلبي» أن عدد الحمامات بالقاهرة سنة ١٦٦٠م، كان حوالي خمسة وخمسين حماماً. وذكر الرحالة فورمون الذي زار القاهرة سنة ١٧٧٥م، أن عدد الحمامات بها ثمانين حماماً بينما ذكر المؤرخ الفرنسي «جومار» في كتاب وصف مصر، أن عدد الحمامات بالقاهرة أثناء الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨م. كان يتجاوز المائة.



- حمام قصير عمره - شرق عمان - الاردن.

مدينة مراكش عند تأسيسها في القرن ٥هـ/١١م تضم اربعة وعشرين حماما.

وتعتبر مصر الإسلامية من أكثر بلدان العالم الإسلامي اهتماما بإنشاء الحمامات وقد ذكر المؤرخ «ابن دقماق» في كتابه الانتصار بواسطة عقد الأمصار أن أول من أنشأ الحمامات في مصر الإسلامية هو عمرو بن العاص الذي فتح مصر سنة ٢٢هـ/٦٤١م وأنشأ بالفسطاط حماماً أطلق عليه إسم «حمام الفأر» وذلك لصغر مساحته قياساً بما كانت عليه الحمامات في مصر في العصر الروماني.

بينما يرى المقريزى في الجزء الثاني من خططه أن أول من بنى الحمامات بمصر الإسلامية هو الخليفة الفاطمي العزيز بالله الذي تولى حكم مصر خلفاً لأبيه المعز لدين الله الفاطمي. ومن أشهر الحمامات الفاطمية التي ورد الحديث عنها بكثرة حمام الذهب.

وقد استمر الحرص على إنشاء الحمامات متبعاً خلال العصور التالية فقد ذكر الرحالة التركي «أوليا

عوامل انتشار الحمامات في العالم الإسلامي:

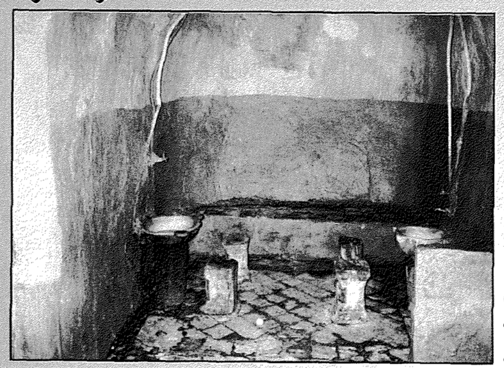
هناك عدة عوامل ساعدت على كثرة انتشار الحمامات العامة، ومن ذلك:

* طبيعة المناخ الحار في معظم شهور العام، وكثرة الأتربة، مما جعل من الضروري التردد على الحمامات للتخلص مما يعلق بالجسم من العرق والأتربة.

* أن الحمامات كانت إحدى أهم وسائل علاج بعض الأمراض وبصفة خاصة الروماتيزم وآلام المفاصل ومن الطريف في ذلك ان حمام العفيف في مصر كانت على مدخله لوحة مكتوب عليها «من يطلب العافية من رب لطيف، فليقصد الله ثم حمام العفيف».

* أن الحمام العام في مصر الإسلامية لم يكن مجرد مكان للاستحمام والنظافة والتطهير، بل إنه كان منتدى ومكاناً ترفيهياً للرجال يلتقون فيه فيقضون وقتا من المرح وتدخين النارجيلة ويتجاذبون الحديث كل

حسب اتجاهاته وميوله، فالتجار يتحدثون في شئون تجارتهم ويعقدون الصفقات التجارية فيما بينهم، كما كان المناوءون لنظام الحكم يجدون في الحمام مكانا مناسباً للإتفاق على الإنقلابات السياسية وحبك الدسائس والمؤامرات.



- الحجرة الساخنة بحمام الطنبلي بمدينة القاهرة القديمة.

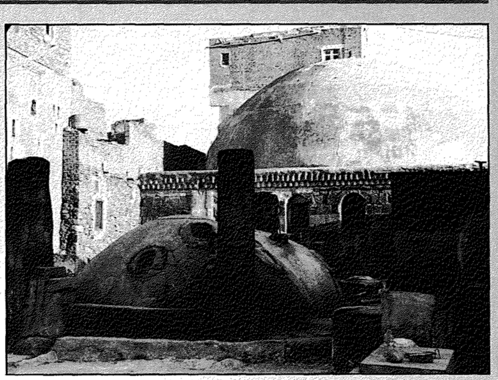
* كان إقبال النساء على الحمامات إقبالا متزايدا وذلك لميلهن الطبيعي للتجمل وحسن المظهر، ومن ذلك ما ورد في وصف ابن ظهيره نساء مصر في كتابه «الفضائل الباهرة في محاسن مصر القاهرة «بإنهن» ارق نساء الدنيا طبعاً، وأحلاهن صورة» وعلل ذلك لكثرة ذهابهن الى الحمام حيث كانت السيدة تصطحب معها بلانتها أو ما شطتها الى الحمام.

* إن الذهاب الى الحمام ارتبط ببعض المناسبات الإجتماعية، إذ كان ذهاب كل من العروس وكذلك العريس إلى الحمام قبل الزواج أمراً ضرورياً. وقد أشارت المصادر التاريخية إلي هذه المناسبة وان ذلك كان يتم في احتفال بهيج يكاد يقارب الموكب، إذ كانت العروس تأخذ زينتها وعلى رأسها غطاء من الورق المقوى على شكل «طرطور» وعلى كتفيها شال من الحرير ترفعه أحيانا لتحجب به وجهها، وإلى جانبها رجل يرفع مظلة من الحرير فوق رأسها، بينما يحمل رجلان آخران الأواني والملابس اللازمة للعروس في الحمام. هذا في الوقت الذي يقوم فيه رجل آخر بإطلاق البخور وتبخير العروس والحضور. ويتقدم الموكب فرقة موسيقية من عازفين ومغنيات وراقصات يقمن بإشاعة البهجة والسرور، ويشاركهن في ذلك أهل العروس وصديقاتها اللاتي يطلقن الزغاريد ويرددن الأغاني، كما كان يصاحب هذا الموكب في بعض الأحيان - بهلوان يؤدي حركات بهلوانية وفقرات فكاهية. فإذا ما خرجت العروس من الحمام عائدة إلى منزلها كان لها مثل هذا الاحتفال أيضاً.

* ومن المناسبات التي ارتبطت بالذهاب إلى الحمام تطهر السيدة النفساء بعد أربعين يوماً من الولادة.

لكل هذه الأسباب كانت الحمامات أمراً ضرورياً في المجتمع الإسلامي. وكان من الطبيعي مع هذا الإقبال المتزايد على الحمام أن يدر الحمام دخلا كبيراً على منشئه حتى فاق هذا الدخل في كثير من الأحيان ما تدره المحال التجارية، الأمر الذي جعل الأمراء يتنافسون على إنشاء الحمامات، كذلك أقبل السلاطين على إنشاء الحمامات ووقفها على المنشآت الدينية للاستفادة بما تدره من أرباح في الإنفاق على هذه المنشآت مثل دفع رواتب القائمين عليها بالإضافة إلى

بإشعال النار وتزويدها بالمواد اللازمة لاستمرار اشتعالها، والتي كانت تتكون من القمامة التي يتولى جمعها وإحضارها إلى الحمام «الزبال» كما كان يوجد شخص يسمى «السواق» وهو المكلف بإدارة الساقية لرفع المياه من بئر ماء معين إلى خزانات تسخين المياه وكذلك خزانات الماء البارد. ومن الوظائف الثابتة في الحمام «القهوجي» ويقوم بإعداد المشروبات الساخنة والنارجيلة وتقديمها للمستحمين. وكانت توجد مثل هذه الوظائف من السيدات في الحمامات الخاصة بالنساء.



- حمام الميدان، أحد حمامات صنعاء في العصر العثماني.

أعمال الإصلاح والتجديد والفرش والإنارة.

تنظيم العمل في الحمام :

الحمام الإسلامي مؤسسة متكاملة يقوم على إدارتها مجموعة من الأشخاص لكل منهم اختصاصه، وعلى رأسهم «الحمامي» وهو مدير الحمام المسئول عن إدارته وتنسيق العمل بين العاملين بالحمام والإشراف على توفير احتياجات الحمام. أما القيم أو المكبساتي أو المكيساتي فهو الذي يقوم بأعمال التدليك للمستحمين، وكان لا يمارس هذا العمل إلا من تتوفر لديه الدراية الكاملة بأصول هذا العمل ويتولى «الناطور أو الحارس» الحفاظ على حاجيات المستحمين ويطلق على هذا الشخص في بعض الأحيان اسم اللاوندى. كما كان يوجد بالحمام مزين أو حلاق أو بلان، وهو الذي يقوم بأعمال التجميل للرجال مثل قص الشعر وتهذيب شعر اللحية والشارب وتهذيب الأظافر. ولأن حمامات البخار تعتمد أساسا على الماء الساخن فقد كان ضمن العاملين بالحمام «وقاد» وهو الذي يقوم

ومما تجدر الإشارة إليه أن العمل في الحمام كان يخضع لبعض الضوابط التي نظمتها طائفة الحمامية، وكان لا يتم الانضمام إلى طائفة الحمامية إلا بموافقة شيخ الطائفة. ونظرا لأهمية الحمام وما قد يحدث من أضرار نتيجة لعدم إحكام الرقابة عليها، فقد كانت الحمامات تخضع لرقابة شديدة، وكان يوكل الاشراف عليها إلى صاحب الشرطة وهو الشخص المسئول عن الأمن، أو إلى الوالي نفسه في بعض الأحيان.

التخطيط المعماري للحمام في العصر الإسلامي :

سار تخطيط الحمام في العصر الإسلامي على نفس النظام المعماري الذي كان عليه الحمام في العصر الروماني، مع استحداث بعض العناصر المعمارية التي كانت من نتاج الفكر المعماري الإسلامي وكذلك المعالجة الزخرفية. وقد روعي في تخطيط

الحمام الاسلامي كل القواعد الصحية حتى لا يتعرض المستحم لأي ضرر صحي، فكان يؤدي إلى الحمام مدخل منكسر على شكل زاوية قائمة أو حرف L وذلك لكي يحد من اندفاع الهواء من الخارج إلى داخل الحمام، كما أن المداخل بهذا الشكل تحجب من بداخل الحمام عن من بالخارج. وكان يراعي في التخطيط التدرج في درجة حرارة قاعات الحمام بحيث ينتقل بينها المستحم انتقالا غير مفاجيء حتى لا يصيبه ضرر، إذ يتكون الحمام من ثلاث قاعات، قاعة باردة، وقاعة دافئة ثم قاعة ساخنة.



- أحد حمامات صنعاء الساخنة وتظهر الفتحات المغطاة بالزجاج الملون في القبة.

وكما تختلف هذه القاعات في درجة حرارتها فإنها تختلف أيضا في تكوينها المعماري بحيث تؤدي الغرض المرجو منها. فبينما يغطى الحجرة الباردة قبو اسطواني، ويغطي القاعة الدافئة قبو متقاطع، فإن القاعة الساخنة تغطى بقبة نصف كروية، وذلك لأن الأجسام النصف كروية تساعد على الاحتفاظ بالحرارة وعدم تبددها. كما أننا نرى أن القاعة الساخنة تضم مصاطب من الرخام في الوسط وعلى الجوانب لينام عليها المستحمون والاستفادة بما ينبعث فيها من حرارة، وكذلك الثقوب الموجودة في أرضية القاعة والتي ينفذ البخار من خلالها، بينما تشتمل كل من القاعة الباردة والدافئة على أحواض رخامية تملأ بالماء البارد والدافىء للاستحمام ويسمى كل من هذه الأحواض مغطس.

وبالإضافة إلى قاعات الاستحمام، فان من المرافق الضرورية بالحمامات حجرات خلع الملابس التي يتم فيها خلع الملابس عند الدخول ولبس المئزر والاستراحة فيها بعد الانتهاء من الاستحمام. كما يوجد بهو متسع يستخدم كمكان للجلوس وممارسة الرياضات الخفيفة والترفيه، وتناول الوجبات الغذائية والمشروبات الساخنة أو تدخين النارجيلة، وهذا المكان يكون على شكل قاعة مربعة أو مستديرة مغطاة بقبة أو بسقف مسطح، يخصص فيه مكان لجلوس الحمامي والناطور أو اللاوندي. لاستقبال المستحمين واستلام حاجياتهم والحفاظ عليها. كما يلحق بالحمام بعض الملحقات مثل أفران تسخين المياه، وكان ذلك يتم في الماضي بحرق قطع الخشب والقمامة بينما يستخدم الآن الكيروسين، كما يلحق بالحمام بئر معين وساقية لرفع الماء وتوصيلها الى قاعات الاستحمام ودورات المياه بالحمام.

ولأن المنشآت تنطوي على دلالات، وتعكس مختلف مظاهر الحياة التي كانت سائدة وقت إنشائها، فإن الحمامات إذ كانت مفردة هامة في منظومة التراث المعماري الإسلامي الثري، ولبنة في صرحه الشامخ، فإنها أيضاً دلالة على حياة التحضر والرقي التي نعمت بها معظم بلدان العالم الإسلامي في تلك الفترات.

منشآت رعاية الحيوان في العمارة الإسلامية

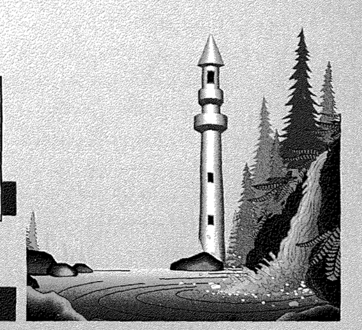
إن الإسلام هو الذي وضع مبدأ الرفق بالحيوان خلافاً لما يظنه بعض الجهال به أنه من وضع الأوروبيين، بل ذلك من الآداب التي تلقوها من المسلمين الأولين ثم توسعوا فيها ونظموها تنظيماً دقيقاً وتبنتها دولهم حتى صار الرفق بالحيوان من مزاياهم اليوم حتى توهم البعض أنه من خصوصياتهم، وغرهم في ذلك أنه لا يكاد يرى هذا النظام مطبقاً كاملاً في دولة من دول الإسلام وكانوا هم أحق بها وأهلها.

وفي تتبعنا لسنة الرسول المصطفى (صلى الله عليه وسلم) وجدنا أحاديث شريفة كثيرة تحمل على الرفق والشفقة بالحيوان ومساعدته في مطعمه ومشربه وإيوائه، في صحته ومرضه، بل وأثناء ذبحه كما بيّن القرآن الكريم، ومن يفعل ذلك كان له الأجر الجزيل والثواب العظيم، أما من يفعل غير ذلك فعقابه عند ربه ناراً وسعيراً وعذاباً أليماً.

بقلم:

د. محمد الششتاوي

- مصر -



مثال ذلك حديث رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله [صلى الله عليه وسلم] «بينما رجل يمشي بطريق إذ اشتد عليه العطش، فوجد بئراً فشرب وخرج، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي بلغ مِنّي فنزل البئر فملأ خفه، ثم أمسكه بفيه حتي رقي فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له، فقالوا: يارسول الله وإن لنا في البهائم لأجراً؟ فقال: في كل ذات كبد رطبة أجر»[١].

وفي حديث آخر يحث على العناية بالحيوان وإطعامه وتغذيته ومراعاة صحته: عن سهل بن الحنظلية قال: مر رسول الله [صلى الله عليه وسلم] ببعير قد لحق ظهره ببطنه فقال: «اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة فاركبوها صالحة وكلوها صالحة»[٢].

وفي حديث ثالث يحذر من عواقب تعذيب الحيوان: عن أبي هريرة وعبد الله بن عمر أن رسول الله [صلى الله عليه وسلم] قال: «عُذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت، فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها وسقتها إذ حبستها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض[٣].

ومن المعاني العظيمة القيمة في الحضارة الإسلامية هي الوقف على الحيوان؛ بل تعدى الأمر الحيوان المستأنس إلى الوقف على الحيوانات الضالة، ومثال ذلك ما أوقفه الأمير عبد الرحمن كتخدا، إذ جاء بكتاب وقفه ما يلي بالنسبة للوقف على القطط «وما يصرف في ثمن لحم دجير يشترى في كل يوم ويفرق على القطط بعد العصر بباب مستحفظان في كل سنة ثلاثة آلاف نصف وستمائة نصف فضة»[٤].

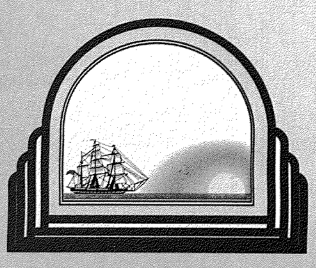
أما بالنسبة للوقف على الكلاب الضالة فقد جاء بكتاب الوقف ما يلي: «وما يصرف في ثمن خمسة وعشرون رغيفا خبز قرصة تشترى في كل يوم ويفرقها الجابي في كل يوم تجاه السبيل بخط بين القصرين على الكلاب في كل سنة ألف نصف وثمانمائة نصف فضة حساباً عن ثمن خبز كل يوم خمسة أنصاف فضة»[٥].

اضاءة

- دكتوراة آثار اسلامية.
- عمل في الحفائر والتنقيب.

له مجموعة من المؤلفات منها:

- تحقيق كتاب الروضه للسيوطي.
- تحقيق كتاب تحفة الاحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب لابن الوكيل.
- تحقيق كتاب سيرة السلطان جقمق.
- اصدار سلسلة المفاخرات الأدبية التراثية في عشر أجزاء.
- كتاب متنزهات القاهرة في العصر المملوكي والعثماني.
- له مجموعة من الابحاث والدراسات في مجال الآثار الاسلامية.



والأمثلة عديدة في الأوقاف على الحيوانات الضالة في ثمن طعامها وشرابها وإيوائها.

عمائر رعاية الحيوان :

بنى المسلمون عمائر لرعاية الحيوان، وقد وصلنا على سبيل المثال من العصرين المملوكي والعثماني نوعان من العمائر تهتم بأمر الحيوان من حيث سقيه وإيوائه وطعامه هي أحواض سقي الدواب، والاسطبلات.

أولا : أحواض سقي الدواب :

انتشرت أحواض سقي الدواب بالقاهرة ومصر في العصر المملوكي (٦٤٨ - ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠ - ١٥١٧م) والعثماني (٩٢٣ - ١٢١٣هـ/ ١٥١٧ - ١٧٩٨م) انتشاراً كبيرا، إلا أن المصادر التاريخية ذكرت العديد من أحواض سقى الدواب بالقاهرة منذ العصر الفاطمي (٣٥٨ - ٥٦٧هـ/ ٩٦٩ - ١١٧١م).

وقد انتشرت الأحواض في الطرق الرئيسية بالمدينة كقصبة القاهرة وامتدادها ما بين ميدان الحسينية حتى ميدان السيدة نفيسة مروراً ببابي الفتوح وزويلة، وكذلك انتشرت في الطريق الى القلعة عن طريق الدرب الأحمر وباب الوزير، وكذلك أنشئت الأحواض بأسواق القاهرة المزدحمة كسوق السلاح، كما أنشئت في طرق الحج وطرق القوافل إلى الشام والمغرب إما منفردة أو ملحقة بالخانات.

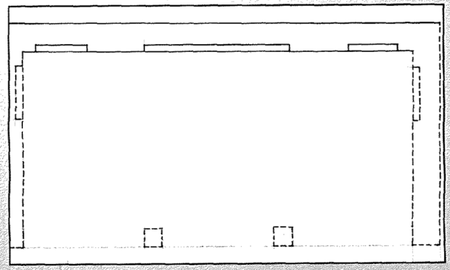
وفي داخل القاهرة وجدت الأحواض إما منفردة أو ملحقة بالعمائر الدينية والمدنية والتجارية والحربية، وقد اتخذت الأحواض موضعاً متميزاً في العمائر بالواجهات الرئيسة لها ليسهل شرب الدواب منها.

مادة بناء الأحواض :

تكاد تكون كل أحواض سقي الدواب المملوكية والعثمانية مبنية كلها بالحجر الفص النحيت الأبيض والأصفر والأحمر، والحجر الفص النحيت هذا يبلغ متوسط حجمه من ٣٠ إلى ٣٣سم في الارتفاع، ومن ١٥ إلى ٢٥سم في العرض، ومن ٥٥ إلى ٨٠ سم في الطول، وهو منحوت نحتاً منتظماً أملساً مصقولا، وهو حجر جيري مستخرج من محاجر القاهرة في المقطم والبساتين وطره والقرافة.

وكان متوسط عرض الجدران حوالى المتر بحيث تبنى الأحجار المنتظمة الأبعاد من الجانبين مع حشوة داخلية من الدبش والأحجار الصغيرة، وقد اتبع المعمار في بناء كثير من الأحواض النظام المشهر أي يبنى صفاً من المداميك بالحجر الأبيض والصف الذى يعلوه بالحجر الأصفر أو الأحمر وهكذا يتوالى الجدار، ومثال للنظام المشهر هذا الذى اتبع في حوض قجماس الإسحاقى الملحق بمجموعته بشارع الدرب الأحمر (٨٨٥ - ٨٨٦هـ/ ١٤٨٠ - ١٤٨١م)، وحوض السلطان قايتباي بقرافة صحراء المماليك (٨٧٩هـ/ ١٤٧٤م)، وأحياناً تغطى الجدران من الداخل بطبقة من الملاط من جير وجبس وحمرة ورمل.

ويوجد حوضان من العصر العثماني بنيا بالأحجار الرملية هما حوض إبراهيم أغا مستحفظان



حوض السلطان قايتباي بالكبش

الطراز	شكله	المسقط الأفقي	الواجهة	النماذج
١	يفتح على الطريق بواجهة مفتوحة كلها			١- أم السلطان شعبان ٧٧٠هـ/١٤٦٨م ٢- تجماس الإسحاقي ٨٨٠هـ/١٤٨٠م ٣- أزبك اليوسفي ٩٠٠هـ/١٤٩٥م
	يفتح على الطريق بواجهة مفتوحة على جانبيها كتفان			١- السيفي برقوق ٨٧٥هـ/١٤٧٠م ٢- سليمان باشا ٩٢٩هـ/١٥٢٢م
٢	يفتح على الطريق بعقد			١- جوهر اللالا ٨٢٤هـ/١٤٢١م ٢- شرف الدين كيكي ٨٧٥هـ/١٤٧٠م ٣- أبو بكر مزهر ٨٧٩هـ/١٤٧٤م ٤- جوهر المعيني ٨٩٠هـ/١٤٨٥م ٥- زين الدين عبد المعطي ١٠١٩هـ/١٦١٠م ٦- إبراهيم أغا مستحفظان ١٠٧٠هـ/١٦٥٩م ٧- عبد الرحمن كتخدا بالأزبكية ١١٦٥هـ/١٧٥٢م ٨- حسن أوده باشي ١١٧٠هـ/١٧٥٧م ٩- عثمان أغا بالحسينية ١١٨٣هـ/١٧٦٩م
٤	يفتح على الطريق بعقدين يرتكزان على عمود أوسط			١- أينبك بسوق الربع ٧٧٥هـ/١٣٧٢م ٢- جمال الدين الأستادار ٨١٢هـ/١٤٠٩م ٣- خاير بك بالرميلة ٨٧٧هـ/١٤٧٢م ٤- سيدي عقبة ١٠٦٦هـ/١٦٥٦م ٥- سليمان أغا الكوجكلي ١٠٧٨هـ/١٦٦٧م ٦- الطحاوي ١٠٩٩هـ/١٦٨٨م ٧- عبد الرحمن كتخدا بالأزهر ١١٦٨هـ/١٧٥٥م ٨- " " [illegible] ١١٧٢هـ/١٧٦٠م ٩- " " بالحطابة قبل ١١٧٤هـ/١٧٦١م ١٠- " " بالسيدة عائشة قبل ١١٧٥هـ/١٧٦٢م ١١- " " بالسيدة سكينة " " ١٢- محمد أبو الذهب ١١٨٨هـ/١٧٧٤م
٥	يفتح على الطريق بمدخلين بينهما كتف يحمل السقف وأحيانا عمود يحمل السقف بدل الكتف			١- قايتباي بالأزهر ٨٨٢هـ/١٤٧٧م ٢- الأمير مصطفى بخط قناطر السباع ١١٠١هـ/١٦٩٠م
٦	يفتح على الطريق ببائكة من ثلاثة عقود ترتكز على عمودين			١- دولات باي ٨٨١هـ/١٤٧٦م ٢- طوغان الدمرداشي ٨٩٤هـ/١٤٨٩م ٣- علي كتخدا بالرميلة ١١٧٨هـ/١٧٦٤م
٧	يفتح على الطريق بثلاثة مداخل بينهم كتفان يحملان السقف			١- حوض قايتباي بالكبش
٨	يفتح على الطريق ببائكة من أربعة عقود ترتكز على ثلاثة أعمدة			١- مصطفى باشا شاهين بسوق السلاح ٩٦٩هـ/١٠٦١م
٩	يفتح على الطريق بأربعة مداخل ترتكز في الوسط على ثلاثة أعمدة حجرية وعلى الكتفين			١- قايتباي بالصحراء ٨٧٩هـ/١٤٧٤م

طرز أحواض سقي الدواب.

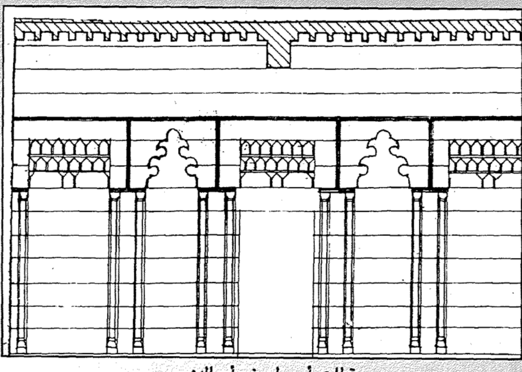
بباب الوزير (١٠٧٠هـ/ ١٦٥٩م)، وحوض عبد الرحمن كتخدا بالحطابة (قبل ١١٧٤هـ/ ١٧٦١م).

وكانت مادة لحام الأحجار (المونة) تتكون من مزيج الجير والحمرة والجبس والرمل، وأحيانا يضاف اليها القصرمل والطين.

تخطيط الأحواض ومكوناتها:

يتضح لنا من الأحواض القائمة للآن بالقاهرة ومن الوصف الوثائقي للأحواض المندرسة أن التكوين المعماري للأحواض لا يخرج عن مساحة مستطيلة أو مربعة الشكل عبارة عن حجرة أو إيوان أو دخلة ذات ثلاثة جدران (صدر وجانبان) والجانب الرابع مفتوح على الطريق بأشكال وطرز مختلفة لتسهيل دخول الدواب للشرب من داخل الأحواض وعدد هذه الطرز عشرة أشكال.

وكان صدر الحوض والضلعان الجانبيان يحتويان أحياناً كثيرة على عدد من الدخلات، ويختلف عدد هذه الدخلات من حوض لآخر حسب مساحته، فهي على سبيل المثال خمس دخلات بصدد حوض قايتباي



قطاع رأسي لحوض أبو الذهب.

بالأزهر (٨٨٢هـ/ ١٤٧٧م)، وهي أربع دخلات بحوض عبد الرحمن كتخدا بالحطابة (قبل سنة ١١٧٤هـ/ ١٧٦١م)، وهي ثلاث في حوض قجماس (٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م). وفي الغالب كانت الأحواض تحتوى على دخلة واحدة في الضلعين الجانبيين.

وكانت الدخلات تتوج من أعلاها إما بعقود منكسرة ذات زخارف مشعة تنتهى بصف من العقود المنكسرة الصغيرة تشكل في النهاية الهيئة الكلية للعقد المنكسر الكبير كما في حوض قجماس وأزبك اليوسفي (٩٠٠هـ/ ١٤٩٥م)، أو يتوج الدخلة شكل ورقة نباتية خماسية الفصوص كما في حوض أبو الذهب بالأزهر (١١٨٨هـ/ ١٧٧٤م) أو ورقة نباتية ثلاثية الفصوص مثل الدخلة الجانبية لحوض قجماس، أو يتوج الدخلة عقد محارى كما في حوض عبد الرحمن كتخدا بالحطابة، وأحيانا يتوج الدخلة حطّات من المقرنصات العادية كما في الدخلة الوسطى بصدر حوض قجماس، أو المقرنصات ذات الدلايات كما في حوض قايتباي بالصحراء (٨٧٩هـ/ ١٤٧٤م)، وأحيانا تنتهي الدخلة بهيئة مسطحة أو بحافة مائلة كما في حوض قايتباي بالازهر (٨٨٢هـ/ ١٤٧٧م).

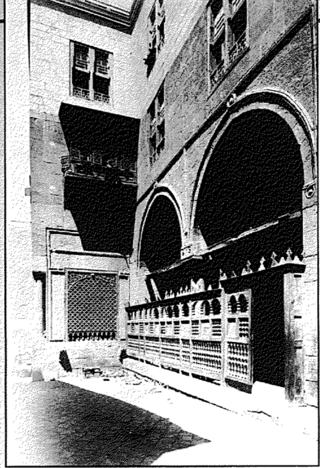
وكان يوجد على جانبي هذه الدخلات أعمدة مخلقة (مدمجة) من نفس أحجار بناء الدخلات، وكان يوجد في الجزء السفلى من هذه الدخلات ميازيب (بروزات) حجرية ناتئة اسمها في الوثائق «مجاري حجرا» كانت تتصل بأقصاب (أنابيب) الرصاص أو الفخار التي تنقل الماء لقصبة في الأحواض الحجرية أو الرخامية التي تقع تحتها ومنها امثلة باقية في حوض قايتباي بالأزهر وحوضه بالصحراء.

وكان يوجد بوسط بعض الدخلات رنوك (شعارات) كتابية مثل الموجودة بحوض قايتباي بالأزهر.

وأحيانا كان يعلو الحوض سواء بالصدر أو الضلعين الجانبين طراز (شريط) كتابي بالخط الثلث المملوكى يتخلله أحيانا رفوك تحوى نصوصاً إنشائية ودعائية مثل حوض أم السلطان شعبان (٧٧٠هـ/ ١٣٦٨م) وقجماس وأحواض قايتباي، ونص كتاب وقف الأمير عبد الرحمن كتخدا رقم ٩٤٠ المحفوظ بوزارة الأوقاف على أن حوضه بالأزبكية كان بصدره «أربعة ألواح من الرخام مكتتب بها تاريخ محلى بالذهب».

الأحواض الداخلية المعدة لشرب الماء:

أهم ما يحويه الحوض ويؤدى الوظيفة الرئيسة له هي الأحواض الحجرية غالبا والقليل رخامية التي تستخدم في شرب الدواب، ومعظمها مستطيل الشكل



واجهة حوض دواب وسبيل أبو الدهب بالأزهر.

والقليل بيضاوي أو دائري، وتوضع هذه الأحواض بجانب الجدران وخصوصاً الجدار المواجه لمدخل الحوض.

ويختلف عدد هذه الأحواض من حوض لآخر، فعلى سبيل المثال يوجد حوض واحد في حوض شرف الدين يحيى (٨٧٥هـ/ ١٤٧٠م)، وحوضان اثنان في حوض خجا بردي بالرميلة (٨٧٧هـ/ ١٤٧٣م)، وثلاثة في حوض دولات باي (٨٨١هـ/ ١٤٧٦م)، وأربعة في حوض الوزير مصطفى بسوق السلاح (٩٦٩هـ/ ١٠٦١م)، وأخيرا خمسة في حوض الأمير رجب ببركة الحاج (١٠٧١هـ/ ١٦٦٠م).

وكان أحياناً يتقدم الأحواض التي بصدر الحوض حاجز حجري على هيئة سور مثل الحاجز المرمم حديثاً في حوض قايتباي بالأزهر.

سبيل المصاصة (الششمة) بالأحواض:

أحيانا كان يلحق بواجهة الحوض أو بداخله سبيل مصاصة المعروف باسم ششمة، وهو عبارة عن لوح رخامي بصدره حوض ويعلوه صنبور (حنفية) أو أكثر ليملأ الناس الماء منه، وهذا التكوين مماثل لما هو ملحق ببعض الأسبلة العثمانية، ومثال ذلك اللوح الرخامي ذو الثلاثة صنابير بواجهة حوض حسن أودة باشي بخط سويقة العزي (١١٧٠هـ/ ١٧٥٧م)، وكذلك اللوح بواجهة حوض عبد الرحمن كتخدا بالحطابة، أما حوضه بالأزبكية فقد وضع اللوح في داخل الحوض، وكذلك وضع لوح رخامي ذي أربعة صنابير في داخل حوض علي كتخدا بالرميلة (١١٧٨هـ/ ١٧٦٤م).

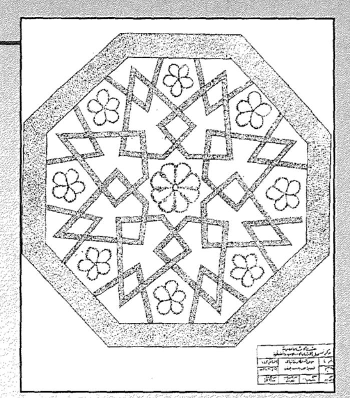
أرضية الأحواض:

وجدنا بعض أرضية هذه الأحواض ترابية وبعضها مبلطة، وقد نصت كثير من وثائق الوقف الخاصة بالأحواض أنه كان يغطى أرضها تبليطة من الحجر الكدان مثل حوض السيفي برقوق بالرميلة (٨٧٥هـ/ ١٤٧٠م)، أو تبليطة من الحجر فقط مثل حوض شرف الدين يحيى بالجودرية (٨٧٥هـ/ ١٤٧٠م) أو تبليطة مفروشة أرضيتها بالحجر الفص النحيت مثل حوض الطحاوي بالإمام الشافعي (١٠٩٩هـ/ ١٦٨٨م)، أو تبليطة من الحجر الكدان كما في حوض مصطفى شاهين بسوق السلاح (٩٦٩هـ/ ١٥٦١م).

أو يتقدمها زلاقة من الحجر، وهذه الزلاقة تعنى التبليط ببلاطات ناعمة الملمس مصقولة بها ميل بسيط بحيث ينزلق الماء الزائد من عليها ليصب في بالوعة مثل حوض جمال الدين الأستادار بخط بفم الخور (٨١٢هـ/ ١٤٠٩م) وأحيانا تكون الزلاقة حجرا أحمر كدانا أو عادياً كما في حوض خجا بردى بالرميلة (٨٧٧هـ/ ١٤٧٣م) وحوض سليمان أغا الكوجكلى (١٠٧٨هـ/ ١٦٦٧م).

سقف الأحواض:

معظم أحواض سقى الدواب كانت مغطاة بأسقف



طبق نجمي في سقف حوض قايتباي بالأزهر.

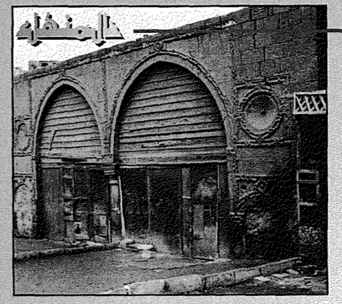
خشبية والقليل بقباب وأقبية، ولم أجد في الوثائق ما يشير صراحة أن بعض الأسقف سماوية بلا سقف بل أحيانا لا يذكر في الوثيقة نوع التغطية، وكانت تلك الأسقف الخشبية تعتمد على براطيم (عروق) كبيرة من أفلاق النخيل مغشاة بالأخشاب الرقيقة وفوق تلك البراطيم ألواح خشبية مربعة ومستطيلة، وكانت بعض الأسقف ترتكز على إزار، وكانت بعض الأسقف منقوشة بالألوان الزيتية المختلفة والتذهيب واللازورد مثلها في ذلك مثل أسقف الإيوانات في المدارس وغيرها، وبعضها مغشاة من باطنها بحشوات خشبية مجمعة على هيئة أشكال هندسية ونباتية رائعة التكوين مثل أشكال الأطباق النجمية وأجزائها مثل سقف حوض أم السلطان شعبان (٧٧٠هـ/ ١٣٦٨م)، ومثال للأحواض المذهبة والملونة أحواض السلطان قايتباي وأزبك اليوسفي.

وكثير من المصطلحات الوثائقية لأسقف بعض الأحواض هي نفسها مصطلحات أسقف المدارس مثل «مسقف نقيا» نراه في حوض على كتخدا بالرميلة (١١٧٨هـ/ ١٧٦٤م)، وأبو الدهب (١٧٨٨هـ/ ١٧٧٤م)، و«مسقف نقيا مدهون» نراه في حوض برسباي بالصحراء (٨٣٦هـ/ ١٤٣٢م)، و«مسقف نقيا مدهون حريريا» مثل حوض الزينى عبد اللطيف (٨٤٦هـ/ ١٤٤٢م)، و«مسقف نقيا مدهون حريريا وشيخونيا» بحوض السيفى برقوق بالرميلة، و«مسقف نقيا مدهون كافوريا» بحوض الأمير خجا بردى بالرميلة (٨٧٧هـ/ ١٤٧٣م)، و«مسقف نقيا مدهون كافوريا به زفرف خشب نقي مدهون أيضا كافوريا» في حوض أزبك من ططخ بالأزبكية (٨٩١هـ/ ١٤٨٦م)، و«مسقف نقيا فرخاً شامياً» في حوض الأمير أينبك بسفل الربع (٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م)، و«مسقف نقيا فرخاً شامياً مدهون كافوريا» في حوض جمال الدين الأستادار (٨١٢هـ/ ١٤٠٩م)، و«مسقف سكندريا» في حوض عابدين بك، و«مسقف نقيا معرق بالذهب واللازورد ويعلوه رفرف مدهون كافوريا ملمع بالذهب واللازورد» في حوض قايتباي بالصحراء، و«مسقف مدهون برفرف دائر مدهون» بحوض قايتباي بالأزهر.

ومن الأحواض التي لها رفرف مائل يقي من المطر والشمس مدهونة كذلك حوض أزبك من ططخ، وقايتباي بالأزهر، وقايتباي بالصحراء.

وهناك حوض وحيد مسقف بأعواد قصب متراصة فوق عروق خشبية هو حوض سليمان باشا ببولاق (٩٣٩هـ/ ١٥٣٤م).

أما عن تسقيف الأحواض بالقباب الضحلة والأقبية فأمثلتها قليلة تتمثل في حوض السلطان حسن حيث غطى بقبو مدبب، وحوض السلطان الغورى بمصلى المؤمن بخط الميدان السلطاني غطى بقبو كذلك



واجهة حوض عبد الرحمن كتخدا بالحطابه.

حيث نصت وثيقة وقفه أنه «مسقف عقدا»، هذا لأن المصلى كان مغطى بالقباب والأقبية كذلك.

ومن العصر العثماني لا نجد إلا بعض أحواض عبد الرحمن كتخدا هي التي غطيت بأقبية وقباب عرفت في كتاب وقفه ووثائقه باسم «قبب معقودة» ، وهي حوضه بالحطابه، وحوضه بالقرافة الصغرى، وحوضه بالسيدة نفيسة، وحوضه بعرب آل يسار، وهذه القباب مقامة على مثلثات كروية من الآجر وكذلك القباب والأقبية بنيت من الآجر.

الطابق العلوى لبعض الأحواض :

بالرغم من ارتباط السبيل بمكتب (كُتَّاب) تعليم أيتام المسلمين ارتباطا وثيقا إلا أننا وجدنا ثمانية أحواض لسقى الدواب يعلوها مكاتب تشرف على الطريق ببوائك خشبية ودرابزين لحماية الأطفال ولبعضها رفرف وهي:

- حوض أم السلطان شعبان (٧٧٠هـ/ ١٣٦٨م).
- حوض أسنبغا (٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م).
- حوض السيفي برقوق (٨٧٥هـ/ ١٤٧٠م).
- حوض السيفي قراجا (٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م).
- حوض قجماس (٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م).
- حوض الأمير مصطفى جوربجي (١١١١هـ/ ١٧٠٠م).
- حوض عبد الرحمن كتخدا بالأزبكية (قبل ١١٦٥هـ/ ١٧٥٢م).
- حوض عبد الرحمن كتخدا بخط المقسم (قبل ١١٧٥هـ/ ١٧٦٢م).

وفي أحيان أخر كان يعلو بعض الأحواض قاعات سكنية وخزانات نومية مثل حوض مغلطاي بحارة البرقية (٧٢٩هـ/ ١٣٢٨م) وغيره، وكذلك كان يعلو بعض الأحواض مقاعد مثل حوض برسباي بالصحراء (٨٣٦هـ/ ١٤٣٢م).

وذكرت المصادر التاريخية أحواضاً كانت تقع أسفل جوامع أو زوايا مثل حوض ابن هنس من العصر الأيوبي، وحوض عبد الرحمن كتخدا الذي تغيرت معالمه الآن أسفل مسجد الشواذلية بالموسكي، وحوض الأمير سليمان بن ولي (١٠٤٥هـ/ ١٦٣٥م) كان يضع أسفل مصلاة بجوار قبة يشبك (أثر رقم٤).

تزويد الأحواض بالماء :

كل أحواض سقي الدواب كانت تستمد ماءها عن طريق السواقي الموضوعة على الآبار، وكانت الساقية ترفع الماء إلى حامل في مستوى علوى تتفرع منه مجار مائية سواء أكانت حجراً أو أقصاباً فخارية أو رصاصاً تنقل الماء إلى أحواض سقي الدواب وإلى الميضأة وبيوت الأخلية وغيرها، ومن أمثلتها الباقية حتى الآن الساقية والحاصل والمجرى المائى المتفرع من الحاصل في مجموعة السلطان قايتباي بالصحراء، وساقية السلطان حسن ومجاريها المائية المتفرعة منها ومنها مجرى يصل إلى الحوض.

أحواض سقي الدواب بواجهات الأسبلة :

أبنية عليها.

الطرز العشرة لأحواض سقي الدواب:

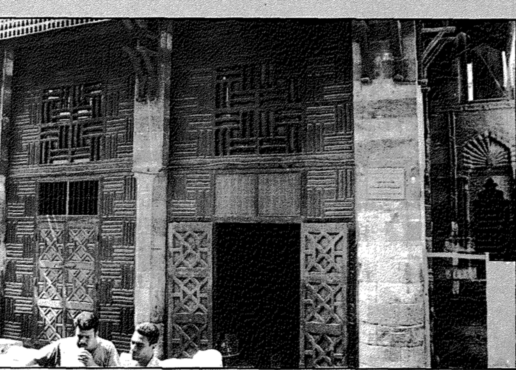
يمكننا تصنيف عشرة أشكال لأحواض سقي الدواب في العصرين المملوكي والعثماني من خلال الأحواض القائمة منها ومن خلال الوصف الوثائقي للمندرس منها، وهذه الطرز هي ما يلي:

١ ـ الطراز الأول: يتميز بأنه يفتح على الطريق بواجهة مفتوحة كلها، مثال ذلك حوض أم السلطان شعبان (٧٧٠هـ/ ١٤٦٨م)، وحوض قجماس الإسحاقي (٨٨٠هـ/ ١٤٨٠م)، وحوض أزبك اليوسفي (٩٠٠هـ/ ١٤٩٥م).

٢ ـ الطراز الثاني: يتميز بأنه يفتح على الطريق بواجهة مفتوحة على جانبيها كتفان، مثال ذلك حوض السيعى برقوق (٨٧٥هـ/ ١٤٧٠م)، وحوض سليمان باشا (٩٣٩هـ/ ١٥٣٤م).

٣ ـ الطراز الثالث: يتميز بأنه يفتح على الطريق بعقد مدبب مثل حوض جوهر اللالا (٨٣٤هـ/ ١٤٣١م) وحوض شرف الدين يحيى (٨٧٥هـ/ ١٤٧٠م)، وحوض إبراهيم أغا مستحفظان (١٠٧٠هـ/ ١٦٥٩م).

٤ ـ الطراز الرابع: يتميز بأنه يفتح على الطريق بعقدين يرتكزان على عمود أوسط، مثال ذلك حوض



واجهة حوض قايتباي بالأزهر.

هناك أحواض لسقي الدواب بسيطة التكوين، الواحد منها عبارة عن حوض صغير تتراوح مساحته ما بين ٥٠ إلى ٧٥سم يغطيه قبو مدبب صغير، توضع بواجهات الأسبلة بجوار شبابيكها على ارتفاع مناسب لشرب الدواب منها، وهذه الأحواض تستمد ماءها عن طريق أقصاب رصاص أو فخار من السواقي وليس لها علاقة بماء الأسبلة التي تستمد ماءها من صهاريجها المخزنة بماء النيل الذي يملأ سنويا.

ومن هذه الأحواض حوض ملحق بسبيل قايتباي بمدرسته بالصحراء، وحوض ملحق بسبيله بالصليبة (٨٨٤هـ/ ١٤٧٩م)، وحوضان ملحقان بواجهتي سبيل خيربك بباب الوزير (٩٠٨هـ/ ١٥٠٣م)، وحوضان ملحقان بواجهتي سبيل طراباي الشريفي بباب الوزير (٩١٠هـ/ ١٥٠٤م)،. وحوض ملحق بسبيل قرقجاس بمدرسته بصحراء المماليك (٩١١هـ/ ١٥٠٦م).

هذا إلى جانب الأحواض الحجرية التي كانت توضع بجانبي الطرق وفي داخل المنشآت من غير أي

أينبك بسفل الربع (٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م)، وحوض جمال الدين الأستادار بفم الخور (٨١٢هـ/ ١٤٠٩م)، وحوض أبو الدهب بالأزهر (١١٨٨هـ/ ١٧٧٤م).

٥ ـ الطراز الخامس: يتميز بأنه يفتح على الطريق بمدخلين بينهما كتف يحمل السقف وأحيانا عمود يحمل السقف بدل الكتف، مثال ذلك حوض قايتباي بالأزهر (٨٨٢هـ/ ١٤٧٧م)، وحوض الأمير مصطفى بخط قناطر السباع (١١٠١هـ/ ١٦٩٠م).

٦ ـ الطراز السادس: يتميز بأنه يفتح على الطريق ببائكة من ثلاثة عقود ترتكز على عمودين، مثال ذلك حوض دولات باي (٨٨١هـ/ ١٤٧٦م)، وحوض طوغان الدمرداش (٨٩٤هـ/ ١٤٨٩م)، وحوض على كتخدا بالرميلة (١١٧٨هـ/ ١٧٦٤م).

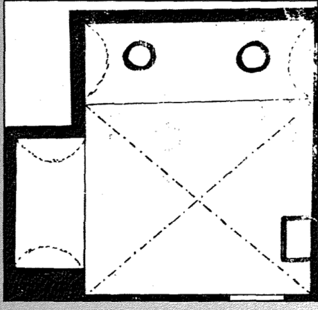
٧ ـ الطراز السابع: يتميز بأنه يفتح على الطريق بثلاثة مداخل بينهم كتفان يحملان السقف مثال ذلك حوض قايتباي بالكبش.

٨ ـ الطراز الثامن: يتميز بأنه يفتح على الطريق ببائكة من أربعة عقود ترتكز على ثلاثة أعمدة، مثال ذلك حوض مصطفى باشا شاهين بسوق السلاح (٩٦٩هـ/ ١٠٦١م).

٩ ـ الطراز التاسع: يتميز بأنه يفتح على الطريق بأربعة مداخل ترتكز في الوسط على ثلاثة أعمدة حجرية (دعامات) وعلى الكتفين الجانبيين لحمل السقف مباشرة دون عقود، مثال ذلك حوض قايتباي بالصحراء (٨٧٩هـ/ ١٤٧٤م).

١٠ ـ الطراز العاشر: يتميز بأنه يفتح على الطريق ببائكة من خمسة عقود، مثال ذلك حوض الأمير رجب ببركة الحاج (١٠٧١هـ/ ١٦٦٠م)، وحوض الأمير حسن بيك بقصر العيني (١١٦٦هـ/ ١٧٥٢م).

وربما كان يوجد بعض الطرز الأخرى لواجهات



الطوالة الملحقة بمنشأة ايتمش البحاسي.

الأحواض لم يصلنا الوصف الوثائقي لها.

ثانيا : الاسطبلات :

الاسطبلات المملوكية والعثمانية المتبقية والتي ورد وصفها بالوثائق لا تخرج عن مساحة مستطيلة أو مربعة تحول ركاب خاناه وطوالة أو أكثر ومتبن وبئر ماء وحفرة مرحاض، وغالباً ما يسقف الاسطبل كله أو بعضه غشيماً (أي سقف غفل من الزخارف والحليات)، بالإضافة إلى وجود حجرة أو حاصل لسكن الكلاف (خادم الاسطبل) أحياناً وأحيانا يلحق بالاسطبل مقعد ومطبخ ومغسل للخيل.

ويعلو الاسطبل أحياناً طابق سكني من حجرات أو قاعة تتكون من دور قاعة وإيوانين وخزانة نومية، وأحياناً يعلوه مطبخ أو مخزن أو مقعد.

وقد يشرف الاسطبل على الحوش الواقع به ببائكة من عدة عقود وأحياناً تكون البائكة داخل الاسطبل نفسه، وقد يحوى المكان الواحد أكثر من اسطبل.

الركاب خاناه :

من أهم مكونات الاسطبل الركاب خاناه، ومعناها بيت الركاب، وكان يحوى عدد الخيل من السروج واللجم والكنابيش والمراكيب والعبى والأجلال وهي ما يلبسه الفرس ليصان بها وغيرها[٦].

وقدَّر «ابن شاهين الظاهري» عدة ما بالركاب خاناه السلطانية مما تحتاج الضرورة إليه ثلاثة آلاف قطعة مختلفة الأسماء والألوان[٧].

ويوجد الركاب خاناه في الاسطبل في مستوى علوى غالبا، ويصعد إليه بسلم حوله درابزين خشبي، وتطل شبابيك الركاب خاناه على الاسطبل وتكون بمثابة مناور له، وأحيانا يكون الركاب خاناه من مستويين أحدهما فوق الآخر، وأحياناً يكون الركاب خاناه أسفل المقعد في قصر الأمير بالقرب من الاسطبل[٨].

وكان للركاب خاناه موظف موكل بحواصله يعبر عنه بمهتار الركاب خاناه وله أعوان[٩].

الطوالة :

الطوالة بمثابة حجرة تستوعب عدة خيول تختلف مساحتها من طوالة لأخرى، وقد يوجد بالاسطبل الواحد طوالة أو أكثر، وأهم ما يميز الطوالات هي الأحواض المستطيلة أو التجاويف التي تكون بمصطبة، وقد خصصت تلك الأحواض أو التجاويف لوضع العلف وطعام الدواب بها، وتكون مرتفعة قليلا لتناسب إطعام الدابة بسهولة.

ولم يبق في الآثار الإسلامية بالقاهرة سوى طوالة واحدة هي الملحقة بمنشأة أتيمش البجاس بباب الوزير (٧٨٥هـ/ ١٣٨٣م)، (أثر رقم ٢٥١).

الاسطبلات في العصر المملوكي :

كانت كل من دولة الفواطم بمصر (٣٥٨ـ ٥٦٧هـ/ ٩٦٩ ـ ١١٧١م) ودولة الأيوبيين (٥٦٧ ـ ٦٤٨هـ/ ١١٧١ ـ ١٢٥٠م) تهتم اهتماماً كبيراً بإقامة الاسطبلات، وكانت كبيرة وتستوعب أعداداً غفيرة من الخيل والدواب.

وبلغت الاسطبلات الذروة في العصر المملوكي (٦٤٨ ـ ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠ ـ ١٥١٧م)، وكانت الاسطبلات تنقسم قسمين هي الاسطبلات السلطانية واسطبلات الأمراء، والاسطبلات السلطانية تقع في قلعة الجبل بمنطقة باب الغرب، بالإضافة إلى أماكن أخرى بالقاهرة بالقرب من القلعة مثل بركة الفيل والناصرية.

وحوت الاسطبلات السلطانية أكثر من عشرة أنواع من الاسطبلات خُصِّصَ كل واحد منها لنوع معين ووظيفة خاصة بالخيل والدواب هي:

- اسطبل الخاص الشريف برسم الخيول التي تسير في المواكب.
- اسطبل الحجورة[١٠] وبه الخيول الخاصة التي ينتخب منها للعب الكرة (البولو) والسباق والرياضة.
- اسطبل الجوق[١١] وبه خيول الخرج للمماليك الكتابية[١٢].
- اسطبل البيمارستان وبه الخيول الضعاف والمعتلة.
- اسطبل الجشار أو الدشار وبه الخيول التي تقدمت بها السن.
- اسطبل البريد وبه خيول البريد.
- اسطبل الهجن والنياق.
- اسطبل البغال.
- اسطبل المناخ.
- اسطبل الفيل.
- اسطبل السباع[١٣].

وأحيانا تخلو هذه الاسطبلات من بعض هذه الأنواع.

وقد ارتبط بالاسطبل السلطاني وظيفة الأمير أخور الكبير المشرف عليه، وكان له أعوان عديدون، وكان يتمتع بمكانة كبيرة في الدولة، وكان للأمراء الكبار أمراء آخورية خاصين بهم مثلهم في ذلك مثل السلطان.

ويرجع للناصر محمد بن قلاوون في سلطنته الثالثة (٧٠٩ - ٧٤١هـ/ ١٣٠٩ - ١٣٤٠م) الفضل في إنشاء ديوان للاسطبلات الشريفة السلطانية، له ناظر وعدة مباشرين وكتاب وشهور، وقد شهد الاسطبل السلطاني بالقلعة أهم الأحداث السياسية في دولة المماليك.

واسطبلات الأمراء كانت كبيرة وضخمة، وقد أطلق على القصر الذي يعيش فيه الأمير الكبير اسطبل لما يحويه من خيوله وخيول مماليكه الكثيرة العدد فغلب تعبير اسطبل على القصر في العصر المملوكي.

وألحق ببعض المنشآت الدينية مثل الخانقاوات اسطبلات للخيل، وكذلك المنشآت التجارية مثل الوكالات والخانات لمبيت دواب التجار والعملاء.

وكان هناك بعض الاسطبلات العامة بالقاهرة لمن لا يستطيع إقامة اسطبل في داره أو قصره.

وكان السوق الأساس للخيل والدواب بالقاهرة يقع في الجانب الغربي من ميدان الرميلة المطل على القلعة، وقد شهد رواجاً كبيراً طوال العصر المملوكي، وكان ينظم العمل به الدلالون والمنادية، كما كان هناك عدة أسواق بالقاهرة خاصة بآلات الخيل وهي سوق المهمازيين وسوق اللجميين وسوق السقطيين وسوق الجوخيين.

الهوامش :

(١) صحيح مسلم، كتاب الشعب رقم ٤٠ ص ١٠١.

(٢) الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة، نشر المكتب الإسلامي، جـ١ ص ٢٨ - ٢٩.

المعجمة أي التي لا تقدر على النطق فتشكو ما أصابها من جوع أو عطش، وأصل الأعجم : الذي لا يفصح بالعربية ولا يجيد التكلم بها عجميا كان أو عربيا، سمي به لعجمة لسانه والتباس كلامه. كلوها : اتركوها.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الشعب رقم ٤٠ ص ٩٦ ، كتاب ٤٨ ص ٤٧٨.

(٤) كتاب وقف عبد الرحمن كتخدا رقم ٩٤٠ (أوقاف) بتاريخ ١٨ ربيع أول ١١٧٤هـ، ص ٧٣.

(٥) نفسه ص ٦٦ - ٦٧.

(٦) نبيل عبد العزيز، الخيل ورياضتها في عصر سلاطين المماليك ، نشر مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٦م، ص ١٠١ - ١٠٢.

(٧) زبدة كشف المماك وبيان الطرق والمسالك، تحقيق بولس راويس، ط باريس ١٨٩٤م، ص ١٢٤.

(٨) عبد اللطيف إبراهيم، «الوثائق في خدمة الآثار» بحث في كتاب دراسات في الآثار الإسلامية، القاهرة ١٩٧٩م، ص ٣٩٢ - ٣٩٦.

(٩) القلقشندي، صبح الأعشى جـ ٤ ص ١٢، المقريزي، الخطط جـ ٢ ص ٢٠٤.

(١٠) الحجر في اللغة هي أنثى الخيل والجمع حجور وأحجار. انظر المعجم الوجيز، مادة حجر.

(١١) الجوق هي الجماعة من الجند Dozy, Suppl, I.P 235.

(١٢) ابن شاهين الظاهرة، زيدة كشف الممالك ص ١٢٥.

(١٣) نفسه .

التكايا في العمارة الاسلامية

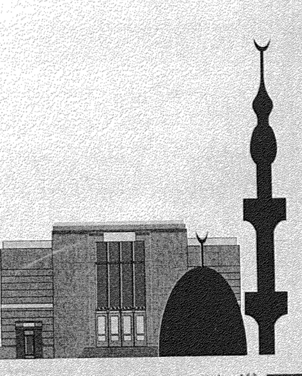
التكايا ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالمتصوفة، والتصوف لغويا مصدر الفعل الخماسي من صوف للدلاله على لبس الصوف وقد اعتقد البعض أن هذا الاسم مشتق من لبس بعض الزهاد للصوف والملابس الخشنة[١]، ويرى بعض المؤرخين أنه مجرد لقب وليس اشتقاقا من الصوف لأنهم لم يختصوا بلبسه، كما ينفون أيضا نسبتهم إلى صُفَّة مسجد الرسول (صلى الله عليه وسلم)[٢].

وينسب ابن خلدون نشأة التصوف الى القرن الثاني الهجري حيث يقول «انه لما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية»[٣] وقد روى عن القشيري قوله إن المسلمين بعد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لم يتخذوا اسما مميزا واكتفوا بلفظ الصحابة، واتخذ من جاء بعدهم اسم التابعين ثم اتباع التابعين، ثم اختلف الناس فقيل للخواص منهم ممن لهم عناية بالدين الزهاد والعباد ثم ظهرت البدع فانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفسهم مع الله باسم التصوف وغلبت عليهم هذه التسمية فيقال رجل صوفي وللجماعة صوفية، كما يقال متصوف ومتصوفة[٤].

بقلم :

د. نادر محمود عبد الدايم

مدرس الآثار الاسلامية - جامعة جنوب الوادي - مصر



وقد اتجه التصوف بعد ذلك إلى الأبحاث العقلية والفلسفية وهو ما رفضه الإمام أبو حامد الغزالي وغيره ودعوا إلى الاتجاه للإيمان والعمل معا واستمر هذا الاتجاه سائدا حتى نهاية القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي[٥].

وقد واكب هذه الفترة إنشاء العديد من المباني التى خصصت لاقامة المتصوفة المنقطعين للعباده أطلق عليها عدة أسماء منها الزاوية والخانقاة والرباط، وهي ما سنتحدث عنه، وفي العصر العثماني استخدمت كلمة تكية للدلالة على هذا النوع من المنشآت وتغيرت معظم أسمائها لتصبح تكايا، بالاضافه الى المنشآت التي أقامها الأتراك العثمانيون وتحويل منشآت أخرى مثل بعض المدارس والأضرحه إلى زوايا وتكايا[٦]، من هنا يتضح لنا أن التكية لم تكن منشأة حديثة في العصر العثماني وانما كانت الكلمة فقط هي التي استحدثت مع وجود بعض التطوير في الشكل المعماري، وكانت كثرة التكايا في ذلك العصر مواكبة لنوع من التصوف الزائف الذى اصبح فيه الشيوخ أدعياء واتخذ الأتباع من الاقامه في التكايا نوعا من الراحة والطعام والشراب والبعد عن التقشف[٧].

الخانقاه :

تذكر كتب المؤرخين أن أول من أنشأ بيتاً لانقطاع الصوفية هو زيد بن صوحان. وكان ذلك بالبصرة أيام خلافة عثمان بن عفان حيث أتى بمجموعة من الرجال المتفرغين للعباده وبنى لهم دارا أسكنهم فيها وخصص لهم ما يكفى من الطعام والشراب والملبس[٨].

والخانقاه كلمة فارسية تكتب أحيانا بالكاف بدلا من القاف (خانكاه) وأصلها خوان كاه أي موضع الأكل[٩] ويذكر ابن بطوطة أن أصل الخانقاه هو الزاوية[١٠] وهو خلط حدث كثيرا كما أشرنا سابقا

اضاءة

- دكتوراه الآثار الاسلامية
- جامعة القاهرة. (الخزف الايراني في العصر الصفوي).
- من مشاركاته البحثية: الخزف التيموري من خلال صور المخطوطات المعاصرة له.
- أشرف على العديد من الرسائل العلمية المقدمة في الكلية.



بين منشآت التصوف بأسمائها المختلفة.

ويرجع العلماء النهضة في انشاء الخانقاوات إلى ايران في القرن الرابع الهجري حيث كان الأمراء والملوك ينشؤونها تقربا إلى الله تعالى لايواء الفقراء والوافدين بالإضافة إلى الصوفية وتتضح أهمية الخانقاوات في ذلك العصر في زيارة السلاطين لها مثلما فعل السلطان محمود الغزنوي الذى كان يكثر من التردد على خانقاه الشيخ أبي الحسن الخرقاني في الري. وهناك العديد من الخانقاوات التى ذكرت في التاريخ ايضا في ايران ووسط آسيا مثل خانقاه السلمى صاحب طبقات الصوفية في نيسابور وخانقاه القشيري في طوس وخانقاه الامام الغزالي التي دفن بها عام ٥٠٥هـ في طوس[١١] وغيرها وهو ما يؤيد أن بلاد المشرق كانت هي المنشأ الأول لهذا النوع من المبانى، وقد نقل السلاجقه بناء الخانقاوات إلى الاناضول، كما نقلها الاتابكه عنهم الى بلاد الشام ومصر فانشئت في حلب ودمشق بعض منها أيام عماد الدين زنكى وابنه نور الدين محمود، وكان صلاح الدين الايوبي أول من انشأ خانقاه بمصر حيث أمر بتحويل دار الوزير الفاطمي عنبرا أو قنبر المعروف باسم سعيد السعداء إلى خانقاه عام ٥٦٩هـ بعد انفراده بحكم مصر[١٢]، وانتشرت الخانقاوات في أنحاء العالم الإسلامي فنجد في القدس عددا منها مثل **الخانقاه الدواداريه** التي انشأها علم الدين سنجر الدودار عام ٦٩٥هـ/١٣٢٩م[١٣]، **والخانقاه الفخرية** التى أنشأها القاضى فخر الدين محمد بن فضل عام ٧٣٠هـ/١٣٢٩م[١٤] وكانت كلها تقوم بدور التدريس بالإضافه إلى ايواء الصوفيه.

وفي القاهرة كانت الخانقاه البندقدارية وخانقاه بيرس الجاشنكير وخانقاه شيخو من أهم معالم العصر المملوكي.

ويقوم تخطيط الخانقاه على وجود فناء أوسط مكشوف تحيط به الايوانات ومساكن الصوفيه، الا أنها تنقسم إلى ثلاثة أنواع:

١ - **الخانقاه المسجد** وهى التى تكون على نمط المساجد الجامعة أي من فناء مكشوف حوله أروقه تقع خلفها غرف الصوفية وتضم أيضا مئذنة ومحرابا.

٢ - **الخانقاه المدرسة**: وهى التى تجمع بين التدريس والتصوف ويكون التدريس فيها داخل الايوانات.

٣ - **الخانقاه القبه**: وهي نماذج صغيره تضم عددا قليلا من خلاوى الصوفية بالاضافة إلى قبة ضريح لأحد الأولياء[١٥]

الزاوية :

وهي منشأة صغيره يقيم بها عدد قليل من الصوفية، وربما كانت مخصصة لرجل واحد، وقد ذكر ابن بطوطة والنابلسي في رحلتيهما العديد من الزوايا في مناطق متفرقة، وربما تعددت الزوايا لشخص واحد، فقد ذكر أن السلطان بيبرس أنشأ خمس زوايا لرجل واحد هو الشيخ خضر منها ما كان في بلاد الشام ومنها ما كان في مصر[١٦] وتتعدد الزويا الباقية إلى الآن مثل زاوية الهنود التي كانت مخصصة لطائفة الرفاعية ثم للهنود من بعدهم بالقدس[١٧]، وزاوية الشيخ حيدر التي تعود الى منتصف القرن السابع الهجري[١٨].

الرباط :

اشتق اسم الرباط من الآية الكريمة [يأيها الذين

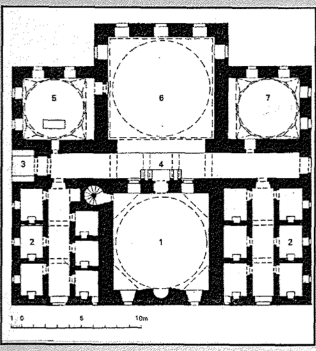
آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا}[١٩] ومن قوله تعالى: {وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل}[٢٠]، ومن هنا بدأ الرباط كمنشأة عسكرية تقيم بها فرق للمراقبه على حدود الدولة الإسلامية[٢١] وبعد أن خفت حدة الفتوحات وضعفت روح الجهاد تحولت هذه المنشآت الى أماكن لإقامة المنقطعين للعباده والمسافرين على الطرق وأصبحت أيضا تؤدى وظيفة الخانقاه، ومن أمثلتها القديمة رباط المنستير في سوسه بتونس ورباط ازدمر الصالحى بالقاهرة ورباط الكرد بالقدس الذي يعود إلى عصر الناصر محمد بن قلاوون عام ٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م وقد خصص لإقامة الفقراء والحجاج والوافدين إلى بيت المقدس[٢٢] كما خصصت بعض الأربطة لإقامة النساء مثل رباط البغدادية بالقاهرة[٢٣].

التكيه :

وجمعها تكايا، هي الاسم الذى أطلق على جميع المنشآت المخصصة لإقامة الصوفية في العصر العثماني سواء تلك التى أقيمت فيه أو كانت موجودة سابقا وتغير اسمها أو وظيفتها.

ورغم أن اللفظ قد ساد في العصر العثماني إلا أن الأتراك يرجعونه إلى أصل عربي من كلمة «تكأه»[٢٤] وهى في اللغة العربية بمعنى ما يتكىء عليه الشخص أو العصا التى يستند عليها وهى مأخوذة من الفعل (وكأ) بمعنى الجلوس بتمكن أو على أحد الجانبين[٢٥]، وتكتب الكلمة في اللغة التركية Tekkeye وقد استخدم الاوربيون لفظا قريبا هو tekke وتنطق تكّه بفتح التاء وتشديد الكاف.

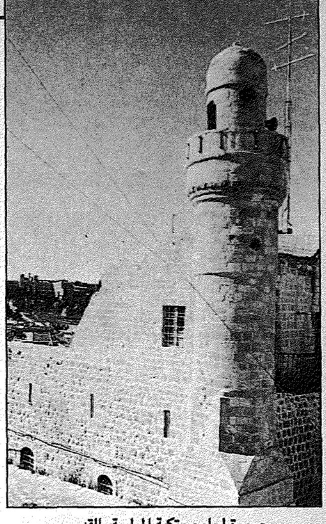
وقد لعبت التكايا دورا مهما في حياة الشعوب



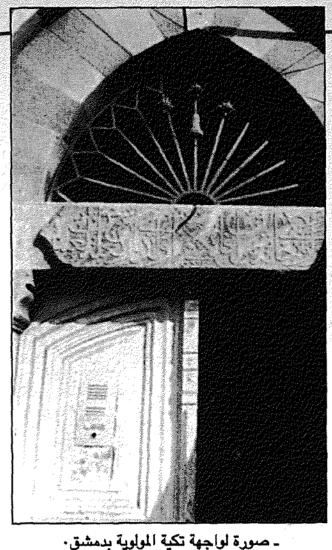
- رسم تخطيطي لتكية بيرالياس في أماسيا بتركيا (نقلا عن Good WIN).

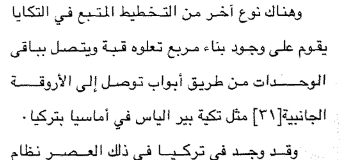
الإسلامية خلال العصر العثماني فلم تكن مجرد مكان لاعتكاف المتصوفه وإقامتهم وإنما كان هناك ارتباط بين التصوف والحرفيين والصُّناع الذين كان رؤساؤهم منضمين الى الطرق الصوفية وكانت حلقات الذكر أو السماع في التكايا مكانا يلجأون إليه ويجتمعون فيه مساء كل ليلة[٢٦]. كذلك كانت التكايا أحد العوامل التي ساعدت على السلبية والبعد عن سوق العمل حيث لجأ إليها الكثيرون بحثا عن سهولة الحياة والعيش على نفقة المنشىء.

ومن الناحية المعمارية فان التكيه بناء يضم العديد من الوحدات الأساسية وأخرى ملحقة، ومن الوحدات الاساسية المسجد وهو عبارة عن مصلى صغير وغرف الإقامة التى يطلق عليها الخلوات ودورات المياه والحمام، وتضم بعض التكايا ملاحق مثل المطبخ ومدفن لأحد الشيوخ أو غرف للتدريس، وربما مكتبة[٢٧].



ـ صورة لجامع وتكية المولوية بالقدس.





ـ صورة لواجهة تكية المولوية بدمشق.

ورغم التشابه في الوظيفة والوحدات بين التكايا المنشأة في العصر العثماني وبين المباني السابقة مثل الخانقاه والزاوية، الا أن هناك بعض الاختلافات من حيث التصميم المعماري، فأصبح التصميم الأساسي للتكية عبارة عن فناء مكشوف تحيط به أربعة أروقة من بلاطة واحدة، مغطاة بقباب صغيرة وخلف هذه الأروقة تقع غرف الاقامة التي تغطى ايضاً بالقباب[٢٨].

ويتوسط الفناء احيانا الضريح، وفي الجانب المواجه للقبلة كان يوجد المصلى، ومن الملاحظ أن هذا النوع يشبه إلى حد كبير تخطيط المدرسة في العصر العثماني[٢٩] وربما يكون هذا التشابه هو السبب في اطلاق لفظ تكية على العديد من مدارس ذلك العصر[٣٠].

وهناك نوع آخر من التخطيط المتبع في التكايا يقوم على وجود بناء مربع تعلوه قبة ويتصل بباقى الوحدات من طريق أبواب توصل إلى الأروقة الجانبية[٣١] مثل تكية بير الياس في أماسيا بتركيا.

وقد وجد في تركيا في ذلك العصر نظام المجموعات المعمارية التي تضم العديد من المنشآت يحيط بها سور واحد وتضم مسجدا ومدرسة وتكية وربما تضمّ سبيلا وغير ذلك مثل مجموعة السلطان بايزيد الثانى ومجموعة سليمان القانوني ومجموعة سليم الثاني ومجموعة صوقللو محمد باشا وغيرها الا أن هناك بعض التكايا التى أقيمت مستقلة ولكنها أيضا تتبع نفس أنواع التصميم السابقة مثل

السليمانية بدمشق وتكية الكلشنى بالقاهرة **وتكية بير الياس في اماسيا بتركيا.**

الحياة داخل التكايا :

كان للخانقاوات والتكايا قواعد للعمل بها يقوم بوضعها المنشؤون من خلال وثيقة الوقف والأوقاف التى يخصصونها للتكية.

وكانت هناك بعض الشروط التى يضعها الواقفون للالتحاق بالتكية منها أن يكون الملتحق بلا أهل - حتى لا يشغلوه عن العبادة - بالإضافة إلى كونه صالحا وصاحب دين، كذلك كانت بعض التكايا مخصصة لطائفة معينة مثل العجم أو الهنود أو غيرهم، وتكون تكايا أخرى مخصصة لاتباع طريقة صوفية مثل المولوية أو الرفاعية أو البكتاشية أو غيرها طبقا لرؤية ورغبة المنشيء، وقد حرص المنشؤون أيضا على تحديد أعداد المقيمين بكل تكية[٣٢].

وكان الوقف هو المصدر الأساسى للانفاق على التكايا والمقيمين بها وتكون الأوقاف عبارة عن أراض زراعية أو عقارات، وفي بعض الأحيان توقف قرى بأكملها لدفع الرواتب وإطعام المقيمين وكسوتهم[٣٣].

أما العاملون بالتكية والذين تحددهم وثائق الوقف فأهمهم :

شيخ التكيه :

كان لكل تكية شيخ تتركز في يده إدارتها ويخضع القائمون بالعمل بها والمقيمون له وهو يختص بتوزيع العمل والأموال طبقا لشروط الواقف[٣٤].

الإمام :

ويكون من بين المقيمين بها ومن أهم صفاته أن يكون حسن الصوت عالما بالصلاة وشروطها ويلتزم بإمامة المصلين وقت الصلاة.

المؤذن :

وقد جرت العادة على تعيين مؤذن تكون مهمته رفع الأذان في وقت الصلاة، وشروط تولى هذه المهنة أن يكون حسن الصوت وعلى دراية بأصول الأذان، وقد حددت له وظائف أخرى مثل النداء للسحور في رمضان والتذكير بموعد صلاة الجمعة - حيث لم تكن الجمعة تقام بالتكية - والتكبير أيام الأعياد والتبليغ خلف الإمام.

المقاتي :

وهو أيضا أحد المقيمين بالتكية وهو المسئول عن تحديد وقت الصلاة للمؤذن، ولذا يجب أن يكون على دراية بالمواقيت واستخدام الآلات اللازمة لتحديد وقت دخول الصلاة.

القراء :

وهم مجموعة من قراء القرآن الكريم من المقيمين بالتكية يختلف عددهم من تكية لأخرى يجلسون في مجموعات لقراءة الاوراد المعلومة[٣٥].

المنشد :

خصصت بعض التكايا وظيفة المنشد أو المادح وهو الذي يقوم في المجالس بإنشاد قصائد مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم). والذكر بطريقة منغمة[٣٦].

وبالاضافة إلى الوظائف السابقة خصصت بعض الطرق وظائف تتناسب مع طريقة ممارسة شعائرها. ومن هذه الوظائف وظيفة ضاربى الدف والمغنين والراقصين أو من يقومون بالدوران في المجالس. الذين تطلق عليهم بعض الوثائق لفظ الدراويش الراقصين.

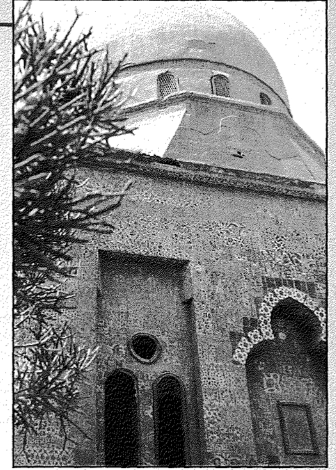
دروس الفقه والحديث، كما تحدد أوقات مواكبهم وخروجهم لصلاة الجمعة في أحد الجوامع وغير ذلك.

ولكن في العصر العثماني حين انحرف التصوف عن مساره وخلت التكايا من هذه القواعد وأصبحت الشعائر تمارس بأساليب غريبة عن الدين فصاروا يمارسون الذكر بأصوات مسموعة وتسمى حلقاتها باسم السماع وينتظمون اما في صفوف أو حلقات مستديرة أو مستطيلة مرددين لفظ الجلالة ومحركين رؤوسهم وأجسامهم يمينا ويسارا وبصورة لا تنقطع حتى تخور قواهم، وربما وقع بعضهم على الأرض، معتقدين أن ذلك هو الدليل على ولايتهم[٣٧].

أهم التكايا :

سنعرض لبعض التكايا التي مازالت قائمة حتى الآن وهي مجرد نماذج فقط نظراً لكثرتها.

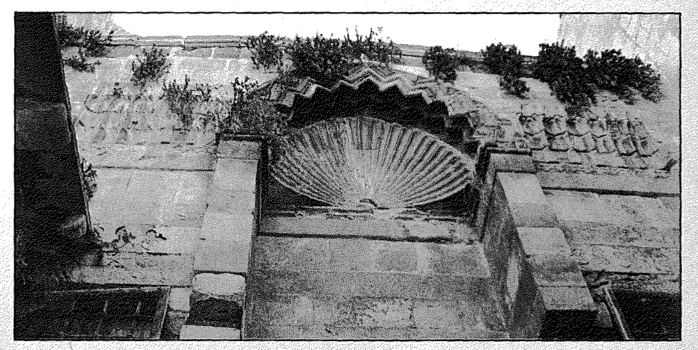
١ ـ **تكية صوقللو محمد باشا في اسطانبول**: وهي ضمن المجموعة المعمارية التي أنشأها هذا الوزير عام ٩٧٩هـ/ ١٥٧١م وكانت مخصصة لأتباع الطريقة



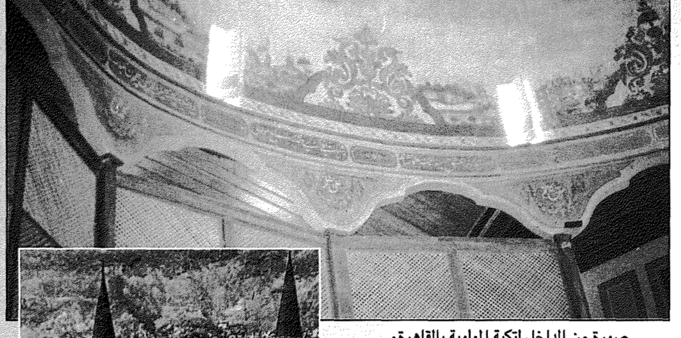
ـ صورة لواجهة القبة بتكية الكلشني بالقاهرة.

ممارسة الشعائر :

كان للخانقاوات قواعد تنظم إقامة الصوفية بها وما يمارسونه من عبادات وتحدد مواقيت للدروس مثل



ـ مدخل تكية خاصكي سلطان بالقدس.



ـ صورة من الداخل لتكية المولوية بالقاهرة.

الخلوتية وهى تتكون من فناء تتوسطه غرفة مغطاة بقبة، ويحيط بهذا الفناء مجموعة من غرف الإقامة[٣٨].

٢ ـ **تكية الوالدة العتيقة في اسطانبول**: وهي تنسب الى أم السلطان مراد الثالث وتؤرخ بعام ٩٩٠هـ/ ١٥٨٢م وكانت أيضا ضمن مجموعة معمارية متكاملة[٣٩].

٣ ـ **تكية بير الياس في اماسيا بتركيا**: وقد بدىء في إنشائها عام ٨١٥هـ/ ١٤١٢م وعرفت باسم تكية يعقوب باشا، وتخطيطها عبارة عن غرفة مربعة للمسجد حولها غرف صغيرة للإقامة، وفي الخلف نجد ضريحا وقاعة للسماع[٤٠].

٤ ـ **التكية السليمانية بدمشق**: رغم أن دمشق تضم العديد من التكايا فإن لفظ تكية يطلق على سبيل الشهرة على التكية السليمانية التى أنشأها السلطان سليمان الأول في موضع قصر السلطان بيبرس وذلك في عام ٩٦٢هـ/ ١٥٥٥م وقام بوضع تصميمها المعماري المهندس التركي الشهير سنان، وهي تعتمد على وجود مسجد في الوسط مغطى بقبة وعلى الواجهة مئذنتان[٤١].



ـ صورة للتكية السليمانية بدمشق.

٥ ـ **تكية المولويه بدمشق**: وتورخ بعام ٩٣٢هـ/ ١٥٨٥م، وهي مخصصة لطائفة المولويه. وتضم ضريحا لأحد شيوخهم[٤٢].

٦ ـ **تكية خاصكي سلطان بالقدس**: أنشأتها روكسلانه أو خاصكي سلطان زوجة السلطان سليمان الأول عام ٩٥٩هـ/ ١٥٥١م، وهى تضم ضريحا للشيخ سعد الرصافي وبها مطبخ وفرنان[٤٣].

٧ ـ **تكية المولويه بالقدس**: وهي مقامة ضمن جامع أنشأه حاكم القدس عام ٩٩٥هـ/ ١٥٨٦م، كان قبل ذلك كنيسة ثم تحولت إلى تكية للمولوية وبنى بها مساكن للصوفية[٤٤].

٨ ـ **تكية الكلشني بالقاهرة**: وهى تقع قرب المتحف الإسلامي ويعود تاريخها الي حوالى عام ٩٢٦هـ/ ١٥١٩م أنشأها الشيخ ابراهيم الكلشني ودفن بها، وتضم في الوسط بناء مغطى بقبة مرتفعة وحوله مساكن الصوفية، وقد غطيت واجهة القبة بالبلاطات القاشاني العثمانية[٤٥].

٩ ـ **تكية السليمانية بالقاهرة**: وهي في الأصل مدرسة كما يشير نص تأسيسها أنشأها الوالي سلميان باشا وكانت تؤدى وظيفة التدريس حتى عام ١١٢٣هـ/ ١٧١١م، ثم تحولت بعد ذلك الى تكية. كما ورد في إحدى الرسائل الواردة من اسطانبول تصفها بأنها تكية للدراويش[٤٦].

هذه نبذة عن التكايا ونشأتها وعملها وبعض نماذجها، والله الموفق.

الهوامش :

(١) دائرة المعارف الاسلامية ـ مادة تصوف ـ النسخة العربية، طبعة دار الشعب، القاهرة.

(٢) تقي الدين احمد بن على المقريزي: الواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار جـ٢ ص ٤١٤ طبعة بولاق ـ القاهرة.

(٣) د. توفيق الطويل: التصوف في مصر ابان العصر العثماني ص٣٦ ، القاهرة ١٩٨٨.

(٤) المقريزى: المصدر السابق جـ ٢ ص ٤١٤.

(٥) د. توفيق الطويل: المرجع السابق ص ٣٧.

ولمن اراد التفاصيل عن هذه المرحلة يمكن مراجعة دائرة المعارف الاسلامية مادة تصوف، وكذا كتاب تراث الاسلام طبعة عالم المعرفة بالكويت.

(٦) Abouseip, D,B. Islamic Architecture in Cairo - An Introduetion .P160 Cairo 1989

(٧) د. ناهد حمدى احمد: وثائق التكايا في مصر في العصر العثماني، رسالة دكتوراه من جامعة القاهرة ١٩٨٤ ص ٥٤.

(٨) المقريزي: المصدر السابق جـ٢ ص٤١٤، د. عاصم رزق: خانقاوات الصوفية في مصر في العصرين الايوبي والمملوكي جـ١ ص ٢٤، القاهرة ١٩٩٧.

(٩) المقريزي: المصدر السابق جـ٢ ص ٤١٥.

(١٠) د. عاصم رزق: المرجع السابق جـ ١ ص ٢١.

(١١) د. سعاد ماهر محمد: العمارة الاسلامية على مر العصور جـ٢ ص ٦٥٩، جده ١٩٨٥م.

(١٢) المقريزي: المصدر السابق جـ ٢ ص ٤١٥.

(١٣) رائف يوسف نجم وآخرون: كنوز القدس ص

١١٥ ميلانو ١٩٨٣.
(١٤) المرجع نفسه ص ١٩١.
(١٥) د. سعاد ماهر: المرجع السابق جـ٢ ص ٦٦٢ ـ ٦٦٣.
(١٦) د. توفيق الطويل: المرجع السابق ص ٤٢.
(١٧) رائف نجم: المرجع السابق ص ١٢٠.
(١٨) المرجع نفسه ص ١٤٦.
(١٩) سورة آل عمران آية ٢٠٠.
(٢٠) سورة الأنفال آية ٦٠.
(٢١) د. حسن الباشا: مدخل الى الآثار الاسلامية ص ١٣٧، القاهرة ١٩٩٠م.
(٢٢) رائف نجم: كنوز القدس ص ١٥٣.
(٢٣) د. توفيق الطويل: المرجع السابق ص ٣٨.
(٢٤) عن العالم التركي جلال اسعدار سفان
(٢٥) قاموس المصباح المنير مادة وكأ ـ طبعة بيروت.
(٢٦) د. محمد علاء الدين منصور: جماعات الفتوة في الأناضول، رسالة دكتوراه من جامعة القاهرة ١٩٨١م ص ١٣.
(٢٧) عبد الرحيم غالب: موسوعة العمارة الاسلامية ص ١٠٧ بيروت ١٩٨٨م.
(٢٨) د. ناهد حمدي: المرجع السابق ص ٢٤.
(٢٩) د. مرفت عيسى: الطراز العثماني في منشآت التعليم، رسالة دكتوراه من جامعة القاهرة ١٩٨٧م ص ١٩٧.
(٣٠) من ذلك المدرستين السليمانية والمحمودية بالقاهرة.
(٣١) د. ناهد حمدي: المرجع السابق ص ٢٤.
(٣٢) المرجع نفسه ص ٢٥٢.
(٣٣) المرجع نفسه ص ١٧٨.
(٣٤) المرجع نفسه ص ٢٥١.
(٣٥) المرجع نفسه ص ٢٧٦ ـ ٢٧٨.
(٣٦) المرجع نفسه ص ٢٨١.
(٣٧) المرجع نفسه ص ١٧٦.
(٣٨) Kuban, (D)., An Ottoman Building Complexof The 16th Century, Ars Orientaties Vol 7, Michigan 1968 P28
(٣٩) Baha Tanman, Sinan'in Mimarisi Tekkaler P 311-332 Istanbui.
(٤٠) Good Win, G, A history of ottoman Architecture P83 London 1987
(٤١) احمد الايبسن وقتيبة الشهابي: معالم دمشق التاريخية ص ٩٨ ـ ٩٩ دمشق ١٩٩٦.
(٤٢) قتيبة الشهابي: مشيدات دمشق ذات الأضرحة ص ٤٧٧، دمشق ١٩٩٥م.
(٤٣) رائف نجم: كنوز القدس ص ٣٦٤ ـ ٣٦٥.
(٤٤) المرجع نفسه ص ٣٦٧.
(٤٩) عاطف عبد الدايم عبد الحي: شارع تحت الربع حتى نهاية القرن الثالث عشر الهجري، رسالة ماجستير من جامعة القاهرة ١٩٩٧، ص ٢٤١ وما بعدها.
(٤٦) د. مرفت عيسى: المرجع السابق ص ١٩٧ ـ ١٩٨.

عمارة طرابلس المملوكية المتحف الحي

طرابلس الشام أغنى مدينة بآثارها الإسلامية المملوكية على الساحل الشرقي للبحر المتوسط على الإطلاق، وهي المدينة الثانية بآثارها المملوكية بعد القاهرة، ذلك أن المماليك هم الذين أسسوا المدينة القائمة الآن قبل ٧٠٠ عام ونيف.

وهنا لابد من توضيح هذه النقطة حتى لا يظن أن تاريخ المدينة يعود إلى سبعة قرون فقط. فطرابلس أسسها الفينيقيون قبل نحو ٣٥٠٠ عام وتعاقبت عليها الأمم والعصور من رومانية وفارسية وبيزنطية حتى فتحها المسلمون في عهد الخلفاء الراشدين، وتعاقب على حكمها الأمويون، والعباسيون، والطولونيون، والإخشيديون، والفاطميون، ثم الفرنجة الصليبيون حيث احتلوها أكثر من ١٨٠ عاماً، واتخذوها عاصمة لإمارة لاتينية في الشرق، وأثناء احتلالهم الطويل أزالوا معالمها الإسلامية، وعندما تم للمسلمين تحريرها بقيادة السلطان المنصور قلاوون سنة ٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م، أشار القادة على السلطان بأن يهدم المدينة القديمة، وكانت على ساحل البحر مباشرة، وأن يبني مدينة جديدة على بعد ٣ أميال إلى الداخل حيث ينساب نهر المدينة ويعرف بـ «أبو علي» فأمر قلاوون بهدم المدينة القديمة، ونشأت مدينة مملوكية خالصة بكل خططها وأسواقها ودورها وحوانيتها، ودروبها وأزقتها المسقوفة، الضيقة، المتعرجة،



بقلم :

أ.د. عمر عبدالسلام تدمري

- لبنان -

وشوارعها الفسيحة الممتدة والمزدحمة، وساحاتها وميادينها، وجوامعها، ومدارسها، وزواياها، وحمّاماتها، وخاناتها، وقصورها، وأبراجها الحربية، وسبل مياهها، وطواحينها، وجسورها فوق النهر، والبيمارستان، والخانقاه، ومعامل الصابون، ومصانع الحرير، والمصابغ، والمدابغ، وانتشرت أسواق الصناعيين والحرفيين والتجار، من العطارين والنجارين، والنحاسين، والحدّادين، والحجارين، والخشابين، واللحامين، والقطانين، والطواقيين، والخياطين، والحريريين، والقباقبيين، والعقادين، وسوق القمح، وسوق السلاح، وسويقة الخيل، وسوق السمك، وسوق الصاغة، وسوق الإسكافيين، والملاحة، والدباغة، والتبانة، والبازركان، وغير ذلك مما يطول عرضه، بحيث يمكن تلخيص كل ذلك بوصف طرابلس الآن بأنها «متحف حي» وأنها «مدينة المماليك النموذجية».

حين زار طرابلس الرحالة الشيخ عبد الغني النابلسي في سنة ١١١٢هـ/ ١٧٠٠م. كتب في مؤلفه «التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية» ما نصه: «أن ببلدة طرابلس المحمية مدارس وزوايا ومساجد لا تُعدُّ ولا تحصى»، وأضاف إلى ذلك ما سمعه من أهلها «أنه كان بها ثلاثمائة وستون مدرسة». وهذا الرقم يشمل المدارس المملوكية والعثمانية في ذلك الوقت. وقبل نحو نصف قرن من الآن كانت المدارس المملوكية القائمة فقط تزيد على ٣٠ مدرسة، وخلال نصف القرن الماضي أزيل عدة مدارس عقب فيضان «نهر أبو علي» أواخر سنة ١٩٥٥ في مشروع تقويم مجراه، منها: المدرسة الزريقية، ومدرسة النسر بن عجبور، ومدرسة البطركية، والدبان (بالمسلخ) ومدرسة سبط العطار، ومدرسة الوتار، وأزيلت المدرسة الرفاعية عند السراي العتيقة وأقيم مكانها مسجد حديث. وأزيلت المدرسة القرمشية في محلة اليهود، وكذلك المدرسة العنبرية (المعروفة بالعمرية) في محلة الزاهرية، وبني مكانهما بيوت ودكاكين، وأزيلت مدرسة الأمير أيدمر شاه

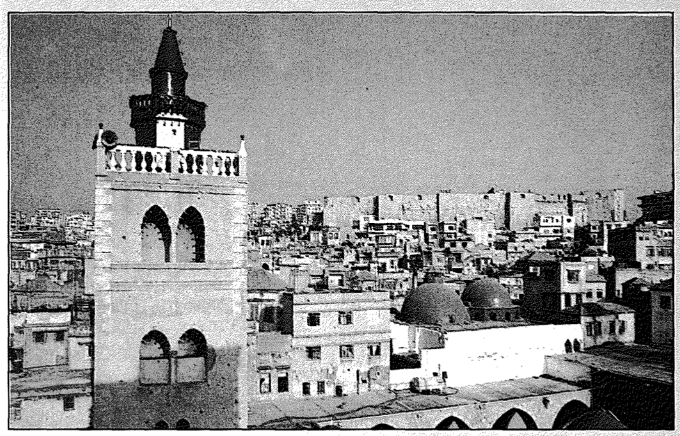
إضاءة

- دكتوراة في التاريخ والحضارة - جامعة الأزهر - القاهرة.
- أستاذ بكلية الآداب والعلوم الانسانية.
- ممثل لبنان في الهيئة العربية العليا لاعادة كتابة تاريخ الأمة في اتحاد المؤرخين العرب.
- عضو الهيئة العلمية المشرفة على معهد التاريخ العربي والتراث العلمي للدراسات العليا التابع للامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب.
- حائز على وسام المؤرخ العربي.
- نال جائزة مؤسسة عبد الهادي الدبس الخيرية على نتاجه في التاريخ الاسلامي.

من مؤلفاته:

موسوعة علماء المسلمين في تاريخ لبنان الاسلامي في ١٦ مجلدا - تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والأعلام للحافظ الذهبي في ٥٢ مجلداً.





ـ منظر عام لمدينة طرابلس القديمة وفي مقدمة الصورة قسم من الجامع المنصوري الكبير ومئذنته والمدرسة القرطاوية (باللون الأبيض) مع قبتيها، وفي آخر الصورة قلعة طرابلس.

العلائي عند باب الرمل قرب جامع أرغون شاه، وأزيلت المدرسة الجوهرية وأقيم مكانها بهو الجامع المنصوري الكبير في محلة النوري ومدرسة (زاوية) القاضي القرمي بالدباغة قرب خان العسكر، وتضررت المدرسة الظاهرية من الطوفان وتعطلت منذ سنة ١٩٥٥ وحتى الآن، وهي متهدمة بحاجة إلى إعادة بناء وتأهيل. ومدرسة الشيخ محمد الدهان في وسط سوق الصاغة أمام المدرسة الطواشية مباشرة، وهي معطلة أيضاً وبحاجة إلى تأهيل. ومن المدارس القائمة ولكنها معطلة أيضاً وبحاجة إلى بعض التأهيل: المدرسة الخاتونية، والمدرسة العجمية، ومدرسة الشهداء، ومدرسة المشهد، والمدرسة الشمسية، ومدرسة النمل.

أما المدارس العاملة فهي:

مدرسة المسجد البرطاسي، مدرسة الأمير قرطاي (القرطاوية)، المدرسة الحجيجية، المدرسة القادرية، المدرسة الطواشية، المدرسة النورية، المدرسة الناصرية، مدرسة الخيرية حُسْن، المدرسة السقرقية، المدرسة الحمصية، المدرسة الماردانية، المدرسة الأرزنية (الدُبَّها).

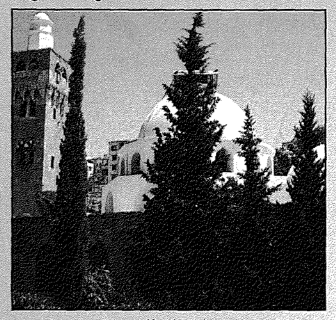
وبالعودة الى رواية «النابلسي» في سنة ١١١٢هـ. أنه كان بطرابلس ٣٦٠ مدرسة، نستنتج أن المدارس المملوكية كان عددها ١٥٠ مدرسة على الأقل بنيت في عهد حكم المماليك للمدينة الذي امتد ٢٢٥ عاماً ونيفاً، (٦٨٨ ـ ٩٢٢هـ/ ١٢٨٩ ـ ١٥١٦م)، والباقي ٢١٠ مدارس بُنيت منذ بداية الحكم العثماني حتى السنة التي تمت فيها الرحلة (٩٢٢ ـ ١١١٢هـ/ ١٥١٦ ـ ١٧٠٠م) أي خلال ٢٨٤ عاماً. وهذا رقم هائل بالنسبة لمدينة لم تكن مساحتها تزيد على ٧٠٠٠ متر مربع، في القرن ١٢هـ/١٨م. وهو رقم غير مبالغ فيه، فقبل زمن

قصير كانت مدرسة الأمير أيدمر، وزاوية القدّوسي، والمدرسة الخاتونية، والسَّقرقية، والسنكري، والخيرية حُسْن، والناصرية، والجوهرية، والمشهد، والشمسية، والنورية، والجاويش، والبيروتية، والدّهان، والطواشية، والنمل، والكريمية، والقاووقجية، والقرطاوية، والجامع المنصوري الكبير، وجامع أرغون شاه، تتجاور كلها في مكان لا يزيد طوله عن ١٥٠ متراً، بحيث يفصل بين المدرسة والمدرسة مدرسة أخرى! وليست هذه الظاهرة إلا دلالة على أن المدينة حاضرة إسلامية مهمة على ساحل الشام، ومجمع ديني وعلمي متميز، ترقى بجوامعها ومساجدها ومدارسها وزواياها وتكاياها إلى أن تكون مدينة جامعية نموذجية.

ويضاف إلى الرقم السابق (٣٦٠ مدرسة) ١٣ جامعاً، و١٠ حمامات، و٤٥ خاناً، وبيمارستان، وخانقاه، و٩ طواحين، و٧ أبراج حربية، وقلعة ضخمة، وقصور عدة، و٢٠ فرناً، و١٠٠ سبيل وبركة ماء، و١٥ بوابة، وغير ذلك من المعالم الأثرية والتاريخية، وبعضها يعود إلى العصور الرومانية، والبيزنطية، والفاطمية، والصليبية، والأغلبية الساحقة للعصرين المملوكي ثم العثماني.

وقد قمت قبل خمس سنوات بعملية مسح شامل للآثار التاريخية ضمن مدينة طرابلس المملوكية (دون مدينة الميناء وهي طرابلس القديمة)، وأحصيت ١٦٥ معلماً، اعتمدتها بلدية طرابلس، وصدر عن وزير الثقافة والتعليم العالي مراسيم اعتبرت تلك المنشآت معالم أثرية وتراثية يجب الحفاظ عليها. مع الإشارة إلى أن مديرية الآثار في لبنان لم تكن تضع على خارطة طرابلس الأثرية حتى سنة ١٩٧١م. سوى ٣٠ معلماً فقط.

والحديث عن المعالم المختلفة بطرابلس يستغرق المئات من الصفحات، تاريخاً ووصفاً، وهندسة،



- جامع البرطاسي.

وخصائص مميزة. ولذا يقتصر بحثنا على خصائص العمارة المملوكية لأهم المساجد والمدارس فيها.

يمكن القول إن الخصائص العمرانية في طرابلس المملوكية مرت بمرحلتين متميزتين عن بعضهما. ولوضع الأمثلة على ذلك يجب الأخذ بتطور بناء المساجد والمدارس، فهي أفضل مثال لدراسة تطور عمارة المماليك في المدينة ففي هندسة بواباتها ومآذنها وقبابها ومحاريبها وقاعاتها وأروقتها وفنائها يمكن قياس النواحي الجمالية والفنية في أبنيتها بشكل عام.

وتتميز المرحلة العمرانية الأولى باعتماد الحصانة في البناء مع البساطة المتناهية في العقود والأقواس والدعامات والبوابات وأحواض الوضوء التي تخلو جميعها من أية زخرفة أو لمسات فنية تسترعي الاهتمام أو تثير الناظر ليتأملها. وهذه المرحلة تنحصر زمنياً بين سنة ٦٨٩ وسنة ٧١٥هجرية/ ١٢٩٠ - ١٣١٥م. وتبدو بصماتها على مجموعة عمرانية تم بناؤها خلال تلك الفترة المتقدمة، مثل الجامع المنصوري الكبير، وجامع التوبة، وجامع السيد عبد الواحد المكناسي، والمدرسة الشمسية، والماردانية، والزريقية، والخيرية حسن وغيرها، فقد جاءت عمارتها

خالية من الزخارف والتزيينات الهندسية، ولم يدخل في بناء جدرانها أو أرضيتها عنصر الرخام، بل اقتصر البناء على استخدام الحجارة الرملية، كما في القلعة والأبراج الحربية، وليس هناك من عناصر جمالية يمكن التوقف عندها إلا في بعض اللمسات المتأثرة بأنماط وخصائص عمرانية سبقت فنّ عمارة المماليك، مثل البوابة الرئيسية للجامع المنصوري الكبير ذات الطراز القوطي، التي تحمل في الداخل قوساً من الزخارف عبارة عن نجوم نافرة، أو زهور متتابعة نجد مثيلا لها في المستديرة التي فوق محراب الجامع، والقوس الوسائدي الذي فوق باب المدرسة الشمسية عند مدخل الباب الرئيسي للجامع المنصوري، والذي يرجعه بعضهم إلى عهد الإفرنج والعمارة اللاتينية.

ومن أساتذة المدرسة المعمارية في هذه المرحلة، عرفنا اثنين سجلا اسميهما على أعمالهما هما: «سالم الصهيوني بن ناصر الدين العجمي» وهو مهندس الجامع المنصوري وأحمد بن حسن البعلبكي الذي بنى رواقات الجامع، وهما من أصحاب المدرسة الشامية في العمارة الضخمة القائمة على البساطة في آن معاً.
ولا ريب أن الفترة التي أعقبت فتح طرابلس مباشرة كانت تتطلب الاهتمام بإنشاء البناء المطلوب طالما أنه يؤدي الغاية المرجوة من عمارته. إذ كانت ظروف المنطقة وساحل الشام وأجواء الحرب لا تزال تنعكس على نفسية السكان ومعاشهم، وتفرض حالة من الاقتصاد والتقنين في إهدار المال والجهد والوقت في مواضع لا ضرورة لها.

أما المرحلة الثانية للعمارة المملوكية في طرابلس، فقد وضحت معالمها في الربع الثاني من القرن الثامن الهجري. الرابع عشر الميلادي، وتجلت بتنوع العناصر الجمالية، وغنى الزخرفة والأشكال الهندسية، والكتابات المتنوعة الرشيقة، وتناغم الألوان في قطع الرخام الناعم الأملس، وتناسق الحجارة المصقولة وتناوب الأبيض والأسود منها، وتعاشق السنجات، وتتابع التجويفات والمقرنصات، وتساقط المدليات، والمبالغة في التأنق والفخامة والبذخ والترف سواء في تزيين البوابات أو المحاريب، أو جدران المصلّى، أو القباب، أو أحواض الوضوء، وحتى أرضية حرم المسجد وفنائه.

وإلى هذه المرحلة العمرانية ينتمي بناء جامع طينال، وجامع البرطاسي، وجامع العطار، ومدرسة الأمير قرطاي، والمدرسة النورية، والشيخ الهندي، والناصرية، والطواشية، والنمل، والقادرية، والخانقاه، وكلها حوت عناصر هندسية وفنية ذات جماليات رائعة تحاكي الجمالية الثروة الفنية التي نراها في مساجد القاهرة ودمشق وحلب، وهذا الترف في العمارة يعكس الحياة الاقتصادية والاجتماعية والحضارية التي أخذت المدينة تعيشها، والراحة النفسية والشعور بالأمان والاطمئنان الذي ساد ربوعها، بعد أن اكتملت خطط المدينة وركنت النفوس إلى تحصيناتها ووسائلها الدفاعية، وإلى تراجع خطر الإفرنج واستقرار الحياة السياسية للمماليك في بلاد الشام عامة، وفي طرابلس عاصمة نيابة السلطنة على وجه الخصوص.

ومن أساتذة المدرسة المعمارية في المرحلة الثانية عرفنا عدة أسماء منها: «أبو بكر بن البصيص البعلبكي» باني جامع العطار، و«محمد بن ابراهيم المهندس» صاحب الباب الشرقي و«المنبر الرخامي في الجامع المذكور، و«محمد بن عبد الحميد» مهندس قصر الأمير الطنطاش.

وفي الصناعات الخشبية وخاصة في عمل المنابر المزخرفة عرفنا اسم المعلم (محمد الصفدي) الذي صنع منبر جامع طينال.

وهكذا نجد أسماء المهندسين والصنّاع تنتمي إلى المدرسة الشامية في العمارة والصنعة. ومع ذلك فقد

ظهـرت تأثيـرات المهندسين والمعـمـاريين الأندلسـيين والمغاربة واضـحة جداً في كثير من عمارة طرابلس، مثل مـئذنة الجامع المنصوري الكبير شبه المربعة الأضلاع، ومـئذنة مسجد البرطاسي، وفي القاعة العلوية من قصر الأمير عز الدين أيبك الموصلي، وهي تشبه بالعقد الذي يتوسطها أقواس قصر الحمراء في غرناطة، وفي النافذة الصغيرة في أعلى الواجهة الشرقية للمدرسة الطواشية، حيث يتدلى من وسطها حبل مجدول أندلسي الطراز، وفي العمود الرخامي الذي نقشت عليه أشكال حبال مجدولة داخل مسجد الحجيجية. وليس جامع السيد عبد الواحد المكناسي إلا واحداً من المعالم المغربية البناء بمئذنته الصغيرة ومحرابه البسيط، وكتابته ذات الخط المغربي المميز.

وإذا كانت القاهرة هي عاصمة دولة المماليك وفيها قصور سلاطينهم، فإن عمارتهم تتنوع وتختلط بالعمارة الطولونية والإخشيدية والفاطمية والأيوبية، إلا أن طرابلس تتميز بخصوصيتها على أنها مدينة مملوكية خالصة، وتشكل عمارتها أكبر تجمع عمراني وسكني مترابط على ساحل البحر المتوسط، وهي تنافس القاهرة في هذا المجال. وأبنية طرابلس أكثر وثاقة وحصانة من مباني القاهرة، لخصائص حجارتها الرملية المتماسكة الصلدة، إذ لم تُستخدم العوارض الخشبية الضخمة إلا في سقف الدور السكنية فقط، أو في السُّدة (العلية) الخشبية التي يقف عليها المؤذن داخل الجوامع، وفي المنابر الخشبية. فالمساجد الكبيرة والمدارس والزوايا والخانقاه، والحمامات، والخانات، والقلعة، والأبراج الحربية، والقناطر والجسور وخزانات المياه وغيرها.. كلها بنيت بالحجارة الرملية أو الصخرية الثقيلة، وطليت من الداخل والخارج، أو غطيت جدران بعضها بالرخام الملون. فيما بقيت حجارة القلعة والأبراج ومآذن المساجد دون تغطية بالطين أو الكلس، فهي ظاهرة الحجارة ولا يكاد يظهر أي أثر للمادة الطينية التي توضع بين الحجر والآخر.

وإن أهم الخصائص التي تتميز بها العمارة الدينية في طرابلس عن عمارة القاهرة ومصر المملوكية هو وجود الإيوان الوسطي داخل المساجد الجامعة، وداخل بعض المدارس، حيث يقوم حوض الوضوء، أو بركة الماء في وسط الإيوان الوسطي المنخفض عن بقية جوانب المسجد بنحو المتر لتصريف المياه، وقد اقتضت الطبيعة والبيئة المناخية إضافة الحوض داخل الجامع والمدرسة ليتمكن المصلي من الوضوء داخل المصلَّى، وهو يحميه من المطر في الشتاء ومن حرّ الشمس في الصيف. كما يؤدي الحوض وظيفة جمالية تضاف الى العناصر الأخرى في الجامع، ويلطف بمائه من الحرارة ورطوبة الصيف. ونجد أحواض الوضوء في الجامع المنصوري الكبير، والتوبة، والبرطاسي، ومدرسة قرطاي، والسيد عبد الواحد، وغيره، مما يؤكد وفرة المياه في المدينة.

لم يجد المهندسون المسلمون حرجاً في استخدام الأحجار والأعمدة التي كانت سابقاً في المعابد الوثنية أو كنائس النصارى، فألفوا بينها في انسجام بديع كما هو قائم، في الحرم الشمالي (الأول) لجامع طينال حيث نرى ثلاثة أنماط معمارية في جزء واحد، هي أربعة أعمدة غرانيتية ضخمة مجلوبة من مصر أيام الفراعنة، يعلوها أربعة تيجان كورنثية بتوريقاتها وزخارفها التي اختص بها الفن الروماني - البيزنطي، ويتركز عليها دعامات من الحجارة الرملية تسهم مع دعامات أخرى في حمل القبة التي تعبر عن فن عمارة المماليك، وقد تجلت عبقرية المهندس المسلم في تدجين تلك العناصر المختلفة، ونجح في تأليف عنصر جمالي متكامل ترتاح إليه النفس. على أن البوابة الداخلية

للجامع، التي تفصل بين الحرمين الشمالي والجنوبي (الأول والثاني)، والتي جاءت إسلامية البناء والهندسة والفن، فهي تعتبر بحق أجمل بوابات جوامع طرابلس ولبنان على الإطلاق، وتنافس بفخامتها وروعة تناسقها وزخارفها وألوانها وخطوطها وتجويفها ومقرنصاتها وضخامتها أروع بوابات مساجد المماليك في القاهرة ودمشق.

وتكاد بوابة مدرسة الأمير قرطاي تماثلها بفخامتها أيضاً، ولكن من يتأمل هذه البوابة وتلك يشعر بنكهة متغيرة نوعاً ما - إن جاز التعبير. والأرجح أن مهندسي بوابات جامع طينال، وجامع البرطاسي، وجامع العطار، ومدرسة قرطاي، والمدرسة النورية، والمدرسة الناصرية، ومدرسة الشيخ الهندي، والمدرسة الطواشية، والمدرسة القادرية، وغيرها، كانوا أصحاب مدرسة معمارية واحدة، أو أنهم كانوا جميعاً في فترة واحدة نقلوا عن بعضهم فن التجويف المقرنصات والمدليات والتزيين بالفسيفساء، وتلاعبوا بقطع الرخام والمرمر الملون بالأبيض والأسود والرمادي والأرجواني فطوّعوها وشكلوا منها تربيعات ودوائر هندسية رائعة. ومن يتأمل في بوابات هذه المعالم التي ذكرتها يحس لأول وهلة بأنها ذات روح واحدة في الشكل الهندسي العام، رغم الاختلاف في دقائق الزخارف وتفصيلاتها.

كما يظهر الإحساس الموحد عند تأمل محراب المدرسة النورية، ومحراب مدرسة قرطاي، ومحراب الشيخ الهندي، ومحراب مسجد البرطاسي حيث الرخام الملون يشكل العنصر الأساس في تزيينه، ثم تليه قطع الفسيفساء والمنمنمات الدقيقة والملونة فوق تجويف المحاريب. غير أن محراب البرطاسي يتميز عن كل محاريب طرابلس ولبنان على الإطلاق بالزخرفة



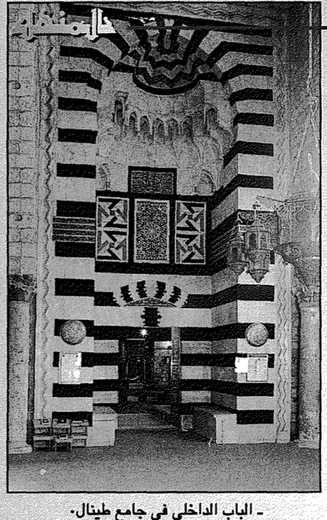
- تزيينات باب المدرسة النورية لتحفيظ القرآن الكريم.

النباتية الرائعة من الفسيفساء المذهبة التي تغطي كامل الفجوة والحنية العليا من المحراب، وهي تشكل كأساً تتفرع منها أغصان وفروع متناسقة متساوية الأبعاد يميناً ويساراً تضفي جواً من الراحة في نفس المتأمل لها. وهذه التزيينات مماثلة للتزيينات في واجهة الجامع الأموي البيزنطية الطراز، وهي طبق الأصل عن الزخرفة النباتية في جامع الأمير «تنكز» بدمشق، والذي بدأ ببنائه في سنة ٧١٧هـ/ ١٣١٧م، مما يرجح أن *الفنان الذي عمل في تزيين «البرطاسي»* بطرابلس، وجامع «تنكز» بدمشق هو واحد.

ويكاد مسجد البرطاسي أن يكون بناء مكتملا حاوياً لكل العناصر الجمالية والفنية التي تعبر بقوة ووضوح عن عبقرية البناء والمهندس والفنان المسلم. فمئذنة هذا المسجد تقوم مباشرة على عقد البوابة الخارجية، وهذا النظام في البناء يندر حدوثه إذ يحتاج برج المئذنة المرتفع والضخم إلى قاعدة ثابتة عريضة وقوية لتحمله، فأتى بناء المئذنة على قبة أو قوس البوابة المفرغ مباشرة، وكأنه تحد من البناء والمهندس المسلم لقوانين الهندسة والعمارة وتوازن الأثقال ونجح في ذلك.

وتأثر المهندس بالطراز الأندلسي، ويظهر هذا التأثر على الواجهة الغربية للمئذنة، حتى يخيل للناظر الى هذه الواجهة لأول وهلة أنه يرى إحدى مآذن الأندلس أو المغرب العربي. ويشتد الإحساس بأن المهندس أندلسي الأصل، هاجر إلى طرابلس وأسهم في بناء معالمها الإسلامية وسجل أصله الأندلسي في زخرفة العقدين التوأمين المنكسرين عند رأسهما، وتتناوب فيهما الحجارة البيضاء والسوداء، ويرتكزان على ثلاثة مناكب من الحجارة البيضاء، وتنفتح تحتهما نافذتان مستطيلتان، يفصل بينهما عمود داكن اللون، والنافذتان مع العقدين ضمن إطار مجوّف مستطيل غائر في واجهة المئذنة، بحيث يبدو سطح العقدين بمستوى سطح واجهة المئذنة. وفوق هاتين النافذتين نافذتان أخريان ترتكز قنطرتهما المدببة على عمود مركزي، وفوق هاتين النافذتين الأخيرتين مباشرة مقرنصات متدرجة تشكل أسافين لقاعدة برج المئذنة المشرف إلى الخارج، بحجم يزيد عن حجم ساق المئذنة، وهي الشرفة التي يقف عليها المؤذن.

أما قبة المسجد فهي غاية في الروعة والبهاء والفخامة والارتفاع والاتساع، تحتها حوض من الرخام الملوّن، وأرض المسجد كلها بالرخام الملون والفسيفساء تشكل تزيينات هندسية بديعة حول الحوض، كما يغطي الرخام كامل الواجهة لبيت الصلاة بأشكال هندسية متناسقة، نجد مثيلا لها في رواق القبلة بجامع «ألطنبغا المارداني» بالقاهرة، وكذلك الجدار القبلي في مدرسة الأمير قرطاي بطرابلس. أما واجهة المدرسة الشمالية عند المدخل فقد أضيف إليها أربع حشوات على شكل مربعات، يحتوي الأول على نقش كتابي بالخط الكوفي المربع يتضمن اسم «محمد»

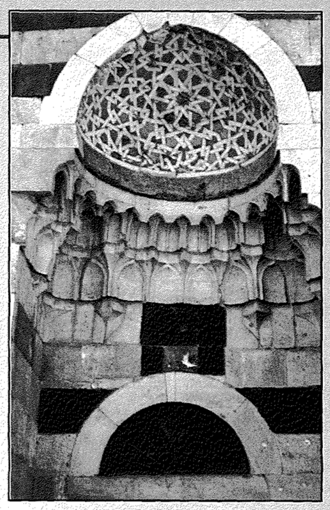


ـ الباب الداخلي في جامع طينال.

وقد كتب أربع مرات حول محور مركزي بحيث يقرأ الاسم من أعلى إلى أسفل، ومن أسفل إلى أعلى، ومن اليمين الى اليسار، وبالعكس. أما الحشوات الثلاث الأخرى، فتتضمن اسم «علي» كتب أربع مرات في المربع الواحد ومن الجهات الأربع كما في «محمد» وهذه الحشوات أخذت من بقايا العمارة الفاطمية التي كات تقوم على جانبي النهر، وتشبه الكتابة التي تزين خان المنزل الفاطمي الذي أزيل من مكانه عقب فيضان نهر طرابلس ١٩٥٥ ووضعت حجارته داخل قلعة طرابلس ولا تزال.

كما زينت واجهة المدرسة، وخاصة فوق عتبة الباب بسنجتين، إحداهما بيضاء، والأخرى سوداء.

وهكذا نرى أن مدرسة وجامع البرطاسي احتوت على التأثيرات الأندلسية ـ المغربية، والتأثيرات

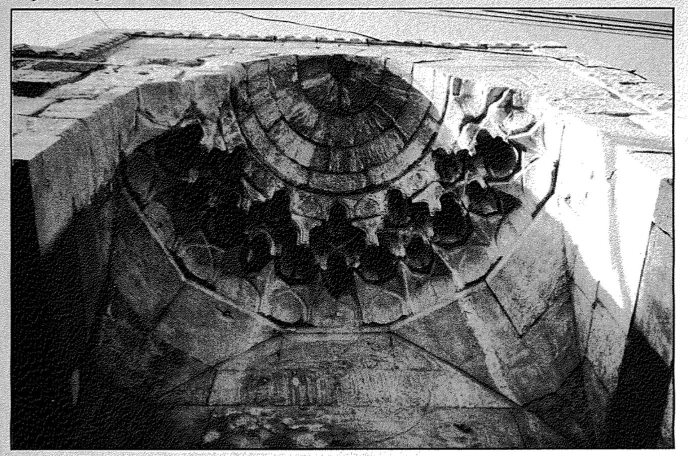


ـ مدرسة الشيخ الهندي (المشهد).

البيزنطية، والفاطمية، مع العمارة المملوكية، لتشكل نسيجاً معمارياً وفنياً غاية في الروعة والجمال.

وجامع طينال يماثل مسجد البرطاسي في روعة البناء والهندسة، إلا أنه أفخم لضخامته فهو يتألف من حرمين، وله خمس قباب متفاوتة الأحجام فيما للبرطاسي ثلاث قباب. ويغطي الرخام الملوّن كامل أرضية الحرم الشمالي (الأول) وكامل مدخله وباحته الخارجية حيث يقوم فيها حوض للوضوء. وتزين الرخام أشكال هندسية ونباتية جميلة، وفي وسط الحرم مستديرة رخامية مفصصة تتوسطها فتحة غائرة في الأرض لتصريف المياه عند تنظيف المسجد وغسله. ويعتبر برج مئذنة جامع طينال فريداً من نوعه في العمارة الإسلامية حيث يحتوي على سلمين لولبيين يقومان فوق بعضهما ويؤديان إلى داخل الجامع وخارجه عبر بوابتين إذا دخلهما شخصان في وقت واحد فإنهما يصعدان إلى أعلى المئذنة وينزلان دون أن يلتقيا ببعضهما، وهذه الخاصية يتمتع بها جامع طينال دون غيره لموقعه البعيد عن العمران بظاهر طرابلس. كما أقيم ممر سري بين الجدارين اللذين يفصلان الحرم الداخلي عن الحرم الخارجي يسمح بالاختباء داخله في حال التعرُّض لهجوم الغزاة. وتبدو المئذنة بشكلها الخارجي العام وكأنها تشبه برج القلعة، أو قطعة الرخ في رقعة الشطرنج، وهي تتميز بتصميمها الفريد عن مآذن طرابلس.

وسيطول البحث إذا شئت أن أتحدث عن الجماليات الأخرى التي نراها في الزخارف المكثفة المنقوشة داخل مدرسة الشيخ الهندي، وفي الشعاعات والمحارات الصدفية التي نراها في بوابة المدرسة الطواشية، وهي طبق الأصل أيضاً عن المحارات والشعاعات في بوابة الأمير «تنكز» في القدس، وفي الزخارف الأندلسية في قصر الأمير عز الدين، وفي عقد الوسائد الذي يزين نافذة لأحد القصور المملوكية بالقرب من المدرسة الظاهرية، وعقد الوسائد فوق باب المدرسة الشمسية، أو فوق محراب المدرسة الطواشية، أو فوق نوافذ مئذنة جامع الأمير «طينال» وفي التربيعة الرائعة الجمال على الباب الشرقي لجامع العطار، وباب مدرسة الأمير قرطاي، وفي الزخرفة الدائرية فوق باب المدرسة النورية، والقادرية وداخل مدرسة الشيخ الهندي، وعلى بابها، وفي الكتابات بالخط النسخي المملوكي داخل حجرة ضريح المدرسة السقرقية، والتزيينات المرافقة لها، مع الكتابات على واجهتها الخارجية، وكذلك الكتابات الكثيرة المنقوشة على معظم المساجد والمدارس المملوكية مع ظاهرة فنية أخرى



- زخارف مدرسة الناصر حسن بن محمد بن قلاوون (الناصرية) ويظهر في الوسط رنك السلطان.

تمثلت في الرنوك (الشعارات) التي نقشها السلاطين ونوابهم وأمراء المماليك على صروحهم التي شيدوها، ومنها رنك الأمير أخور (أمير الإصطبل) وهو السيف وحدوة الفرس المنقوش داخل قلعة طرابلس، ورَنْك الساقي (الكأس) المنقوش داخل برج الأمير برسباي المعروف غلطاً ببرج السباع، ونرى شعار الكأس ايضاً على مئذنة جامع طينال، وعلى المدرسة الخاتونية، وعلى بوابة زقاق الأمير قرطاي، وغيره. كما نرى شعارات: الجوكندار، والعلم دار، والسلحدار، والبقجة، والدواة دار، وغيرها في أماكن متفرقة.

بقي أن أشير إلى خصوصية أخيرة في بناء المدينة الإسلامية تُنمّ عن لمسة إنسانية وروح متعاطفة بين المهندس والبناء وصاحب البناء والتعاطي هندسياً ومعمارياً مع عامة الناس، وذلك في كسر حدة الزاوية لكل بناء يقع في بداية السوق أو في نهايته أو عند كل منعطف بحيث تشطف الزاوية الحادة للبناء كما يشطف طرف لوح الزجاج للتخفيف من حدته، فلا يجرح من يلمسه أو يرتطم به. ولا يخفى ما في هذه الخصوصية من فن جمالي، إذ لم يكتف المهندس بكسر حدة الزاوية فحسب، بل أضفى عليها مسحة جمالية حيث جعل نهاية الزاوية المشطوفة شبيهة بحنية المحراب، وزينها ببعض التجويفات المتناسقة لترتاح العين لرؤياها، وهذه الظاهرة الفنية والإنسانية نفتقدها الآن في الأبنية الحديثة.

وأخيراً، فإن التعريف بتاريخ العمارة الإسلامية - المملوكية بطرابلس الشام، وخصائصها الفنية، وأنماطها الهندسية، يحتاج إلى اكثر من كتاب، ولا تستوفيه مقالة متواضعة كهذه.

قصور الحمراء

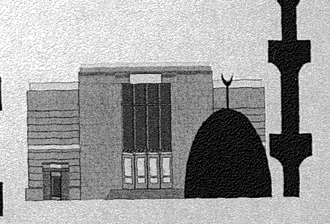
يعرف بنو نصر بناة الحمراء «ببني الأحمر» وهم آخر ملوك دولة الاسلام في الأندلس في مراحلها الاخيرة، وينتسبون الى محمد بن يوسف بن نصر (٦٣٥-٦٧١هـ)(١٢٣٨-١٢٧٢م)[١] الذي يرجع اليه الفضل الأعظم في وضع أساس هذه السلطنة ولمّ شعث ما تبقى من مدن الاسلام بعد الموجة الضارية لحركة الاسترداد التي واكبت انهيار دولة الموحدين في الاندلس، وأطاحت بكيان دولة الاسلام بعد ضم معظم قواعده الرئيسية الى الممالك المسيحية في اسبانيا، وقد اتخذ محمد بن يوسف من مدينة غرناطة قاعدة لدولته ومقراً لسلطنته، ولم تلبث هذه السلطنة رغم صغر مساحتها أن تألقت في أيامه بفضل ما كان يتميز به من عقل وحكمة وحسن تدبير وما تلقاه من تأييد أهل الأندلس فعقدوا عليه الأمل في انقاذ ما بقي من دولة الاسلام من الخطر الذي كان يحيط بها[٢].

ولقد حتمت الظروف السيئة التي مرت بها الأندلس آنذاك تأليف جبهة قوية أمام هذا الخطر المسيحي الجاثم، فعمد محمد بن نصر على توسيع

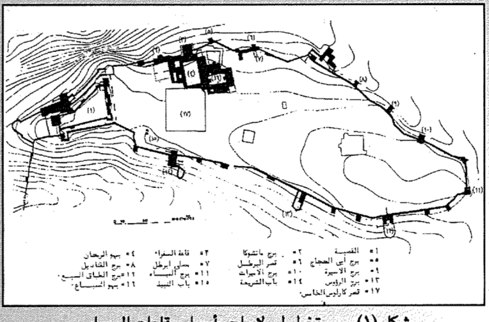
بقلم :

د. محمد عبد المنعم الجمل

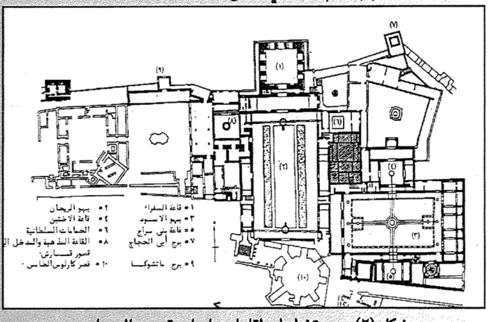
مدرس الآثار الإسلامية - كلية الآداب - الاسكندرية



رقعة مملكته فاستولى على العديد من المدن والقرى المحيطة بسلطنته، ووفق ابن نصر في ذلك توفيقا كبيرا، فقامت مملكة غرناطة بين مظاهر الاضطراب التي كانت تجتاح ما بقى من المدن الاسلامية في الاندلس، وقدر لها أن تصمد نحو قرنين ونصف قرن من الزمان أمام العواصف العاتية والأنواء على الرغم من الصراع غير المتكافىء بين النصرانية والاسلام، وما عانته غرناطة من حروب داخلية[٣].



شكل (١) رسم تخطيطي لابراج وأسوار وقاعات الحمراء.

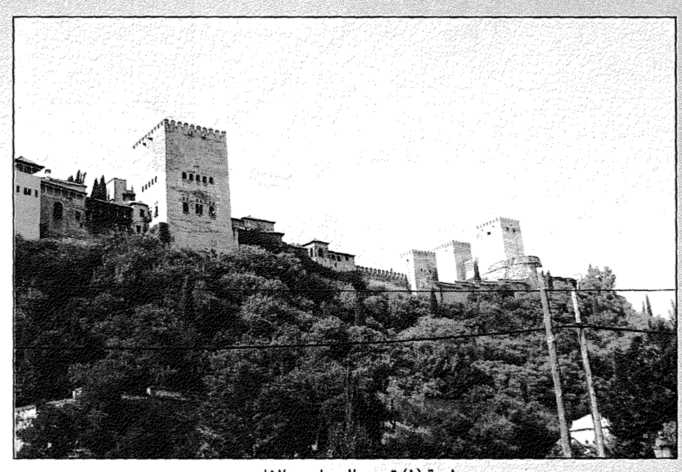


شكل (٢) رسم تخطيطي لقاعات وابهاء وقصور الحمراء.

وكان لزاما على محمد بن نصر أن يختار مقر سلطنته في موقع استراتيجى منيع، ووقع اختياره على معقل حصين يقع فوق القمة المعروفة بالسبيكة وأخذ في تعميره وترميم أسواره واقامة قصبة حصينة تحيط بها المتنزهات وكانت هذه القصبة النواة الأولى للقصور المعروفة بالحمراء التي ترجع الى سلاطين بنى نصر[٤]. ونلاحظ عدم وجود صلة بين تسمية القصر بالحمراء وبنى الأحمر، فتسمية القصر تسمية قديمة ترجع الى الفترة السابقة على عصر بنى نصر، أما تسمية بني الأحمر بهذا الاسم فترجع الى جدهم عقيل بن نصر الذي لقب بالأحمر لشقرة فيه، وقد استمر هذا اللون يظهر في العديد من أفراد الأسرة[٥].



والمجموعة الحالية لقصور الحمراء يرجع الفضل في انشائها الى بعض سلاطين بنى نصر أضاف كل



لوحة (١) قصور الحمراء من الخارج.

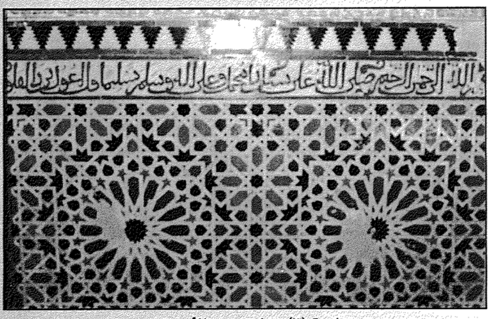
منهم قصرا أو ابتنى مجلسا داخل برج من الأبراج تتقدمه بركة صناعية أو زود أحد القصور بصحن تتوسطه نافورة، ويصف ابن الخطيب مدينة السلاطين التي تشتمل على قصور الحمراء المطلة على مدينة غرناطة بقوله: «مدينة الحمراء دار الملك مطلة على معمورها في سمت القبلة، تشرف عليه منها الشرفات البيض، والأبراج السامقة والمعاقل المنيعة والقصور الرفيعة، تغشى العيون وتبهر العقول وتنحدر من فضول مياهها وأفياض حوائرها وبركها في سفحة جداول تسمع على البعد أهزاجها، ويحف بسور المدينة البساتين العريضة المستخلفة، والأدواح الملتفة فيصير من ذلك خلف سياج تلوح نجوم الشرفات البيض أثناء خضرائه فلا تعرى جهة من جهاته عن الجنات والكروم والبساتين»[٦].

وينطبق وصف ابن الخطيب الدقيق على الأسوار والأبراج والبساتين المحيطة بالحمراء على الرغم من التعديلات العديدة التي تعرضت لها الحمراء بعد سقوطها في أيدي الملكين الكاثوليكيين، وبالرغم من ذلك فمازالت القصور بتخطيطها الأصلى على أيام سلاطين بنى نصر. **(لوحة رقم ١)**.

والحمراء مدينة ملكية تتخذ شكل الحصن الذي يقام في موقع مرتفع منيع يتميز بحصانته، وهي في ذلك تشبه الى حد كبير قلعة الجبل في القاهرة، وقلعة حلب في بلاد الشام، وهذا الطراز من المدن المحصنة أصبح الطابع المميز للعديد من المدن الاسلامية ابتداء من القرن الرابع الهجري[٧] **(شكل رقم ١)**.

وتضم الحمراء عددا من الوحدات المعمارية بعضها قاعات ومجالس وبعضها أبهاء وبساتين تتخللها الجداول والبرك الصناعية خطط لها فوق تل السبيكة الذي عرف بهذا الاسم لتحوله الى اللون

لوحة (٢) برج قمارس وأمامه بهو الريحان.



لوحة (٣) زخارف برج الأسيرة.

الذهبي عندما تسقط عليه أشعة الشمس[٨].

وقد اتسعت الحمراء بما أضيف اليها من قصور وأبراج وقاعات ومرافق مختلفة ومتعددة الأغراض، حتى أصبحت بحق مدينة ملكية تضم القصور والحمامات والمساجد السلطانية والمتنزهات وصهاريج المياه، وتطوقها الأسوار والأبراج المحصنة[٩].

وأقدم قصور بنى نصر التى أقيمت بالحمراء كانت من انشاء السلطان الغالب بالله محمد بن يوسف بن نصر، الذي وضع النواة الأولى للأسوار والقصبة والقصور فوق القمة المعروفة «بالسبيكة» ثم تتابعت الزيادات في القصور والمجالس والقاعات على يدي عدد من سلاطين بنى نصر شارك كل منهم بالاضافة والزيادة في انشاء مجموعة قصور الحمراء[١٠].

ويمكننا أن نقسم مجموعة الأبنية المؤلفة لقصور الحمراء الى مجموعتين المجموعة الاولى وتنسب الى السلطان يوسف الأول[١١] (٧٣٣ - ٧٥٥هـ) - (١٣٣٣ - ١٣٥٤م) وتشمل باب الشريعة puerta de La gusticia والحمامات السلطانية Los Banos، وكذلك **برج الأسيرة** Torre De La Cutiva ومصلى البرطل El - Partal وبرج أبي الحجاج Torre De Abulhayyay وقاعة السفراء Salon De fmpgadores والمجموعة الثانية وتنسب الى السلطان محمد الخامس الغني بالله[١٢]، وتضم مجموعة بهو الأسود أو السباع Patio De Los Leones الذي يضم قاعتي الأختين Sala De Los Dos hermanas وبني سراج Sala De Los Abencerrajes المتقابلتين. بالاضافة الى قاعة الملوك Sala De Los Reyes وقاعة

المقـــــربصــــــات Sala De Los Mocarabes بالاضـافـة الى النافـورة التي تتـخـذ شكل قـصـعـة مـسـتـديرة يحـملهـا اثنا عـشـر أسـدا تمج المياه من أفواهها، ومن أبواب الحمراء باب النبيذ[١٣] Puerta Del Vino.

أما المجموعات الأخرى من القصور فترجع الى عدد من سلاطين بنى نصر، ساهم كل منهم بالاضافة والتجديد والتعديل في قصور الحمراء فيرجع قصر البرطل El Partal الى السلطان محمد الثالث[١٤] (٧٠١ ـ ٧٠٨هـ) (١٣٠٢ ـ ١٣٠٨م) وكـذلك مـسـجـد الحمراء، ويرجع الفضل في انشاء قصر جنة العريف Generalife الى السلطان (أبو الوليـــد) عــدة مسميات، فقاعة السفراء تسمى قاعة العرش، ويطلق عليها أيضا قاعة قمارش أو قصر الريحان[١٥]. **(لوحة ٢، شكل ٢)**.

وقد اختلف العلماء حول اسم قمارش، فنسبه بعضهم الى بعض الصناع من قرية قمارش الواقعة بالقرب من مالقة وشاركوا في بناء القاعة بينما يرى بعضهم الآخر أن تسمية القاعة ترجع الى جماعة من الحراس ينتسـبون الى هذه القرية فسمى البرج باسمهم، ويرى البعض الآخر أن كلمة قمارش تحريف لكلمة قمرية أي النوافذ التي يتسلل منها ضوء القمر والتى تتوفر بكثرة في هذه القاعة[١٦].

وقد استدل الاستاذ جرثيه جومث من نصوص قديمة معاصرة للوزير الغرناطى لسان الدين ابن الخطيب على المسـميـات القـديمة لبـعض الأبراج والقاعات، فقاعة الاختين كانت تسمى «المشور الجديد» تمييزا لها عن المشور القديم الذي يقع حاليا بالقرب من مدخل القصر، وبرج أبو الحجاج «أو برج مخدع الملكة» كان يسمى برج النصر[١٧].

الهوامش:

(١) محمد بن نصر: هو الغالب بالله أمير المسلمين الشيخ ابو عبد الله محمد بن يوسف بن نصر بن قيس الخزرجي، مؤسس الدولة النصرية ويصل نسب بنى نصر الى الصحابى سعد بن عبادة الانصاري، وكثيرا ما تغنى الشعراء بهذا النسب والعديد من الابيات الشعرية المنقوشة على جدران الحمراء تشير الى ذلك، انظر:

- ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج ٤، بيروت ١٩٧١، ص ١٧٠.

- ابن الخطيب: اعمال الاعلام، تحقيق ليفى بروفنسال، الرباط ١٩٣٤، ص ٣٣٠.

- ابن الخطيب: اللمحة البدرية في الدولة النصرية، ص ٣٣. ديوان ابن الخطيب، ص ٥٣٢.

(٢) مختار العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والاندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية ١٩٨٧، ص ٣٨٤.

- حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والاندلس، القاهرة ١٩٨٠، ص ٣٨٤.

- عبد العزيز سالم: في تاريخ وحضارة الاسلام في الاندلس، الاسكندرية ١٩٨٧، ص١٥.

(٣) حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والاندلس، ص ٣٨٤.

- يوسف شكري: غرناطة في ظل بنى الأحمر، بيروت ١٩٨٢، ص ٢٢، ٢٣.

(٤) ابن الخطيب: اللمحة البدرية ص ٢٣، ٢٤.

- Seco De Lucena : El Libro de la Alhambra (historia de los Sultanes de Granada) Madrid 1978, P. 22.

- Grabsr : The Alhambra, p. 35.

(٥) اتخذ ملوك بني نصر من اللون الأحمر شعارا لهم في قصورهم بالحمراء وأعلامهم وقبابهم وخيامهم بل وفي لون الورق الذي يكتبون عليه رسائلهم السلطانية، ووردت أمثلة لذلك في أشعار ابن الخطيب وابن زمرك.

- المقري : نفح الطيب، ج١ ، ص ٢٩٤.

- مختار العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٢٧٧.

- Lafunte Alcantra : Tnscripciones Arabes de Granada, P. 21.

(٦) ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص ٢٤ ـ ابن الخطيب: الاحاطة في أخبار غرناطة، ج ١، ص ٩٦، ٩٧. ولمزيد من التفاصيل عن غرناطة في عصر بني نصر، أنظر:

Mujtar Al-abbadi : El reino de Granada en la epoca de Muhamad V, Madrid 1973. -

- Rachel Arie: L'espagne Muslmane au Temps des Nasrides, Paris 1973

(٧) جرابار: العمارة، مقال في كتاب تراث الاسلام، ترجمة حسين مؤنس سلسلة عالم المعرفة، عدد ١١، الكويت، ١٩٧٨، ص ٤٢.

Grabar: The Alhambra P. 99, - 100

(٨) ابن الخطيب : اللمحة البدرية ، ص ٢٣ ، ٢٤.

Torres Balbas: La Alhambra P.3. -

(٩) عبد العزيز سالم: المساجد والقصور، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية ١٩٨٦، ص ١٤٢ ـ ٢٤٣.

(١٠) Torres Balbas : Ars hispanie P. 84

Torres Balbas : La Alhambra, P.4.

Grabar : The Alhambra, P. 36.

(١١) Marcais : L'Archetcture musl-mane d, occident, P.534.

Gallego Y Burin: Granada, P.75.

سعد زغلول عبد الحميد: العمارة والفنون في دولة الاسلام، منشأة المعارف، الاسكندرية ١٩٨٦، ص ٥٢٤.

(١٢) محمد الخامس: هو الغني بالله محمد بن يوسف الاول ولى الملك بعد ابيه ، وكان عفيف النفس مائلا الى الخير، محبا للعلم والعلماء كلف بأعمال العمران والبنيان وقد تولى الحكم مرتين، المرة الأولى (٧٥٥ ـ ٧٦٠) ـ (١٣٥٤ ـ ١٣٥٩) ثم وقعت فتنة ابعدته عن حكمه ما يقرب من سنة ثم تولى الحكم مرة أخرى (٧٦٢ ـ ٧٩٤هـ) ـ (١٣٦١ ـ ١٣٩٢)، انظر:

ـ ابن خلدون، ج ٧ ، ص ٣٣٢.

ـ ابن الخطيب : الاحاطة، ج ٢، ص ٢٦ ، ٢٧.

ـ ابن الخطيب : اللمحة البدرية ، ص ١٢٠.

ـ ابن الخطيب : اعمال الاعلام، ص ٣٥٢.

ـ انظر ايضا: دراسة د. مختار العبادي عن مملكة غرناطة في عصر محمد الخامس (باللغة الاسبانية):

Mugtar Al-abbadt: El reino de Granada en La epoca de Muhamad V.

(١٣) عبد العزيز سالم: العمارة الاسلامية في الاندلس وتطورها، مجلة عالم الفكر، المجلد الثامن، العدد الاول، الكويت ١٩٧٧، ص ١٠٠ ـ ١٠٥.

Torres Balbas: La Alhambra, P. 20.

Puertas: Plano guia de la Alhambra Madrid 1977, P. 19.

(١٤) السلطان محمد الثالث: هو ثالث ملوك بني نصر وابن السلطان محمد الثاني، يكنى أبا عبد الله ويلقب بالمخلوع، تسلم أيام أبيه مسئوليات عديدة فتمرس على شئون الحكم وادارة البلاد، واستأنف خطى أبيه في الجهاد فزحف على المعاقل القشتالية في جيان واحتل عدداً من الحصون، ولم يهنأ محمد الثالث بالحكم طويلا، وقيل إنه خلع بتدبير من أخيه نصر الذي تولى الحكم من بعده، انظر:

(١٥) Torres Balbas: Ars hispanioe, P.103.

-Puertas : La Fachada del placio de comares; T. Granada 1981.

-Pavon Maldonado : Estudios sobre la Alhambra, PP. 66 - 70.

(١٦) Torres Balbas : Ars hispaniqe, P. 85

-Puertas : plano quia, P. 14.

(١٧) Garcta Gomez: Foco de antigualuz sobre la Alhambra, Madrid 1988, P. 71.



١ ـ نظرة تاريخية:

يقع المنزل حاليا على تقاطع عطفة الازهري (حارة الدويداري سابقا)[١] حيث بها المدخل والواجهة الجنوبية، وعطفة العنبة (عطفة العيني سابقا)[٢] ولعل العنبة كانت تحريفاً للعيني نسبة الى مدرسة العيني[٣] المقابلة للمنزل من جهة الغرب، ويلتصق المنزل حاليا بأملاك جامع الازهر من جهة الشمال والشرق بعد ان كان في السابق متصلا بواجهاته الغربية والشمالية والشرقية باملاك خاصة.

وقد نسب المنزل الى آخر ملاكه السيدة/ زينب خاتون بنت عبد الله البيضاء معتوقه محمد بك الالفي، ولا يعرف تاريخ تملكها لهذا العقار[٤]، الا الوثيقة المرفق نصها مؤرخه في ٢٣ رمضان ١٢٥١هـ/ ١٢ يناير ١٨٣٦م.

ونظرا لأن الجزء الجنوبي من القاعة الكبرى بالطابق الاول من هذا المنزل تظهر بها ملامح عمارة مملوكية وخاصة في الوزره الرخامية، وفي نجارة الخزانتين في نهاية الايوان الجنوبي بالاضافة الى تشكيل الكرادي وهي ملامح شاعت في القرن التاسع الهجري ـ الخامس عشر الميلادي[٥] هذا بالاضافة لوجود رنك الساقي (كاس) على افريز السقف الخشبي بالغرفة غرب الايوان الجنوبي[٦] مما يدل على ان المالك كان يشغل وظيفة الساقي في العصر المملوكي.

ويشير السخاوي الى[٧] ان مثقال السودوني الظاهري جقمق (توفي بالكرك ٨٩٥هـ/ ١٤٩٠م) قد اشترى منزلا بجوار الازهر وقام بتجديده وعمل توسعات به. ثم تملك المنزل السلطان قايتباي بعد ان قام بنفي مثقال الى مكة في شوال عام ٨٨٩هـ/ اكتوبر ١٤٨٤م.

ولما كان مثقال السودوني قد شغل وظيفة راس نوبة السقاة[٨] كما أن بنت الناصر حسن بن محمد بن قلاوون زوجة الامير أروس المحمودي[٩] كان لها

إعداد

مركز احياء تراث العمارة الاسلامية

– القاهرة –

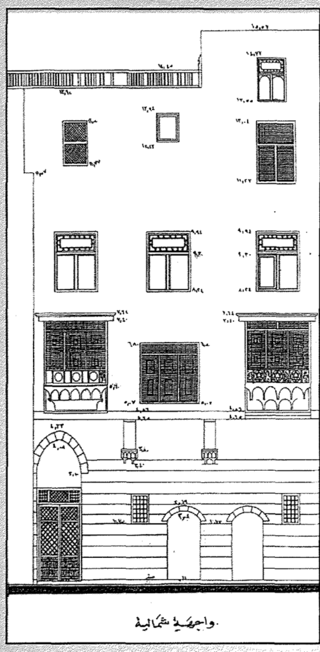


دار في حـارة كـتـامـه[١٠] بالقـرب من مـدرسـة ابن الغنام[١١] وقد افاد على مبارك[١٢] بان حارة كتامة هي نفسها حارة الدويداري التي يقع بها مدرسة ابن الغنام وكذلك بيت زينب خاتون.

وهنا نتساءل عما اذا كان منزل زينب خاتون هو بيت مثقال السودوني وقبل ذلك بيت خوند شقراء حيث تتـوافق المواقع مع بعـضـهـا، الا ان كل هذه الاستنتاجات تحتاج الى المزيد من الدراسة والتحقيق والادلة اليقينية. ولعل سبب التجديدات والاصلاحات التي قام بها مثقال بسبب تدهور حالة المنزل لخوند شقراء بسبب ما اشار اليه المقريزي من انحطاط قدرها وتدهور حالتها.

بعد ذلك اجريت بالمنزل في العصر العثماني تعديلات جوهرية طبقا لما وجد في النص الجصي بأحد النوافذ بالمنزل في عام ١١٢٥هـ/ ١٧١٣م ويتضح فعلا من دراسة المشربيات والنوافذ الجصية والزخارف بالزهور على الاسقف الخشبية في القاعات العلوية بأن المبنى قد عمل فيه العديد من الاعمال في العصر العثماني حيث ان الزخارف بالزهور شاعت في العمارة العثمانية في القرن الثامن عشر والتاسع عشر (نص من ثلاثة أسطر).

(انشأ هذا المكان المبارك/ الحاج عبد العزيز سنت/ خمسة وعشرين ومائة والف) (١١٢٥هـ/ ١٧١٣م) [١٣].



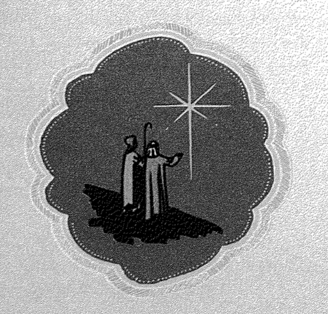
واجهة شمالية

٢ـ أعمال لجنة حفظ الآثار العربية:

بدأ الاهتمام بالمنزل منذ بداية انشاء لجنة حفظ الآثار العربية فقامت اللجنة بالعديد من الاعمال للحفاظ على المبنى واصلاحه تمت على النحو التالي:

٢/١ـ عام ١٨٨٢ـ ١٨٨٣م:

في عام ١٨٨٢م رأت لجنة حفظ الآثار العربية أن منزل زينب خاتون جدير بالحفاظ عليه وضرورة اصلاح الاسقف والاسطح وعمل جرد لمحتويات من الرخام والابواب والزجاج والمشربيات، وقد لوحظ من التقرير أن المنزل مؤجر وكذلك ارضية القاعة الكبرى تحتاج لاصلاح وقررت تسجيل القاعة بالطابق الاول[١٤].



٢/٢ـ عام ١٨٨٩م:

تبين انه اجريت اعمال بالمنزل في الاعوام ١٨٨٦م، ٨٧، ٨٨م قدرت في حينها بمبلغ ٢١٫٠٠ جنيها من رصيد ديوان عموم الاوقاف[١٥].

٣/٢ـ عام ١٨٩٠م:

استمرت اعمال الترميم في منزل زينب خاتون ويشير التقرير الى ان المنزل كائن بحارة الدويداري بالازهر[١٦] (كما جاء في الخطط التوفيقية بالنسبة الى اسم الحارة، الا ان الخطط لم تشر الى المنزل المذكور).

٤/٢ـ عام ١٩٠١م:

قامت لجنة حفظ الآثار العربية بعمل مسقطين وقطاعين لمنزل زينب خاتون مؤرخين في ١٩٠١/١٠/٢٥[١٧].

٥/٢ـ عام ١٩٠٤م:

اعتمدت اللجنة مناصفة مع الاوقاف مبلغ ٢٠٠٫٠٠ جنيها لترميم المنزل[١٨].

٦/٢ـ عام ١٩٠٥م:

عملت مقايسة لهدم المباني الحديثة بالفراغ شرق القاعة (شرق المنزل) مع تقوية للجدران الخاصة بالقاعة الكبرى وبناء سلم يوصل لها مع تنظيف اعمال النجارة الدقيقة بالقاعة وترميمها وعمل تغطية للحمام (الواقع شرق القاعة) وبناء حائط جهة الحارة (ارجح انه الحائط الجنوبي للغرفة امام الحمام حيث انه من المعاينة تبين انه حديث ونجارة نوافذه ايضا، وقد عمل بدون رباط مع الحائط القديم للقاعة)[١٩] وقد رست الالتزام على المقاول خليفة ابراهيم[٢٠].

٧/٢ـ عام ١٩٠٧م:

رفضت اللجنة تسليم المستأجر للمنزل ـ مصطفى عبد الله ـ القاعة الكبرى بالطابق الاول[٢١].

٨/٢ـ عام ١٩٠٩م:

تقرر فتح باب في حارة الدويداري يؤدى الى السلم المستجد الموصل الى القاعة الاثرية بالمنزل وسد الابواب المفتوحة على الطرقة الموصلة الى السلم من داخل المنزل واعتمد مبلغ ٤٠٫٠٠ جنيها لذلك [٢٢].

٩/٢ـ عام ١٩١١م:

قامت اللجنة بوضع حاجز من الخشب الخرط في النافذتين السفليتين بالحائط الشمالي للقاعة الكبرى بالطابق الاول وعملت نوافذ زجاجية ثابتة بدلا من المتحركة، واسندت العمل للمعلم محمد دسوقي ابو الدبل بمبلغ ٦٫٥٠٠ جنيها[٢٣].

١٠/٢ـ عام ١٩٢٧ـ١٩٢٩م:

في الفترة ما بين ١٩١١م، و١٩٢٧م لم تظهر التقارير اعمالا بالمنزل، ثم بدأت اللجنة في الاهتمام بالمنزل ككل وليس فقط بالقاعة المسجلة، ولاحظت اللجنة مدى الضرر الذي لحق بالمبنى بسبب تأجير اماكن بالمنزل كانت اللجنة ترى أنه ليس لها اهمية مغرية في حينه، ورأت ان القاعة الشمالية بالمنزل قد أصابها الضرر. ورأت اللجنة الاستفادة من ان الجناح الشمالي، غير مسكون، فقررت عمل اصلاح شامل بالمنزل ويرجح انه منذ ذلك التاريخ أصبح المنزل كله مسجلا أثريا وقررت عدم تأجيره. ويشير التقرير الى وجود دكه نقلت مؤقتا الى منزل جمال الدين (الذهبي) وسيصير اعادتها الى القاعة الرئيسية بعد الانتهاء من اعمال الاصلاح (لم نجد هذه الدكة بالمنزل خلال زيارتنا له)[٢٤].

١١/٢ـ عام ١٩٣٠ـ١٩٣٢م:

رغبت لجنة حفظ الآثار العربية في عام ١٩٣٠م في نقل فسقية من الموزايك الرخام من مستودع خاص بوقف البناني الغنفري بشارع الازهر مقابل مدفن الغوري إلى بيت زينب خاتون بالقاعة[٢٥] الا ان هذا العمل لم ينفذ حيث اننا لم نجد به هذه الفسقية.

٢/١٢ـ عام ١٩٣٠ـ ١٩٣٢م:

اشادت اللجنة بالاعمال التي اجريت في القاعة وطلبت استكمال الاعمال بالنسبة للفناء واصلاح المشربيات[٢٦] اقترح سميكه باشا بعمل اللازم نحو الوصول الى القاعة الكبرى بالطابق الاول عن طريق الصحن، كما اقترح احمد بك السيد باستبدال السنابل الحديد بخرط خشبي على نمط العصر الذي اقيم فيه البناء.. كذلك اقترح روبرت جريج وضع زجاج في فتحات الفانوس اعلى الدورقاعه، كما اقترح سيد بك متولى نقل الاقفال التي وجدت بالمنزل الى المتحف العربي (المتحف الاسلامي) [٢٧].

وقد نفذ القسم الفني هذه الاقتراحات وطلب الموافقة على اعادة المقعد الى وضعه الاصلي في اقرب فرصة ممكنة.

٢/١٣ـ عام ١٩٣٠ـ ١٩٣٣م:

افاد محمود احمد باللجنة الملاحظات التالية:[٢٨]

أ ـ منذ فترة ليست ببعيدة (بعد عام ١٩٠١م تاريخ الرفع الاول للمنزل حيث كان الباب في المسقط جهة الجنوب وهو الوضع الاصلي) حدثت تجديدات غيرت من الوضع الاصلي للمدخل حيث سد وألحق على الدركاه وعمل مدخل جديد بالجهة الغربية من المنزل .

ب ـ سد المقعد والسلم المؤدي اليه.

ج ـ اشار الى عدم معرفة اللجنة الي شخصية زينب خاتون وتاريخ تملكها للعقار ولكن يرجح بعد دراسة القاعة الكبرى (بالطابق الاول) ان المنزل يرجع الى نهاية القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي في فترة حكم السلطان قايتباي.

د ـ اشار الى ان المؤسس قد شغل وظيفة ساقي في الدولة المملوكية لوجود رنكه في الافريز بالسقف للحجره الغربية للايوان الجنوبي للقاعة ثم انتقل الى استدلاله على ان مثقال السودوني الظاهري الجقمقي والذي شغل وظيفة ساقي قد اشترى منزلا بالقرب من الازهر وجدده وعمل توسعات ثم نفاه السلطان قايتباي الى مكة في عام ٨٨٩هـ/ ١٤٨٤م واخذ منزله واجرى توسعات ايضا وذكر مرجعه: السخاوي: الضوء اللامع المجلد الثالث/ ٣٥٥ (الطبعة الثانية).

واعتمدت اللجنة المشروع الموقع من وكيل الآثار (محمد احمد) بتاريخ ١٩٣٢/١٠/٢٧ بالنسبة لتجديد المقعد والباب الاصلي وارجاعه الى حالته الاصلية، مع تعديل في السلم الحالي الموجود بالجزء الشمالي الغربي للفناء، على ان يتم ربط جميع فراغات المنزل مع بعضها[٢٩].

٢/١٤ـ عام ١٩٣٣ـ ١٩٣٥م:

بدأ تنفيذ الاعمال الواردة في المحضر السابق واستمرت الاعمال بالمقعد والصحن حتى نهاية عام ١٩٣٥ وقد ابدت اللجنة رضاها عن الاعمال الجارية وشكرت محمود احمد والمهندسين العاملين في المشروع. كذلك تم اصلاح رخام القاعة والصرف الصحي للمنزل.

٢/١٥ـ عام ١٩٣٦ـ ١٩٤٠م:

انتهت اعمال الدهان والتبليط بالمنزل[٣٠] (يقصد هنا بلاط الصحن) واشارت اللجنة الى ضرورة الحفاظ على المنزل وامكانية استخدامه على الا يسيء الاستخدام بالمبنى[٣١] ورصد للصيانة مبلغ ١٥٠ر٠٠٠ جنيها[٣٢].

٢/١٦ـ عام ١٩٤١ـ ١٩٤٥م:

وافقت اللجنة على طلب Douin باستئجار المنزل في عام ١٩٤٢[٣٣] وقد قام بتركيب نافورة مياه بالصحن بعد موافقة اللجنة[٣٤]. وفي عام ١٩٤٥م طالبت وزارة الاوقاف ورثة Douin باخلاء المنزل عن طريق رفع قضية امام المحكمة المختلطة[٣٥].

٢/١٧ـ عام ١٩٤٦ـ ١٩٥٣م:

لأول مرة يظهر في محاضر اللجنة تاريخ للمنزل في العصر المملوكي ٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م بالنسبة للقاعة (بدون ذكر المصدر الذي تم على اساسه هذا التحديد)

ثم اشار الى ان الباقي قد اقيم عام ١١٢٥هـ/ ١٧١٣م (لعله استنادا الى النص الجصي الذي اشرنا اليه في الدراسة التاريخية)[٣٦].

خلال هذه الفترة تم طلاء الجهة الجنوبية للواجهة الغربية وكذلك ترميم حجارة الواجهة الجنوبية والشرقية، كما هدم وأعيد بناء الجهة الغربية من المنزل بالنسبة للجزء الملاصق للجار وهدم السقف واعيد بناؤه وتكلفت الاعمال ١٢١ر٥٤٥ جنيها[٣٧].

ثم استأجرت المبنى رابطة الاصلاح الاجتماعي لجعله كمدرسة لتعليم البنات التطريز والحياكه[٣٨] واشترطت اللجنة بعدم استعمال القاعة الكبرى والسماح بالزيارة لها مع حفظ حق الهيئة في اخلاء الجمعية في حالة عدم المحافظة على الاثر مع السماح لمفتشي الآثار بالزيارة مرتين شهرياً[٣٩].

١٨/٢ ـ عام ١٩٨٢م :

في عام ١٩٨٢م حدثت شروخ بالمباني بالجهة الشمالية وكذلك بالجهة الغربية والجهة الجنوبية مما استدعى صلب المبنى عن طريق السقالات الخشبية وقد قامت بهذه الاعمال شركة السد العالي بناء على تعليمات هيئة الآثار المصرية.

وقد لوحظ ان التدعيم قد اقيم بطريقة غير سليمة حيث وضعت قوائم رأسية تحت العقود والقبوات مما يسبب في تغيير مسار القوى في العقود والقبوات وبالتالي حدث شروخ بهاء هذا بالاضافة لوضع سقالات في اماكن البناء بالجهة الغربية مما يترتب عليه عدم امكانية اعادة الانشاء الا بعد رفع السقالات المذكورة.

كذلك فإن وضع تدعيم بالواجهة الجنوبية قد حمل على المباني المجاورة بدون توزيع للقوى على هذه الحوائط مما يتسبب عنه الاضرار بالمباني المجاورة، كذلك فإن التدعيم الرأسي في الواجهة الغربية قد تحرك وترك الحوائط بسبب عدم عمله بطريقة سليمة واستعمال الجبس كمادة ربط بين القطاعات الخشبية فهو غير سليم. وقد تضررت الاسقف الخشبية من وضع التدعيم مباشرة على الاسطح المزخرفة كذلك فإن التدعيم بالجزء الشمالي الشرقي تحت السقف الخشبي عمل بطريقة غير سليمة فهو يجب ان يعمل على الطرف البارز وليس بطريقة (Double Cantilever).

٣ ـ التغيرات التي حدثت بالمبنى بالنسبة للوضع الحالي :

١/٣ ـ الشكل المعماري للمبنى في عام ١٩٠١م :

تم رفع المبنى في عام ١٩٠١م وعمل له اربع لوحات بمقياس رسم ١ : ١٠٠ مسقط للطابق الارضي، مسقط للطابق الاول، قطاع طولي ا ـ ب ، قطاع عرض جـ ـ د، والرسومات مؤرخة في ١٩٠١/١٠/٢٥م وبتوقيع مانهام بلجرو[٤٠].

الطابق الارضي :

بشكل عام كان شكل المسقط يماثل الوضع الحالي الا من الاختلافات التفصيلية التالية:

١ ـ رسم السقف بالحاصل (غرفة رقم ٢، ٣) خطأ بشكل قبو دائري (جزء من دائرة) رغم انه في الحقيقة قبو متقاطع من جزئين ويرجع ذلك الى خطأ بالرفع.

٢ ـ الدهليز (غرفة رقم ٤) يؤدى الى دورة مياه (بابها حاليا مغلق بالحجارة).

٣ ـ الغرفة رقم ٠٠٠ مطبخ منفتحة بكامل واجهتها الشمالية على الفناء بالركن الشمالي الشرقي. وهي تتصل عن طريق قوصره بالحائط الجنوبي بصدرها باب يؤدي الى سلم اربع قلبات يصعد من عليه الى القاعة الكبرى بالطابق الاول وكذلك الى الصالة (رقم ٨) اسفل قاعة كانت موجودة انذاك.

٤ ـ الغرفة (رقم ٦) والتي كانت في تلك الفترة تستعمل كمدخل يربط بين صحن المنزل والمنور (رقم ١) والسلم بالركن الشمالي المؤدي الى الطابق الاول.

٥ ـ المنظرة (المندرة رقم ١١) كان بها نافذة وباب بالحائط الشرقي ويلاحظ حاليا وجود آثار هذه الفتحات ومغلقة بالطوب ولها عتب عرق خشب.

٦ ـ يلاحظ في الرسم ان السلم بصحن المنزل والمؤدي الى المقعد متعامد على حائط المقعد الشمالي المطل على الصحن ويتصل في منسوب الصدفه بغرفة بالجهة الغربية (رقم ١٨).

٧ ـ توجد آثار امتداد بالواجهة الجنوبية كما أن الغرفة (رقم ١٩) بالركن الجنوبي الغربي تخالف الوضع في عام ١٩٣٢م ويلاحظ هنا وجود فراغ للصرف الصحي، وعدم وجود سلم بالجناح الغربي الى الطوابق العلوية بالاضافة الى وجود منور (رقم ١٨) بالجهة الغربية.

٨ ـ يلاحظ في الغرفة (رقم ١٥) أن السقف اعطى باللوحة بشكل قبو متقاطع لمسطحين في حين أنه كان كما هو الآن: قبو متقاطع وجزء من قبو جهة عطفة الازهري (Cloister vault) ويرجع ذلك الى خطأ في عملية الرفع في عام ١٩٠١م.

٩ ـ لوحظ في الحجرة (رقم ١٥) وجود كتف ضخم بالحائط الغربي عن يمين الداخل ليس له وضع انشائي يستلزم هذه الضخامة بالنسبة للاحمال الواقعة عليه.

١٠ ـ يلاحظ في الجناح الشرقي للمنزل (رقم ٨، ١٣، ١٤، ٢٠، ٢١، ٢٢) أنه يرتبط بباقي الانشاء بطريقة غير طبيعية سواء من ناحية الحركة الداخلية وطريقة التصميم في تعدد الدهاليز (١٣، ١٤) ووضع الغرفة (رقم ٢٢، ورقم ٢١) (فراغ صرف؟).

١١ ـ لتدعيم السقف الحجري بالحجرة ١٥ وضعت براطيم في الاتجاهين بطريقة شوهت الشكل الفراغي وغيرت من الوظيفة الانشائية للقبو.

الطابق الأول :

يتشابه المسقط القديم مع الوضع الحالي الى حد كبير ما عدا الاختلافات التالية:

١ ـ القاعة (رقم ٣١) بالجهة الشرقية غير موجودة في الرسم المؤرخ في عام ١٩٣٢ .

٢ ـ الركن الجنوبي الشرقي يتوافق مع الوضع في عام ١٩٣٢م ما عدا الحوائط الشمالية للغرف رقم ٣٤، ٣٥ (الحمام ودورة المياه)، كذلك يوجد فراغ بين الحائط الغربي للحمام وحائط السدلة الشرقية بالايوان الجنوبي للقاعة الكبرى (رقم ٢٨).

٣ ـ لوحظ في الرسم ان الحائط الشرقي والغربي للدورقاعه (رقم ٢٨) لا يوجد به تماثل بالنسبة للفتحات أو القوصرة (عدم وجود مضاهيات).

كما ان المشربية بالحائط الغربي للدورقاعه لا تتماثل من ناحية الموقع مع الجزء المقابل لها بالحائط الشرقي (القوصره)، كما انها لا تتوسط الفراغ للدورقاعه.

٢/٣ ـ الشكل المعماري للمنزل في عام ١٩٣٢م:

قامت لجنة حفظ الآثار العربية بعمل رفع للمنزل بحالته الحاضرة آنذاك ثم قامت بعمل تعديلات للمسقطين واللوحات مؤرخه في ٢٧/١٠/١٩٣٢م وبتوقيع وكيل الآثار العربية الاستاذ/ محمود احمد وقد اتضح لنا من دراسة المساقط ما يلي:

الطابق الارضي :

يتشابه المسقط في عام ١٩٣٢م على ما نجده في اللوحات عن عام ١٩٠١م ولكن مع بعض الاختلافات، وتجدر الاشارة ان مساقط عام ١٩٣٢م لم يوضح عليها شكل الاسقف، كما لوحظ أن الحائط الجنوبي جهة المدخل الاصلي في وضع غير متعامد مع البروز شرق المدخل المذكور كما كان الحال في عام ١٩٠١م.

١ ـ يتضح من المسقط أن الباب الذي فتح في الحائط الجنوبي عام ١٩٠٩م على عطفة الازهرى (الدويداري سابقا) وكذلك عمل سلم من قلبتين يوصل الى القاعة الكبرى بالطابق الاول مباشرة.

٢ ـ حدث تعديل بين عامي ١٩٠١ ـ ١٩٣٢م بالجناح الغربي للمنزل حيث عمل المدخل الى المنزل بهذه الجهة في مكان فراغ المنور (رقم ١٨) كذلك عمل سلم من قلبتين (رقم ٤٠) وضع امامه دورة مياه (رقم ٤١).

٣ ـ الحجرة بالركن الجنوبي الغربي (رقم ١٩) حدث بها تعديل جوهري واقيمت حجرة جديدة بها شطب بالركن الجنوبي الغربي (١٩ معدل).

٤ ـ اختفى سلم المقعد من الصحن، كما اغلقت الواجهة الشمالية للمقعد المطله على الصحن وعمل بها نوافذ.

٥ ـ سد المدخل الاصلى بالواجهة الجنوبية (رقم ١٧) والحق كغرفة تنفتح على الصحن بواسطة باب كان في الاصل شباكا، كما وضع حائط بين الدركاه، والدهليز وعمل شباك للغرفة المستجده (المدخل الاصلي) يطل على عطفة الازهري.

الكبرى (رقم ٢٨).

٥ ـ هدمت القاعة بالجهة الشرقية الى القاعة الرئيسية (رقم ٣١) وعمل بدلا منها منور كبير تطل عليه طرقة تؤدي الى دورة مياه خلف رقم ٣٤.

٣/٣ ـ الوضع المعماري للمنزل بعد التعديل الذي اجرته اللجنة في عام ١٩٣٢م

الطابق الارضي :

١ ـ انضمت الغرفتان ٥، ٦ واصبحتا غرفة واحدة وقد نفدت الفتحات بالحائط الشمالي خلافا لما جاء باللوحة (**رقم ٥**) (انظر **لوحة ٧** لعام ١٩٨٢م).

٢ ـ اعيد المدخل الى وضعه الاصلي بالواجهة الجنوبية بحيث اصبحت الحوائط متعامدة على البروز جهة الجنوب، كما كان الوضع الاصلي مخالفا لما جاء في مشروع التعديل باللوحة (**رقم ٥**).

٣ ـ قسمت الغرفة (رقم ١٩) الى غرفتين: (١٩، ١٩أ) مع عمل سلم الى المقعد نفذ موازيا لحائط المقعد الشمالي (**لوحة ٧**) مخالفاً بذلك الوضع في عام ١٩٠١م وكذلك مخالفاً ما جاء في لوحة التعديل (**لوحة ٥**) لعام ١٩٣٢م.

٤ ـ تحول المنور (رقم ١٨) في مسقط عام ١٩٠١م الى غرفة (مسقط عام ١٩٣٢م المعدل **لوحة ٥**) بباب على السلم المقعد، الا ذلك لم ينفذ طبقاً لما هو واضح في رسومات عام ١٩٨٢م (**لوحة ٧**).

٥ ـ رغم ان الفراغ (رقم ١٩) (**لوحة ٥**) لم يلاحظ فيه عمل دورات مياه الا أن رسم هيئة الآثار المصرية (عام ١٩٨٢م/ **لوحة ٧**) يتضح منه وجود دورتين للمياه، يرجح انهما عملا بعد استعمال المنزل كمدرسة حرفية للبنات في أواخر الاربعينيات من هذا القرن.

الطابق الاول (لوحة ٨) :

احتفظ المسقط بشكله العام كما كان في السابق مع بعض [illegible]يلات.

١ ـ تعديل الحائط الجنوبي للمقعد وعمل به ثلاث نوافذ علوية صغيرة مع الغاء الميل بالحائط.

٢ ـ وضع درج بين الحائطين جهة الغرب للوصول

واجهة شرقية

الطابق الاول :

١ ـ اختفت الحجرة رقم ٢٩ في مسقط عام ١٩٠٩م، وعمل بدلا منها دورة مياه صغيرة الحقت بالقاعة الشمالية.

٢ ـ عملت دورة مياه الى الجنوب من السلم (رقم ٤٢).

٣ ـ ارتبط السلم المستجد (رقم ٢٠) بطرقة يتوصل منها الى القاعة والحجرة المستجدة بالركن الجنوبي الغربي (رقم ٤٣).

٤ ـ حدث تعديل بالحائط الغربي للحمام (رقم ٣٥) وكذلك بالنسبة للسدلة الشرقية للايوان الجنوبي بالقاعة

الى المقعد وكذلك كان الحال في عام ١٩٠١م كما لم ينفذ الحائط الجنوبي بمنطقة السلم كما جاء بالرسم لعام ١٩٣٢م (قارن **لوحة ٦، ٨**).

٣ - عملت واجهة المقعد المطلة على الصحن (الواجهة الشمالية للمقعد) على نمط الامثلة المعاصرة بشكل عقدين مدببين، يتوسطهما عمود بتاج ناقوسي وازيلت الحوائط بالجهة الشمالية.

٤ - احدث دهليز بين السلم بالواجهة الغربية والمقعد بالواجهة الجنوبية.

٥ - الرسم المعدل في عام ١٩٣٢م قد لوحظ به بروز عن سمت الواجهة جهة الغرب للتواليت رقم ٤٢ الا أن رسومات عام ١٩٨٣م توضح انه لم ينفذ على هذا الوضع بل على سمت الواجهة تماماً.

وقد عمل للمنزل مساقط في أواسط العقد السابع خلال دراسة اعدها المعهد الفرنسي للدراسات الشرقية[٤١] وهذه الرسومات تتطابق مع رسومات الهيئة التي عملت في عام ١٩٨٢م.

٤ - النتائج المستخلصة من الدراسة التاريخية والهندسية للوحات والزيارة الميدانية للمنزل:

بعد استعراض الدراسة التاريخية والوضع المعماري والانشائي للمنزل من خلال اللوحات السابق الاشارة اليها مع الزيارة الميدانية المركزة للمنزل خلال شهر ابريل ومايو ١٩٨٥م يتضح لنا التالي:

١/٤ - إن القاعة الكبرى بالطابق الاول (رقم ٢٨) قد أضيفت على الارجح في القرن الخامس عشر ولعلها ترجع الى اعمال التعديل والتوسعة لمثقال السودوني والذي يرجح ان هذا منزله بالشراء من مالكه الاصلي (خوند شقراء؟) وذلك للملاحظات التالية:

- الدعامة الضخمة بالطابق الارضي في الغرفة (رقم ١٥) تقع أسفل السدلة الغربية بالايوان الجنوبي للقاعة المذكورة تحتوي على مناور صغيرة لانارة الدهليز بالطابق الارضي، علما بأن مثل هذه الكتل الصماء تحتوي في العادة على فراغات للصرف الرأسي لدورات المياه بالطوابق (انظر الركن الشمالي الغربي من المبنى).

- عدم وجود تماثل في تشكيل الحوائط بمنطقة الدورقاعه وعدم وجود ارتباط هندسي بين فراغ الدورقاعه والشربية بالحائط الغربي.

- تشكيل المشربيات يرجع الى العصر العثماني بمقارنتها بالامثلة المشابهة، بالاضافة الى النص الذي وجد بالمنزل وسبق الاشارة اليه (١١٢٥هـ/ ١٧١٣م).

٥ - وثيقة زينب خاتون:

حجة رقم ١٩٦: اوقاف باسم زينب خاتون بنت عبد الله البيضاء معتوقة[٤٢] محمد بك الالفي.

ادعا الحاج مرزوق على حسين افندي بن على قيسرلي الوصى من قبله على جهة مخلفات الست زينب خاتون بنت عبد الله البيضا (ء) كانت تملك جميع كامل بنا (ء) وخلو المكان الكائن بخط الجامع الازهر داخل درب العينية تجاه مدرسة شيخ الاسلام نجم الدين محمود العيني المشتمل على:

** واجهة غربية مبنية بالحجر الفص النحيت بها باب مقنطر يدخل منه الى دركاه وباب استثنى، ويدخل منه الى مجازبه على يمنة الداخل حاصل يجاوره طاحون.

** فرد فارسي كامل العدة والالة. ويتوصل من المكان المذكور الى حوش مربع كشف سماوي، به على يمنة الداخل منظرة مسقفة نقيا بها سبيل معد لشرب الماء. وبصدر الحوش حاصلان عقدا متجاوران لبعضهما بعضا، وبه دهليز يتوصل منه.

** الى كرسي راحة. وبالحوش المذكور بير ماء معين يجاوره حنفية، وبه سلم ثمانية درج يتوصل منه الى بسطه بها باب يدخل منه الى مقعد به عامود رخام، يجاوره (المقعد) سلم يتوصل منه الى فسحه بها اودتان كرسي راحة، وبالسلم المذكور على يمنه الصاعد.

** باب موصل لمساكن الحريم الاتي ذكرها. وبالحوش المذكور ايضا حاصل سفل المقعد المذكور. وبالحوش المذكور يمنه الداخل باب حريم ثان يدخل منه الى حوش صغير كشف سماوي به مطبخ ارضي ومزيرة وسلم بدرابزين خشب يتوصل منه.

** الى مساكن الحريم الموعود يذكرها اعلاه. ويتوصل من السلم المذكور الى دهليز به يسره باب

يدخل منه الى قاعة تحوى ايوانين ودور قاعة وثلاث سدلاة، بها خزنة نومية يتوصل منها الى المقعد المذكور، وبها (الخزنة النومية) مشربية خرط مطلة.

** على باب المكان المذكور، بايوانها الكبير (القاعة) خزنة نومية بها حمام وكرسي راحة، وباب القاعة المذكور الاصلى[٤٣] يتوصل منه الى سلم موصل لقصر كامل المنافع والحقوق والسطح العالي. ويتوصل من باقي السلم الى قاعة بايوانين ودور قاعة.

** يجاورها كرسي راحة ومطبخ ارضي يتوصل له من السلم المرقوم. ويصعد من باقي السلم الى اوده وكرسي راحة والى فسحه مستطيلة بها رواق بخزنتين وكرسي راحة ومطبخ، يسره باب يتوصل منه الى القصر المرقوم، ويمنه كرسي راحة.

** تجاه المطبخ ومنافع ومرافق وتوابع ولواحق وحقوق. وحدود اربع، الحد القبلي[٤٤] الى خربة وقف المدرسة العينية بعضه وباقية لمدرسة الغنامية ومطهرتها، والحد البحري[٤٥] بعضه الى الزقاق[٤٦] الذي هو فيه بعضه للمكان المعروف.

** قديما بالشيخ يحيى المغربي[٤٧] والحد الشرقي[٤٨] ينتهي الى بيت الشيخ محمد درويش[٤٩] والحد الغربي الى الزقاق[٥٠] وفيه الباب المجاور ذلك الآن لمدرسة الغنامية[٥١] المذكور.

الهوامش :

(١) على مبارك: الخطط، الجزء الثاني (القاهرة ١٩٦٨م) ص ٢٦٠.

(٢) نفس المصدر: ص ٢٦٠.

(٣) مدرسة العيني اقيمت عام ٨١٤هـ/ ١٤١١م (اثر رقم ١٠٢) توفي منشئها بدر الدين العيني في ٤ ذي الحجة ٨٥٥هـ/ ٢٨ ديسمبر ١٤٥١م.

Lamei: Hanqah, DAIK,IV (Gluckstadt 1982) 110-111.

(٤، ٥، ٦) لجنة حفظ الآثار العربية مجموعة ٣٦، التقرير ٦٦٩ (١٩٣٠ ـ ١٩٣٢م) ٢٦٣.

(٧) السخاوي: الضوء اللامع، الجزء السادس (القاهرة ١٣٥٤هـ) رقم ٨٤٠، أنظر ايضا ملاحظة ٤.

ابن اياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور: تحقيق محمد مصطفى، الجزء الثالث (القاهرة ١٩٦٣م/ طبعة ثانية) ٢١١.

(٨) خوند شقراء: توفيت في ٢٨ جمادى الاولى ٧٩١هـ/ ٢٥ أبريل ١٣٨٩م.

(ابن الصيرفي: نزهة النفوس، تحقيق حسن حبشي، الجزء الاول (القاهرة ١٩٧١م) ٢٨٠.

المقريزي/ السلوك، تحقيق سعيد عاشور، الجزء رقم/٣ (القاهرة ١٩٧١م) ٦٨٩.

(٩) الامير اروس المحمودي: تزوج ابنة الامير منجك نائب السلطنة ـ تقلب في وظائف متعددة، توفي في ٢ ذي القعدة ٧٧٥هـ/ ١٥ ابريل ١٣٧٤م.

المقريزي: السلوك، تحقيق سعيد عاشور، الجزء الثالث/ القسم الاول (القاهرة ١٩٧٠م) ٢٣٠، الجزء الثالث/ القسم الثالث (القاهرة ١٩٧٢م) ١٢٠٠.

العسقلاني: انباء الغمر، تحقيق حسن حبشي، الجزء الاول (القاهرة ١٩٦٩م) ٦٤.

(١٠) حارة كتامه: المقريزي: الخطط الجزء الثاني، طبعة دار التحرير (١٩٦٧ ـ ٦٨م) ٣٠٣.

(١١) مدرسة ابن الغنام: (اثر رقم ٩٦/ قاعة ابن الغنام) اشار اليها المقريزي وكذلك على مبارك في خططه وكانت تعرف على زمنه بزاوية الغنامية ولها منارة قصيرة ويسلك اليها من حارة الدويداري (عطفة الازهري حاليا وهي نفس الحارة التي يقع بها منزل زينب خاتون).

(١٢) (على مبارك: الخطط الجزء الثاني (القاهرة ١٩٦٩م) ٢٦٢. وقد توفي الصاحب كريم الدين عبد الله بن شاكر بن الغنام القبطي في ٢٧ شوال ٨٢٣هـ/ ٤ نوفمبر ١٤٢٠م وقد أناف على المائة.

(المقريزي: السلوك. تحقيق سعيد عاشور، الجزء الرابع/ القسم الاول (القاهرة ١٩٧٢م) ٥٤٥.

العسقلاني انباء الغمر. تحقيق حسن حبشي، الجزء الثالث (القاهرة ١٩٧٢م) ٢٢٨ ـ ٢٢٩.

Wiet: Les Biographies du Manhal Safi, MIE XIX, No 1455 (Le Caire 1932)

(١٣) توجد صورة للنص بأرشيف هيئة الآثار المصرية.

(١٤) محاضر لجنة حفظ الآثار العربية، المجموعة الاولى ـ التقرير الثاني (١٨٨٢ ـ ١٨٨٣) ٣٣ ـ ٣٤.

(١٥) لجنة حفظ الآثار العربية، المجموعة ٦ ، التقرير رقم ٥٦ (١٨٨٩م) ٦٠.

(١٦) نفس المصدر، المجموعة ٧، التقرير رقم ٩٣ (١٨٩٠م) ٨٨.

(١٧) نفس المصدر، المجموعة ...، التقرير ٢٨٣ (١٩٠١م).

(١٨) نفس المصدر، المجموعة ٢١، تقرير ٣٣٥ (١٩٠٤م) ٩٠.

(١٩) لجنة حفظ الآثار العربية، مجموعة ٢٢/ تقرير ٣٣٧ (١٩٠٥م) ٣٢.
(٢٠) نفس المصدر، مجموعة ٢٢، تقرير ٣٣٩ (١٩٠٥م) ٥٣.
(٢١) نفس المصدر، مجموعة ٢٤، تقرير ٣٧٦ (١٩٠٧م) ٩٢.
(٢٢) نفس المصدر، مجموعة ٢٦ تقرير ٣٩٩ (١٩٠٩م) ٤٨ ـ ٤٩.
(٢٣) لجنة حفظ الآثار العربية، مجموعة ٢٨، تقرير ٤٢٩ (١٩١١م) ٢٨.
(٢٤) نفس المصدر، مجموعة ٣٥، تقرير ٦٣٦ (١٩٢٧ ـ ١٩٢٩م) ١٦٧ ـ ١٦٨.
(٢٥) لجنة حفظ الآثار العربية، مجموعة ٣٦، تقرير ٦٤٧ (١٩٣٠ ـ ١٩٣٢م) ٢٠.
(٢٦) نفس المصدر، مجموعة ٣٦، تقرير ٦٦٠ (١٩٣٠ ـ ١٩٣٢م) ١٤٥.
(٢٧) نفس المصدر، مجموعة ٣٦، تقرير ٦٦١ (١٩٣٠ ـ ١٩٣٢م) ١٦٢.
(٢٨) نفس المصدر، مجموعة ٣٦، تقرير ٦٦٩ (١٩٣٠ ـ ١٩٣٢م) ٢٦٣.
(٢٩) لجنة حفظ الآثار العربية، مجموعة ٣٧ (١٩٤٠م)، ملحق تقرير ٢٦/٦٧٣، تقرير ٦٧٣/ ٦٢، تقرير ٦٨٤/ ١٤٨، تقرير ١٥٤/٦٨٦، تقرير ١٥٨/٦٨٧، ١٦٠، صفحة ١٧٤، ١٨٠، ١٨٢، ٢٢٧، محضر رقم ١٧٢/٢٨١.
(٣٠) لجنة حفظ الآثار العربية، مجموعة ٣٨، تقرير ٧١٧ (١٩٣٦ ـ ١٩٤٠م) ١٥.
(٣١) نفس المصدر، تقرير ٧٣١ (١٩٣٦ ـ ١٩٤٠م) ١١٤.
(٣٢) نفس المصدر، تقرير ٧٧٥ (١٩٣٦ ـ ١٩٤٠م) ٢٦٦.
(٣٣) لجنة حفظ الآثار العربية، المجموعة ٣٩، تقرير ٦٧/٧٩٦ ـ ٦٨، تقرير ٧١/٧٩٧، تقرير ٨١/٧٧٩ ـ ٨٢.
(٣٤) نفس المصدر، المجموعة ٣٩، تقرير ١٠٨/٨٠٣.
(٣٥) لجنة حفظ الآثار العربية، مجموعة ٣٩، تقرير ٣٤٨/٨٥٠.
(٣٦) نفس المصدر، مجموعة ٤٠، تقرير ١٨٠/٨٨٩.
(٣٧) نفس المصدر، مجموعة ٤٠، تقرير ٢٩٦/٧٥٣.
(٣٨) نفس المصدر، تقرير ١٧٠/٨٨٦٠ في النصف الثاني من العقد الخامس من هذا القرن.
(٣٩) نفس المصدر، تقرير ١٧٠/٨٨٦.
(٤٠) لجنة حفظ الآثار العربية، المجموعة ١٨ لعام ١٩٠١م، تقرير رقم ١٢/٢٧٧، تقرير ٦٣/٢٨٣، تقرير ١١٥/٢٩٣ (القاهرة ١٩٠٤م).
(٤١) Revault, J. & Maury, B,: Palais, MIFAO III (Le Caire 1979) 1-12.
(٤٢) الوثيقة مؤرخة في ٢٣ رمضان ١٢٥١هـ/ ١٢ يناير ١٨٣٦م. توفي الألفي في ١٩ ذو القعدة ١٢٢١هـ. (٢٨ يناير ١٨٠٧م) بالقرب من دهشور (الجبرتي: الجزء الرابع ص ٢١ بولاق ١٢٩٧هـ.
(٤٣) يلاحظ من النص وجود باب أصلي للقاعة وباب مستحدث اي غير الباب الاصلي.
(٤٤) الجهة الشرقية.
(٤٥) الجهة الغربية.
(٤٦) حارة الدويداري (حاليا حارة الازهري).
(٤٧) غير موجود حاليا ـ ضمن املاك جامعة الازهر.
(٤٨) الجهة الشمالية.
(٤٩) غير موجود حاليا ـ ضمن املاك جامعة الازهر.
(٥٠) حارة الدويداري (حاليا حارة الازهري).
(٥١) عن المدرسة الغنامية: انظر التقرير ص ٣.

مصادر عربية:

١ ـ ابن اياس: بدائع الزهور، الجزء الثالث (القاهرة ١٩٦٣م).
٢ ـ ابن حجر العسقلاني: انباء الغمر، الجزء الاول (القاهرة ١٩٦٩م).
٣ ـ ابن الصيرفي: نزهة النفوس والابدان، الجزء الاول (القاهرة ١٩٧١م).
٤ ـ السخاوي: الضوء اللامع، الجزء السادس (القاهرة ١٣٥٤هـ).
٥ ـ على مبارك: الخطط التوفيقية، الجزء الثاني (القاهرة ١٩٦٨م).
٦ ـ المقريزي: الخطط، الجزء الثاني (طبعة التحرير/ بدون تاريخ).
٧ ـ المقريزي: السلوك، الجزء الثالث (القاهرة ١٩٧٠ ـ ٧٢م).
٨ ـ محاضر لجنة حفظ الآثار العربية.

مصادر أجنبية:

1 - Revault & Maury: Palais, MIFAO III (Le Caire 1979)
2 - Lamei,S.: Hanqah, DAIK IV (Gluckstadt 1982)
3 - Wiet: Les Biographies, MIE XIX (Le Caire 1932).



الحرم المكي الشريف

- معمار تلاقت فيه عبقرية الاجيال
- أنموذج معماري فريد تحكمه قدسية المكان.. وروحانية الازمنة
- يتسع لاكثر من مليون مصل

● اجمالي اعمدته بلغت
١٤٥٣ عاموداً بمعدل ٤٩٢
عاموداً لكل طابق
مكسوة كلها بالرخام
● به ٥٦ سلماً كهربائيا
لخدمة المصلين









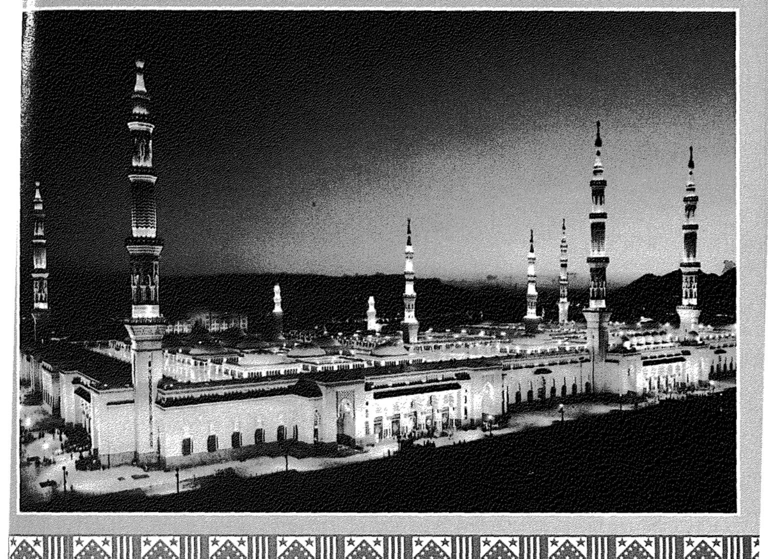








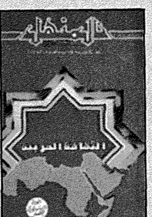




الحرم النبوي الشريف

- التوسعة اكبر وأضخم عمل معماري في هذا القرن
- هذه التوسعة الضخمة وسعت المدينة النبوية بكاملها
- يتسع لأكثر من (٢٧٠,٠٠٠) مصل عدا السطح والساحات الخارجية وفي الذروة يتسع لمليون مصل

اسم العدد	تاريخ صدوره
الفن	شعبان ورمضان ١٤٠٤هـ
الأمن والأمان	شعبان ورمضان ١٤٠٥هـ
الهجرة، اللغة، التراث، الحضارة	ربيع الأول والثاني ١٤٠٦هـ
الثقافة العربية	شعبان ورمضان ١٤٠٦هـ
الدعوة والدعاة	ربيع الأول وربيع الثاني ١٤٠٧هـ
الأثر والآثار	رمضان وشوال ١٤٠٧هـ
المبادىء البناءة والدعاوى الهدامة	ربيع الأول وربيع الثاني ١٤٠٨هـ
العادات والتقاليد	رمضان وشوال ١٤٠٨هـ
مناهل الاشعاع الاسلامي	ربيع الثاني وجمادى الاولى ١٤٠٩هـ
الاستشراق والمستشرقون	رمضان وشوال ١٤٠٩هـ
مكة المكرمة .. المقام والارتحال	ربيع الأول والثاني ١٤١٠هـ
الابداع والمبدعون	شوال وذو القعدة ١٤١٠هـ
الحديث النبوي والقدسي .. رواية ودرايه	ربيع الثاني وجمادى الأولى ١٤١١هـ
القرآن الكريم .. الهدى والاعجاز	ربيع الأول والثاني ١٤١٢هـ
الهجمة الفكرية والتصدي الحضاري	شوال وذو القعدة ١٤١٢هـ
المدينة المنورة .. دار الهجرة ومأزِر الايمان	ربيع الأول والثاني ١٤١٣هـ
اللغة العربية .. آفاق مستقبلية	شوال وذو القعدة ١٤١٣هـ
القدس .. عروس المدائن	ربيع الاول والثاني ١٤١٤هـ
العمارة والمدينة الاسلامية .. عطاء ومدلول	جماد أول وجماد ثان ١٤١٥هـ
النقد - والنقاد	شوال والقعده ١٤١٦هـ
الجغرافية والجغرافيون	شوال والقعده ١٤١٧هـ
المملكة العربية السعودية في مرآة المنهل	شوال والقعدة ١٤١٩هـ
الاسرة والمجتمع	شوال والقعدة ١٤٢٠هـ
التراث المعماري في الحضارة الإسلامية	شوال والقعدة ١٤٢١هـ

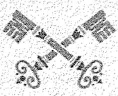


الاصدارات السنوية الخاصة

« متوفرة لمن يرغب في اقتنائها » - الاتصال : ٦٤٣٢١٢٤ العلاقات العامة (جُدة)



مجلة العرب الأدبية



تصدر عن دارة المنهل للصحافة والنشر المحدودة

المركز الرئيسي : جدة رمز بريدي ٢١٤٦١ ص.ب ٢٩٢٥ ت : ٦٤٣٢١٢٤ فاكس : ٦٤٢٨٨٥٣